الكسندر دوماس الكبير

عِقدُ الملكة

تعريب

فيليب عطاالله

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0149714

عِقْدُ المَلِكَة

(١)

كتب للمعرّب

١ - زوجات الفراعنة

٢ - السلطان الأحمر (عبد الحميد)

٣ - حياة بوذا

٤ - كابيتان (رواية)

٥ - نبوخذنصر (ملك بابل)

٦ - عقد الملكة - الجزء الأول

٧ - عقد الملكة - الجزء الثاني

٨ - بطرس الأكبر (قيصر روسيا الشهير)

٩ - كليوباتره (رواية)

الكسندر دوماس الكبير

عِقْدُ المَلِكَة

تعريب

فيليب عطاالله

الجزء الأول

دار الجيل

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

نبيل مسنّ وسفرجي هرم

★

في الأيام الأولى من شهر نيسان ١٧٨٤ وفي الساعة الثالثة والربع تقريباً من الظهيرة، فرغ الماريشال المسنّ ريشاليو من تضميخ حاجبيه بالعطر ودفع بيده المرآة التي كان يحملها له حاجبه الجديد، وهزّ رأسه بغطرسة وقال:

– يكفي، بديع أنا الآن!

ثم نهض من أريكته ونفض بإصبعه ذرّات البودرة البيضاء التي تساقطت من كشّة شعره المستعار على سرواله المخمليّ الأزرق بلون السماء، وانفتل مرتين في حجرة هندامه، ومطّ رسغيه وعرقوب ساقيه، وأمر حاجبه قائلا:

– جئني بالسفرجي.

فحضر السفرجي بعد خمس دقائق مرتدياً بزّة الاحتفال.

عندئذ أسبغ الماريشال على سحنته الرصانة التي يفرضها الموقف وقال:

- أعتقد أنك أعددتَ للغداء وليمة طيبة؟

- طبعاً يا مولاي.

- لقد أنبأتُك بلائحة المدعوين، أليس كذلك؟

- وقد حفظت عددهم بأمانة: انهم تسعة أشخاص يا مولاي.

- شتّان ما بين شخص وآخر يا رجل!

- نعم يا مولاي، ولكن ...

فقاطع الماريشال السفرجي بحركة تنمُّ عن فروغ الصبر والأبّهة وقال:

- ولكن ... هذا ليس بجواب! ويؤسفني أن أقول لك إن هذه الكلمة، التي سمعتها مراراً منذ ثمانٍ وثمانين سنة، تكون دائماً مقدّمة لحماقة من الحماقات.

- مولاي!

- أخبرني أولاً أي ساعة عيّنتَ للغداء؟

- البورجوازيون يا مولاي يتغدون في الساعة الثانية، والمحامون في الساعة الثالثة، والنبلاء في الرابعة.

- وأنا أيها الرجل؟

– إن مولاي سيتغدى اليوم في الساعة الخامسة .

– أُف! أُف! الساعة الخامسة!

– نعم يا مولاي ، مثل الملك .

– ولماذا مثل الملك ؟

– لأن اللائحة التي شرّفني مولاي بدفعها إليّ انما تضمُّ إسم ملك.

– كلا يا رجل ، إنك مخطئ ، فضيوفي اليوم كلهم نبلاء عاديون .

– لا شك أن مولاي يطارح خادمه المتواضع المزاح ، وإني أشكره على هذا الشرف الذي يوليني إيّاه . ولكن الكونت دي هاغا أحد مدعوّي مولاي هو ...

– أجل ؟

– الكونت دي هاغا هو ملك .

– ولكنني لا أعرف ملكا بهذا الإسم .

فحنى السفرجي قامته وقال متلعثماً :

– ليعذرني مولاي ، فقد كنت أظن ... كنت أفترض ...

– ليس من وظيفتك أن تظن! ولا من واجبك أن تفترض! كل ما هو مطلوب منك هو ان تقرأ أوامري التي أطرحها عليك .

فلوى السفرجي قامته ثانية باحترام لا يضاهيه سوى ما للملوك السائدين، فيما تابع الماريشال المسن قوله :

– فما دام ضيوفي على الغداء مجرّد نبلاء، عليك إذن أن تغذّيني في الساعة العادية، أي في الساعة الرابعة .

عندما سمع السفرجي هذا الأمر اكمدَّ وجهه وشعر كأن حكم الاعدام يُتلى عليه . وإذا به يصفرّ وينحني على الفور ثم ينتصب ويقول بشجاعة من ألمَّ به اليأس :

– لتكن مشيئة الله ! لكن مولاي لن يتغدى إلا في الساعة الخامسة .

فانتصبت قامة الماريشال وهتف قائلاً :

– لماذا، وكيف ؟

– لأنه يستحيل على مولاي من الوجهة المادية أن يتغدى قبل هذا الوقت .

فهزّ الماريشال المسن باختيال رأسه الذي ما زال فتيّاً وقال :

– لك في خدمتي على ما أظن عشرون سنة ؟

– واحدة وعشرون يا مولاي، وشهر واسبوعان .

فزمّ الماريشال شفتيه الرقيقتين وقطّب حاجبه المصبوغ وأجاب :

– حسناً ! فعلى هذه الواحدة والعشرين والشهر والاسبوعين لن تضيف يوماً واحداً ولا ساعة واحدة . هل

سمعت ؟ وابتداءً من هذا المساء عليك أن تبحث عن سيّد آخر، فأنا لا أقبل أن تُلفَظَ في بيتي كلمة «يستحيل»، ولا أريد في مثل سني أن أهدر الوقت في تعلّمها.

فانحنى السفرجي مرة ثالثة وقال :

– في هذا المساء أُخلي بيت مولاي، ولكن خدمتي إياه ستجري حتى اللحظة الأخيرة وفقا للمناسب.

قال السفرجي هذا وتراجع خطوتين نحو الباب، فهتف به الماريشال :

– ماذا تقصد بكلمة مناسب ؟ إعلم يا رجل أن الأشياء هنا يجب أن تتمّ وفقاً لما يناسبني، هذا هو العُرْف ! فأنا يناسبني أن اتغدى في الساعة الرابعة، ولا يناسبني أن اتغدى في الساعة الخامسة.

فقال السفرجي بلهجة جافة :

– لقد خدمت يا سيدي الماريشال سمو الأمير دي سوبيز خازناً، وسموَّ الأمير الكردينال لويس دي روهان قهرماناً. عند الأول كان جلالة ملك فرنسا المتوفى يتغدى مرة كل سنة، وعند الثاني كان جلالة امبراطور النمسا يتغدى مرة كل شهر. فأنا أتقن إذن معاملة الملوك. وكان جلالة الملك لويس الخامس عشر يطلق على نفسه عند الأمير دي سوبيز اسم البارون دي غونيسه، وجلالة الامبراطور جوزيف يُسمَّى عند

الأمير دي روهان الكونت دي باكنشتاين، دون أن يحطّ ذلك من قدر العاهلين. كذلك فان مولاي الماريشال يستقبل اليوم على مائدته شخصاً يدعى الكونت دي هاغا الذي هو ملك السويد. لذا سأغادر قصر مولاي الماريشال هذا المساء، إذا لم يعامل الكونت دي هاغا معاملة الملوك.

– هذا بالضبط ما أستميت لأردعك عنه أيها الرجل العنيد. فالكونت دي هاغا يرغب رغبة صارمة في أن يتنكر خلف قناع كثيف. يا الله! إنني اعرف غروركم الأحمق يا أهل الفوطة والشوكة والسكين، فأنتم لا تكرمون تيجان الملوك ولكنكم تمجدون أنفسكم على حساب دنانيرنا الذهبية.

فقال السفرجي بلهجة خشنة:

– لا أحسب مولاي يحدثني جدّاً عن الدراهم.

فقال الماريشال بشبه اتضاع:

– آه، كلا! كلا! الدراهم، يا للشيطان! من ذا يحدّثك عن الدراهم؟ أرجوك ألا تغيّر الموضوع، وأكرر عليك أن تتغاضى عن حقيقة وجود ملك هنا.

– ولكن من تظنني يا سيدي الماريشال؟ أتعتقد أنني أتصرف تصرفاً أعمى؟ كلا، لن يندّ عني ما يشير الى وجود ملك.

- لا تتشبث إذن برأيك، وغدّني في الساعة الرابعة.

- كلا يا سيّدي الماريشال لأن ما أنتظره لا يصل في الساعة الرابعة.

- وماذا عساك تنتظر؟ لعلها سمكة شبيهة بسمكة السيد ڤاتيل[1].

فشرع السفرجي يتمتم ساردأ:

- السيد ڤاتيل، السيد ڤاتيل...

- ماذا، هل صدمك التشبيه؟

- كلا، ولكن ضربة السيف المشؤومة التي اخترق بها السيد ڤاتيل جسمه جعلته ينال الخلود.

- هه! هه! أوتعتقد ان زميلك نال المجد بثمن بخس؟

- كلا يا مولاي، ولكن كثيرين من الممتهنين مهنتنا يبزّونه ألماً، وينهشهم عذاب واتضاع هما أشدّ قسوة من طعنة السيف، غير أنهم لا يخلدون.

- زه زه! ألا تعلم أيها الرجل أن الخلود لا يناله إلا من انتسب الى الاكاديمية أو قضى نحبه؟

---

١ - فاتيل، هو سفرجي مشهور كان يقوم بخدمة الأمير كونديه الكبير، ولقد انتحر بأن ثقب جسمه بالسيف عندما وجد ان الوليمة التي أعدّها على شرف بعض أصدقاء سيده كان ينقصها نوع من السمك البحري.

- ما دام الأمر كذلك يا مولاي، فمن الأفضل ان اظلَّ حيّاً لكي أزاول عملي. أما الموت فلن أموت، بل سأقوم بمهمتي كما كان يفعل ڤاتيل الذي لو قُدّر للأمير دي كونديه أن يصبر عليه ويستمهله نصف ساعة فقط لما مات هو الآخر.

- اوه! أستشفّ وراءك أعجوبة ما، أردتَ إخفاءها ببراعة.

- ما من اعجوبة في الأمر يا مولاي.

- فماذا تنتظر إذن؟

- أيريد مولاي أن أبوح له؟

- يا للعجب! طبعاً، فالفضول يملأ نفسي.

- حسناً يا مولاي، إنني انتظر قنينة نبيذ.

- قنينة نبيذ! أَوضح يا رجل فإنك تثير فيَّ اهتماماً شديداً.

- إسمع يا مولاي ما هي الحكاية: إن جلالة ملك السويد، عفواً، قصدت سيادة الكونت دي هاغا، لا يشرب الا نبيذ «توكيه».

- عجباً! أأدركتني الفاقة حتى اصبح قَبْوي لا يحتوي نبيذ «توكيه»؟ من الواجب اذن أن أطرد خازني شرَّ طردة!

- كلا يا مولاي، عندك تقريباً ستون قنينة.

– أتعتقد إذن أن الكونت دي هاغا سيشرب إحدى وستين قنينة على غدائه ؟

– صبراً يا مولاي ، عندما زار سيدي الكونت دي هاغا فرنسا للمرة الأولى كان لا يزال أميرا ، وقد تناول طعامه عند الملك الراحل الذي كان جلالة امبراطور النمسا قد وهبه إثنتي عشرة قنينة من نبيذ «توكيه». ثمَّ ألا تعلم أن السحب الأول من نبيذ «توكيه» إنما يُخصُّ بأقبية الأباطرة ، وأن الملوك أنفسهم لا يذوقون من هذا النبيذ إلا ما يتكرّم به عليهم جلالة الأمبراطور ؟

– بلى أعلم ذلك .

– إذن من تلك القناني الاثنتي عشرة التي احتسى منها سمو الأمير ووجدها لذيذة لم يبق اليوم سوى قنينتين .

– أوه ! أوه !

– واحدة منها ما تزال في اقبية الملك لويس السادس عشر .

– والثانية ؟

– فابتسم السفرجي ابتسامة ظافرة لأنه شعر بدنوّ لحظة الانتصار بعد ذلك الصراع الطويل الشاق الذي جابه به الماريشال ، وأسرع الى القول :

– القنينة الثانية يا مولاي ... أجل ، القنينة الثانية سُرقت !

– ومن سرقها ؟

– سطا عليها صديقي خازن الملك الراحل ، وقد كان لي في عنقه خدمات كثيرة .

– وقد وهبك إيّاها .

فقال السفرجي مزهوّاً :

– نعم يا مولاي ، حقاً ما تقول .

– وماذا فعلتَ بها ؟

– ودعتها في قبو سيدي يا مولاي .

– ومن كان سيدك في ذلك الحين ؟

– مولاي الكردينال الأمير لويس دي روهان .

– يا الله ! في مدينة ستراسبورغ ؟

– بل في مدينة سافرن .

فهتف الماريشال المسن :

– وقد أرسلتَ من يجلبها لأجلي ؟

– نعم لأجلك يا مولاي ... (أجاب بها السفرجي بلهجة من يريد ان يقول : نعم لأجلك يا ناكر الجميل) .

فأمسك الدوق دي ريشاليو بيد الخادم الشيخ وقال :

– أسألك المغفرة ايها الخادم الأمين ، فأنت ملك السفرجيين على الاطلاق.

فهزّ هذا رأسه وكتفيه بحركة لا يُفقه معناها وأجاب :

- كنت تطردني منذ لحظات !

- بل سأنقدك ثمن القنينة ماية ريال .

- على أن يضيف اليها مولاي الماريشال مايةً ثانية تكاليف السفر، فيكلفه ذلك مايتي ريال، يعترف مولاي أنه مبلغ زهيد . . .

- لقد اعترفت يا سيدي، وسأضاعف مرتبك منذ اليوم .

- لا داعي لهذا يا مولاي، لأنني ما فعلت سوى واجبي .

- ومتى تصل قنينة المااية ريال ؟

- ليحكم مولاي بنفسه إذا كنت قد هدرتُ الوقت : في أي يوم أمرني بتحضير الغداء ؟

- أظن ذلك منذ ثلاثة أيام .

- يحتاج الفارس المجدُّ على فرسه أربعاً وعشرين ساعة للذهاب، ومثلها للإياب .

- بقي لديك أربع وعشرون ساعة يا أمير السفرجيين، فماذا فعلت بها ؟

- آسف يا مولاي، فقد أضعتها . لأن الفكرة لم تخطر لي إلا في اليوم التالي لليوم الذي سلمتني فيه لائحة ضيوفك . فاذا أحصى مولاي الوقت على هذا الأساس، وجد ان الساعة المفروضة لحضور القنينة هي الخامسة تماماً .

- كيف ! حتى الآن ليست القنينة هنا ؟

- كلا يا مولاي .

- يا الله ! وهب أن زميلك في سافرن يكن لسيده الأمير دي روهان الاخلاص الذي تكنه لي انت ؟

- ماذا يا مولاي ؟

- أي هَبْه يرفض إعطاء القنينة كما كنت ترفض انت ؟

- أرفض أنا يا مولاي ؟

- أجل ، ما كنت لتعطي قنينة كهذه لو وجدت في قبوي .

- مغفرة يا مولاى : إذا جاء زميل لي يتعهد خدمة ملك وطلب أجود قنينة لديك لوهبته إياها في الحال .

فتأفف الماريشال وقد ارتسمت على فمه تكشيرة خفيفة ، وتابع السفرجي يقول :

- إن عوننا للآخرين ، يضمن لنا عونهم يا مولاي .

فتنهد الماريشال وقال :

- لقد دخل بعض الاطمئنان إلى قلبي ، ولكنني أخشى صدفة مشؤومة .

- أية صدفة يا مولاي ؟

- أن تنكسر القنينة .

- أوه يا مولاي ! لم يحدث أبداً أن رجلاً كسر قنينة نبيذ يبلغ ثمنها ألفين من الليرات .

- قد أكون مخطئاً ، دع هذا وقل لي الآن : في أية ساعة يصل ساعيك ؟

- في الرابعة تماماً .

فقال الماريشال متصلباً برأيه حروناً كبغل من قشتالة :

- إذن ما الذي يحول دون تناولنا الطعام في الساعة الرابعة ؟

- سيحتاج نبيذي يا مولاي إلى ساعة لكي يستريح ، وهذا بفضل عملية خاصة ابتكرتها بنفسي ولولاها لكان يلزمه ثلاثة أيام .

فشعر الماريشال انه غُلب على أمره مرة ثانية ولم يسعه إلا أن يرفع التحية لسفرجيّه الذي تابع يقول :

- ثم إنّ ضيوف مولاي لن يصلوا قبل الساعة الرابعة والنصف لعلمهم أنه سيكون لهم شرف الغداء مع سيدي الكونت دي هاغا .

- هذه إذن عقبة ثانية !

- طبعاً يا مولاي . أليس ضيوفك هم السيد الكونت دي لونيه ، والسيدة الكونتس دي بارّي ، والسيد دي لا بيروز ،

والسيد دي فاڤرا، والسيد دي كوندورسيه، والسيد دي كاغليوسترو، والسيد دي تاڤرني ؟

- يعني ماذا ؟

- لنستعرضهم بالترتيب يا مولاي : يأتي السيد دي لونيه من الباستيل، ويستوجب وصوله من باريس الى هنا ثلاث ساعات بسبب الجليد على الطرقات .

- أجل، ولكن انطلاقه من هناك يكون عند تقديم الغداء للمساجين، أي عند الظهر، وأنا أعرف هذا عن خبرة .

- عفوا يا مولاي، منذ مغادرتكم الباستيل تغير موعد الغداء فيها فأصبح في الساعة الواحدة .

- أشكرك يا سيدي، فالمرء يتعلم دائماً أشياء جديدة تفوته، أكمل.

- وتأتي السيدة دي بارّي من «لوسيانة» في منحدر دائب وجليد مقيم .

- أوه ! ولكن هذا لا يمنعها من المحافظة على الموعد بدقة، فهي منذ أصبحت عشيقة دوق فقط لم تعد تتصرف كملكة إلا مع جماعة البارونات . ثم اودّ ان تفهم بدورك يا سيدي هذا الشيء : كنت أصرّ على الغداء باكراً بسبب السيد دي لابيروز الذي هو على سفر في هذا المساء ولا يرغب قط في التأخر .

- السيد دي لابيروز يا مولاي هو في حضرة الملك، يتحدث وجلالته عن الجغرافيا والكوزموغرافيا، ولن يفسح له جلالة الملك مجال مغادرة القصر باكرا.

- هذا محتمل ...

- بل هذا أكيد يا مولاي. وهذا أيضاً وضع السيد دي فاڤرا الذي هو الآن في قصر الكونت دي بروفانس يحدّثه عن مسرحية السيد كارون دي بومارشيه.

- مسرحية زواج فيغارو؟

- نعم يا مولاي.

- أتعلم أنك واسع الاطلاع يا سيدي؟

- ذلك أنني ولوع بالقراءة في أوقات الفراغ يا مولاي.

- إلا أن السيد دي كوندورسيه، بصفته ضالعاً بالرياضة والهندسة، قد يضبط ميعاده بدقة.

- نعم، ولكنه قد يتوغل في عمل حسابي، وعندما يفرغ منه يجد نفسه متأخراً نصف ساعة. أما الكونت دي كاغليوسترو فهو غريب عن باريس التي يسكنها منذ وقت قصير، وقد يتأخر لعلمه الناقص بمجرى الحياة في فرساي.

فقال الماريشال:

- رعاك الله! سردت أسماء ضيوفي ما عدا تاڤرني، وقد

فعلت هذا بترتيب يعجز عنه هوميروس وخادمي المرحوم المسكين رافيه .

فحنى السفرجي قامته وقال :

– ما تكلمت عن السيد دي تافرني لأنه صديق قديم وأحسبه ولا ريب يحافظ على التقاليد . هؤلاء هم يا مولاي ضيوفك الثمانية لهذا المساء ، أليس كذلك ؟

– بالضبط . وأين تجعلنا نتناول الغداء يا سيدي ؟

– في قاعة الطعام الكبيرة يا مولاي .

– ولكننا نجلّد فيها من البرد يا رجل .

– إنها تسخن منذ ثلاثة أيام يا مولاي ، وقد جعلت حرارتها ثماني عشرة درجة .

– أحسنت صنعاً ! ولكن ها هي الساعة تدق النصف .

وألقى الماريشال ببصره على الساعة وقال :

– انها الساعة الرابعة والنصف .

– نعم يا مولاي ، وهوذا جواد يدخل ساحة القصر ... إنها قنينتي ، قنينة نبيذ توكيه .

وعاد السفرجي إلى مطبخه بينما عاد الماريشال المسن للوقوف أمام مرآته وهو يقول :

– تُرى ، هل يُقدّر لي خدمة كهذه طيلة عشرين سنة أخرى ؟

فإذا بصوت ضاحك يقاطع الدوق عند نظرته الأولى الى المرآة ويقول :

- عشرون سنة أخرى يا عزيزي الماريشال ! إني اتمنّاها لك ، ولكن بعد عشرين سنة أصبح عجوزاً أجرّ خلفي الستين .

فاستدار الماريشال وهتف قائلاً :

- أنت أيتها الكونتس ! أنت جئتِ الأولى ! يا الله ! كم أنت دائمة الجمال والنضارة !

- بل قل إني مجلّدة أيها الدوق .

- أرجوك ، مرّي الى قاعة الشتاء .

- أوه ! لنجلس معاً نحن الاثنين أيها الماريشال ؟

- بل نحن الثلاثة . أجاب بهذا صوت مرتعش. فهتف الماريشال :

- تافري !

ثم همس في أذن الكونتس قائلاً :

- إنه كالطاعون يقطع ساعات الفرح .

- قطعه الله كم هو سمج !

تمتمت بهذا مدام دي بارّي وهي تضحك ملءَ شدقيها . ثم عبر الثلاثة إلى غرفة مجاورة .

السيد دي لا بيروز

★

في اللحظة ذاتها أخذ جري العربات الأصم على البلاط المغلّف بثلج مندوف ينبئ الماريشال بتوافد ضيوفه. وبعد قليل، وبفضل مهارة السفرجي ودقته، كان تسعة مدعوّين يحتلون مقاعدهم حول مائدة بيضاوية الشكل في قاعة الطعام. وكان يعمل هناك تسعة خدم صامتين كالظلال، سريعين دون اندفاع، مجاملين دون لجاجة وإزعاج، يزقّون زقّاً على البسط، وينسلّون بين المدعوين دون مسّ أذرعهم أو صدم أرائكهم المدفونة في الفرو الذي يغرق فيه المدعوّون حتى عراقيبهم.

هذا ما أخذ يتذوّقه ضيوف الماريشال مع الدفء اللذيذ ورائحة اللحم الزكية وجُرَع النبيذ العاطرة وسقسقة الأحاديث الأولى التي تَلَت الحساء.

ولم يكن يدخل من الخارج أية جلبة لأن درف النوافذ كانت ضابطة وكذلك لم يكن يندّ من الداخل أي ضجيج سوى ما يصدر عن المدعوين لأن الصحون كانت تغادر أماكنها دون حس، والأواني الفضية تنتقل من الخزائن دون

رنين، والسفرجي يوزّع أوامره بحركة عينيه دون أن ينبس وإن تمتمة ببنت شفة.

لذلك شعر المدعوّون في غضون عشر دقائق أنهم في خلوة تامة داخل هذه القاعة، إذ كان لا بدّ لمثل اولئك الخدم والعبيد الدقيقي الحركة واللمس من أن يكونوا صمّاً لا يستقرّ في أذهانهم شيء من الأحاديث التي يسمعون.

وكان السيد دي ريشاليو هو أول من قطع ذلك الصمت الاحتفالي الذي استمر مدة تناول الحساء، إذ قال لجاره الجالس عن يمينه:

- ألا يشرب سيدي الكونت النبيذ؟

اما الرجل الذي وُجّهت اليه هذه الكلمات فقد كان في الثامنة والثلاثين من عمره، أشقر الشعر، قصير القامة، مرتفع الكتفين، تنعكس الكآبة غالباً من عينيه الزرقاوين زرقة صافية واللتين تنبلجان أحياناً عن شعاع من الحيوية. وقد كانت سمة النبلاء محفورة على جبينه العريض المقدام بخطوط بارزة. وقد أجاب عن سؤال الدوق قائلاً:

- لا أشرب شيئاً غير الماء أيها الماريشال.

- إلا في قصر الملك لويس الخامس عشر، فقد نلت شرف الغداء مع سيدي الكونت في قصر جلالته حيث تنازل سيدي الكونت فشرب النبيذ.

– إنك تعيد الى ذهني ذكريات رائعة يا سيدي الماريشال؛ كان ذلك عام ١٧٧١، وقد حسوتُ يومئذ من نبيذ توكيه الامبراطوري.

فقال ريشاليو وهو يحني قامته:

– الشبيه بهذا النبيذ الذي يتشرف سفرجيٌّ بسكبه الآن في كوبكم يا سيدي الكونت.

– فرفع الكونت «دي هاغا» كوبه الى مستوى عينه ونظر إلى الشراب على ضوء الشموع فإذا هو يتوهج في الكوب مثل زمرّد سائل، فقال عندئذ:

– هذا صحيح يا سيدي الماريشال، شكراً لك.

لفظ الكونت كلمة «شكراً» بصوت نبيل لطيف تكهرب له الحاضرون فنهضوا دفعة واحدة وهتفوا قائلين:

– ليعش جلالة الملك!

فقال الكونت دي هاغا:

– هذا صحيح، ليعش جلالة ملك فرنسا! ألستَ من رأيي يا سيد دي لابيروز؟

فأجاب القبطان دمثاً مبجّلا بلهجة من اعتاد مخاطبة الرؤوس المتوجة:

– غادرت الملك منذ ساعة، وقد غمرني عطفه إلى درجة تجعلني اهتف عالياً «ليعش الملك». ولكن بعد ساعة سآخذ

طريقي الى البحر حيث ينتظرني مركبان وضعهما جلالته تحت تصرفي، لذلك اسمحوا لي، بعد مغادرة بلادي، ان اهتف «ليعش ملك آخر» لشدّ ما احب ان أضع نفسي في خدمته لو لم يكن لي سيد كريم.

ثم رفع السيد دي لابيروز كأسه وشرب بتواضع نخب الكونت دي هاغا. فقالت مدام دي باري الجالسة عن شمال الماريشال:

- جميعنا مستعدّون لشرب هذا النخب، ولكن على رئيس السنّ بيننا، كما يقال في الندوة النيابية، أن يبدأ ذلك.

فقال الماريشال وهو يضحك وينظر إلى صديقه المسن تافرني:

- هذا الخطاب موجه لك أم لي يا تافرني؟

فأجاب شخص آخر يجلس وجهاً لوجه أمام الماريشال دي ريشاليو:

- لا أعتقد.

فألقى الكونت دي هاغا نظرة حادّة على المتحدث وقال:

- ماذا لا تعتقد يا سيد كاغليوسترو؟

فأجاب كاغليوسترو وهو يحني قامته:

- لا أعتقد يا سيدي الكونت أن الماريشال دي ريشاليو هو رئيس السن بيننا.

فقال الماريشال :

– حسناً تقول ! أرأيت أنك أنت رئيس السن يا تافرني ؟

فأجاب الشيخ المسن :

– هذا غير صحيح ، إني اصغر منك بثماني سنوات ، فقد ولدت عام ١٧٠٤ .

فقال الماريشال :

– يا للشرير ! إنه يفضح سنيَّ الثمانية والثمانين .

فسأل السيد دي كوندورسيه :

– أحقاً يا سيدي الدوق أن عمرك ثمان وثمانون سنة ؟

– أوه ، يا الهي ! طبعاً . إنه حساب سهل لا يحتاج إلى عالم في الجبر من وزنك يا سيدي المركيز . فأنا انتمي الى العصر السالف الذي يُدعى العصر الكبير ، إذ إني قد ولدتُ عام ١٦٩٦، يا له من تاريخ !

فقال دي لونيه :

– هذا مستحيل !

– لو كان والدك هنا يا سيدي حاكم الباستيل ، لما قال مستحيل ، لأنني كنت طالباً داخلياً في كليته عام ١٧١٤ .

ولكن الكونت دي فاڤرا قال :

– ان رئيس السن بيننا ، وأعلن هذا بصراحة ، هو هذا النبيذ ، نبيذ توكيه ، الذي يسكبه الآن الكونت دي هاغا في كوبه .

فأجاب الكونت :

– إنك على حق يا سيد دي فاڤرا ، هذا النبيذ عمره مئة وعشرون سنة ، وهو يتشرف بأن نشربه على صحة الملك .

– مهلاً أيها السادة ، اني اعترض ! قال هذا كاغليوسترو رافعاً فوق المائدة رأسه العريض الذي يفيض نشاطاً وذكاء .

فهتف المدعوّون بصوت واحد :

– تعترض على أقدمية نبيذ توكيه !

فأجاب الكونت بهدوء :

– طبعاً ، لأنني أنا ختمت عليه في قنينته .

– أنت ؟

– نعم أنا . وذلك في يوم النصر الذي أحرزه مونتيكوكولي على الأتراك سنة ١٦٦٤ .

فاستقبلت عاصفة من الضحك هذه الكلمات التي تلفظ بها كاغليوسترو بوقار لا غبار عليه . ثم قالت مدام دي باري :

– على هذا الحساب يجاوز عمرك ماية وثلاثين سنة ، لأنني أمنحك علاوة على عمر هذا النبيذ عشر سنوات لكي يتسنى لك وضعه في مثل هذه القنينة الكبيرة .

- كان عمري أكثر من عشر سنوات يوم قمت بهذه العملية يا سيدتي ، لأن امبراطور النمسا ولأنّي في الأيام التالية شرف تهنئة القائد الظافر مونتيكوكولي الذي ثأر بانتصاره في « سان غوثار » لهزيمة « اسباك » في « اسكلافونيا » يوم هزم الجاحدون بشراسة اصدقائي ورفاقي في السلاح الأمبرياليين سنة ١٥٣٦ .

فقال الكونت دي هاغا وهو يقلد كاغليوسترو ببرودته :

- لا شك أن عمر حضرة السيد كان عشر سنوات على الأقل في ذلك العهد ، لأنه حضر بشخصه تلك المعركة الشهيرة .

فانحنى كاغليوسترو وقال :

- كانت هزيمة نكراء يا سيدي الكونت !

فقال كوندورسيه مبتسماً :

- ولكنها كانت أقل شراسة من هزيمة كريسي .

فابتسم كاغليوسترو بدوره وقال :

- حقا ذلك ، فقد كانت هزيمة كريسي أشد هولاً لأن المهزوم فيها لم يكن جيشا وإنما فرنسا . لكن يجب أن نعترف بأن هذه الهزيمة لم تكن نصراً شرعياً عادلاً نالته انكلترا ، ذلك أن الملك ادوار كان يملك المدافع ، وهذا ما كان يجهله فيليب دي ڤالوا جهلاً تاماً ، او بالأحرى كان لا يريد تصديقه بالرغم

من أنني أخبرته أنني رأيت بعينيّ الاثنتين تلك القطع الأربع من المدفعية التي اشتراها الملك ادوار من سكان البندقية .

فقالت مدام دي بارّي : ها ، ها ! وهل عرفت فيليب دي ڤالوا ؟

- كان لي الشرف يا سيدتي بأن أكون أحد نبلائه الخمسة الذين واكبوه عند مغادرته ساحة القتال . وكنت قد قدمتُ إلى فرنسا بصحبة ملك « بوهيميا » المسكين الذي كان شيخاً أعمى والذي انتحر ساعة أخبروه بضياع كل شيء .

هنا قال دي لابيروز : يا الله ! لا يمكنك أن تصدق يا سيدي كم أنا آسف لعدم حضورك معركة « اكسيوم » بدلا من معركة كريسي .

- ولماذا يا سيدي ؟

- لأنك كنت أوضحت لي أوصافاً عن البحر ما زالت مبهمة لدي بالرغم من وصف بلوتارك الرائع له .

- اية اوصاف تريد يا سيدي ؟ يسعدني أن اقدّم لك نفعاً ما .

- أحضرت اذن تلك المعركة ؟

- كلا يا سيدي ، فقد كنت يومئذ في مصر مكلفاً من قبل الملكة كليوباتره لتنظيم مكتبة الاسكندرية بوصفي خبيراً اكثر من سواي ، إذ إنني عرفت شخصياً خيرة المؤلفين القدامى .

هنا هتفت الكونتس دي باري : رأيت الملكة كليوباتره يا سيد كاغليوسترو ؟

– كما أراك تماماً يا سيدتي .

– وهل كانت جميلة كما يروون عنها ؟

– انك تعلمين يا سيدتي الكونتس أن الجمال نسبيّ ، فهذه الملكة الساحرة في مصر، لو كانت في باريس لما كانت اكثر من صبية دلِعة محبوبة .

– لا تقل سوءاً عن الصبايا الدلعات يا سيدي الكونت .

– معاذ الله !

– إذن كانت كليوباتره ...

– صغيرة ، نحيفة القامة ، مرحة ، حادة الذهن ، ذات عينين لوزيتين ، وأنف إغريقي ، وأسنان كاللؤلؤ ، ويد تشبه يدك يا سيدتي وتصلح للصولجان . ألا انظري هذه الماسة التي أهدتني إياها ، لقد ورثتها من أخيها بطليموس ، وكانت تضعها في إبهامها ...

فزعقت مدام دي باري منذهلة : في ابهامها !

– نعم ، كان ذلك موضة مصرية ، وترين الآن أنها تكاد لا تدخل في خنصري .

ثم نزع الخاتم من خنصره وقدمه للسيدة دي باري . فكان

يحتوي ماسة رائعة، كبيرة الحجم، صافية المنظر، لا يقل ثمنها عن الثلاثين أو الأربعين الف فرنك.

دارت الماسة حول المائدة وعادت الى كاغليوسترو الذي وضعها في خنصره بهدوء وهو يقول:

– أراكم غير مصدّقين، وشككم هذا هو ما قضيت عمري في محاربته. فقد رفض فيليب دي ڤالوا أن يصدقني عندما نصحته بأن يكتب معاهدة صلح مع خصمه ادوار، ورفضت كليوباتره أن تصدقني عندما تنبأت لها باندحار انطونيو، ورفض أهل طروادة أن يصدقوني عندما حدثتهم عن الحصان الخشبي بقولي: «كاساندر امرأة ملهمة فاسمعوا صوت كاساندر».

فقالت مدام دي باري وهي لا تتمالك نفسها عن الضحك: بالحقيقة لم أر رجلاً مثلك يجمع بين الرصانة والتسلية.

فانحنى كاغليوسترو وقال: أؤكد لك يا سيدتي أن جوناتاس كان مسلياً اكثر مني. يا للرفيق الطريف! عندما قتله شاوول كدت أجن.

فقال الدوق دي ريشاليو:

– أتعلم أنك إذا أكملت حديثك على هذا المنوال سوف تجعل هذا المسكين تافرني يصاب بمسّ من الجنون؟ إنه يخشى

الموت إلى درجة أنه يحدق بك بعينين مرعوبتين ظنّاً منه أنك رجل خالد. قل لنا بصراحة، هل أنت خالد؟ نعم أم لا؟

– خالد؟ لا أعلم. جلّ ما أعلمه هو أنني استطيع تأكيد شيء واحد.

– وما هو هذا الشيء؟ سأل هذا تافرني الذي كان اكثر السامعين ظمأً لسماع الكونت دي كاغليوسترو.

– هذا الشيء هو أنني شاهدت جميع الأشياء، ورافقت جميع الأشخاص الذين ذكرتهم الآن.

– وهل عرفت مونتيكوكولي؟

– كما أعرفك يا سيد دي فافرا، بل معرفة حميمة اكثر من معرفتي لك، لأنني تشرفت برؤيتك للمرة الثانية أو الثالثة، بينما عشتُ أكثر من سنة تحت خيمة ذلك القائد الماهر الذي نتحدّث عنه.

– وعرفت أيضاً فيليب دي فالوا؟

– يشرفني أن أقول لك نعم يا سيد دي كوندورسيه. ولكنه عندما عاد الى باريس، غادرتُ فرنسا عائداً إلى بوهيميا.

– وكليوباتره؟

– نعم يا سيدتي الكونتس، عرفت كليوباتره. فقد قلت

لك إن عينيها كانتا سوداوين كعينيك، وعنقها جميلاً كعنقك تقريبا.

– ولكنك أيها الكونت لا تعرف كيف هو عنقي.

– إنه شبيه بعنق كاسّاندر يا سيدتي. ولكي تتمّ المقارنة، فقد كان لها مثلك، أو بالأحرى لك مثلها، علامة سوداء فوق ضلعك السادس من جهة اليسار.

– أوه! إن معرفتك الصائبة تجعلني أظن أنك ساحر أيها الكونت!

فضحك الماريشال دي ريشاليو وقال: كلا أيتها المركيزة، كلا! أنا حدّثته عن هذا الشيء.

– وكيف عرفت ذلك؟

فمطّ الماريشال شفتيه وقال: إنه سرّ عائلي.

فقالت مدام دي بارّي: زه! زه! حقاً أيها الماريشال، يجب أن أصبغ شفتيّ بطبقتين من الحمرة عندما أدخل إلى منزلك، لأنك لا تحفظ السر.

ثم استدارت نحو كاغليوسترو وقالت:

– قل الحقيقة يا سيدي: هل تملك سرّ تجديد الشباب؟ فإن عمرك ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، ولكنك تبدو دون الأربعين.

– نعم يا سيدتي، إنني أملك سرَّ تجديد الشباب.

- بالله عليك ! جدّد لي شبابي إذن .

- لا جدوى لهذا معك يا سيدتي ، لأن سنّ المرء الحقيقية هي السنّ التي يبدو فيها ، وأنتِ لا تتعدّى سنّك الثلاثين .

- إنها مغازلة أقبلها منك .

- كلا يا سيدتي ! إنه الواقع .

- إشرح ماذا تعني .

- هذا أمر سهل . فقد طبَّقتِ طريقتي التي أملك سرّها .

- وكيف هذا ؟

- لقد شربت من الإكسير الذي أملك .

- أنا ؟

- نعم أنت يا سيدتي . وأظنّ أنك لم تنسي ذلك .

- أوه ! يا لهذا الخبر !

- أوتذكرين أيتها الكونتس منزلاً يقع في شارع سان كلود ؟ أوتذكرين أنك قصدت ذلك المنزل لأمر يتعلق بالسيد دي سارتين ؟ أوتذكرين أنك أدّيت هناك خدمة لصديق لي يدعى جوزف بلسامو ؟ وأن جوزف بلسامو أهداك قمقماً من الأكسير ووصف لك أن تتناولي منه ثلاث نقط كل صباح ؟ أوتذكرين أنك مارست الوصفة حتى السنة الماضية التي نضب فيها ذلك القمقم ؟ إذا كنت لا تذكرين كل ذلك أيتها الكونتس ، فهذا ليس بنسيان ، إنه نكران الجميل .

– أوه يا سيد كاغليوسترو ! إنك تحدثني عن أشياء ...

– لا يعرفها أحد سواي ، أعرف هذا جيدا . ولكن كيف يكون المرء ساحراً إذا لم يعرف أسرار الآخرين ؟

– وهل كان جوزف بلسامو مثلك يعرف سرَّ هذا الاكسير العجيب ؟

– كلا يا سيدتي . ولكنه كان من خيرة أصدقائي ، وقد أهديته منه ثلاثة أو أربعة قماقم .

– وما زال يحتفظ ببعضها حتى الآن ؟

– لست أدري . فقد انقطع خبر جوزف بلسامو المسكين منذ ثلاث سنين . وكانت آخر مرة التقيته فيها ، في أميركا على ضفاف نهر الاوهايو ، حيث كان يقود حملة إلى « الجبال الصخرية » . وسمعت منذ ذلك الحين أنه قضى نحبه هناك .

فقال عندئذ الماريشال :

– كفاك أيها الكونت ، كفاك مغازلة ! وهات حدّثنا عن سرّ إكسيرك العجيب .

ثم سأل الكونت دي هاغا قائلا : أهو جَدٌّ ما تقول أيها السيد ؟

– إنه عين الجدّ يا جلالة مولاي . عفواً ! قصدت يا سيدي الكونت .

قالها كاغليوسترو وانحنى بطريقة تدلّ على أن الخطأ الذي ارتكبه قد نجم عن إرادته.

فقال الماريشال: إذن مدام دي بارّي ليست مسنّة، وهي لا تحتاج إلى تجديد شبابها؟

- أبداً. وإني أقول الحق.

- إذن أقدّم لك شخصاً آخر. ما قولك بصديقي تافرني، ألا يبدو أنه معاصر لبلاطس البنطي؟ أم لعله توغّل في شيخوخته ولم يعد ينفعه شيء؟

- كلا! كلا!

فهتف ريشاليو قائلاً: إذا جدّدت شباب هذا الرجل، يا عزيزي الكونت، فإني أعلنك تلميذاً للحكيم ماديوس.

- أتريد حقاً ذلك؟

وجّه كاغليوسترو سؤاله هذا إلى صاحب المنزل وهو يجيل عينيه في الحاضرين الذين أشاروا جميعهم أن نعم. ثمّ سأل تافرني:

- وأنت أيضاً تريد ذلك يا سيّد تافرني؟

- تباً لك! أنا أريد أكثر من أي شخص آخر.

- حسناً! هذا أمر سهل.

ثم أدخل كاغليوسترو إصبعيه في جيبه وأخرج منها قنينة صغيرة الزوايا، سكب منها في قدح بلوريّ صافٍ بعض نقط

من السائل الذي تحتويه . ثم أضاف إلى هذه النقط الثلاث نصف قدح من الشمبانيا المبرّدة ، وناول الشراب المعدّ بهذه الطريقة إلى البارون دي تافرني .

وكانت أعين الحاضرين كلها تتبّع أدقّ حركاته ، وكانت أفواههم مشدوهة . أما البارون فقد تناول الكأس ورفعها إلى شفتيه ، ولكنه بدا مترددا ...

وعندما رأى الحاضرون تردده هذا ، شرعوا يضحكون بصخب ، حتى بادره كاغليوسترو قائلاً :

– أسرع أيها البارون وإلا فاتك هذا الشراب الذي تساوي كل نقطة منه ماية ذهبيّة .

فقال ريشاليو مازحاً : يا للشيطان ! هذا شراب يختلف عن نبيذ توكيه .

فسأل البارون وهو يكاد يرتجف : يجب إذن أن أشرب ؟

– إشرب يا سيدي ، أو ناول الكاس لآخر ، حتى يفيد هذا الاكسير أحداً .

– هاته لي أنا . قالها الدوق دي ريشاليو مادّاً يده .

إلا أن البارون أخذ يشمّ كأسه ، فإذا برائحته الحادّة الذكية ، ولونه الورديّ الجميل يحملانه على ابتلاع الشراب السحريّ الذي يحتويه .

وسرعان ما خيّل اليه أن قشعريرة اعترته وأخذت تهزّ جسمه وتدفع دمه الشائخ البطيء النائم في عروقه نحو جلده، من أخمص قدميه حتى قلبه. واذا بجلده المتغضّن يتمدّد، وبعينيه المغلفتين بأهدابه المرتخية تشتدّان دون إرادته، ويتسع بؤبؤهما وتنعكس فيه لمعة الحياة، واذا بيديه المرتجفتين تتصلّدان، وبصوته يتصلّب، وبركبتيه تستعيدان مرونة أجمل أيام الشباب، وبكِليتيه تنتشيان، وكأنّي بذلك الشراب، وهو ينحدر إلى الجوف، قد جدّد حيوية ذلك الجسم من الطرف الى الطرف الآخر.

ولقد صرخ المدعوّون من الدهشة والذهول، والاعجاب خصوصاً، عندما شاهدوا تافرني الذي كان يتضوّر جوعاً منذ لحظات ويأكل بطرف لثته، قد تناول صحناً وسكينا وأخذ ينهش اللحم ويقضم عظام الحجال، كأن أسنان شاب في العشرين قد نبتت في فكّيه.

وظل يأكل ويضحك ويشرب ويصرخ من الفرح طوال نصف ساعة كان الحاضرون أثناءها ينظرون اليه وقد عقد الذهول ألسنتهم. ثم إذا به يخمد رويداً رويداً كقنديل نضب منه الزيت، وقد عادت الأخاديد السابقة إلى جبينه، والتحفت مقلتاه غشاوة جديدة واربدّتا اربدادا. وشعر أنه فقد

تذوّق الطعام والشراب، فغادرته شهيته، وانحنى ظهره، وعادت ركبتاه ترتجفان. فتنهّد بأسف وصاح:

- أَوّاه!

فقال الحاضرون: ماذا؟

فصاح تافرني بحسرة:

- وداعاً أيها الشباب الذي ما طال!

وتنهّد من أعماق صدره تنهيدة رافقتها دمعتان اندفعتا إلى عينيه وبلّلتا جفونه.

فخرجت تنهدات مماثلة من صدور الحاضرين، بطريقة بديهية، وقد هزّهم منظر هذا الشيخ الحزين الذي ما كاد يستعيد شبابه حتى عاد فسقط في شيخوخة أشدّ وأضنى.

أما كاغليوسترو فقال:

- الأمر بغاية السهولة أيها السادة، فأنا لم أسكب للبارون سوى خمس وثلاثين نقطة من إكسير الحياة، لذلك فهو لم يستعد شبابه سوى خمس وثلاثين دقيقة.

فغمغم الشيخ قائلاً بنهم:

- أسكب لي بعد أيها الكونت، أسكب لي بعد!

فأجاب كاغليوسترو:

- كلا يا سيدي، لأن تجربة ثانية قد تقضي عليك.

وكانت مدام دي بارّي الوحيدة بين الحضور التي تعرف قيمة ذلك الاكسير، وقد تابعت تفاصيل هذا المشهد بفضول شديد، فكانت عيناها تتبعان مجرى انسياب الشباب والحياة في عروق الشيخ، فتضحك وتصفق وكأن النظر وحده يعيد إليها الشباب.

ولطالما حدثتها نفسها، عندما رأت الشراب يبلغ قمة النجاح، بان تلقي بنفسها على يد كاغليوسترو ولتنزع منه قمقم إكسير الحياة. ولكنها بعد أن رأت الشيخوخة تعاود تافرني بسرعة شديدة، قالت بلهجة حزينة:

- واحسرتاه! كل شيء باطل، وكل شيء سراب! فهذا السرّ العجيب لم يدم أكثر من خمس وثلاثين دقيقة.

فأردف الكونت دي هاغا قائلاً:

- إذن من أراد تجديد شبابه سنتين، عليه أن يجرع نهراً! فشرع كلٌّ يضحك. فقال كوندورسيه:

- كلا! الحساب أبسط من هذا: بمعدّل خمس وثلاثين دقيقة مقابل خمس وثلاثين نقطة، يحتاج المرء الى خمسماية وخمسة وعشرين ألفاً وستماية نقطة إذا أراد تجديد شبابه سنة واحدة.

فقال لابيروز: أي أنه يحتاج إلى فيضان.

فقالت مدام دي بارّي : ومع ذلك كان الأمر مختلفاً بالنسبة لي ، لأن القنينة الصغيرة التي أهداني إيّاها صديقك جوزف بلسامو ، وحجمها يبلغ أربعة أضعاف هذا القمقم ، كانت كافية لايقاف مجرى الزمن لديّ طوال عشر سنوات .

– أجل يا سيدتي ، أنت وحدك تلمسين بإصبعك الواقع المذهل . فالرجل الذي توغّل كثيراً في سنّ الشيخوخة يحتاج الى مثل هذه الكمية لكي يحصل على نتيجة فعّالة سريعة . امّا المرأة التي كانت في سنّ الثلاثين مثلك يا سيدتي ، والرجل الذي كان في سنّ الأربعين مثلي أنا ، يوم باشرنا احتساء هذا الإكسير ، إن مثل هذه المرأة وهذا الرجل اللذين ما زالت أيامهما تزخر بالشباب ، يحتاجان فقط إلى احتساء عشر نقط منه في كل مرحلة من مراحل التقهقر في السنّ . والذي يحتسي منه يستقرّ له إلى الأبد عهد الشباب والحياة والجاذبية والنشاط .

فسأل الكونت دي هاغا قائلاً : ماذا تعني بمراحل التقهقر في السنّ ؟

– إنها مراحل النمو الطبيعية يا سيّدي الكونت . ففي الطبيعة تنمو قوى الإنسان حتى الخامسة والثلاثين ، وتتوقف عن النموّ حتى الأربعين . عندئذ تبدأ بالتقهقر حتى الخمسين ، ولكن بطريقة غير ملحوظة . وبعد الخمسين تقصر مراحل

النمو، ثم تنحدر بسرعة حتى الموت. إلا أن الحضارة، وما تلحقه بالجسم من إفراط وهمّ ومرض، تجعل النموّ يتوقف عند الثلاثين، فيبدأ التقهقر في الخامسة والثلاثين. لذلك يتوجب على رجل الطبيعة أو المدينة ان يستغل الطبيعة في مرحلة جمودها، فيحول دون حركة تقهقرها. ومن كان يملك مثلي سرّ هذا الإكسير، يعلم كيف يحكّم هجومه، فيفاجئ الطبيعة ويوقفها ساعة تكون في حركة تراجعها. هذا الرجل يعيش مثلي في شباب دائم، أو على الأقل في شباب كافٍ يلائم طبيعة عمله في هذا العالم.

بيد أن الكونتس هتفت قائلة:

- بالله عليك، لماذا لم تختر لنفسك سنّ العشرين بدل الأربعين، ما دام اختيار السنّ التي تريد ملك يديك؟

فابتسم كاغليوسترو وقال:

- لأنه يوافقني يا سيدتي الكونتس أن أكون دائماً في الأربعين، أي رجلاً سليماً كاملاً، لا فتى ناقصاً في العشرين.

- أوه! أوه! ماذا تقول!

- بالطبع يا سيدتي، الرجل في العشرين يحوز إعجاب النساء اللواتي هنّ في الثلاثين، ولكن الرجل في الأربعين

يسيطر على النساء اللواتي هنّ في العشرين، وعلى الرجال الذين هم في الستّين.

فقالت الكونتس: إني أُسلّم معك. على كل حال، كيف يمكن أن نبني الجدل على مثل حي؟

فقال تافرني بلهجة مؤثرة: إذن أنا قضي عليّ، لأني احتسيت من الإكسير بعد فوات الأوان.

فأجابه دي لابيروز قائلاً بسذاجة وبصراحته كبحار:

- السيد دي ريشاليو كان أمهر منك، فقد سمعت دائماً أن الماريشال إنما يملك وصفة ما ...

فقاطعه الكونت دي هاغا وقال ضاحكاً: هذا خبر نشرته النساء.

فقالت مدام دي بارّي: وهل هذا السبب يدعو إلى عدم التصديق أيها الدوق؟

فاحمرّ وجه الماريشال المسن على غير عادته، وقال:

- أتريدون أن تعرفوا أيها السادة الوصفة التي طبّقتها دائما؟

- أجل، نريد أن نعرف.

- إنها القناعة ومداراة النفس.

فصرخ الجميع متعجبين من قول الماريشال الذي أردف فقال: بلى، هذا هو الواقع.

فقالت الكونتس: لو لم أر فعل وصفة السيد دي كاغليوسترو لكنت أنكرت وصفة الماريشال. ولكن رويدك يا حضرة الساحر، فأنا ما انتهيت من أسئلتي.

– اسألي ما تشائين يا سيدتي.

– قلت إنك كنت في الأربعين، يوم استعملت للمرة الأولى إكسير الحياة الذي تملك؟

– نعم يا سيدتي.

– ومنذ ذلك الحين، أي منذ عهد حصار طروادة ...

– بل قبل ذلك بقليل، يا سيدتي.

– هب ذلك. منذ ذلك الحين احتفظت بسنّ الأربعين؟

– إنك ترين هذا بنفسك.

فقال كوندورسيه: إنك إذن تثبت أكثر مما يحتمل مبدأك يا سيدي ...

– ماذا أثبت يا سيّدي المركيز؟

– تثبت مبدأ حفظ الحياة، وليس فقط مبدأ استمرار الشباب، لأنك لم تحتفظ فقط بسنّ الأربعين منذ حرب طروادة، ولكنك أيضاً لم تمت.

– هذا صحيح يا سيدي المركيز، إنني بتواضع اعترف بهذا، فأنا لم أمت.

- وفضلاً عن هذا فأنت مثل بطل طروادة «أخيل» لا تصاب بجروح، هذا مع العلم أن أخيل نفسه قضى بسهم من قوس «باريس» أصابه في عقب قدمه.

فقال كاغليوسترو: كلا! إنني معرّض للجروح. وهذا ما يحزّ في نفسي.

- إذن أنت معرّض للقتل والموت موتاً عنيفا؟

- نعم، ويا للأسف!

- كيف استطعت إذن أن تنجو من الحوادث منذ ثلاثة آلاف وخمسماية سنة؟

- هذا مجرّد حظ يا سيدي الكونت. وأرجوك أن تتبع تفكيري.

- إني اتبعه، تكلم!

فقال آخرون: إننا نتبعه أيضاً.

ثم هتف جميع الحضور: أجل، إننا نتبعك، تكلم!

ووضع الجميع مرافقهم على المائدة، وأخذوا يصغون بانتباه ملحوظ.

فقطع صوت كاغليوسترو الصمت الذي ساد، إذ قال:

- ما هو الشرط الأول لحفظ الحياة؟ أليس الصحة؟

قالها كاغليوسترو وبسط أمام الجميع بحركة أنيقة سهلة

يدين بيضاوين مثقلتين بالخواتم التي كان خاتم كليوباتره يلمع بينها كنجمة القطب .

- فأجاب الجميع بمجموع أصواتهم : بلى ، بلى ، إنها الصحة .

- وما هو شرط الصحة ؟

فقال الكونت دي هاجا: إنه نظام الأكل

فقال الكونت دي كاغليوسترو :

- أصبت يا سيدي الكونت ، نظام الأكل والشرب يحفظ الصحة . وما دام الأمر كذلك ، لماذا لا يكون من شأن هذا الإكسير أن يحقق أفضل نظام ممكن ؟

- ومن يعلم ؟

- أنت أيها الكونت .

- نعم ، بلا شك ، ولكن ...

- ولكن ألا يوجد غير هذا الشرط ؟ (سألت مدام دي بارّي) .

- هذا سؤال سننظر فيه بعد قليل يا سيدتي . المهم هو أنني تابعت بانتظام تناول القطرات من الشراب الذي هو في حوزتي . ولما كانت هذه القطرات تحقق حلم الانسان في كل زمان ، لأنها تمثل ما كان يبحث عنه الأقدمون باسم « ماء الشباب » وما يبحث عنه أهل العصر باسم « إكسير الحياة » ،

فقد استطعت بفضلها أن أحتفظ بشبابي، أي بصحتي، أي بحياتي. هذا واضح جدّاً كما أعتقد.

فأجاب دي تافرني:

– ولكن كل شيء نهايته إلى زوال، الجسم الجميل كما غيره من الأجسام.

فقالت الكونتس: أجل جسم البطل الجميل «باريس»، كجسم الإله القبيح «فولكان». لا شك أنك عرفت «باريس» يا سيد كاغليوسترو؟

– بكل تأكيد يا سيدتي. فقد كان فتىً فاره الجمال. ولكنه على الإجمال لا يستحقّ كل ما وصفه به هوميروس، وما تفكر به النساء. لأنه كان أصهب.

فقالت الكونتس: أصهب! يا للفظاعة!

فقال كاغليوسترو: أما عشيقته هيلانة فإنها لم تكن من رأيك، ويا للأسف، يا سيدتي. ولكن فلنعد إلى موضوع الإكسير.

فهتفت جميع الأصوات: نعم، نعم.

– ادعيت يا سيّد تافرني أن كل شيء ينتهي إلى زوال. لنفرض ذلك. ولكنك تعلم أيضاً أن كل شيء قابل للترميم أو التجديد أو التبديل: اختر ما تشاء من هذه الألفاظ. ومَثَلُ ذلك سكّين القديس هوبير الشهيرة، التي أُبدل حدّها

وقبضتها عدّة مرات، وبالرغم من ذلك فقد ظلت سكين القديس هوبير. والنبيذ الذي يختزنه رهبان دير « هايدلبرغ » في أقبيتهم، يظل ذات النبيذ بالرغم من أنهم يفرغون كل سنة في الخوابي الضخمة الموسم الجديد. بل إن هذا السبب هو الذي يجعل نبيذ دير هايدلبرغ دائماً شديد النقاوة، وقويَّ المفعول، ولذيذ الطعم. بينما أصبح النبيذ الذي ختمنا عليه أنا وأوبيميوس منذ مائة عام في جرار فخارية، وكأنه نوع من الوحل السميك الذي قد يؤكل ولكنه لا يُشرب.

وعليه، بدلاً من أن أتّبع مَثَلَ أوبيميوس، انتفعت بالمثل الذي يعطيه رهبان دير هايدلبرغ. فعالجت جسمي بأن سكبتُ فيه كل سنة عناصر جديدة كفيلة بأن تجدد شباب العناصر القديمة، فكانت ذرّة فتية تحلّ كل صباح، في دمي ولحمي وعظامي، محل خليّة مندثرة لا حياة فيها.

أجل لقد أعدت الحياة إلى الأنقاض التي يتركها الرجل الجاهل تستولي على مجموع كيانه، وأرغمت هذا العسكر الذي وضعه الله في خدمة الطبيعة البشرية، على الدفاع ضدّ التلف. هذا العسكر الذي يكتفي الرجل العاديّ بترميمه، أو بتركه مشلولاً بلا عمل، أخضعته لعمل مستمر يحكمه ويسهّل مجراه منبّه جديد. وقد حصل، نتيجةً لهذا الدرس المثابر لمبدأ الحياة، أن فكري وحركاتي وسكناتي وأعصابي

وقلبي وروحي لم تنس وظائفها أبداً. ولما كان كل شيء في الحياة مرتبطاً بعضه ببعض بسلسلة وثيقة، ولما كان نجاح الأشياء رهناً بتكرارها حتى تصبح عادة، فقد أصبحت بصورة طبيعية أكثر مهارة من سواي في تجنب الأخطار طوال ثلاثة آلاف من الأعوام، وهذا بفضل الخبرة التي اكتسبتها والتي تنير بصيرتي فتجعلني أَتنبأ بالعواقب السيئة والأخطار الناجمة عن كل موقف أتعرّض له. وهكذا فلن يرغمني أحد على الدخول إلى منزل معرّض للإنهيار، وبالطبع فقد رأيت منازل كثيرة في حياتي، وأعرف من النظرة الأولى أيها الصالح وأيها الرديء. ولن يرغمني أحد على الصيد مع صيّاد أخرق لا يحسن معالجة بندقيته، لأنني عرفت كثيراً من الصيادين الخُرْق، من «سيفال» الذي أردى ببندقيته امرأته «بروسكري»، إلى الوصيّ على العرش الذي فقأ عين وليّ العهد. وكذلك لن يرغمني أحد، أيام الحرب، على أن أشغل مركزاً ستراتيجياً ما لم أحسب جميع الخطوط المميتة، المستقيمة أو المنحنية، التي تقود إليه.

تقولون لي: لا يستطيع الانسان أن يتفادى رصاصة طائشة. فأجيبكم بأن الرجل الذي استطاع أن يتفادى مليون طلق ناريّ، ثم أردته رصاصة طائشة، لا عذر له عندي.

أوه! أرجوكم! لا تتركوا إشارات الشك تصدر عنكم،

لأنني ههنا مَثَلٌ حي أمامكم. إنني لا أدّعي الخلود، ولكنني أعرف كيف أتجنّب الموت عندما يكون عارضاً، وهذا ما لا يعرفه غيري. أي أنني مثلاً لا أمكث، مهما كلفني الأمر، ربع ساعة فقط منفرداً إلى جانب السيد «دي لونيه» الذي يتمنّى في هذه اللحظة أن يعتقلني في إحدى زنزاناته في الباستيل ليختبر موضوع خلودي بواسطة الجوع. ولا أمكث كذلك إلى جانب السيد دي كوندورسيه الذي يفكر الآن أن يفرغ في قدحي محتوى الخاتم الذي يضعه في سبّابة يده اليسرى، لا عن سوء نية، وإنما بمجرّد فضول علمي، لكي يعلم إذا كان السمّ الذي فيه يميتني أم لا.

فاضطرب الشخصان اللذان ذكر كاغليوسترو إسميهما، وتحرّكا في أريكتيهما، بينما تابع كاغليوسترو قائلاً:

– اعترف بهذا بجرأة يا سيد دي لونيه، فلسنا هنا أمام منصّة للقضاء. على كل حال، إن المرء على أفعاله لا على نيته. ألم تفكر بما ذكرت؟ وأنت يا سيد كوندورسيه، ألا يحتوي خاتمك سمّاً زعافا تتمنّى لو تذيقني إياه باسم معشوقتك الحبيبة «العلم»؟

فقال السيد دي لونيه وهو يضحك ويحمرّ: أعترف والله انك أصبت يا سيّدي الكونت. إنها فكرة جنونية وردتني في اللحظة ذاتها التي اتهمتني بها.

وقال كوندورسيه : وأنا أيضاً لن أقلّ صراحة عن السيد دي لونيه . فقد فكرت حقيقة أنك لو ذقت من هذا السم أصبح خلودك لا يساوي فلساً واحداً .

فندّت عن المائدة صرخة إعجاب ، وقد دلّ هذا الاعتراف ليس فقط على خلود الكونت دي كاغليوسترو ، وإنما أيضاً على ثقوب ذهنه . وتابع هذا حديثه بهدوء قائلاً :

– ترون إذن أنني فهمت ما يجول في خاطركما . ويمكنني ان أؤكد الشيء نفسه بالنسبة لكل ما يحدث ، لأن عادة الحياة تكشف لي من النظرة الأولى عن ماضي الناس ومستقبلهم . وتمتدّ فراستي من هذه الناحية إلى عالم الحيوان والجماد ، فإذا ركبت في مركبة ، تنبئني هيئة الجياد عما إذا كانت ستجمح، وتنبئني سيماء العربجيّ عما إذا كان سيوصلني إلى المكان الذي أقصد أو أنه سيفرغني في الطريق . وإذا أبحرت على ضفة مركب أعرف القبطان إذا كان جاهلاً أو عنيداً ، وفي كلا الحالتين أتجنب العربجيّ والقبطان ، وابتعد عن الجياد والمركب . إنني لا أنكر القَدَر ، ولكنني أضيّق حقله ، فلا أدع له ماية إمكانية كما يفعل الآخرون ، وإنما أحذف منها تسعاً وتسعين ، وأتحدّى الامكانية الباقية . أجل ، هذا ما جعلني أعيش ثلاثة آلاف عام .

فقال لابيروز وهو يضحك وسط الحماس أو الشعور بالخيبة اللذين بعثهما حديث كاغليوسترو :

- ليتك إذن أيها النبيّ العزيز ترافقني في رحلتي البحرية حول العالم ، فتقدّم لي خدمة بارزة .

فلم يجب كاغليوسترو بشيء ، فيما تابع البحّار قوله وهو يضحك :

- تسمحون لي يا سيّدي الماريشال أن أغادركم الآن ، ما دام الكونت دي كاغليوسترو لا يريد أن يترك مجلسكم الأنيس . اعذرني يا سيدي الكونت دي هاغا ، واعذريني يا سيدتي ، فهذه هي الساعة تدق السابعة ، وقد وعدت الملك أن احتلّ مقعدي في السفينة في الساعة السابعة والربع . والآن ، ما دام الكونت دي كاغليوسترو لا يجد في نفسه رغبة لرؤية سفينتيَّ ، فليتنبّأ لي على الأقل بماذا سيحدث لي في الطريق من فرساي إلى بريست . أما من بريست إلى القطب فلست بحاجة إلى نبوءته ، لأن هذا متعلق بي وحدي ، ولكنني والله محتاج إلى مشورته فيما يتعلق بالطريق من فرساي إلى بريست .

إلا ان كاغليوسترو اكتفى بأن يوجّه إلى لابيروز نظرة قاتمة تجمع بين الرقة والحزن العميق ، صعق لها أغلب الحضور. إلا أن البحّار لم ينتبه لشيء ، وكان خدمه يضعون على كتفيه

معطفاً ثقيلاً من الفرو، وقد دسّت مدام دي بارّي في جيبه بعض هداياها اللطيفة، تلك الهدايا التي لا يفكر بها المسافر من ذات نفسه، وتقدم له أثناء سفره متعة كبيرة، وتذكره بأصحابه الغائبين، خلال الليالي الطويلة، وفي طريقه الشديدة الظلام والبرد القارس.

أما لابيروز الذي لم تفارق الضحكة شفتيه، فقد حيّا الكونت دي هاغا باحترام، ثم مدّ يده مصافحاً الماريشال المسن الذي قال:

- الوداع يا عزيزي دي لابيروز.

إلا أن دي لابيروز أسرع فقال: بل إلى اللقاء يا سيدي الدوق. إنك تودعني وكأني راحل إلى الأبدية. كل ما أفعله أنني سأدور حول العالم، وهذا لا يستغرق أكثر من أربع أو خمس سنوات من الغياب، ولا يستحق بالنتيجة أن نتلفظ بكلمة الوداع.

فهتف الماريشال قائلاً:

- أربع أو خمس سنوات! لماذا لا تقول يا سيدي أربعة أو خمسة قرون؟ فالأيام بالنظر إلى سنّي هي بمثابة سنين. لقد قلت لك الوداع، وها إني اكرر القول.

فقهقه دي لابيروز ضاحكا وقال:

- لنسأل حضرة العرّاف، إنه يقدّر أنك ستعيش عشرين

سنة أيضاً . ألست موافقاً على قولي يا سيد كاغليوسترو ؟ آه ! ليتك أيها الكونت حدّثتني قبل اليوم عن قطراتك الإلهية ، لكنت أشحن منها طنّاً على ظهر سفينتي « استرولاب ». وأنت يا سيدتي ، اسمحي لي أن أطبع قبلة ثانية على يدك التي لن يقدّر لي أن أرى أجمل منها حتى عودتي ... وإلى اللقاء .

وخرج دي لابيروز عند نهاية هذه الكلمات .

أمّا كاغليوسترو فقد ظلّ محتفظاً بصمته الذي يدلّ على فأل مشؤوم . وقد سمعت أقدام القبطان ترن على الدرج ، وصوته المرح دائماً في ساحة القصر ، ولياقاته الأخيرة التي تبادلها مع الناس الذين اجتمعوا لرؤيته .

ثمّ هزّت الجياد الجلاجل المعلقة في رؤوسها ، وقُرع باب المركبة بصوت أجش ، وسُمع لدواليبها قرقعة على بلاط الطريق . فكان لابيروز يخطو أولى خطواته في تلك الرحلة الغامضة التي ستكون بلا رجوع إلى الأبد .

وكان جميع المدعوين يرهفون سمعهم ساكتين . وعندما كفّوا عن سماع أي شيء اتجهت أبصارهم إلى كاغليوسترو وكأن قوّة خفيّة دفعتهم إلى ذلك . وكانت قسمات هذا الرجل في تلك اللحظة تشع بحزن اقشعرّت له أبدان الجميع .

ودام الصمت الغريب عدّة لحظات. ثم قطعه الكونت دي هاغا إذ قال موجهاً كلامه إلى كاغليوسترو:

– لماذا لذت بالصمت ولم تجبه بشيء، يا سيدي؟

فكان هذا السؤال بمثابة تعبير عن القلق والفضول اللذين كانا يساوران جميع الحاضرين. فاقشعرّ كاغليوسترو كمن استفاق من ذهوله، وأجاب قائلاً:

– لأنه كان عليّ أن أكذب عليه، أو أن أجيبه جواباً صريحاً قاسياً وقد آثرت الصمت.

– وماذا تقصد؟

– ذلك أنه كان يتوجب عليّ أن أقول له: الدوق دي ريشاليو، يا سيد دي لابيروز، على حق في قوله لك «الوداع» بدلاً من قوله «إلى اللقاء».

فشحب لون الدوق دي ريشاليو وقال: يا للشيطان! أوتعتقد إذن أن دي لابيروز ...

فقاطعه كاغليوسترو قائلاً: اطمئن يا سيدي الماريشال، فالنبوءة الحزينة لا تقصدك أنت.

فهتفت مدام دي بارّي بلجاجة قائلة: ماذا إذن! أوتقصد دي لابيروز المسكين الذي قبّل يدي منذ لحظة؟

– لن يقبّلها مرّة ثانية يا سيّدتي، كما أنه لن يرى أبداً واحداً من الذين فارقهم هذا المساء.

قال ذلك كاغليوسترو وهو يحدّق بانتباه في قدحه المملوء ماء، والذي جعله موضعه من المائدة يبدو وكأن فيه طبقتين مضيئتين تخترقهما ظلال الأشياء المحيطة بهما.

فخرجت صرخة تعجب من أفواه الجميع.

وكان الحديث قد بلغ أوج الغرابة، فكانت كل دقيقة تزيد اهتمام الحاضرين به. وكان يخيّل لمن يرى هؤلاء الحاضرين وهم يتوجهون إلى كاغليوسترو بصوت ونظرات تدل على الرصانة والفضول، أنه يسمع تنبّؤات لا تخطئ يتفوّه بها عرّاف قديم.

وفي غمرة هذا الاهتمام الشديد، وقف دي فافرا، وكأنه يختصر شعور الجميع، فأشار إشارة تدلّ على التريث، وسار على رأس قدميه متجهاً نحو غرف الانتظار ليرى إذا كان أحد من الخدم يسترق السمع. ولكن منزل الماريشال دي ريشاليو كان، كما أسلفنا، منيعاً، فلم يجد دي فافرا في غرفة الانتظار المجاورة سوى قهرمان مسنّ، يشبه بقسماته الصلدة حارساً من حرّاس المراكز الحسّاسة، وقد كان هذا الرجل يقوم على حراسة قاعة الطعام في تلك الساعة الاحتفالية. فعاد دي فافرا إلى مقعده وجلس مشيراً للمدعوين أنهم في حرز حريز من أي عين تترصدهم وأي أذن تصغي إليهم.

فرفعت عندئذ مدام دي بارّي صوتها وقالت مطمئنة، متوجهة بحديثها إلى كاغليوسترو:

- أخبرنا في هذه الحال عن مصير دي لابيروز المسكين.

فهزّ كاغليوسترو برأسه. فهتف به أولئك الرجال الحاضرون قائلين:

- بلى، بلى، يا سيد كاغليوسترو، نرجوك أن تفعل.

- كما تريدون. ينوي دي لابيروز أن يقوم، كما أخبركم، بدورة حول العالم، ليتابع رحلات البحاثة كوك، كوك المسكين الذي قتل كما تعرفون في جزر سندويش.

- نعم! نعم! نعرف ذلك قالها الحاضرون بأصواتهم أو بهزّ رؤوسهم، فتابع كاغليوسترو قوله:

- كلّ شيء يبشر بنجاح هذه الرحلة، فالسيد دي لابيرور بحّار حاذق، بالإضافة إلى أن الملك لويس السادس عشر قد خطط له بمهارة خريطة السفر...

فقاطعه الكونت دي هاغا قائلاً:

- نعم، ملك فرنسا جغرافي حاذق. ألست من رأيي ياسيّد دي كوندورسيه؟

- بلى، إنه جغرافيّ يفوق حذقه ما يحتاجه من الجغرافيا. على الملوك ألا يكتفوا من العلوم بمعرفتها السطحية، لئلا يقودهم من هو أعمق منهم علماً.

فابتسم الكونت دي هاغا وقال:

- إنه درس منك يا سيدي المركيز.

فاحمرّ كوندورسيه وقال: كلا يا سيدي الكونت، إنها مجرّد فكرة، فكرة عامّة فلسفية.

فبدا الملل على مدام دي بارّي، واعتزمت ان تقطع كل حديث خاص يتفرع عن الحديث الأساسيّ. لذلك فقد توجهت إلى دي كاغليوسترو بحديثها قائلة:

- وهل سيمضي دي لابيروز في رحلته؟

- أجل سيمضي فيها. ولكن إياك ان تعتقدي أنه سيمضي في الحال. فبالرغم من الاستعجال الذي بدا عليه، أرى أنه سيبدد كثيراً من الوقت في بريست.

فقال كوندورسيه: يا لخسارته! إنه اليوم أفضل يوم للسفر. بل لعله تأخّر قليلاً، لأن شباط وآذار هما أفضل شهرين لذلك.

- لا تلمه على تأخره هذين الشهرين أو الثلاثة يا سيدي دي كوندورسيه . فإنه سيعيش طوال هذه الفترة والأمل في قلبه .

فقال ريشاليو : أظن أنهم عيّنوا لمساعدته خير الرفاق ؟

فأجاب كاغليوسترو : نعم ، والذي يقود السفينة الثانية هو ضابط ممتاز . إني أراه الآن فتىً مغامراً شجاعاً يا للأسف !

- ماذا تقول! يا للأسف!

فقال كاغليوسترو وهو يستوحي أفكاره من قدحه:

- أجل. إني أبحث عن هذا الرجل بعد عام، فلا أجده. أما فيكم قريب أو حليف للسيد دي لانكل؟

- كلا، ما فينا أحد.

- ألا يعرفه أحد منكم؟

- كلا.

-إذن، سيحذفه الموت أولاً من الوجود. وها إنني منذ الآن لا أراه.

فانطلقت تمتمة رعب من صدور الحاضرين. ثم قال بعضهم لاهثين:

- وما مصيره هو ... هو ... لابيروز؟

- إني أراه يبحر في سفينته، ثم ينزل على الشطآن، ثم يبحر من جديد. وطوال سنة أو سنتين، تصلنا أخباره السعيدة، ثم ...

- ثم ماذا؟

- ثم تمر سنون من عمر الزمن.

- وماذا بعد؟

- وبعد، فإنّ الأوقيانوس عريض والسماء قاتمة. وتبرز هنا وهناك أراضٍ غير مكتشفة، وصور قبيحة مرعبة تشبه مسوخ

أرخبيل اليونان . إنها تترصد السفينة الماخرة في الضباب ، وقد حملها التيّار إلى ما بين الأرصفة من الصخور النواتئ . ثم تأتي العاصفة التي هي أكثر ترحيباً من الشاطئ ، والتي تحمل بين شدقيها هول الريح والنار ... إيه ، دي لابيروز ! دي لابيروز ! لو كنت تسمعني الآن لقلت لك : إنك ماضٍ ، مثل كريستوف كولومبوس ، لاكتشاف عالم جديد . فالحذر الحذر يا لابيروز من الجزر المجهولة !

وهنا صَمَتَ كاغليوسترو ، فجرت قشعريرة باردة في مفاصل الحاضرين ، فيما كانت كلماته الأخيرة ما يزال صداها يتجاوب فوق المائدة .

إلا أن الكونت دي هاغا ، وقد تأثر كغيره بهذا الرجل الغريب الذي أصبح يحرّك قلوب الحاضرين على هواه ، هتف قائلاً :

- لماذا لم تحذّره من السفر قبل خروجه ؟

وقالت مدام دي بارّي : نعم ، نعم ، لماذا لا يجري أحد في إثره لكي يثنيه عن عزمه ؟ إن بعث رسول إليه ، يا عزيزي الماريشال ، ليس بكثير على رجل مثل لابيروز .

ففهم الماريشال قصد مدام دي بارّي ، وهمَّ أن ينهض ليدق الجرس . إلا أن ذراع كاغليوسترو انبسطت نحوه ، فعاد وغرق في أريكته ، فيما مضى كاغليوسترو يقول :

– لن يجدي الرأي نفعاً ، ويا للأسف ! فالرجل الذي يتنبّأ بمصائر الناس لا يستطيع تغييرها . ولو سمع لابيروز كلماتي ، لشرع يضحك كما كان يضحك أبناء « بريام » عند سماعهم نبوءات « كاسّاندر » . أنت نفسك تضحك الآن يا سيدي الكونت دي هاغا ، وسينتقل الضحك منك إلى رفاقك . لا ! لا ! يا سيّد دي فافرا ، لا تأسر نفسك ، فأنا لم أجد حتى الآن مستمعاً واحداً يصدّق أقوالي .

فهتفت مدام دي بارّي والدوق المسنّ دي ريشاليو قائلين :

– إننا نصدقك ، نحن .

– وأنا أصدقك : تمتم تافرني .

– وأنا كذلك : قالها الكونت دي هاغا بأدب .

– أجل ، أجل . إنكم تصدّقون لأن الأمر يتعلق الآن بلابيروز . فهل تصدّقون إذا تعلق الأمر بكم ؟

– وكيف لا !

– بل إني متأكد مما أقول .

فقال الكونت دي هاغا : أعترف لك بصراحة أن الذي يحملني على التصديق هو الحظ الذي كانت كلماتك قد توفّره للسيد دي لابيروز . فلو سمعك تقول له : «حذار ، حذار ، من الجزر المجهولة ! » لبُعث في نفسه الحذر الذي ينجيه .

- أؤكد لك أن هذا غير صحيح ، يا سيّدي الكونت .

وهب أنه صدقني ، فسوف تكون نبوءتي رهيبة بالنسبة إليه ، إذ يفكر بها أمام الخطر ، عند مشاهدته الجزر المجهولة المشؤومة ، فيجد نفسه أمام الموت الرهيب المحتم الذي لا يستطيع الفرار منه . إنه يموت عندئذ ألف ميتة ، لأنه يشعر بأنه يسير في الظلمة ، واليأس إلى جانبه . أما الأمل الذي أكون قد نزعته من صدره فإنه التعزية الأخيرة التي يحتفظ بها الرجل التعس الحظ عندما يشعر أن سكين القدر أصبحت مسلطة فوق عنقه، وأنها بدأت تلمسه بحدّها الفولاذيّ ، وتنهل من دمه الذي بدأ يسيل على الأرض . أجل تنطفئ الحياة ، ولكن الأمل لا يخبو في صدر الإنسان .

فهمس بعض الحاضرين بأصوات منخفضة قائلين : هذا صحيح ! فقال كوندورسيه :

- إن النقاب الذي يحجب نهاية حياتنا هو الخير الوحيد الحقيقي الذي يمنحه الله للإنسان على الأرض .

بيد أن الكونت دي هاغا استأنف حديثه قائلاً :

- مهما كان هذا القول صحيحاً ، فلو قُدّر لي رجل مثلك يا سيّد كاغليوسترو يقول لي : «احذر هذا الرجل أو هذا الشيء» ، لقدّرت رأيه ، وشكرته على نصيحته .

فهزّ كاغليوسترو رأسه هزّاً خفيفاً، وهو يبتسم ابتسامة حزينة. فتابع الكونت دي هاغا حديثه قائلاً:

- في الحقيقة يا سيد كاغليوسترو، نبّهني عن ساعة الخطر وإني أكون لك شاكرا.

- أتريد أن أقول لك ما أخفيته على السيد دي لابيروز؟

- نعم، أريد.

فبدا على كاغليوسترو أنه سيمضي في حديثه عن الكونت، ولكنه توقف قائلاً:

- ولكن، كلا يا سيدي الكونت، كلا!

- إني أتوسّل إليك.

فأدار كاغليوسترو رأسه وتمتم قائلاً: كلا! أبدا!

فقال الكونت وهو يبتسم: خذ حذرك إن موقفك يجعلني عديم التصديق.

- عدم التصديق أفضل من القلق المساور.

فقال الكونت عندئذ بلهجة رصينة: إنك تنسى شيئاً ما يا سيد كاغليوسترو.

- وما هو هذا الشيء يا سيدي الكونت؟

- إذا كان بعض الناس يرى خيراً في أن يجهل مصيره، فإن منهم من هو بحاجة لمعرفة مستقبله، لا سيما إذا كان مصيره لا يهمّه وحده، بل يهمّ أيضاً ملايين الناس.

فقال كاغليوسترو: إذن مرني أمراً، لأنني لن أقول شيئاً دون أمر منك.

- وماذا تعني؟

فخفض كاغليوسترو صوته وقال:

- لتأمرني جلالتكم بما تشاء، وإني لمطيع.

فقال الملك بجلال ولياقة كبيرين: آمرك بأن تكشف لي مصيري، يا سيد كاغليوسترو.

في هذا الوقت الذي قبل فيه الكونت دي هاغا أن يعامل كملك، وقد كشف الستار عن نفسه بالأمر الذي أصدره، نهض ريشاليو من أريكته، وجاء يحيي العاهل بتواضع قائلاً:

- شكراً للشرف الذي أسبغه على بيتي جلالة ملك السويد، يا مولاي. لتحتل جلالتكم منذ الآن موضع الصدارة على المائدة، فقد أصبح منذ هذه اللحظة وقفاً عليكم.

- ليبق كل واحد منا في مكانه يا سيدي الماريشال، ولا نضيعنَّ كلمة واحدة مما سينطق لي به حضرة الكونت دي كاغليوسترو.

- يستحيل قول الحقيقة للملوك، يا مولاي.

- إني لست في مملكتي الآن. عد إلى مكانك يا سيّدي الدوق، وأرجوك ان تتكلم يا سيد كاغليوسترو.

فألقى كاغليوسترو بنظره على قدحه ، فكان فيه كريات تشبه كريات الشمبانيا تتصاعد من قعره إلى سطحه . وكان يبدو أن الماء الذي يحدجه بصبره الحادّ ، إنما يتحرك بفعل إرادته، فقال :

- قل لي يا مولاي ماذا تريد جلالتكم أن تعرف ، فأنا مستعدّ للجواب .

- قل لي أي ميتة سأموت ؟

- بطلق ناري ، يا مولاي .

فتألق جبين غوستاف ملك السويد وقال :

- في ساحة الوغى ، ميتة جندي . شكراً لك يا سيد كاغليوسترو وألف شكر ؛ إني أرى المعارك تملأ ناظري ، ولقد علمني العاهلان غوستاف أدولف وشارل الثاني عشر كيف يجب أن تكون ميتة ملك السويد .

فخفض كاغليوسترو رأسه دون أن يجيب . وعندما شاهده الكونت دي هاغا يفعل ذلك قطّب حاجبيه وسأل قائلاً :

- ماذا ، ألن تُطلق النار عليّ في ساحة الوغى ؟

- كلا ، يا مولاي .

- إذن في إحدى حركات الشغب والعصيان ، بلى ، قد يكون هذا ممكنا .

- ولا هذا يا مولاي .

- أين إذن ؟

- في حفلة راقصة ، يا مولاي .

فأخذ الملك يفكر حالماً .

وكان كاغليوسترو واقفاً ، فجلس في مقعده ودفن رأسه بين يديه . وكانت وجوه الحاضرين تزداد شحوباً حول صاحب النبوءة والشخص المقصود بها . ولقد دنا كوندورسيه من قدح الماء الذي قرأ فيه العرّاف نبوءته المشؤومة ، فأمسكه من كعبه ، ورفعه إلى مستوى عينه ، وأخذ يتفحّص بعناية جوانبه اللامعة ومحتواه العجيب .

وقد رأى المدعوون عينه الذكية الثاقبة تستجوب البلور والسائل الذي يحتويه عن ذلك اللغز الذي كان يتحوّل في عقله إلى مجرّد نظريّة طبيعية .

وفي الواقع فقد كان هذا العالم يراقب قعر القدح ، وانعكاس الضوء على الماء المتقلب فيه . ولما كان يريد سبباً لكل شيء ، فقد راح يسأل نفسه عن سبب ومبرّر تلك البهلوانية التي فرضها على تلك النخبة من الرجال المحيطين بالمائدة رجل مثل كاغليوسترو لا يمكن إغفال شخصيته الغريبة .

وبالطبع ، فإنه لم يجد حلاً لذلك اللغز ، فكفّ عن

تفحص القدح وأعاده إلى المائدة، وقال وسط الذهول الذي كان لم يزل يستولي على نفوس الجميع:

- أرجو، أنا أيضاً، حضرة نبيِّنا الشهير أن يسأل عني مرآته السحرية. فأنا مع الأسف لست بحاكم ذي سلطان، وحياتي الغامضة ليست مرتبطة بحياة الملايين من الناس.

فقال الكونت دي هاغا: إنك تحكم يا سيدي باسم العلم، وحياتك لا تهم شعباً فقط، وإنما الانسانية كلها.

- شكرا يا سيدي الكونت. ولكن رأيك من هذه الناحية قد يختلف عن رأي السيد كاغليوسترو.

عندئذ رفع كاغليوسترو رأسه كجواد نكزه المهماز وقال:

- ليكن ما تشاء أيها المركيز، فأنت عظيم في مملكة الذكاء. هيّا أنظر إلى وجهي: أوتريد حقاً أن أتنبأ بمصيرك؟

قال كاغليوسترو هذه الكلمات بتأثر عصبي، لو رآه الأقدمون لنسبوه إلى الإله الذي يعذبه عندما يوحي إليه.

فأجابه كوندورسيه عن سؤاله قائلاً:

- حقاً أريد يا سيدي الكونت. وإني لمقسم بشرفي!

فسدل كاغليوسترو جفنيه فوق نظره الحاد، وقال بصوت منخفض أصم:

- إنك ستموت يا سيدي، بسمّ خاتمك هذا الذي تحمله في إصبعك. ستموت...

فقاطعه كوندورسيه قائلاً :
- وإذا ما نزعته من إصبعي ورميته بعيداً عني .
- إنزعه وارمه .
- إنك تعترف إذن أن أمر النجاة سهل ؟
- قلت لك إنزعه وارمه .

فهتفت مدام دي بارّي قائلة : بالله أيها المركيز أن ترمي عنك هذا السم الشرير، لا لشيء إلا لتكذيب هذا النبي المشؤوم الذي يعذبنا جميعاً بنبوءاته . لأنك إذا رميته ، فلن تموت به على الأقل . عندئذ يظهر كذب السيد كاغليوسترو الذي ادعى أنك ستموت مسموماً بهذا الخاتم عينه .

فعقّب الكونت دي هاغا قائلاً : إنّ سيدتي الكونتس لعلى حقّ فيما تقول .

وتبعه دي ريشاليو قائلاً : أحسنت قولاً أيتها الكونتس. هيّا ارم أيها المركيز هذا السم عنك ، فإني كلما شربت معك ستعتريني رعشة إذ أنني أعلم أنك تحمل في يدك موت إنسان يقضي عليه محتوى هذا الخاتم الذي قد يفتح في كل لحظة دون إرادة منك .

وقال صوت آخر : لا سيما وإن كأسين يقرع أحدهما الآخر يصبحان متجاورين . فارم أيها المركيز هذا الخاتم ، إرمه !

ولكن كاغليوسترو قال بهدوء :

– لا جدوى مما تقولون ، لأن السيد دي كوندورسيه لن يرمي خاتمه .

– كلا ، لن أنزع هذا الخاتم من إصبعي ، لا لأني أريد أن أساعد القدر المحتوم ، ولكن لأن « كابانيس » ركّب هذا السم الذي لا يوجد مثله بفضل الصدفة ، وقد لا يجد هذه الصدفة مرّة ثانية . لهذا السبب لن أرمي هذا الخاتم ، وليكن النصر حليفك يا سيد كاغليوسترو .

فأجاب كاغليوسترو : يجد القدر دائماً وسطاء مخلصين يساعدونه على تحقيق أحكامه .

فقال عندئذ المركيز دي كوندورسيه : سأموت إذن مسموماً . فليكن ! ليجتنب هذه الميتة من يشاء . أما أنا فإنني أعتبر انك تتنبأ لي بميتة رائعة : قليل من السم على طرف لساني ، ثم أندثر ... هذا ليس بموت . إنه فقط علامة الطَرْح تسبق الحياة ، كما نقول في علم الحساب .

فقال كاغليوسترو بلهجة باردة :

– لا أريدك أن تتألم ، يا سيدي .

وأشار بيده إشارة تدلّ على أنه سيقف عند هذا الحد ، بالنسبة للسيد كوندورسيه على الأقل .

هنا مطّ المركيز دي فاڤرا جسمه فوق المائدة لكي يدنو من كاغليوسترو وقال :

– ذكرت يا سيّدي ثلاث ميتات تحمل الماء إلى الفم : بالغرق والنار والسم . لعلك تتنبأ لي عن ميتة صغيرة من هذا النوع .

فهزّت هذه السخرية كاغليوسترو وقال : من الخطأ يا سيدي المركيز ان تحسد هؤلاء السادة على ميتتهم ، لأنك ، قسماً بشرفي ، ستنال ميتة أفضل .

فضحك دي فاڤرا وقال : أفضل ! خذ حذرك يا سيّدي ، إنك تتعهد ما يفوق طاقتك . لأنه من الصعب ان نجد ما هو أفضل من البحر والنار والسم .

فقال كاغليوسترو بلهجة لطيفة : يبقى غارب الحبل ، يا سيدي المركيز .

– الحبل ! هه ! هه ! ما عساك تقول أيها الرجل ؟ فأجاب كاغليوسترو بنزق نبوي كأنه خارج عن إرادته :

– أقول إنك ستموت مشنوقاً .

فأعاد الحاضرون برعب :

– مشنوقاً ! يا للشيطان !

فقال دي فاڤرا بلهجة خفّت حماستها : لعلّ سيّدي قد نسي أنني من النبلاء ، ولعله يشير إلى حادث انتحار ، لذلك

فإني أنبهه بأني سأتعلق بكرامتي حتى اللحظة الأخيرة ، فلا ألجأ إلى الحبل ما دمت أحمل سيفاً .

- كلا يا سيدي إني لا أشير إلى حادث انتحار .

- أتقصد إذن حادث تعذيب .

- نعم .

- إنك غريب عن هذا البلد يا سيدي ، وإني أغفر لك .

- وماذا تغفر لي ؟

- أغفر لك جهلك . لأنهم في فرنسا يقطعون رؤوس النبلاء قطعاً بالسيف .

- تدبّر هذا الأمر مع الجلاد ، يا سيدي .

وكان هذا الجواب الفظ صاعقاً بالنسبة للمركيز دي فاڤرا ، فصمت على الفور .

وساور التردد جماعة الحاضرين طيلة لحظات ، ثم قال دي لونيه : أتعلم أنني أرتجف الآن ، فقد اختار الذين سبقوني اختياراً سيئاً إذ أصرّوا على كشف طالعهم ، ولا شك أني سأحصل على طالع سيئ فيما إذا ألقيت دلوي في ذات البئر التي ألقوا دلاءهم فيها .

- إنك إذن أعقل منهم ، فلا تريد معرفة المستقبل . إنك على صواب ، لأنه يتوجب علينا ألا نكشف سرّ الله ، أكان خيراً أم شراً .

إلا أن مدام دي باري هتفت قائلة : إيه دي لونيه ، أرجو أن تكون لديك جرأة هؤلاء السادة .

- إني أرجو ذلك ، يا سيدتي .

قالها حاكم الباستيل ، السيد دي لونيه ، وهو يحني قامته باحترام . ثم استدار نحو كاغليوسترو وقال :

- إمنحني يا سيدي هذا الجميل ، واكشف عن طالعي . إني أرجوك أن تفعل .

- هذا أمر سهل : ضربة فأس على الرأس ، وينتهي كل شيء .

فتردد في أرجاء الحجرة صراخ رعب شديد شرع إثره ريشاليو وتافرني يتوسلان إلى كاغليوسترو بأن يقف عند هذا الحدّ . إلا أن فضول مدام دي باري تغلب على محاولتهما إذ قالت :

- يخيّل إلى من يستمع إليك ، يا سيدي الكونت ، أن العالم بأسره سيكون مصيره الموت العنيف . كيف يحصل هذا ، فنحن هنا ثمانية أشخاص ، وقد حكمت بالإعدام حتى الآن على خمسة منا .

فقال السيد دي فافرا محاولاً أن يضحك : إنها ولا شك أحكام متحيّرة ، ولسوف نضحك منها يا سيدتي .

فعقّب الكونت دي هاغا قائلاً : طبعاً سنضحك منها ، إن كانت صائبة أو مخطئة .

فاستأنفت مدام دي بارّي قائلة : أنا أيضاً سأضحك منها ، ولا أريد أن أجعل الجبن يستولي عليّ ويحط من قدري أمام جماعة الحاضرين هنا . ولكنني ، ويا للأسف ، لست سوى امرأة . امرأة لن يكون لها الشرف بأن تصل الى مستوى الميتة المحزنة التي تنتهي بها حياتكم . فالمرأة تموت عادة في سريرها. وستكون ميتتي أسوأ ميتة ، إذ أنتهي ويا للأسف عجوزاً حزينة منسية . أليس كذلك يا سيد كاغليوسترو ؟

وكان التردد يستولي على مدام دي باري وهي تفوه بهذه الكلمات . وكان يدل صوتها وهيئتها على أنها تطلب من كاغليوسترو جواباً يحمل إلى نفسها الاطمئنان . ولكن غاليوسترو لم يفه بشيء :

عندئذ توهج الفضول في نفسها حتى سيطر على القلق، فإذا بها تقول:

- هيّا أجبني يا سيد دي كاغليوسترو .
- كيف أجيبك يا سيدتي ، وأنت لا تسألينني شيئاً ؟

فترددت الكونتس قليلا ، وقالت :

- ولكن ...

فقال كاغليوسترو : تكلمي ، أتسألينني ، نعم أم لا ؟

فأبدت الكونتس جهداً لكي تجيب ، وبعد أن استمدت الشجاعة من ابتسامة الجماعة الملتفة حولها ، هتفت قائلة :

– نعم ، إنني أغامر . قل لي بربك، كيف ستنهي جان دي فوبيرنياه ، أي الكونتس دي بارّي ، حياتها ؟

– على المقصلة يا سيدتي .

– إنك تمزح ! أليس كذلك يا سيدي ؟ تمتمت مدام دي باري هذه الكلمات وهي توجه إلى كاغليوسترو ، النبيّ المفجع ، نظرة متوسلة . ولكن كاغليوسترو كان في أوج حرارته فلم يلاحظ تلك النظرة المتوسلة ، لذلك فقد سأل قائلاً :

– ولماذا تعتقدين أنني أمزح ؟

– لأن المقصلة معدّة لمن يقتل ويفتك بالناس ويرتكب الجرائم ؛ ومن غير المحتمل أن أرتكب جريمة واحدة تستحق هذا العقاب . إنك تمزح إذن ، أليس كذلك ؟

فقال عندئذ كاغليوسترو : يا إلهي ! إنني أمزح كما فعلت في كل ما ذكرت .

فانفجرت الكونتس عن ضحكة يعرف المراقب الذكي أنها مفتعلة وليست طبيعيّة . ثم قالت ساخرة :

– هيّا بنا يا سيد دي فافْرا ، لنذهب ونوصي على مركباتنا الجنائزية .

بيد أن كاغليوسترو تلقّاها بالجواب قائلاً :

– هذه لا تفيد بالنسبة لك ، يا سيدتي .

– ولماذا يا سيدي ؟

– لأنك ستنتقلين إلى المقصلة في عربة هزيلة . فصرخت مدام دي بارّي قائلة : وارعباه ! يا للوغد ! اختر أيها الماريشال مدعوّيك مرة ثانية من قوم ليست لهم هذه الطباع ، أو أنني لا أعود إلى منزلك أبداً .

فقال كاغليوسترو معتذراً : عفوك يا سيدتي ، فأنت أردت ذلك كالآخرين .

– أنا كالآخرين ! ولكنك ستترك لي وقتاً لاختيار معرّفي على الأقل ؟

– سيكون هذا بلا جدوى ، يا سيّدتي .

– كيف هذا ؟

– لأن آخر من يصعد إلى المقصلة بصحبة كاهن يعرّف ، سيكون ...

– ومن سيكون ؟ (هتف الجميع بهذا السؤال .)

– سيكون ملك فرنسا .

لفظ كاغليوسترو كلماته الأخيرة بصوت أجشّ محزن ، فكان وقعها على أسماع الحاضرين كلهاث الموت ؟

عندئذ ساد صمت استمرّ عدّة دقائق ، أمسك خلاله كاغليوسترو بقدح الماء الذي قرأ فيه تلك النبوءات الدموية ، وقرّبه من شفتيه . ولكنه لم يكد يمسّ فمه حتى دفعه عنه بقرف ، وكأنه يدفع كأساً من العلقم . وفيما كان يقوم بهذه الحركة وقعت عيناه على تافرني ، فظن هذا أنه سيتكلم عنه ، فصرخ قائلاً :

– لا تقل شيئاً عن المصير الذي يترقبني ، فأنا لم أطلب هذا منك .

فقال ريشاليو : أنا أطلب هذا بدلاً عنه . فقال كاغليوسترو :

– أما أنت ياسيّدي الماريشال فلا خوف عليك، اطمئن . لأنك الوحيد بيننا الذي سيموت على فراشه .

فقال الماريشال عندئذ وقد أثملته هذه النبوءة :

– هيا ، إلى القهوة أيها السادة ! إلى القهوة !

فنهض الجميع من مقاعدهم .

إلا أن الكونت دي هاغا ، قبل أن يدخل إلى الردهة ، دنا من كاغليوسترو وقال له :

– إني لا أفكر في أن أهرب من القدر يا سيدي . ولكن قل لي : أيَّ شيء عليَّ أن أحذره ؟

– رجلاً أكتع يا مولاي .

فمضى الكونت دي هاغا مبتعداً. فسأل كوندورسيه بدوره قائلاً :

- وأنا ؟

- إحذر قرصاً من العجّة .

- إذن ، لن أتناول بعد الآن البيض . قالها كوندورسيه ثم لحق بالكونت دي هاغا .

فقال دي فاڤرا : وأنا ، ما عليّ أن أخشى ؟

- رسالة .

- شكرا .

ثم سأل دي لونيه بدوره :

- وأنا .

- أنت ، يجب أن تخشى احتلال الباستيل .

- ما دام الأمر كذلك ، فأنا بغاية الاطمئنان .

ثم ابتعد وهو يضحك . فقالت الكونتس وهي مضطربة :

- الآن دوري يا سيدي .

- أنت أيتها الكونتس الجميلة ، عليك أن تحذري ساحة لويس الخامس عشر .

فقالت الكونتس :

- هذه الساحة ، ضعت فيها ويا للأسف ، في يوم من الأيام . وقد تألمت يومئذ كثيراً ، وإنما كنت قد أضعت رأسي .

– وسيضيع رأسك فيها مرّة ثانية ، ولكنك ، هذه المرة ، لن تعثري عليه .

فصرخت مدام دي بارّي ، وهربت نحو الردهة لتنضمّ إلى سائر المدعوين .

وهمّ كاغليوسترو أن يتبع رفاقه ، غير أن الدوق دي ريشاليو استوقفه قائلاً :

– انتظر لحظة يا سيدي العرّاف العزيز ، فلم يبق سوى تافرني وأنا ، فلم تقل لنا شيئا .

– توسل إليّ دي تافرني كي لا أقول له شيئاً ، أما أنت ، فلم توجه إلي سؤالاً يا سيدي الماريشال .

فضمّ تافرني يديه وهتف قائلاً : وإني أتوسّل إليك من جديد يا سيدي .

إلا أن الماريشال دي ريشاليو استطرد سؤاله قائلاً :

– برهاناً على قدرتك الفذّة ، أن تقول لنا شيئاً نعرفه نحن الاثنين فقط ؟

فابتسم كاغليوسترو وقال : أي شيء تريد ؟

– أن تقول لنا ما الذي كان يفعله تافرني ، هذا الرجل الطيب ، في فرساي ، بدل أن يعيش بأمان واطمئنان في أرضه الجميلة ، أرض « القصر الأحمر » ، التي أعاد الملك شراءها له منذ ثلاث سنين ؟

- لا شيء أسهل من هذا يا سيدي الماريشال. فالسيد تافرني كان يرغب منذ عشر سنوات في أن يزوج ابنته أندريه للملك لويس الخامس عشر. ولكنه لم يفلح.

فصرخ تافرني صرخة ذهول ودهشة، ولكن كاغليوسترو تابع يقول:

- واليوم يريد سيّدي أن يقدّم ابنه فيليب دي تافرني للملكة ماري أنطوانيت. اسأله إذا كنت أكذب.

فقال تافرني وهو يرتجف:

- والله، ليخطفني الشيطان إذا لم يكن هذا الرجل ساحراً!

فقال الماريشال دي ريشاليو: لا تتحدث بمثل هذه الفروسية عندما تذكر الشيطان، أيها الصديق القديم.

إلا أن تافرني كان يتمتم قائلاً: إنه ساحر مرعب! مرعب! ثم استدار نحو كاغليوسترو لكي يرجوه مرّة أخيرة عدم البوح بأسراره. ولكن كاغليوسترو كان قد توارى عن بصره.

هنا قال الماريشال دي ريشاليو: هيّا يا تافرني إلى الردهة، لأن رفاقنا سيشربون القهوة دوننا، أو سنشربها باردة، وهذا أسوأ الحالين.

ثم أسرع راكضاً نحو الردهة.

ولكن الردهة كانت خالية ، لأن أحداً من المدعوين لم تبق لديه الجرأة للنظر إلى وجه كاغليوسترو ، صاحب النبوءات المخيفة .

وكانت الشموع تحترق في شمعداناتها ، والقهوة تدخّن في إبريقها النحاسي ، ونار الحطب تصفر في المدخنة دون ان يصطلي عليها أحد .

وعندما شاهد ريشاليو ذلك قال لصاحبه :

– يبدو أيها الصديق القدير ، أننا سنحسو القهوة أنا وأنت وحيدين ... ولكن ، يا للشيطان ، إلى أين ذهبت ؟!

وشرع ريشاليو يبحث عن صديقه في كل ناحية من الردهة ، ولكن عبثاً ، لأن الشيخ الصغير كان قد انسلّ فراراً كالآخرين . فأخذ الماريشال يضحك مثل فولتير ، ويفرك يديه الجافتين البيضاوين المثقلتين بالخواتم ويقول :

– سيّان إن مكث الجميع أم رحلوا ! فأنا وحدي ، بين مدعويّ ، سأموت على سريري . أجل على سريري. إني أصدقك يا سيد كاغليوسترو : إني سأموت على سريري ، وبعد عمر طويل .

ثم رفع صوته منادياً : هيّاً أيها الحاجب ، تعال واجلب معك القطرات ...

فدخل الحاجب وهو يحمل قمقما في يده، ثم انتقل الاثنان إلى غرفة النوم.

امرأتان مجهولتان

★

كان شتاء ١٧٨٤ الغول الذي ازدرد سدس سكان فرنسا. هذا الغول لم نستطع رؤيته في منزل الكردينال دي ريشاليو، رغم أنه كان يزمجر على الأبواب، لأننا كنا قابعين في قاعة الطعام الدافئة المطيبة بالعطور. أما بعض الجليد على زجاج النوافذ، فهو بذخ في الطبيعة يضاف إلى بذخ الناس. فبالنسبة للغني المغلَّف بفرائه، أو الغارق في دفء مركبته، أو المحاط بالصوف والمخمل في قاعات منزله الساخن، ليس الشتاء أكثر من زينة تزدان بها الطبيعة: إنه جواهر منثورة هنا، ووشي مطرز بالفضة منشور هناك. وما الثلج سوى مظهر من مظاهر الأبهة، وما العاصفة وما ينتج عنها سوى تغيير في زينة الطبيعة يجري على يد ميكانيكي أزلي اسمه الله، ويشاهده الغني من خلال زجاج نوافذه.

إن الذي يشعر بالدفء، يأنس بمشاهدة الأشجار السوداء، ويجد متعة في مناظر السهول التي تنضح برائحة الشتاء.

والذي تتصاعد إلى مخّه روائح الغداء الذي يكون بانتظاره، يستطيع أحياناً أن يستنشق من خلال نافذته المشقوقة أنفاس ريح الشمال، وبخار الثلوج الباردة التي تجدّد بناتِ أفكاره.

والذي يذوق العذاب نهاراً، وقد ذاق أهواله ملايين المواطنين، ثم يعود في المساء فيمدّد جسمه تحت أغطية الصوف الوثير الناعم في سريره الدافئ، مثل هذا يشبه ذلك الأناني الذي ذكره «لوكريس» ومجّده «فولتير»، وهو الذي يجد كل شيء حسناً في أفضل عالم ممكن.

ولكن الذي ترتعد فرائصه من البرد لا ينعم بشيء من بدائع الطبيعة، وسيّان عنده إن ارتدت معطفها الأبيض، أو معطفها الأخضر.

والجوعان يبحث عن الأرض ويهرب من منظر السماء التي اختفت منها الشمس، لأن الشقي لم يعد يعثر فيها على البسمة التي هو بحاجة إليها.

في ذلك الحين الذي وصلنا إليه، أي في منتصف شهر نيسان، كان ثلاثمئة ألف بائس يموتون من البرد والجوع،

ويزفرون زفرات الألم ، في مدينة باريس وحدها ، حيث لم يحضّر شيء يقي الفقراء من الهلاك برداً وجوعاً ، بحجة أن جميع المدن خلت من أهل السعة والنُعمى .

ومنذ أربعة أشهر ما برحت سماء الشتاء الصلدة المكفهرة تطرد البؤساء من القرى إلى المدن ، تماماً كما اعتاد الشتاء أن يطرد الذئاب من الغابات إلى القرى .

وقد فُقد الخبز ، وفقد الحطب . الخبز للذين يحتملون البرد ، والحطب للذين يصنعون الخبز .

وخلال شهر واحد ، التهمت باريس كل مؤونتها .

ولم يكن وزير التجارة الجاهل القاصر ، والذي كانت مدينة باريس في عهدته ، يستطيع تأمين مائتي ألف حمل من الحطب ، يكدّسها لحين الطلب على بعد عشرة فراسخ حول العاصمة .

وكان يتذرّع بشتّى الأعذار : فعندما ينعقد الجليد ، يمنع الجليد الخيل عن السير . وعندما يذوب الجليد ، تقلّ العربات والجياد التي تجرها . وكان الملك لويس السادس عشر ، على طيبته وإنسانيته ، أول من يشعر بحاجات الشعب المادية ، وإن كانت تفوته غالباً حاجاته الاجتماعية . لذلك فقد بدأ بتخصيص مبلغ مائتي ألف ليرة لاكتراء العربات والجياد ، ثم

ما لبث أن فرض عليها قانون المصادرة لكي تعمل في نقل الحطب الى المدينة .

ولكن سرعان ما أخذ الباريسيون يستهلكون ما يرد من الحطب . فكان من الواجب فرض التقنين على المشترين الذين حُرّم عليهم أن يشتروا من المستودعات أكثر من حمل واحد ، ثم ما لبثت الكمية أن نزلت إلى نصف حمل . فراح الناس يصطفّون في حبالٍ طويلة أمام أبواب المستودعات ، كما سنشاهد بعد حين حبالهم الطويلة ممتدّة أمام أبواب المخابز .

وأنفق الملك أموال خزينته على الحسنات ، ثم سحب ثلاثة ملايين ليرة من مدخولات الجمارك وأنفقها على أصحاب الفاقة لكي يخفف عنهم وطأة البؤس ، معلناً أنه يتوجب على كل الضرورات أن تستسلم وتصمت أمام ضرورتي البرد والجوع .

أما الملكة فقد تبرّعت من جانبها بخمسماية ذهبية من وفرها الشخصي . وقد حوّلت الأديرة والمستشفيات والمنتديات العامة إلى ملاجئ يأوي إليها الفقراء والمشردون . وكذلك فتح النبلاء أبواب قصورهم الكبيرة ، على غرار ما جرى في القصور الملكية ، لتستقبل في مضافاتها الواسعة الفقراء الذين يدخلونها للقرفصة حول النار .

على هذه الطريقة كان الأمل معقوداً للتغلب على قساوة الجليد ريثما يذوب.

بيد أن السماء كانت لا تخضع ولا ترحم. فكان في كل مساء حجاب نحاسيّ ينبسط على الأفق، وكانت النجوم التي تظهر فيما ندر، تلمع جافّة باردة كقناديل الموت. وكانت أنفاس الليل الباردة تكثّف، في بحيرة من الماس الأبيض، الثلج الشاحب اللون الذي كان بعضه قد سال تحت أشعة شمس الظهيرة.

وكان ألوف العمّال أثناء النهار يجرفون الثلج والجليد أمام البيوت، مكدّسين منه حواجز عالية سميكة كانت تسدّ نصف الشوارع التي كان أكثرها ضيقاً من أساسه. ولشدّ ما كانت العربات الثقيلة بدواليبها الملساء الزالقة، والجياد المتعتعة التي تتساقط في كل لحظة من شدّة الجوع، تدفع نحو جدران الثلج المارة الذين كانوا معرّضين لأحد الأخطار الثلاثة منفصلة أو مجتمعة: السقوط، أو الاصطدام، أو انهيار حواجز الثلج والجليد عليهم.

وبعد حين ازدادت تلك الكتل الثلجية حتى حجبت أبواب الحوانيت، وسدّت الممرات، إذ اضطرّ العمال إلى التوقف عن الجرف، لأن قواهم نضبت، ولأن وسائل الجرف لم تعد كافية.

فاعترفت باريس بهزيمتها ، وسلّمت أمرها للشتاء يفعل بها ما يشاء. فانقضت أشهر أربعة ، هي كانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار ، على هذا المنوال . وكانت تنفرج السماء يومين أو ثلاثة ، فيتحول ذوبان الثلج في باريس إلى أوقيانوس رهيب ، لا سيما وأن المدينة كانت خالية من المجارير والسفوح التي تسيل عليها المياه . فكان يستحيل اجتياز بعض الشوارع إلا سباحة ، وكانت جياد كثيرة تضيع فيها وتغرق ؛ أما المركبات فقد تحوّلت فيها إلى زوارق .

ولكنَّ باريس ، وفقاً لسجيّتها ، راحت ترنّم ترانيمها للموت عند ذوبان الجليد ، كما كانت ترنّم للموت يوم استبدّ بها الجوع . فكان الناس ينتقلون في شبه مهرجان إلى الأسواق ، ليشاهدوا بائعات السمك يبعن بضاعتهن ، وهن يركضن خلف الزبائن بجزماتهنّ الجلدية الضخمة ، وسراويلهنّ المحشورة في شوق جزمهنّ ، وتنانيرهنّ المقلوبة حتى زنانيرهن ، وكلهنّ ضاحكات مرحات ، ينثرن بعضهنّ البعض بمياه المستنقعات التي يغصن فيها . ولما كانت أوقات الذوبان قصيرة ، فيعود الجليد بتصميم أشد وكثافة أسمك ، وتتحول بحيرات العشية إلى كتلة من البلور الزلق في صباح الغد ، فقد كانت المركبات تنقلب إلى زلاّجات يشدّها عدّاؤون أقوياء ، أو تجرها جياد أُنعلت قوائمها بالحديد المسنن،

هناك في عرض الشوارع التي انقلبت إلى مرايا متصلة ومتماسكة .

ولطالما تجمد نهر السين إلى عمقِ عدّة أقدام ، فكان ملتقى العاطلين عن العمل ، يلتقون فوقه ويقومون بتمارين العدو والسقوط والتزحلق والانزلاق وغيرها من الألعاب . وكان هؤلاء عندما يشعرون بالتعب وبالحرارة تجري في عروقهم ، بفضل تلك الرياضة الصعبة ، كانوا يهرعون إلى أقرب مكان تشتعل فيه النار ، فيصطلون عليها ، خوفاً من أن يجمد العرق على أبدانهم .

ولكن الناس أصبحوا يلمحون الكارثة تتهدّد باريس ، إذ تنقطع عنها المواصلات بطريق الماء واليابسة ، وتنقطع المؤن من الوصول إليها ، فيهوى عندئذ ذلك الجسم الضخم على نفسه بسبب نفاد القوت . شأن باريس في ذلك شأن تلك الحيتان الضخمة التي تجلو عن مناطقها إلى مناطق أخرى ، فيحيط بها جليد القطب ويسجنها في جوفه ، فتهلك هناك لأنها لم تفلح في الهرب من الشقوق الضيقة ، كما تفعل الأسماك الصغيرة ، لكي تعود إلى مناطق أكثر اعتدالاً وأوفر صيداً .

وعندما رأى الملك أن الضائقة بلغت أوجها ، دعا مجلسه إلى الاجتماع . فتقرر أن يُجلى عن باريس ، بطريق الإقناع ، جميع الأحبار والكهنة والرهبان لكي يعودوا إلى مناطقهم .

وكذلك الحكام ومدراء المناطق الذين جعلوا من مدينة باريس مركزا لإداراتهم . وأخيراً القضاة الذين كانوا يفضلون دور الأوبرا والمجتمع الباريسيّ على أرائكهم الموشاة بالسوسن وغيره من الأزهار .

فقد كان جميع هؤلاء الناس في الواقع يستهلكون كثيراً من الحطب في قصورهم الغنية ، وكثيراً من المؤن في مطابخهم الواسعة .

وكان يقطن في باريس أيضاً الأسياد الإقطاعيون ، وقد تقرّر أن يُصرفوا إلى قصورهم في المناطق البعيدة أو القريبة من باريس . ولكن مدير البوليس ، السيد لونوار ، لفت نظر الملك إلى صعوبة إجلاء جميع هؤلاء الناس عن باريس بين ليلة وضحاها ، لأنهم لم يرتكبوا جريمة تبرر هذا القرار . ومن ثمّ فإن جلاءهم سيستغرق وقتاً طويلاً ، بسبب تلكؤهم وصعوبة المسالك في الطرقات ، فيسبق ذوبان الثلج أية إفادة من هذا الإجراء الذي قد ينجم عنه مشاكل كثيرة .

بيد أن الشفقة التي أبداها الملك وقد كلفته فراغ خزائنه ، والعطف الذي أبدته الملكة وهدرت بسببه كل وفرها ، أثار عرفان الجميل عند الشعب . فكما كان الجنود قديماً يصنعون شعائر الظفر من أسلحة العدو ، ويقدّمونها لقائدهم الظافر الذي يكون هو نفسه قد سلمهم إيّاها ، هكذا فعل

الباريسيّون، إذ راحوا ينصبون للملك والملكة، في ساحة القتال ذاتها حيث كانوا يناضلون ضد الشتاء، مسلاتٍ تذكارية من الثلج والجليد. ولقد ساهم الجميع بصنع هذه المسلات، فقدّم الصانع ذراعيه، والعامل خبرته، والفنان موهبته. فارتفعت المسلات متشامخة صلدة في كل زاوية من الشوارع الرئيسية. ولم يمتنع رجال الأدب المساكين، من الذين لحقهم إحسان الملك إلى تخاشيبهم البائسة، عن تقديم كتاباتهم لتلك المسلات، وقد نصّتها قلوبهم أكثر مما نصها ذهنهم.

وبدأ الذوبان في أواخر شهر آذار، ولكنه كان ناقصاً وغير شامل. هذا فضلاً عن الجليد الذي كان يعود بين فترة وأخرى، فيطيل عهد البؤس والألم والجوع، في مدينة باريس التي ظلت تحتفظ بمسلاّت الثلج الصلبة.

ولم تكن الفاقة يوماً أشدّ قسوة مما كانت عليه في تلك الفترة، لأن الشمس الفاترة التي كانت تشرق في فترات متقطعة، كانت تجعل ليالي الريح والجليد أبهظ ثقلاً على كواهل الناس. أما الطبقات الكثيفة من الجليد فقد ذاب معظمها وجرى ماؤها في نهر السين الذي فاض على ضفتيه في كل مكان. ولكن الأيام الأولى من شهر نيسان عادت فشهدت موجة جديدة من البرد الذي ذكرناه، فإذا بالمسلاّت

التي سال رشحها على جوانبها مؤذناً باندثارها ، تتجمّد من جديد ، بعد أن ذاب نصفها ، بأحجام مصغَّرة مشوهة . وعادت طبقة جميلة من الثلج فغطت الشوارع والأرصفة ، فإذا بالزلاّجات تظهر ثانية مع جيادها المرتجفة من البرد ، جاذبة بمنظرها العجيب أنظار الباريسيين .

وفي الشوارع الضيقة كانت المركبات والعربات الصغيرة تثير الرعب في قلوب المشاة على أرجلهم ، لأنهم كانوا لا يسمعون صوتها ، ولا يستطيعون الفرار من طريقها بسبب حواجز الجليد ، فيسقطون في أكثر الأحيان تحت دواليبها التي لا ترحم .

وفي أيام قليلة امتلأت باريس بالجرحى والمنازعين ، فكانت ساق تنكسر هنا على الجليد ، وصدر ينسحق هناك بصندوق عربة مسرعة لم تستطع التوقف بسبب الجليد أيضاً . لذلك شرع رجال البوليس يبذلون جهدهم لكي ينقذوا من الدواليب أولئك الذين نجوا من البرد والجوع والفيضانات . وقد فرضوا جزية على الأغنياء الذين كانوا يسحقون بعرباتهم الفقراء . ذلك أن الارستقراطية كانت سائدة في ذلك العهد ، وكانت تلك الارستقراطية تظهر حتى في طريقة قيادة الخيل : فكان الأمير يترك للخيل أعنّتها دون أن يحمّل نفسه عناء تنبيه الناس ، وكان الدوق والسريّ والنبيل وراقصة دار الأوبرا

يجرون بالخيل جرياً سريعاً ، وكان المدراء وخبراء المال يجرون بجيادهم نصف جري . أما معلم المدرسة البسيط فقد كان يقود عربته بنفسه ويجري بها جري من يذهب إلى الصيد ، فيما كان جوكيّه من خلف يهتف بالناس أن يحذروا ، ولكن بعد أن يكون المعلم قد جرّ بعربته بائساً أو قلبه إلى الأرض .

ولم يكن الباريسيّ يحفل بهذه الأخطار ، شرط أن يشاهد الزلاّجات الجميلة ، بأعناقها التي تشبه أعناق طيور البجع البيضاء ، وهي تنزلق بسرعة فوق الشوارع . وأن يشاهد نساء البلاط الجميلات ، المغلّفات بمعاطف الفرو ، يعبرن كالنجوم المذنبة في مسالك الجليد اللامعة . وأن يصطفّ أولاده على ممرّ هذه الأشياء الجميلة ، لكي يتسلوا بمنظر الجلاجل المذهبة في أعناق الجياد ، والشباك الارجوانية وغدائر الريش التي تزيّنها . وهكذا فقد كانت هذه المشاهد تجعل البورجوازي ينسى تغافل رجال البوليس ، وفظاظة سائقي العربات. وكان الفقير من ناحيته ينسى، لبعض لحظاتٍ على الأقل ، بؤسه المدقع ، لا سيما وأنه كان في ذلك العهد لا يزال معتاداً على الخضوع للأغنياء ومن ماثلهم .

في تلك الظروف التي وصفناها ، وبعد ثمانية أيام من الوليمة التي أولمها الماريشال دي ريشاليو في قصره بفرساي ، وفي يوم بارد ولكنه جميل بشمسه المشرقة ، شاهد الباريسيون

أربع زلاّجات أنيقة المنظر تدخل إلى مدينة باريس ، زالقة على الثلج المتجمد الذي كان يغطي ساحة « كورلارين » ، وطرف الشوارع الممتدة من ساحة « الشانزيليزيه » . وبالطبع فقد كان الثلج خارج باريس يحتفظ بنصاعته وقتاً طويلاً ، أمّا في باريس ذاتها فقد كانت ألوف الأقدام ، في مدى ساعة واحدة ، تدنّس وتلطخ بالسواد معطف الشتاء الرائع .

أما الزلاّجات الأربع فقد جرت قليلاً فوق الطريق الصلدة ، ثم توقفت في الشارع عندما أخذ الوحل يحلّ محلّ الثلج . وفي الواقع ، فقد كانت شمس النهار قد عدّلت الجو ، فبدأ الثلج يذوب ذوباناً مؤقتا . ونقول مؤقتاً ، لأن نقاوة الهواء كانت تنذر الليل بتلك الريح الشمالية القارسة التي تحرق في نيسان باكورة أوراق الشجر وباكورة الأزهار .

وكانت الزلاّجة الأولى التي تسير في الطليعة ، تقلّ رجلين يرتديان معطفين فضفاضين من الجوخ الأسمر ، وصورتين ثمينتين كان الفارق بينهما ان إحداهما كانت مزررة بأزرار ذهبية .

وكان جواد أسود ، ينفخ من منخريه دخاناً كثيفا ، يجر زلاجة الرجلين ، اللذين كانا يلتفتان أحياناً إلى الزلاجة التي تتبعهما ، وكأنهما قائمان على حراستها .

أما الزلاجة الثانية فقد كانت تحمل امرأتين تتدثّران الفرو وقد سترتا وجهيهما عن أعين الناس. فلولا تسريحتهما العالية التي تنتهي بقبعة صغيرة ذات ريش، لما عرف الناس أن هذين الشخصين هما امرأتان.

وكانت سحابة من البودرة البيضاء تنطلق من تلك التسريحتين اللتين تشبهان بناءً ضخماً، واللتين جدلتا بالشرائط والحلى الصغيرة، كما تنطلق سحابة ثلج من شجرة هزّت الريح أغصانها.

وكانت السيدتان الجالستان ملتصقتين إحداهما بالأخرى، تتحدّثان دون اكتراث بالمتفرجين الكثيرين الذين كانوا ينظرون إليهما وهما تنزلقان في الشارع. وقد فاتنا أن نشير إلى استئنافهما السير بعد لحظة قصيرة من التوقف والتردد.

وكانت إحداهن، وهي الأكبر سنّاً والأكثر مهابة، تحجب فمها بمحرمة من البتيستا النحيفة المطرزة، وتسير ورأسها مستقيم ثابت في اتجاهه بالرغم من الريح التي كانت الزلاّجة تشقّها أثناء عدوها السريع. وها هي الآن ساعة كنيسة «الصليب المقدّس» تدقّ الخامسة مساء، وتنذر بدنوّ الليل الذي أخذ ينتشر فوق باريس حاملاً معه البرد القارس.

وكان ركب الزلاّجات قد اقترب في هذه اللحظة من باب كنيسة «سان دنيس»، فإذا بالسيدة التي تغطي فمها بمنديل

تشير إشارة إلى الرجلين اللذين كانا يجريان في المقدّمة ، فإذا بهما يحثان خطى الجواد الأسود فتنفصل زلاجتهما وتبتعد عن زلاّجة السيدتين .

ثم استدارت السيّدة نحو زلاّجتي المؤخرة وأشارت لهما إشارة سرعان ما فهمها السائقان ، فأطاعا الأمر ولجّا في السير حتى غابا في شارع « سان دنيس ».

أما زلاّجة الرجلين التي كانت تسير في الطليعة ، فقد سبقت زلاجة السيدتين كما رأينا ، وتوغلت في ضباب المساء الذي كان يزداد تكاثفاً حول بناء الباستيل الضخم .

ولم تلبث زلاَّجة السيدتين أن توقفت عند وصولها إلى جادّة « منيلمونتان » . فالمشاة الذين يطلبون النزهة هناك كانوا نفراً قليلاً ، وقد فرّقهم الليل شَذَر مَذَر . وعلى كل حال فقد كان عدد قليل من البورجوازيين يغامرون في الدخول إلى هذا الحي البعيد ، دون أن يصطحبوا معهم الخفراء والفوانيس ، لأن الشتاء كان قد شحذ أضراس ثلاثة أو أربعة آلاف من المتسوّلين المشبوهين ، الذين انقلبوا بين ليلة وضحاها إلى لصوص .

عندما وصلت الزلاّجة إلى هذا الحي نقرت المرأة ، التي رأى قراؤنا أنها توزع الأوامر ، على كتف السائق فأوقف زلاّجته في الحال . فخاطبته السيّدة قائلة :

– كم يلزمك من الوقت يا « ويبار » لكي توصل العربة إلى المكان الذي تعرفه ؟

فأجابها السائق بلهجة ألمانية سليمة: تريد سيدتي ان تنزل من العربة ؟

– نعم ، لأنني سأعود مشياً على الأقدام في الشوارع الفرعية لأشاهد مواقد النار . ويستحيل على الزلاّجة أن تجري في هذه الشوارع الموحلة . ومن ثَمَّ فقد شعرت بالبرد . وأنت أيضاً أيتها الصغيرة ، أليس كذلك ؟

وكانت عبارتها الأخيرة هذه موجّهة إلى رفيقتها التي أجابت قائلة :

– نعم ، يا سيدتي .

– فهمت إذن يا « ويبار » ؟ إمضِ بالزلاجة إلى المكان المحدّد .

– كما تشائين يا سيدتي؟

– كم يلزمك إذن من الوقت؟

– نصف ساعة .

– حسناً ، انظري الساعة أيتها الصغيرة .

فبحثت أصغر السيدتين في فروتها ، ثم نظرت إلى الوقت في ساعتها ، ولكن بصعوبة لأن الظلام كان قد تكاثف ، وقالت :

– إنها السادسة إلا رُبعاً .

– نلتقي إذن في الساعة السابعة إلا ربعاً ، يا ويبار .

وقفزت السيدة بلطف إلى خارج الزلاّجة ، وأمسكت يد رفيقتها وشرعتا تبتعدان في الشوارع ، وقد أخذ السائق يتمتم بصوت عالٍ وباحترام يائس هذه الكلمات التي سمعتها سيدته :

– إنها مجازفة ، يا الهي ! إنها مجازفة !

فضحكت السيدتان ، والتفّتا جيداً في فروتيهما اللتين كانتا تغطيان أذنيهما ، ثم عبرتا الطريق المتفرّع من الجادّة باتجاه معكوس ، وهما تتسليان بصفع الثلج بأقدامهنّ الصغيرة المنتعلة أحذية مبطنة بالفرو .

وكانت السيدة التي تبدو أكبر سنّاً من رفيقتها لا يزيد عمرها عن الثلاثين أو الاثنتين والثلاثين ، وقد قالت لرفيقتها :

– أنت عيناك حادّتان ، فحاولي أن تقرإي في تلك الزاوية اسم هذا الشارع . فقالت رفيقتها وهي تضحك :

– إنه شارع « بونتوشو » .

– ما هذا الشارع ؟ يا إلهي ! لقد ضللنا السبيل . شارع بونتوشو ! قالوا لي الشارع الثاني إلى اليمين . ولكن أتشمّين يا أندريه ما ألذّ رائحة الخبز في هذا الشارع الذي نحن فيه ؟

– لا تعجبي للأمر ، فنحن على باب خبّاز .

– إذن فلنسأله أين يقع شارع « سان كلود » . واتجهت السيدة التي تكلمت نحو الباب، ولكن رفيقتها استوقفتها قائلة :

– مهلاً ! لا تدخلي يا سيدتي ! دعيني أنا أفعل .

وإذا بصوت فَكِه يقول في الحال : تسألان عن شارع « سان كلود » يا سيدتيّ اللطيفتين ؟ أتريدان أن تعرفا أين يقع هذا الشارع ؟

فاستدارت السيدتان معاً باتجاه الصوت ، فشاهدتا عاملاً خبّازا يسند ظهره إلى باب الفرن ، وقد ارتدى سترة طويلة ، وظلَّ صدره وساقاه مكشوفين بالرغم من البرد القارس .

فهتفت أصغر السيدتين قائلة : رجل عارٍ ! تُرى هل نحن في أوقيانيا ؟

ثم خطت خطوة إلى الوراء واختبأت في ظل رفيقتها . إلا أنَّ الخبّاز لم يفهم معنى حركتها لأنه كان معتاداً على زيّه هذا ، لذلك فقد تابع قائلاً :

– إنكما تبحثان عن شارع سان كلود ؟

– نعم يا صديقي ، إننا نبحث عن شارع سان كلود .

أجابت بهذا أكبر السيدتين ، وهي تتمالك نفسها من أن تضحك .

– هذا أمر سهل . على كل حال سأقودكما إليه .

تلفظ بهذا الفتى الخبّاز المرح ، الملطخ بالدقيق المتناثر عليه ، وشرع يقرن القول بالعمل ، ففكّ بيكار ساقيه الطويلتين الهزيلتين اللتين كانتا تنتعلان حذاء عريضاً هو أشبه ما يكون بزورق . ولكنّ كبرى المرأتين التي لم تكن تفكر بلقاء مثل هذا الدليل أسرعت إلى إيقافه قائلة :

– كلا ! كلا ! دلنا على الشارع ولا تزعج نفسك ، فسنحاول أن نتبع إشارتك .

فانكفأ الغلام عندئذ بتحفظ وهو يقول :

– إنه الشارع الأول ، إلى اليمين ، يا سيدتي .

فأجابت المرأتان معاً : شكرا .

ثم راحتا تعدوان بالاتجاه المشار إليه ، وهما تخنقان ضحكهما خلف كمّيهما .

منزل من الداخل

★

كان شارع سان كلود سنة ١٧٨٤، قليل الإنارة والوضوح ، يطرقه ويسكنه ويعرفه عدد قليل من الناس . ولكنه يحمل اسم « سان » أي قدّيس ، ويقع في حي « ماريه »

المعروف بفنادقه القديمة. وبصفته هذه كان يضمّ في المنازل الثلاثة أو الأربعة التي يتألف منها عدداً من ذوي الدخل المحدود المساكين، والتجّار المساكين، والفقراء المساكين الذين أُسدل عليهم ستار النسيان.

وبالإضافة إلى تلك المساكن الثلاثة أو الأربعة، فقد كان يقوم في زاوية الجادّة فندق عليه مسحة من الأبّهة، يستطيع شارع سان كلود أن يتباهى به كبناء أرستقراطي. ولكن هذا البناء كان يفوق كلّ ما حوله اسوداداً وصمتا، كما أنه كان لا يفتح أبوابه ونوافذه أبداً. ولو أنه فُتح وأُنير في يوم عيد من الأعياد لكانت نوافذه العالية كافية لأن تُغرق الشارع بأسره بالضياء المنبعث من الشمعدانات والثريّات.

ولكن أبوابه كانت دائماً مقفلة ونوافذه مغلّفة بالجلد. وكان الغبار يغطّي ثنايا درفه بطبقة سميكة لو رآها عالم طبيعي أو جيولوجي لحكم أن عهدها يعود إلى عشر سنين.

وكان في بعض الأحيان يمرّ أمام بابه العريض المعدّ لدخول العربات، عابر سبيل لا يشغله شاغل، أو فضوليّ أو جار، فيقتربون من الباب العريض ويتفحّصون من خلال قفله الواسع داخل الفندق. ولكنهم لا يبصرون سوى العشب ينمو في عَرَصَاته، والعفن والخضرة المتأتيّة من الرطوبة يغطّيان بلاطاته العريضة. وكانوا يشاهدون أحياناً، جُرَذاً كبيراً يجتاز

باطمئنان ساحة الفندق السائب وكأنه صاحبه المتصرّف به على هواه ، ثم يتوغّل في الأقبية ، وهذا بالطبع تواضع منه لا مبرّر له لأن الحجرات المريحة كانت ملك يديه ، فيمرح فيها كما يشتهي دون أن يقلقه أو يتربّص به هرّ من الهررة .

وإذا كان المارّ من هناك فضولياً أو عابر سبيل ، فإنه كان يتابع طريقه بعد أن يشفق في نفسه للوحشة التي يغرق فيها الفندق . وإذا كان جاراً فقد كان يتوقّف عنده باهتمام أشدّ ، مطيلاً إليه النظر إلى أن يدنو منه جار آخر له ذات فضوله ، فيقوم بينهما في أكثر الأحيان تقريباً حديث نستطيع أن نذكر محتواه إن فاتتنا تفاصيله .

فيقول أحدهما للذي ينظر في القفل : ماذا عساك تشاهد أيها الجار في منزل الكونت دي بلسامو ؟

- إني أرى الجُرذ ، أيها الجار .

-آه ! إسمح لي أن أنظره .

ويتقدّم الفضوليّ الثاني ويحتلّ مكانه أمام القفل . فيسأله رفيقه :

- هل رأيته ؟

- نعم إني أراه . ولكنه قد سَمُنَ يا سيّدي .

- أتظنّ هذا ؟

- نعم ، إني متأكد .

– أعتقد أن لا شيء يزعجه هنا .

– طبعاً ، ولا بدّ أنه يجد طعاماً وافراً في المنزل .

– طعاماً وافراً تقول ؟

– يا الله ! لقد بكّر السيد دي بلسامو في رحيله ، ولا بد أنه ترك أشياء كثيرة .

– ولكن أيها الجار ما عسى يظلّ في بيت احترق نصفه ؟

– قد يكون الحقّ في جانبك أيها الجار .

وبعد أن ينظر الجاران مرّة ثانية إلى الجُرذ يفترقان وقد استبدّ بهما الخوف من كثرة ما قالا في مثل هذا الموضوع الغامض الدقيق .

وفي الواقع غاب جوزف بلسامو بعد أن أتى الحريق على هذا المنزل ، أو على قسم منه ، وقد ظَلَّ سائباً فلم يجرِ فيه أيّ إصلاح أو ترميم .

ولنترك الآن هذا المنزل القديم الذي لم نشأ أن نمرّ به دون أن نقف أمامه كما نقف أمام شيء نعرفه من قديم . لنتركه يبرز على صفحة الليل قاتماً رطباً بشرفاته المغطاة بالثلج وسقفه الذي التهمت بعضه ألسنة اللهيب . ثم لنقطعنّ الشارع من اليسار إلى اليمين ولنتطلع إلى منزل ضيق عالي الجدران يلتصق بحديقة صغيرة مقفلة داخل جدار كبير ، ويتوغّل ارتفاعاً في كبد السماء المغبرّة الزرقاء وكأنه حصن أبيض شاهق .

وإنك لترى في قمّة هذا المنزل مدخنة تتطاول كقضيب الصاعقة، ونجمة في رأس المدخنة تماماً تلمع وتتوهج.

وكان الطابق العلويّ من المنزل يكاد يتوارى في الفضاء لولا أن شعاعاً من النور كان ينطلق من نافذتين، من أصل ثلاث نوافذ تتألف منها واجهة الطابق.

أما الطوابق الأخرى فقد كانت مظلمة قاتمة. ترى هل نام ساكنوها؟ هل اندسّوا باكراً في أغطيتهم لكي يوفّروا الشموع الغالية الثمن والحطب النادر الوجود؟ على كل حال فقد كانت الطوابق الأربعة السفلى لا تنبئ بالحياة في داخلها بينما كان الطابق الخامس ينعم بالحياة ويتلألأ بنور وافر يخرج منه.

ولنقرعنّ الباب السفليّ، ولنصعدن على الدرج الذي يؤدّي إلى الطابق الخامس الذي هو موضوع اهتمامنا الآن، فنلاحظ أن سلماً عاديّاً منصوباً على الجدار هو الذي يقود إلى الطابق العلويّ.

وإذا فتحنا الباب الأول من الطابق المذكور فإننا ندخل إلى غرفة مظلمة عارية من الأثاث. هذه الغرفة هي ذات النافذة المظلمة، وهي غرفة انتظار تقود إلى غرفة ثانية تثير اهتمامنا بأثاثها وتفاصيلها: فأرضها من بلاط لا من خشب، وأبوابها مدهونة بدهان غليظ، وفيها ثلاثة مقاعد من الخشب الأبيض

مغطاة بمخمل أصفر، و « صوفا » تتماوج مساندها مجعّدةً بسبب السنين التي مرّت عليها.

والمقاعد هي تماماً كالناس من حيث عمرها: تشيخ فتتراخى وتظهر عليها الغضون والأخاديد. وعندئذ فإنها تنوء تحت من يجلس عليها، وتعول من انكسار.

وأول ما يجذب الأنظار في هذه الغرفة لوحتان معلقتان في الجدار، ينيرهما شمعدان وقنديل، أحدهما وُضع على طاولة مستديرة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام، وثانيهما وُضع على المدفأة.

أما اللوحة الأولى فإنها تمثّل صورة رجل بدت عليه سمة الأبّهة والوجاهة، يعتمر قلنسوة على رأسه، ذي وجه مستطيل شاحب، وعين باهتة اللون، ولحية مروّسة. وقد زيّن عروته بخصل من الفريز، ولشدَّ ما يشبه هذا الوجه وجه هنري الثالث ملك فرنسا وبولونيا. وقد كتب تحت الصورة بأحرف سوداء وعلى الإطار الذي تقشّر طِلاؤه الذهبيّ، هذا الاسم: « هنري دي ڤالوا.»

وتمثل الصورة الثانية التي يدل طلاؤها الذهبي ودهان ألوانها على أنها أحدث عهداً من رفيقتها، امرأة شابّة، عيناها سوداوان، وأنفها دقيق مستقيم، ووجنتاها نافرتان، وفمها مزموم زمّاً. وإنها تنوء تحت تسريحة ضخمة تشبه بناء من

الشعر والحرير وتبدو إلى جانب قلنسوة هنري الثالث بنسبة الهرم إلى بيت الخلد.

ولقد كُتب أيضاً تحت هذه الصورة بحروف سوداء اسم: «جان دي ڤالوا.»

وإذا أردنا أن نعرف علاقة هاتين اللوحتين بسكّان هذا الطابق الخامس، بعد أن نكون قد شاهدنا المدفأة المنطفئة والستائر الحريرية المنسولة على السرير المغطى بحرير دمشقي أخذ يصفرّ، علينا أن نستدير نحو طاولة صغيرة من خشب السنديان، فنشاهد امرأة تسند إليها ذراعها الأيسر، امرأة ترتدي ثوباً بسيطاً وقد انهمكت في تقليب بعض الرسائل القديمة وفي قراءة عناوينها.

هذه المرأة هي التي يظهر رسمها في إحدى اللوحتين.

وإننا نشاهد على بعد ثلاث خطوات منها عجوزاً صغيرة في الستين من عمرها، تشبه بملابسها إحدى عجائز الرسام «غرويز»، وقد وقفت الى جانبها تنظر إليها ببعض الفضول والاحترام.

ولقد رأينا أن اللوحة تحمل اسم «جان دي ڤالوا». فإذا كانت هذه المرأة من آل «ڤالوا»، فكيف يستطيع هنري الثالث، الملك الشهوانيّ الذي رأيناه يزيّن عروته بخُصَل الفريز، أن يتحمّل منظر هذا البؤس الذي يحيق بامرأة من

سلالته وتحمل اسمه ، حتى وإن كان لا ينظر إليها إلا من خلال لوحة الجدار؟

ومن ثمَّ فإنّ سيّدة الطابق الخامس كانت تملك الصفات التي تشير إلى النسب الذي اتخذته لنفسها ، فيداها بيضاوان نحيفتان كانت تدفئهما من وقت لآخر تحت إبطيها ، وقدمها صغيرة رقيقة مستطيلة تحتذي بابوجاً من المخمل يوحي بالدلع ، كانت تحاول أن تدفئها فتقرع بها البلاط اللامع البارد كهذا الجليد الذي يغطّي باريس.

وكانت الريح تصفر تحت الأبواب ومن شقوق النوافذ ، فكانت العجوز التابعة للسيدة تهزّ كتفيها بحزن وهي تنظر الى المدفأة الخالية من النار.

أما سيّدة المنزل فقد كانت لا تنفك تعدّ الرسائل وتقرأ عناوينها ، وكلما قرأت عنواناً ينشغل ذهنها بعملية حسابية صغيرة ، فتتمتم بكلمات تتعلق بهذه العملية بالذات ، ثم ترفع رأسها لتقول :

– نظفي ذُبالة تلك الشمعة يا سيّدة كلوتيلد.

فأطاعت العجوز أمر سيدتها ، ثم عادت إلى موضعها حيث وقفت رصينة صاغية. ولكن يبدو أن المرأة الفتيّة انزعجت من وقوفها هذا ومن عينيها اللتين تتتبعان ما تفعل ، فقالت لها :

- إبحثي يا عزيزتي لعلك تجدين بعض أعقاب الشموع الصغيرة لكي نوفّر الشموع الكبيرة التي تحترق وتذوب .

فأجابت العجوز : لم يبق لدينا شيء منها .

- عاودي البحث فلعلك تجدين .

- وأين تريدين أن أبحث ؟

- في غرفة الانتظار .

- البرد قارس هناك .

- تجدين دائماً الأعذار . ولكن اسمعي ، فهناك من يدقّ جرس الباب .

- كلا ! إن سيّدتي متوهمة .

- هكذا اعتقدت يا سيدة كلوتيلد .

وعندما رأت المرأة الفتية إصرار العجوز على مقاومتها ، تخلّت عن طلبها وهي تؤنّبها بلطف ، شأنها في ذلك شأن كبير يرضخ لعناد من هم دونه مركزاً وقدراً ، مع العلم بأن له حقاً عليهم . ثم عادت تستأنف عمليتها الحسابية وهي تمتم قائلة :

- ثماني ليرات ذهبية ، ثلاث منها أسدّ بها ديناً في الحي .

ثمّ تناولت ريشتها وشرعت تكتب :

- ثلاث ذهبيّات ... وخمسٌ أخرى وعدتُ بها السيد « دي لاموت » ، لأجعله يتحمّل الإقامة في مدينة « بار سير

أوب » Bar sur aube. يا للشيطان المسكين! فزواجه بي لم يوفّر له الثروة المنشودة. ولكن صبراً على الدهر!

وهنا أخذت تبتسم وهي تنظر إلى نفسها في مرآة موضوعة بين اللوحتين في الجدار. ثم استأنفت مخاطبة نفسها قائلة:

- والآن ليرة ذهبية أجرة انتقال من فرساي إلى باريس، ومنها إلى فرساي.

وسجّلت هذا الرقم الجديد في عمود النفقات.

- ثم ليرة للمعيشة طيلة أسبوع. وأربع ليرات لوسائل الهندام، ومركبات الانتقال، وللهبات التي يجب أن أنقدها السويسرانيين حرّاس البيوت التي سأقرع أبوابها. تُرى هل هذا كل شيء؟ لأجمعنّ الحساب الآن.

ولكنها توقفت أثناء الجمع قائلة للمرأة العجوز:

- قلت لك إنهم يدقون جرس الباب.

فأجابت العجوز وهي مخدّرة في موضعها:

- كلا يا سيدتي، ليس عندنا. إنهم يدقون في الطابق السفليّ، في الطابق الرابع.

فتابعت المرأة جمع حسابها موسوسةً تقول:

- أربع ليرات، ست ليرات، إحدى عشرة، أربع عشرة ليرة: ينقصني ست ليرات، يضاف إليها أجرة تجديد خزانة

الثياب وأجرة هذه العجوز الفظّة التي سأصرفها من هذا المنزل .

ثم إذا بها تصرخ هذه المرّة :

– إنهم يدقّون على الباب أيتها التعسة !

ويجب الإعتراف بأن رنين جرس الباب هذه المرّة كان قويا تسمعه أكثر الآذان صمماً . فقد فُتِل لسان الجرس بشدّة وأخذ يضجّ في زاويته ويقرع أكثر من اثنتي عشرة قرعة .

هنا استفاقت العجوز من خمولها وأسرعت نحو مدخل المنزل ، بينما وثبت سيّدتها كالسنجاب فأخذت تجمع الرسائل والأوراق المبعثرة على الطاولة وتدسّها جميعها في جارور من الجوارير . وبعد أن ألقت نظرة سريعة على أثاث الغرفة لتتأكد من ترتيبه ، جاءت تجلس على الصوفا جلسة وديعة حزينة كمن ألمّ به انكسار مؤلم ولكنه يعالج نفسه بالصبر .

بيد أنه يجب أن نسرع فنقول : لقد كانت أعضاء جسمها ساكنة هادئة ، أما عيناها فقد كانتا متيقّظتين قلقتين تستفسران المرآة التي تعكس باب الدخول ، وأذناها مرهفتي السمع تنصتان لسماع أخفّ صوت وأقل حركة .

وفتحت العجوز الباب . وسُمعت تمتمة كلمات في مدخل المنزل . ثم تلاها صوت عذبٌ رقيق ، ولكنه حازم ، فلفظ هذه الكلمات :

- هنا تسكن الكونتس « دي لاموت » ؟

فأجابت كلوتيلد بصوت يخرج من أنفها :

- الكونتيس دي لاموت فالوا ؟

- بالضبط ، يا سيدتي الطيبة . وهي هنا السيدة دي لاموت ؟

- نعم ، ولكن سيدتي مريضة فلا تستطيع أن تخرج .

لم يفت السيّدة التي تدّعي المرض حرف واحد من هذا الحديث . وقد نظرت خلاله إلى المرآة فشاهدت امرأة تسأل كلوتيلد ، وعرفت أن ظواهر هذه المرأة تدلّ على أنها تنتمي إلى طبقة رفيعة في المجتمع .

فغادرت الصوفا التي كانت جالسة عليها ، وانتقلت إلى مقعد آخر لكي تترك للسيدة الغريبة مجلس الشرف .

ولكنّ قيامها بهذه الحركة منعها عن أن ترى الزائرة تعود نحو الدرج فتخاطب شخصاً متوارياً في الظلام بقولها :

- ادخلي يا سيدتي ، هوذا المكان المقصود .

ثم غُلق الباب وقد دخلت السيّدتان اللتان رأيناهما تسألان عن شارع سان كلود إلى منزل الكونتس دي لاموت ڤالوا . أما كلوتيلد فقد شرعت تنزّه بفضول واحترام الشمعدان أمام وجهي السيّدتين قائلة :

- عمن يتوجب عليّ أن أعلن لسيدتي الكونتس ؟

فأجابت كبرى السيدتين :

- أعلني عن زيارة سيّدة تعمل في أعمال البرّ والاحسان .

- سيدة قادمة من باريس ؟

- كلا ، من فرساي .

فدخلت كلوتيلد إلى غرفة سيّدتها تتبعها المرأتان الغريبتان اللتان، عندما دخلتا الغرفة المنارة، كانت جان دي ڤالوا تنهض بجهد لتحيّي زائرتيها بأدبٍ جَمّ .

فقدّمت كلوتيلد المقعدين الآخرين لتختار كل من الزائرتين المقعد الذي تريد الجلوس عليه ، ثم توارت في غرفة الانتظار ببطء ينمّ عن الرزانة وعن أنها ستتسمّع ولا شك من وراء الباب إلى الحديث الذي سيدور بين صاحبة المنزل والزائرتين .

جان دي لاموت دي ڤالوا

★

كان همّ جان دي ڤالوا الأوّل ، عندما تسنّى لها أن ترفع عينيها ببراءة ، أن تعرف مع أي الوجهين ستكون معاطاتها . وقد رأينا أن كبرى السيدتين كانت في الثلاثين أو الاثنتين والثلاثين من عمرها . ولقد كانت ذات حسن جذّاب بالرغم

من أن مسحةً من التعالي كانت تنتشر على وجهها كله فتسلبه قسماً من عذوبته.

هذا ما استخلصته جان من النظرة الجزئية التي مكّنتها من أن تشاهد سيماء زائرتها. وفي الواقع فقد كانت الزائرة قد تجنبت الجلوس على الصوفا وجلست على مقعد انتحت به إلى الزاوية بعيدة عن لسان الضوء الذي يبعثه القنديل. كما أنها مغطت قبّة معطفها وقرّبتها إلى الأمام معكسة ظلاً على وجهها.

ولكنّ شموخ رأسها، وحيويّة عينيها وانفراجهما بصفاء طبيعي، كانت تعطي عنها صورة عامّة تشهد، وإن امّحت بعض تفاصيلها، بأنها من سلالة رفيعة نبيلة.

أما رفيقتها التي كانت، بالظاهر على الأقل، أقلّ ارتباكاً منها وإن كانت أفتى منها بأربع أو خمس سنوات، فقد كانت تجهر بحسن حقيقي. إذ أنها كانت تملك وجهاً رائعاً باستدارته ولون بشرته، وتسريحةً تكشف عن الصدغين المنبلجين كصبح مشرق، ومقلتين واسعتين زرقاوين هادئتين على صفاء ونافذتين على عمق، وفماً رائع التصوير مهرته الطبيعة بالصراحة وعوّدته قواعد الأدب على الرزانة، وأنفاً يشبه باتّساقه أنف إلهة الجمال فينوس. هذا ما التقطته جان بنظرتها السريعة. ولقد شرد بصرها على تفاصيل أخرى

فتمكنت من أن تلاحظ بأن قامة هذه المرأة الفتية هي نحيفة وأكثر ليونة من قامة رفيقتها، وأن صدرها أعرض وأشدّ نفورا، وأن يدها مملوءة بقدر ما كانت يد رفيقتها عصبية رقيقة.

لقد استطاعت جان دي ڤالوا أن تلاحظ كل هذه الأشياء في لحظات قليلة، أي في وقت أقصر من الوقت الذي سردناه للقارئ.

وبعد أن فرغت من هذه الملاحظات سألت زائرتيها عن الفرصة السعيدة التي تكمن وراء زيارتهما. فتبادلت السيدتان النظرات، ثم أشارت الكبرى إلى رفيقتها أن تتكلم، فقالت الصغرى:

– إننا يا سيدتي ... إنك متزوجة على ما أعتقد؟

– لي الشرف أن أكون زوجة الكونت دي لاموت الذي هو نبيل ممتاز.

– حسنا يا سيدتي، فنحن رئيستا مؤسسة خيريّة. وقد بلغتنا عن حالتك أخبار أثارت اهتمامنا فجئنا نتحرّى بعض التفاصيل الدقيقة التي تتعلق بك وبمن يخصك.

تريثت جان قليلاً قبل أن تجيب. ثم قالت وقد لاحظت تحفظ الزائرة الثانية:

– إنكما تريان هنا يا سيدتيّ صورة هنري الثالث ، أي شقيق جدّي ، إذ أنني حقاً من سلالة آل ڤالوا ومن دمهم ، كما قيل لكما على ما أظن .

ثم انتظرت من زائرتيها جوابا جديداً ، ناظرةً إليهما بنوع من التواضع الذي تشوبه الكبرياء . فقطع الصمت عندئذ صوت رصين عذب هو صوت كبرى السيدتين إذ قالت :

– أصحيح يا سيدتي أن والدتك كانت كما يقولون حارسةً لبناية تُدعى « فونتيت » وتقع قرب مدينة « بار سير سين » ؟

فاحمرّ وجه جان عند ذكر والدتها ، ولكنها أجابت دون أن ترتجف :

– أجل يا سيدتي ، كانت والدتي حارسةً لبناية فونتيت .

فندّ عن السائلة صرخة تعجب ، ولكن جان تابعت تقول :

– ولما كانت والدتي ماري فوسّيل نادرة الجمال، فقد تعلّق بها قلب والدي وتزوجها . فأنا نبيلة من جانب والدي الذي يرجع بنسبه إلى عائلة سان ريمي دي ڤالوا ويتحدر مباشرة من آل ڤالوا الذين حكم ملوكهم فرنسا .

– ولكن كيف انحدرت إلى هذه الدرجة من البؤس يا سيدتي ؟

– هذا مؤسف حقاً ! ولكنك تفهمينه بسهولة .

- تكلمي، إني صاغية لك.

- لا أخالك تجهلين أن العائلة التي خسرت صولجان الملك بتسنّم هنري الرابع العرش وتسليمه تاج آل ڤالوا لآل بوربون، خلَّفت بعض أفراد من نسلها ظلوا يعيشون منسيّين ولكنهم ولا ريب فروع من الجذع العام، جذع الأخوة الأربعة الذين هلكوا هلاكاً مشؤوماً.

فتبادلت هنا السيدتان نظرات قد يُفهم منها أنها تعبير عن الموافقة. فتابعت جان تقول:

- ولما كان هؤلاء الباقون من آل ڤالوا يخشون أن يثيروا حولهم، بالرغم من انزوائهم، ظنون العائلة الجديدة المالكة، فقد بدّلوا اسم عائلتهم باسم عائلة «ريمي» الذي هو اسم أرض معروفة. وظلّوا يحملون هذا الاسم منذ عهد لويس الثالث عشر، إلى أن جاء جدّي الذي هو، باستثناء والدي، آخر من تبقى من أسرة آل ڤالوا، ففكر بألا يحرم نفسه من هذا الاسم الشهير زمناً أطول، لا سيما وأن العائلة المالكة قد وطّدت أركانها، وأن الفرع القديم أصبح طيّ النسيان. فاستعاد اسم ڤالوا وراح يجرّه في مقاطعته في ظلّ النسيان والفقر، دون أن يفكر أحد في بلاط فرنسا بأن سليلاً من أسرة ملوك فرنسا القدماء إنما يعيش عيشاً بائساً، بعيداً عن

أبّهة التاج، وأن هذا السليل إن لم يكن من أكثر أفراد أسرة ڤالوا مجداً، فهو على الأقل من أكثرهم بؤساً.

توقفت جان بعد أن تلفظت بهذه الكلمات المغلّفة بالبساطة والاعتدال الملحوظ. وكانت كبرى الزائرتين ترمق بنظرة عميقة هذه المرأة التي تقول إنها من سلالة آل ڤالوا، وقد سألتها بلهجة رقيقة قائلة:

– لديك ولا شك البراهين الدامغة على صحّة ما تقولين يا سيدتي؟

فابتسمت جان بمرارة وأجابت قائلة:

– لا تنقصني البراهين يا سيدتي. فقد نظّمها والدي ووهبني إيّاها عند دنوّ أجله إرثاً وحيداً. ولكن ماذا تفيد البراهين حقيقة لا جدوى منها، أو حقيقة لا يريد أحد الاعتراف بها؟

فسألتها هنا صغرى السيدتين: وهل توفّي والدك؟

– نعم، ويا للأسف!

– توفّي في الريف؟

– كلا، يا سيدتي.

– في باريس إذن؟

– نعم.

– وفي هذه الدار؟

– كلا ، يا سيدتي . فوالدي البارون دي ڤالوا ، أحد حفدة الملك هنري الثالث ، مات من الفقر والجوع .

فهتفت السيدتان معاً : هذا مستحيل !

فتابعت جان تقول : لم يمت والدي في هذه الدار الفقيرة ، ولم يمت على سريره وإن كان فراشاً حقيرا ! بل مات الى جانب البؤساء والمعذّبين في مستشفى «أوتيل ديو» في باريس .

فصرخت السيدتان صرخة ذهول هي أشبه شيء بصرخة رعب . أما جان ، فبعد أن تأكدت من التأثير الذي خلقته صياغة حديثها في نفس زائرتيها ، ظلت جامدة في مقعدها مكسورة النظرات إلى الأرض ، مُرخية يدها في شبه شلل . وقد راحت كبرى السيدتين تتفحّصها بعين نافذة ذكية ، فلم ترَ في حزنها هذا البسيط الطبيعي شيئاً من التلاعب أو الابتذال ، لذلك فقد استأنفت تقول :

– ينبئني حديثك يا سيدتي بأنك عانيت مصائب كثيرة ، وفي رأسها موت أبيك ...

– آه ! لو رويتُ لك قصة حياتي ، يا سيدتى ، لرأيت أن موت أبي لا يُحسب أبداً في عداد المصائب الكبيرة التي قاسيتها .

فقالت كبرى السيدتين وهي تقطّب حاجبيها تقطيباً صارماً :

– ماذا ! أتحسبين موت الوالد مصيبة صغيرة ؟

– نعم يا سيدتي ، مع العلم أنني أتكلم كفتاة ورعة . فالموت أنقذ والدي من جميع المصائب التي كانت تحيق به في هذه الأرض ، والتي ما زالت تحيق بابنته التعسة . فأنا أشعر إذن ببعض الفرح عندما أفكر أثناء حزني بأن أبي قد مات ، وبأن سليل الملوك لم يعد بحاجة إلى استجداء خبزه من الناس .

– استجداء خبزه من الناس !

– أجل . وإني أقول هذا دون خجل ، لأن مصائبنا لم تكن ناجمة عن غلط أبي أو غلطتي .

– إنه غلط أمك إذن ؟

– أصغيا إليّ ! قلت لكما بصراحة إنني أشكر الله على استدعائه نفس أبي إليه ، وكذلك أقول لكما بصراحة إنني أتشكّى من الله لأنه ترك والدتي تعيش .

فنظرت السيّدتان كلّ إلى رفيقتها وهما تكادان ترتجفان من سماع هذه الكلمات . ثم قالت الكبرى :

– أتعتبرين ثرثرةً يا سيدتي أن أسألك شرحاً أوسع لمصائبك ؟

- الثرثرة منّي يا سيدتي ، إذ أنني أُتعب أذنيكما بسردي أمامكما آلامي التي قد لا تعنيكما في شيء .

- بل إنني صاغية لك يا سيدتي ، فتكلمي .

أجابت بهذا كبرى السيدتين ، ولكن بلهجة تنمّ عن الجلال والمهابة ، ممّا جعل رفيقتها ترمقها بنظرة هي بمثابة تحذير لها تدعوها فيه إلى مراقبة نفسها . وفي الواقع فقد شعرت مدام دي لاموت بمهابة هذا الصوت وراحت تنظر بدهشة إلى صاحبته التي استأنفت تقول بصوت أخف صرامةً من ذي قبل :

- إنني صاغية إليك ، وأرجوك أن تتكلمي .

وعندما أنهت عبارتها هذه صدرت عنها حركة تدلّ على أنها شعرت بالبرد ، فاقشعر كتفاها وتحركت قدمها التي كاد صقيع البلاط الرطب أن يجعلها تتجمّد . فقدّمت لها عندئذ رفيقتها الصغرى سجّادة صغيرة كانت إلى جانب مقعدها . ولكنّها حدجت بدورها رفيقتها بنظرة تنمّ عن التأنيب لاهتمامها بها قائلة لها :

- احتفظي يا أختي بهذه السجّادة لك ، فأنت أشدّ نحافة مني .

فتدخلت الكونتيس دي لاموت قائلة : أرجو المعذرة يا سيّدتي ، فلشدّ ما أنا متألمة ومتأسّفة لهذا البرد الذي تتعرّضان له في منزلي ، ولكن الحطب ارتفع سِعره ست ليرات ، فأصبح

قنطاره يكلف سبعين ليرة . وقد نفد مخزوني منه منذ ثمانية أيام .

فقاطعتها كبرى الزائرتين لكي تعيدها إلى حديثها الأول قائلة : قلتِ يا سيدتي إنك كنت شقيّة بوجود والدتك .

– نعم ، ومثل هذا التجديف يحتاج طبعاً إلى شرح ، وسأقدم لك هذا الشرح ما دمت ترغبين فيه يا سيدتي .

فهزّت محدّثة الكونتس رأسها بالموافقة ، وتابعت جان دي لاموت تقول :

– سبق لي الشرف وأخبرتك يا سيدتي أن والدي ارتبط بقرانٍ غير موفّق .

– نعم ، بزواجه من حارسة باب منزله .

– أجل . إلا أن والدتي ، ماري فوسّيل ، بدل أن تعتزَّ بهذا الزواج وأن تحفظ الجميل لوالدي الذي أولاها هذا الشرف ، فقد سارعت إلى إفقاره بتحقيق مطاليبها الجشعة على حساب ثروة زوجها الضئيلة . وبعد أن جعلته يبيع آخر شبرٍ من أرضه أقنعته بأن يولّي وجهه شطرَ باريس لكي يطالب بالحقوق التي تعود إليه من اسمه . وبُهر والدي بسهولة ، ولعله كان يؤمّل بعدالة الملك ، فقصد باريس بعد أن باع آخر ما كان يملك .

وكان لوالدي ابن وبنت غيري . أما الإبن فإنه شقيّ مثلي ، ويعيش عيشة تعسة في آخر صفٍّ من صفوف الجيش . وأما

البنت ، التي هي أختي المسكينة ، فقد ألقي بها قبل أن يسافر والدي بليلة واحدة أمام منزل أحد المزارعين ، وقد كان « عرّابها » بالمعمودية .

واستنفد هذا الرحيل إلى باريس النزر اليسير من الدراهم التي كانت في حوزتنا . ومن ثمَّ فقد أرهق أبي السؤالُ دون طائل ، حتى ندَرَ قدومه إلى المنزل الذي كان يواكبه إليه البؤس ، ولا يجد فيه سوى البؤس . وفي غيابه كانت والدتي الباحثة عن ضحيّة تتجهّم دائماً في وجهي ، وقد بدأت تخاصمني في ما أنال من طعام ، حتى صرت أفضّل أن أقضم الخبز اليابس وحده ، أو أن أعزف عن الأكل مكتفية بالجلوس إلى طاولتنا البائسة . ولكن والدتي كانت تجد دائماً الأعذار لمعاقبتي ، فتصفعني لأقلّ غلطة من تلك الأغلاط التي تثير ابتسام الأمّهات أحيانا . وقد ظنّ بعض الجيران أنهم ينفعونني فشكوا لأبي ما كانت تفرضه عليَّ من عقوبات ، فحاول والدي أن يحميني منها ، ولكنه لم يلحظ أن حمايته قد حوّلت عداوتها العابرة إلى كره أبدي . ولسوء طالعي لم يكن باستطاعتي أن أسدي إليه نصيحة بشأني ، لأنني كنت صبية طفلة تتحمّل نتائج الأشياء دون أن تفقه كنهها ومسبّباتها . ولم يكن بوسعي سوى معاناة الألم باستسلام وصمت .

ومرض والدي، فأُرغم على التزام حجرته ثم سريره. وأُجبرت على إخلاء غرفته بحجة أن وجودي فيها يزعجه بحركاتي وصوتي، فعادت والدتي عندئذ تبسط سلطانها عليّ، وشرعت تلقنني عبارة تتخللها اللطمات المؤذية، وعندما حفظت عن ظهر قلبي تلك العبارة الوضيعة التي كانت تحول غريزتي دون تعلمها، وبعد أن قرّحت الدموع عينيّ، أنزلتني إلى باب الشارع وقذفتني منه نحو أول عابر سبيل ينمّ مظهره عن الثراء، وأمرتني أن ألقي على مسمعه تلك العبارة وإلاّ كان نصيبي جَلْدٌ حتى الموت.

- وما عساها تكون تلك العبارة؟

- إنها العبارة التالية: «اشفق يا سيّدي على يتيمة تتحدر مباشرة من نسل هنري دي ڤالوا».

فهتفت كبرى الزائرتين باشمئزاز: أوه! يا لهذا التصرّف الوضيع!

ثم سألت السيدة الصغرى: وما هو التأثير الذي كانت تتركه هذه العبارة على من كنت تطرحينها عليهم؟

- كان البعض يشفقون عليّ، والبعض يثورون ويتهدّدون. وكان آخرون يسبغون عليَّ عطفاً أكثر من الأولين فيحذّرونني من الخطر الذي قد ينجم عن هذه الكلمات فيما إذا وقعت في آذانٍ مغرضة. ولكنني لم أكن

أعرف سوى خطر واحد هو عصيان والدتي، وخوف واحد هو الخوف من لطماتها.

– وماذا حصل بعدئذ؟

– حصل يا سيدتي ما كانت تتمنّاه والدتي، إذ أصبحت أدرّ على البيت بعض الدراهم التي أبعدت عن ناظري أبي المشهد المخيف الذي كان ينتظره: المستشفى.

فتقلّصت سحنة كبرى السيدتين، وترقرق الدمع في عيني الصغيرة منهما. وقد تابعت جان دي لاموت تقول:

– إلا أن هذه المهنة القبيحة جعلتني أثور بالرغم من المؤاساة التي وفّرتها لوالدي. فكففت في أحد الأيام عن إلقاء عبارتي على مسامع العابرين، وجلست بعض النهار إلى جانب نُصب متلاشية وقد خارت قواي. ثم عدت في المساء إلى المنزل فارغة اليدين، فجلدتني والدتي جلداً شديداً أبقاني مريضة في اليوم التالي.

وعندما انقطع عن والدي كل عون اضطرّ إلى دخول مستشفى «اوتيل ديو»، حيث فارق الحياة.

فتمتمت السيدتان معاً: يا لها من قصة مخيفة!

ثم سألت الزائرة الصغرى: وماذا فعلت بعد موت والدك؟

– أخذني الله برحمته، فرحلت والدتي عن المنزل بعد

شهر من موت والدي المسكين برفقة جنديّ كان عشيقها، وقد تركتني وأخي وحيدين.

– وبقيتما هكذا يتيمين؟!

– مهلاً يا سيدتي! فنحن، بعكس الآخرين، لم نكن يتيمين إلا بوجود والدتي. فقد تبنّانا إحسان الناس، ولما كنّا نكره التسوّل فلم نكن نحترفه إلا لسدّ حاجتنا، والله يأمر خلقه أن يسعوا في سبيل العيش.

– يا للقصة المؤسفة!

– ماذا تُرى أحكي لك يا سيدتي؟ ففي يوم من الأيام أسعدني الحظ بمصادفة مركبة كانت تتسلق ببطء ضاحية «سان مارسيل»، وكان أربعة خدم يسيرون خلفها، وكان في داخلها سيّدة حسناء في الربيع من عمرها. مددت لها يدي، فطرحت عليّ سؤالاً أجبتها عليه، فأذهلها الجواب كما أذهلها اسمي. فذكرت لها عنواناً ومرجعاً تعود إليه. وعندما عرفت في اليوم التالي أنني كنت صادقة تبنتني أنا وأخي، وأدخلت أخي في سلك الجندية، وأدخلتني إلى محترف للخياطة. وهكذا نجونا كلانا من الجوع.

– ألم تكن تلك السيدة مدام «بولانفلييه»؟

– هي بعينها.

– أظن أنها ماتت؟

- نعم، وقد عاد موتها فألقى بي في الهاوية.

- ولكن زوجها حيّ يرزق، وهو ثري.

- إن زوجها يا سيدتي هو سبب مصائبي كفتاة صبية، كما كانت والدتي سبب مصائبي كطفلة. فقد اكتسبت كما أعتقد مسحة من الجمال، الشي الذي أثار انتباه الزوج عليّ، فأراد أن يتقاضى ثمناً لإحسانه عليّ، ولكنني رفضت أن أستجيب لشهوته. في هذه الاثناء توفّيت مدام «بولانفيلييه» التي كانت قد زوجتني الى عسكريّ طيّب مستقيم هو السيد «دي لاموت»، فاذا بي أصبح بعد موتها بلا معيل كما كنت ذلك بعد موت والدي، لا سيما وأنني كنت مفصولة عن زوجي.

هذه هي قصتي يا سيدتي، ولقد اختصرتها لأنه يتوجّب توفير الآلام الطويلة على السعداء، وإن كانوا محسنين مثلكما يا سيّدتي.

وعقب هذا المقطع الأخير من قصة السيدة دي لاموت صمت طويل، قطعته كبرى السيدتين بقولها:

- وماذا يعمل زوجك؟

- زوجي خفير في مدينة «بار سير أوب»، يا سيدتي، فهو دركيّ ينتظر هو أيضاً وقتاً أفضل.

- ألم تراجعي البلاط بشأنه؟

– بلى ، ولا شك .

– ألم يوقظ اسم آل ڤالوا المشفوع بالألقاب عطف البلاط عليكما ؟

– لا أعلم يا سيدتي ما هي المشاعر التي أثارها اسمي هناك ، لأن عرائضي لم تفز بأيّ جواب .

– وهل قابلت الوزراء أو الملك أو الملكة ؟

– لم أقابل أحداً ، لأن جميع محاولاتي ذهبت أدراج الرياح .

– طبعاً إنك لا تستطيعين الآن احتراف التسوّل .

– كلا يا سيّدتي فقد نسيت تلك العادة . ولكن ...

– ولكن ماذا ؟

– ولكنني أستطيع أن أموت من الجوع كما مات والدي .

– أما رزقتِ أولاداً ؟

– كلا يا سيدتي . واذا ما قُتل زوجي في خدمة الملك ، فإن بؤسنا ينتهي بموته نهاية مجيدة .

– اعذريني يا سيّدتي إذا أصررت على هذا الموضوع : أوتستطيعين تقديم البراهين التي تبرر النسب الذي تنتمين إليه ؟

فنهضت جان وبحثت في خزانة ، ثم تناولت بعض أوراق وقدمتها للسيدة . ولكنها أرادت أن تستغلّ الفرصة السانحة

لتتعرّف إلى زائرتها حين تقترب من النور وتكشف عن قسماتها كلها ، ولكن خطتها هذه انكشفت إذ أنها أخذت ترفع ذبالة القنديل لتضاعف النور المنبعث منه . لذلك فقد أدارت السيدة المحسنة ظهرها للسيدة دي لاموت وللقنديل كأنّ النور يبهر عينيها ، وشرعت تقرأ ، وهي في وضعها هذا ، كلّ ورقة بمفردها مدققةً بالمضمون الذي تحتويه، ولكنها سرعان ما قالت :

– هذه نسخٌ لا أرى فيها ورقة واحدة أصيلة .

– الأصول يا سيدتي موضوعة في مكان أمين وباستطاعتي أن أعرضها متى أريد .

فابتسمت الزائرة وقالت :

– طبعاً إذا سنحت لك فرصة هامّة ؟

– لا شك أن الفرصة التي سنحت وشرّفتني برؤيتك هي فرصة هامّة يا سيدتي . ولكنّ الوثائق التي ذكرتِها هي ثمينة لديّ إلى حدّ ...

– إنني أفهم . إلى حدّ أنك لا تستطيعين تسليمها لأول قادم .

ولكن الكونتيس دي لاموت استطاعت أخيراً أن تتبيّن وجه السيدة المليء بالوقار ، فهتفت قائلة :

– ولكنني لا أعتبرك قادمة أولى يا سيدتي .

ثم دنت من خزانة ثانية ، ففتحت في الحال جارورا سرّياً أخرجت منه الوثائق الأصلية التي كانت موضوعة بعناية داخل حقيبة من جلد رسم عليها شعار آل ڤالوا .

فتناولتها السيدة المحسنة ، وفحصتها بذكاء وانتباه وقالت :

– إنك على صواب ، فهذه الوثائق شرعية ، وإنّي أحثّك على ألاّ تتردّدي في إبرازها لمن له حقّ الاطلاع عليها .

– وعلى ماذا أحصل بواسطتها ، برأيك ، يا سيدتي ؟

– على جَعَالةٍ مالية لك ، وترقية للسيد دي لاموت، شرط أن يكون مسلكه في وظيفته قابلاً للترقية .

– إن زوجي ، يا سيدتي ، هو مثال الشرف ، ولم يقصّر مرة في واجبات الخدمة العسكرية .

– هذا كافٍ يا سيدتي .

قالتها السيّدة المحسنة وهي تغلّف وجهها بقبّة ردائها . وكانت السيدة دي لاموت تراقب جميع حركاتها بفضول شديد ، فرأتها تبحث في جيبها وتخرج أولاً منديلها المطرّز الذي كانت تخفي به وجهها عندما كانت تخترق الشوارع بزلاّجتها . ثم تلت المنديل لفافةٌ صغيرة طول قطرها إبهام وارتفاعها ثلاثة أو أربعة أصابع ، فوضعتها السيدة المحسنة على الطاولة وهي تقول :

- يخوّلني مكتب الأعمال الخيرية أن أقدم لك يا سيدتي هذه المساعدة الصغيرة، بانتظار الفرج الأوفر.

فألقت السيدة دي لاموت نظرة سريعة على اللفافة وقالت في نفسها: «إنها قطع من ثلاث ليرات، خمسون قطعة أو مئة. يا الله! هذه ماية وخمسون ليرة أو ثلاثماية ليرة تنزل علينا من السماء. ولكنّ اللفافة قصيرة إذا كانت تحتوي مئة قطعة، وطويلة إذا كانت تحتوي خمسين».

وفيما كانت تحدّث نفسها بهذه الملاحظات، عبرت السيدتان إلى الغرفة الأولى حيث كانت السيدة كلوتيلد تنام على كرسيّ بالقرب من شمعة كان لسانها الأحمر المدخّن يستطيل في وسط صفحة الشمع الذائب.

وإذا برائحة حادّة تثير القيء تشدّ على بلعوم السيدة المحسنة التي وضعت اللفافة على الطاولة، فأسرعت بمدٍّ يدها إلى جيبها وأخرجت منها قمقماً صغيراً.

ولكنّ نداء جان أيقظ كلوتيلد التي مدّت يدها إلى بقايا الشمعة فحملتها عالياً، وكأنها ترفع منارة فوق تلالٍ مظلمة، بالرغم من احتجاج السيدتين الغريبتين اللتين أوشكتا أن تموتا خنقا من الرائحة الكريهة المالئة جوّ الغرفة.

- إلى اللقاء، إلى اللقاء، يا سيدتي الكونتيس.

فاهت السيدتان بهذا وانحدرتا على الدرج مسرعتين. فسألتهما جان دي ڤالوا قائلة : في أي مكان ينالني شرف شكركما يا سيدتيّ ؟

- نقول لك في المستقبل .

لفظت كبرى السيدتين هذه الكلمات الأخيرة وهي تنزل على الدرج بأكثر سرعة ممكنة . وسرعان ما ضاع وقع أقدامهما في أعماق الطوابق السفلى .

وعادت مدام دي ڤالوا الى غرفتها وقد انتابها فضول شديد لتعرف ما إذا كانت ملاحظاتها صائبة بشأن اللفافة . ولكنها لم تكد تجتاز الغرفة الأولى حتى اصطدمت قدمها بغرضٍ تدحرج على البساط الذي يغطي الأرض بالقرب من الباب . وسرعان من انحنت إلى الأرض فالتقتطه وعادت نحو القنديل .

كان ذلك علبة ذهبية مستديرة مسطحة ومغلّفة ببساطة . وكانت هذه العلبة تحتوي على حبوب من الشكولاطة المعطرة ، وكان من الواضح أن في داخلها جوفاً آخر قضت الكونتس بعض الوقت لتكتشف اللولب السرّي الذي تفتحه به . وعندما اكتشفت هذا اللولب حركته ففُتح الجوف عن صورة امرأة صارمة الوجه ، ذات حسن رجوليّ رائع وهيبة موقّرة ، تسبغ عليها تسريحتها الألمانية وعقدها المنتظم الرائع في عنقها غرابة مذهلة .

وكان غطاء العلبة يحمل رقماً مكوّناً من حرفي « م » و« ت » وقد تشابكا داخل إكليل من الغار.

فظنّت مدام دي لاموت أن الصورة تمثّل والدة السيدة المحسنة أو جدّتها، بسبب الشبه الذي يوجد بين الصورة ووجه المرأة الشابّة. لذلك فقد كانت أول حركة قامت بها أنها ركضت نحو الدرج لتنادي السيدتين. ولكنها سمعت باب المدخل ينصفق، فعَدَت نحو النافذة لتناديهما منها لأن اللحاق بهما أصبح مستحيلاً. ولكنها لم تشاهد سوى مركبة تنطلق مسرعة في طرف شارع سان كلود الذي يتّصل بشارع سان لويس.

وعندما يئست الكونتس من مناداة السيدتين عادت تتأمّل في العلبة، واعدة نفسها بأن تحملها إلى فرساي. ثم تناولت اللفافة المتروكة على الطاولة وقالت:

– لم يخطئ ظنّي، إنها لا تحتوي سوى خمسين قطعة من الدراهم.

ولكنها لم تكد تشقّ الورقة عنها حتى صرخت قائلة:

– دنانير ذهبية! دنانير ذهبية مزدوجة! خمسون ديناراً مزدوجاً! ألفان وأربعماية ليرة!

وارتسم فرح جشع في عينيها، بينما تسمّرت السيدة

كلوتيلد في موضعها مفغورة الفم، مشبوكة اليدين، وقد أذهلها منظر هذه الدنانير الذهبية التي لم تر مثلها في حياتها.

أما مدام دي لاموت فقد أخذت تكرّر قائلة:

–ماية دينار ذهبي! هاتان السيدتان هما هكذا غنيتان! إذن لن تفلتا من يدي وسأجدهما!...

الجواد بيلوس

★

لم يخب ظن مدام دي لاموت عندما اعتقدت أن المركبة التي رأتها تختفي في طرف الشارع كانت تُقلّ السيدتين المحسنتين. فقد وجدت هاتان السيدتان إلى جانب المنزل مركبة من مركبات ذلك العهد، ذات عجلات عالية، وصندوق خفيف، وباب مرتفع، ومقعد خلفي ملائم يجلس عليه السائس، وقد كدن إليها جواد إرلنديّ رائع الشكل، ذنبه قصير، وكَفَله سمين، أحمر اللون مطهّم، وقد أحضره إلى شارع «سان كلود» السائس الذي رأينا سيّدة المحبة تدعوه «ويبار».

وكان ويبار هذا عند وصول السيدتين يمسك الجواد بلجامه ، محاولاً أن يهدّئ عنفوان هذا الحيوان الجموح الذي كان يقرع بقوائمه المتوترة الثلج الذي جعله هبوط الليل يشتد تجمّداً وصلابة . وعندما شاهد السيدتين بادرهما قائلا بلهجة ألمانية مشوّهة :

– طلبت يا سيّدتي الجواد « شيبيون » الهادئَ السلس القيادة ، ولكنه كبا وتعطّل البارحة عند المساء ، ولم يبق سوى « بيلوس » وبيلوس جواد صعب المراس .

فأجابته كبرى السيدتين قائلة : إنك تعلم يا ديبار أن الأمر لا يهمني كثيراً ، فيدي متوتّرة الأعصاب ، وقد اعتدت قيادة الخيل .

– أعلم أن سيدتي تقود بمهارة ، ولكن الطرقات صعبة المسالك . إلى أين تتجه سيدتي ؟

– إلى فرساي .

– بطريق الجادات العريضة ؟

– كلا يا ويبار ، فالجليد متكاثف يملأ الجادات ببلوره المتصلب ، وقد تكون الشوارع العادية أقلّ خطورة لأن ألوف الناس يطرقونها جيئة وذهاباً فيحمى الثلج فوقها ويذوب . هيّا يا ويبار ، أسرع ، أسرع !

فشدّ وييار يده على لجام الحصان ، بينما صعدت السيدتان بخفّة إلى المركبة ، ثمّ وثب إلى المقعد الخلفي منبّهاً عن ذلك .

فتوجهت عندئذ كبرى السيدتين بحديثها إلى رفيقتها قائلة :

– ما رأيك بهذه الكونتس يا أندريه ؟

وفيما هي تتلفظ بهذه الكلمات أطلقت العنان للجواد الذي انطلق كالبرق واخترق زاوية شارع سان لويس . في هذه اللحظة بالذات فتحت مدام دي لاموت نافذتها لتنادي سيّدتي المحبة . أما أندريه فقد أجابت قائلة :

– أعتقد يا سيدتي أن مدام دي لاموت فقيرة تعسة .

– إنها حسنة التهذيب ، أليس كذلك ؟

– نعم ، ولا ريب .

– أرى أنك تبدين فتوراً حيالها ، يا أندريه .

– أبوح لك بأن وجهها ينمّ عن شيء من الاحتيال لا يروق لي .

– أعلم أنك مبنيّة على الحذر يا أندريه ، ولا يرضيك شخص إلا إذا جمع كلّ الصفات الحسنة . أما أنا فإني أجد أن هذه الكونتس الصغيرة جديرة بالاهتمام ، وأنها بسيطة في كبريائها وتواضعها .

– هذه ثروة لها يا سيدتي بأن يسعدها حظ الفوز بإعجاب جلال...

ولكن السيدة الكبرى قاطعت رفيقتها إذ صرخت : حذار ! ثم انحرفت بحصانها بعنف لكي لا تصدم حمّالاً في زاوية شارع سان انطوان . وتلاها ويبار فجأر بصوت راعد : حذار ! حذار ! وظلت المركبة تتابع جريها السريع ، فيما مكث الرجل الذي نجا من دواليب المركبة يفيض بالشتائم وقد انضمّ إلى صوته في الحال عدّة أصوات أخذت تزعق زعيقاً صاخبا ، عدائياً بالنسبة للمركبة . ولكنّ الجواد بيلوس فصل في لحظات معدودة بين سيّدته وجماعة الحانقين المجدّفين بالمسافة التي تمتدّ بين شارع سان كاترين وشارع بودواييه .

ولما كان الطريق هناك يواجه مفرقاً ، انطلقت السائقة الماهرة بتصميم في شارع « التيكساندري » ، وهو شارع شعبيّ ضيّق لا أرستقراطيّ . لذلك ، وبالرغم من التحذيرات المتكررة التي كانت تطلقها السيدة السائقة ، وبالرغم من زمجرة ويبار ، فلم يكن يُسمع سوى هتافات المارّين المعادية الصاخبة :

– تبّاً لهذه المركبة ! لتسقط المركبة !

وكان بيلوس لا يكفّ عن جريه ، وكان حوذيّه بالرغم من نضارة يديه الطفلتين يجدّ به مسرعاً ، وبمهارة قلّ نظيرها لا

سيما في جُوَر الثلج الذائب أو في حفر الجليد الخطرة التي كوّنتها السواقي في عرض الشوارع التي اقتلع بلاطها في أكثر من موضع.

ولكن، بالرغم من هذا، لم تقع أية كارثة، لأن مصباحاً منيراً كان يرسل أشعته في عرض الطريق، وهذا كان وسيلة من وسائل الدراية والترف التي لم يكن البوليس في ذلك الوقت قد فرض استعمالها على المركبات.

لم تقع إذن أية كارثة: فلا عربة علقت بالمركبة، ولا حاجزٌ لُمس، ولا عابر سبيل أصيب بأذى. كان ذلك أعجوبة حقاً. إلا أن صراخ التهديد والوعيد كان لا يكفّ عن اللحاق بالمركبة وهي تخترق بسرعة شوارع «سان مادريك» و«سان مارتان» و«أوبري له بوشيه».

وقد يبدو لقرّائنا أن الغضب الشديد الذي كان يثيره عبور هذا الركب الأرستقراطي كان يخفّ حدّة كلما دنت المركبة من الأحياء الممدّنة. ولكن العكس هو الصحيح، فلم يكد الجواد بيلوس يدخل في شارع «لافيرّونري» حتى لاحظ ويبار الذي كانت شتائم الناس وصخبهم لا يكفّان عن ملاحقته، أنَّ تجمّعاتٍ أخذت تعترض طريق المركبة، بل إنه أبصر أشخاصاً كثيرين يتراكضون خلفه ليوقفوه.

بيد أن ويبار لم يشأ أن يزعج سيّدته، فظلّ يلاحظ رباطة

جأشها ومهارتها، وحذقها في عبور العقبات الجامدة أو الحيّة التي تحمل للسائق في باريس إما اليأس وإما الظفر.

أما بيلوس الثابت على قوائمه الفولاذيّة فلم يزلق مرّة واحدة ما دامت اليد التي تشدّ رأسه تعرف كيف تنحرف به عن المزالق وعقبات الطريق. إلا أن اللغط حول المركبة قد تحوّل إلى هياج صاخب، وقد شعرت به السيدة التي تأخذ بيدها العنان، ولكنها عَزَت هذا العداء إلى أسباب تافهة كقسوة الطقس وبرم النفوس به، لذلك فقد عزمت على اختصار التجربة، فصفرت بلسانها صفرة كانت كافية لتجعل بيلوس يهتز ويحوّل عدوه الممسوك إلى عدو منطلق يترك الحوانيت خلفه، ويجعل عابري السبيل يفرون إلى جوانب الطريق بسبب سرعة المركبة والتحذيرات العالية المتكررة.

وكانت المركبة على وشك أن تصل إلى «القصر الملكي»، وقد مرّت بشارع «كوك سانت هونوريه» حيث كانت أجمل مسلّة من الثلج تشمخ برأسها الذي ذاب بعضه فأصبح شبيها بقضيب المعلّل الذي يمصّه الأولاد فيدقّ من رأسه. وكان رأس هذه المسلّة مكللاً بعصبة من الشرائط ذات أبهة وإن كانت قد فقدت بعض رونقها، وكانت هذه الشرائط تحمل لوحة تتأرجح بين قنديلين وقد خطّ عليها كاتب الحي بأحرف كبيرة الأبيات الأربعة التالية:

«أيتها الملكة التي يفوق حسنها كل روعة ،
ألا احتلّي مكانك هنا بجانب الملك المحسن ،
وإذا لم ترضي بهذا البناء المتهاوي من الثلج والجليد ،
فهيّا احتلّي قلوبنا الصامدة .»

هنا واجه بيلوس أول صعوبة حقيقيّة ، فالنصب الذي كانوا ينيرونه بالقناديل قد جذب عدداً من الفضوليين الذين اجتمعوا هناك في حشد كبير ، وكان من الصعب على بيلوس أن يخترق هذا الحشد في مثل سرعته ، فاضطرّت سائقته إلى إعادته إلى السير العاديّ . ولكن المحتشدين هناك كانوا قد شاهدوا بيلوس مقبلاً كالصاعقة ، وسمعوا الصراخ الذي كان يتبعه . وبالرغم من وقوفه السريع أمام هذا الحاجز البشري فقد كان لمنظر المركبة وقع سيء على تلك الجمهرة .

ومع ذلك فقد فتحت الجمهرة طريقاً للمركبة .

إلا أن حشداً آخر كان قد تكوّن بعد مسلّة الثلج ، ذلك أن شعريّات القصر الملكي كانت مفتوحة ، وفي ساحته مواقد نار كبيرة يصطلي حولها جيش من المتسوّلين كان خدم دوق أورليان يوزّعون عليهم الحساء في طاسات فخّارية . وكان الآكلون والمصطلون ، بالرغم من كثرتهم ، أقلَّ عدداً من المتفرّجين عليهم . هذه عادة من عادات باريس : فلكل ممثّل ، مهما فعل ، يجد من يتفرَّج عليه .

فالمركبة إذن، بعد اجتيازها الحاجز البشريّ الأول، اضطرت أن تتوقف عند الثاني، تماماً كما تفعل سفينة أمام الصدمات.

عندئذ استطاعت المرأتان أن تسمعا بوضوح الصراخ الذي لم يصل إليهما حتى الآن إلا بشكل ضجيج مختلط مبهم:

- لتسقط المركبة! ليسقط ساحقو الناس!

فتوجهت السيدة التي كانت تقود الجواد إلى رفيقتها وسألتها قائلة:

- هذه الصرخات موجّهة إلينا؟

- حقاً إنها تخيفني يا سيدتي.

- وهل دهسنا أحداً؟

-كلا، لم ندهس أحدا.

أما الناس فقد كانوا يصيحون بغضب:

- لتسقط المركبة! وليسقط الساحقون!

إنها العاصفة! وقد قبض الناس على لجام الجواد بيلوس الذي لم يأنس لهذه الأيدي الخشنة فراح ينفخ ويزبد بعتوّ شديد. وإذا بصوت يصيح:

- إلى مفوّض البوليس! إلى مفوّض البوليس!

فنظرت السيدتان كلّ منهما إلى الثانية بذهول شديد. فإذا بألف صوت تردّد مجتمعة:

- إلى مفوض البوليس ! إلى مفوض البوليس !

وشرعت رؤوس بعض الفضوليين ترفع غطاء المركبة وتطلّ إلى داخلها، وقد راحت الاشاعات المختلفة تنتشر في كل صوب، فإذا بصوت يصيح :

- زه، زه ! إنهما امرأتان .

- أجل، لعبتان لعشاق آل « سوبيز »، ومن محظيّات الأمير « هينان » .

- بل إنهما من بنات دار الأوبرا اللواتي يحسبن أنّ لهن حقّ دهس الناس الفقراء لأن راتبهن ألف ليرة في الشهر يستطعن به تسديد حساب المستشفى .

فإذا بعاصفة من الهتاف الشديد تستقبل هذه العبارة الأخيرة الساخرة . أما السيدتان فقد كان وقع هذا الزعيق عليهما مختلفاً، فتوغّلت إحداهما مصفرّة مرتجفة في قعر المركبة، فيما قدّمت الثانية رأسها بحزم وهي تقطّب حاجبيها وتزم شفتيها . ولكنّ رفيقتها شدّتها إلى الوراء هاتفة :

- آه ! ماذا تفعلين يا سيدتي ؟

أما الأصوات فقد اشتدت ضراوة، وكانت ما تزال تصيح :

- إلى مفوض البوليس ! إلى مفوض البوليس لكي يكشف عن هويتهما !

فوسوست عندئذ صغرى السيدتين في إذن رفيقتها قائلة :

– آه يا سيدتي ! لقد أدركنا الهلاك . فأجابتها رفيقتها :

– تشجّعي يا أندريه ، تشجّعي .

– ولكنهم سيرونك ، ويعرفون من أنت .

– انظري من الزجاج الخلفي إذا كان ويبار لا يزال خلف المركبة .

– إنه يحاول النزول ، ولكن الناس يحيقون به . إنه يدافع عن نفسه . ها إنه ينزل ويأتي نحونا .

فصاحت كبرى السيدتين بالألمانية قائلة:

– ويبار ، ويبار ، هيّا أنزلنا من المركبة .

فأطاع الخادم وأخذ ينحّي مهاجميه بكتفيه ، ثم فتح باب المركبة ، فقفزت السيدتان بخفّة إلى الأرض ، فيما كان المحتشدون من الناس يتشبّث بعضهم بالجواد ، وبعضهم الآخر بدأ يحطم صندوق المركبة . أما كبرى السيدتين فقد تابعت تساؤلها بالألمانية قائلة :

– ما الذي يجري ، يا للسماء ؟! أتفهم شيئاً مما يحدث يا ويبار ؟

– لا والله ، يا سيدتي .

أجاب الخادم بهذا بالألمانية ، وبيسرٍ يفوق نطقه بالفرنسية ، وقد كان أثناء ذلك لا يكف عن توجيه ركلاته إلى كل

صوب لكي يشقّ طريقاً لسيدته التي تابعت تقول بالألمانية أيضاً :

- هؤلاء ليسوا بشراً ، إنهم حيوانات كاسرة . تُرى أيّ مأخذ لهم عليَّ ؟ ألا يتكلمون ؟

فإذا بصوت مهذّب ، يتناقض تماماً مع التهديد والوعيد اللذين كانا يوجّهان للسيدتين ، يجيب بلغة ساكسونية صافية :

- إنهم يأخذون عليكما ، يا سيدتيّ ، أنكما خالفتما مذكرة البوليس التي صدرت في باريس صباح هذا اليوم ، والتي تمنع سير المركبات حتى قدوم الربيع . ولا أحسبكما تجهلان الخطر الذي ينجم عن سير المركبات على الجليد .

فاستدارت السيّدة لترى من أين يأتي هذا الصوت المؤدب عكس بقية الأصوات المهدّدة بالويل . فشاهدت ضابطاً شاباً لا شك أنه ناضل نضالاً شديداً ليدنو منها ، كما فعل ويبار ليستقرّ في موضعه . فأُعجبت بوسامته وهيبته ، وبقامته المرتفعة ، وبالحماسة التي تبدو عليه ، وأسرعت إلى إجابته بالألمانية :

- يا الله ! إنني أجهل هذه المذكرة يا سيدي ، أجهلها تماماً .

- هل أنت غريبة يا سيدتي ؟

– نعم. ولكن أرشدني، ماذا يجب أن أفعل؟ إنهم يحطمون مركبتي.

– دعيهم يحطمونها يا سيدتي، واستفيدي من هذه الفرصة لكي تتواري عن أنظارهم، فشعب باريس ثائر على الأغنياء الذين يتباهون بالأبّهة أمام البؤس. ثم باستطاعة هؤلاء أن يقودوكما إلى مفوّض البوليس معتمدين على المذكرة التي صدرت في هذا الصباح.

– كلا! أبداً! أبداً!

هتفت بهذا أصغر السيدتين، فضحك عندئذ الضابط وقال:

– استغلاّ إذاً الممرّ الذي سأشقه بين الناس، وتواريا في الحال.

فاه الضابط بهذه الكلمات، ففهمت السيدتان الغريبتان أنه سمع ما عيّرهما به الناس عندما لقبوهما بعشيقتي «سوبيز» و «هينان». ولكن الوقت لم يكن صالحاً للجدال، لذلك فقد قالت كبرى السيدتين بلهجة آمرة:

– قدّم لنا ذراعك حتى نصل إلى عربة في الساحة.

فأجاب الضابط:

– كنت سأهيج جوادكما فيخلق ضجيجه بلبلة تجعلكما

تتواريان ، لا سيما وأن الشعب قد سئم هذه اللغة الغريبة التي نتكلمها والتي لا يفهمها .

وكان الضابط يريد أن يزيح عن كاهله مسؤولية تقديم ذراعه للسيدتين ، ولكن السيدة صرخت بصوت قويّ :

- هيّج يا وييار الجواد بيلوس ، لكي يفرّق الرعب هؤلاء الناس .

- وبعد ذلك يا سيدتي ؟

- وبعد ذلك تبقى في مكانك ونمضي نحن .

- وإذا حطموا صندوق المركبة ؟

- دعهم يحطمونه ولا تهتم . فقط أنقذ بيلوس إذا استطعت ، وأنقذ نفسك ، هذا هو الشيء الوحيد الذي أوصيك به .

- كما تشائين يا سيدتي .

أجاب بهذا وييار ولكز الجواد الارلندي النزق الذي وثب في وسط الساحة مجندلاً الذين كانوا أكثر اندفاعاً فتشبّثوا باللجام أو بمحملي المركبة .

فإذا البلبلة والرعب يسودان في الحال . فقالت السيدة :

- هاتِ ذراعك أيها الضابط .

ثم التفتت إلى أندريه وقالت : وتعالي أنت يا صغيرتي .

- هيّا تشجعي يا سيدتي .

تمتم الضابط بهذه الكلمات بصوت منخفض وهو يقدّم ذراعه بإعجاب للسيدة التي طلبت منه ذلك . ولم تمضِ بضع دقائق حتى قاد السيدتين إلى الساحة المجاورة حيث كانت العربات واقفة تنتظر ريثما تسلك الطريق ، وكان سائسو هذه العربات نائمين على مقاعدهم بينما كانت جيادهم تنتظر علفة المساء الهزيلة برؤوس منخفضة وعيون نصف مغمضة .

طريق فرساي

★

وجدت السيدتان نفسيهما بعيدتين عن مطال الجماهير ، ولكنهما كانتا تخشيان أن يلحق بهما بعض الفضوليين ، فيعرفوهما ، فيتجدد المشهد السابق وتكون وسيلة النجاة هذه المرة أمرّ وأصعب .

وقد فكر الضابط بمغبّة هذا الأمر ، فأسرع إلى عربجيّ تجمّد على مقعده من البرد والنعاس ، وأخذ يلحّ في إيقاظه .

وكان البرد قارساً إلى درجة أن السائق لم يتحرك من موضعه ، وكذلك سائقو العربات الأخرى الذين تعوّدوا أن يزاحم بعضهم بعضاً على الدور مزاحمة شديدة . فقبض

الضابط على عروة سترة السائق الرثة وهزّه هزّة عنيفة أيقظته من خَدَره. وعندما شعر الضابط الشاب بأن سمة الحياة قد بدت عليه صرخ في أذنه :

– أفق يا رجل، أفق!

– أمرك يا معلم، أمرك.

نطق بها الرجل وهو ما يزال يحلم ويتهاوى على مقعده كأنه سكران. فسأل الضابط السيدتين باللغة الألمانية :

– إلى أين أنتما ذاهبتان يا سيدتيّ؟

– إلى فرساي.

فهتف السائق عندما سمع هذا الاسم :

– إلى فرساي! قلتما إلى فرساي؟

– نعم.

– أوه! أي مسافة أربعة فراسخ ونصف فرسخ في مثل هذا الجليد! لا، لا، لا أقبل ...

فقالت كبرى السيدتين الألمانيتين : ولكننا ندفع. فكرّر له الضابط قولهما بالفرنسية.

ولكن العربجي لم يبدُ شديد الثقة بهذا القول، لذلك فقد سأل قائلاً :

– وكم تدفعان؟ وعليك يا سيدي الضابط أن تحسب أيضاً حساب العودة من فرساي.

فقالت السيدة الصغرى للضابط بالألمانية أيضاً :

– دينار ذهبي ، هل هذا يكفي ؟

فكرّر الضابط قائلاً للعربجي :

– إنهما تدفعان ديناراً ذهبياً .

فغمغم العربجي قائلاً : دينار ذهبي ، هذا هو السعر تماماً ، لأن جواديّ قد يكبوان فتتحطم قوائمهما .

– ما أعجب أمرك ! فسعرك ثلاث ليرات لكي تصل إلى قصر « لامويات » الذي يقع في وسط المسافة ، وهذا يعني أنك تستحق إثنتي عشرة ليرة ذهاباً وإياباً ، ولكنك ستقبض أربع وعشرين ليرة .

إلا أن كبرى السيدتين تدخلت قائلة للضابط : لا تفاصله ، ليتقاضَ دينارين بل ثلاثة بل عشرين ديناراً ، شرط أن يسير في الحال دون أن يتوقف .

فقال الضابط : يكفيه دينار واحد يا سيدتي .

ثم توجه بالكلام إلى العربجي وقال :

– هيا انزل عن مقعدك أيها الوغد وافتح بابك .

ولكن العربجي أجاب قائلاً :

– أريد أن أتقاضى الحساب سلفاً .

– الحساب !

– هذا حقي .

فتحرّك الضابط إلى الأمام، بيد أن كبرى السيدتين الألمانيتين قالت: لندفع سلفاً. ثم أخذت تبحث في جيبها. ولكنها سرعان ما همست لرفيقتها:

- يا الله! محفظتي ليست معي!..

- حقاً؟

- وأنت يا اندريه، هل محفظتك معك؟

فأخذت المرأة الصبية تبحث بدورها وقد بدا عليها قلق مماثل، ثم قالت:

- كلا، أنا أيضاً لم أجدها.

- ابحثي عنها في جيوبك كلها.

- عبثاً أبحث فهي ليست معي.

هتفت المرأة الصبية بهذه الكلمات بحنق ظاهر، لأنها رأت الضابط يتبعهما بنظره أثناء هذا الحوار، والعربجيّ الهازئ يفتح فماً عريضاً ليبتسم مهنئاً نفسه على هذا الحذر السعيد.

وبحثت السيدتان طويلاً دون أن تجد إحداهما فلساً في جيوبها. ورآهما الضابط يفقدان الصبر ويحمر وجهاهما ويشحبا وقد تعقد الموقف على مثل هذه الحال. وكانت السيدتان تهمّان أن تقدّما للعربجيّ كرهينة سلسلة ذهبية أو جوهرة ثمينة، ولكن الضابط وفّر عليهما ما قد يجرح

حسّهما ، فأخرج من محفظته ديناراً ونقده العربجي ، فتلقفه هذا وشرع يتفحصه ويزينه بيده بينما كانت السيدتان تشكران للضابط فعلته ، ثم فتح باب عربته فصعدت إليها السيدة ورفيقتها . عندئذ توجه الضابط الشاب إلى العربجيّ وقال :

– والآن ايها السائق الطريف ، كن مستقيماً أمينا ووصّل السيدتين الى حيث تشاءان ، هل فهمت ؟

– طبعاً يا سيدي الضابط ، ولست بحاجة إلى توصية .

ولكن السيدتين كانتا أثناء هذا الحوار القصير تتشاوران فيما بينهما ، وقد اخذتا تنظران بعين الرعب إلى حوذيهما، ثم همست الصغرى الى رفيقتها بعد أن أصبح حارسهما مستعدّاً لمغادرتهما :

– سيدتي ، يجب ألا يبتعد عنّا .

– ولماذا ؟ لنسأله عن اسمه وعنوانه ، وغداً نبعث اليه بديناره الذهبي مرفقاً بكلمة شكر تكتبينها له أنت .

– كلا يا سيدتي ، أتوسل إليك أن يبقى معنا ، فإذا كان الحوذيّ شريراً وشاكسنا في الطريق في مثل هذا الوقت من الليل وفي مثل هذه المسالك الصعبة ، فإلى من نستجير ليمدّ إلينا يد المساعدة ؟

– هدّئي من روعك ، فنحن نعرف رقم عربته وعلامتها الفارقة .

- لا أخالفك يا سيدتي ، ولا أنكر أنه لن يفرّ من يديك فيجلد في المستقبل جلدا . ولكنه يستطيع هذه الليلة أن يؤخّر وصولنا إلى فرساي ، وعندئذ ماذا يقال عنا؟ يا الله !

ففكرت السيدة الكبرى قليلاً وقالت : إنك على صواب .

وكان الضابط ينحني أمام السيدتين ويهمّ أن ينصرف . فنادته أندريه بالألمانية قائلة :

- كلمة من فضلك يا سيدي ، كلمة واحدة !

- أمرك يا سيدتي .

أجاب بها الضابط بلهجة من شعر بالمعاكسة ، ولكنه ظل محتفظاً ، في هيئته ولهجته ورنين صوته ، بأدب كثير العذوبة . فتابعت أندريه قائلة :

- لا يمكنك يا سيدي أن تبخل علينا بمعروف بعد الخدمات الكثيرة التي قدّمتها لنا .

- تكلمي .

- نعترف لك بأننا خائفتان من هذا الحوذيّ الذي لم ترقنا طريقة مساومته على الأجرة .

- من الخطأ أن توجسا الخوف منه ، فأنا أعرف رقمه وعلامة « النافعة » التي هي حرف « ز » . فإذا عاكسكما في شيء عودا إليّ .

فقالت أندريه بالفرنسية وقد نسيت نفسها :

- نعود إليك ! كيف تريد أن نعود إليك ونحن لا نعرف حتى اسمك.

فخطا الضابط الشاب خطوة إلى الوراء وهتف متعجباً:

- تتكلمان الفرنسية وترغمانني منذ نصف ساعة على اللغو بالألمانية ! هذا حقاً يا سيدتي أمر سيّئ !

فأقبلت السيدة الثانية بشجاعة على مساعدة رفيقتها المخجولة وأجابت الضابط بالفرنسية أيضاً:

- إعذرنا يا سيدي، فقد رأيت بامّ عينك كيف أننا ضللنا السبيل في باريس وبتلك المركبة وإن لم نكن غريبتين. إنك رجل مجتمع وتفهم أننا لم نكن في موقف طبيعي. أكمل معروفك معنا ولا تجعله ناقصاً، لأن من قام بنصف المعروف كمن لم يفعل شيئاً، ومن باح بنصف السر كمن باح به كله. ظننا بك خيراً يا سيدي، فلا تظنّن بنا شراً. وإذا استطعت أن تعيننا فافعل دون تحفظ، أو فاسمح لنا أن نشكرك ونبحث عن سند آخر.

فتأثر الضابط بصوت هذه المرأة المجهولة ولهجتها النبيلة العذبة وقال:

- أضع نفسي تحت تصرفكما يا سيدتيّ.

- كلّف إذن خاطرك يا سيدي، واصعد معنا.

- في العربة ؟

- نعم، لكي ترافقنا.

- إلى فرساي؟

- نعم، يا سيدي.

لم يحر الضابط جوابا، وصعد إلى العربة فجلس على مقدمة المقعد صارخاً بالحوذي:

- هيّا انطلق!

وبعد أن أُغلقت أبواب العربة، وسوّى الجلوس أوضاعهم على مقاعدها، انطلقت في شارع «سان توما دي لوفر»، واجتازت ساحة «الكاروسيل»، ثم مضت تجري في الشوارع العريضة. وكان الضابط قد انزوى مقابل السيدة الكبرى ومعطفه منبسط بعناية على ركبتيه.

وكان صمت عميق ينتشر داخل العربة. أما الحوذيّ فقد جعل بغلتيه الهزيلتين تعدوان بحذر فوق مزالق الشوارع ولا سيما في طريق «الكونفرانس»، وقد يكون ذلك أمانة منه، أو أن وجود الضابط بعث في نفسه الخشية فأبقاه في دائرة الاحترام والصدق.

ولم يلبث نَفَس المسافرين الثلاثة أن حمل الدفء رويداً رويداً إلى العربة التي انتشر في جوّها عطر ناعم أخذ يتسرّب إلى دماغ الضابط وأخذت تتسرّب معه ظنون شتّى تتعلق برفيقتيه. فقد فكّر أنهما امرأتان تأخرتا عن موعد من

المواعيد، وأنهما تعودان الآن إلى فرساي خائفتين خجولتين. ولكنه سرعان ما تابع يسأل نفسه: إذا كانتا امرأتين لهما قدرهما فكيف تخرجان في مركبة تقودانها بنفسيهما؟

ولكن هذا السؤال له جواب. فالمركبة صغيرة ضيقة لا تتسع لثلاثة أشخاص، وقد لا ترضى امرأتان أن يرافقهما حاجب يضايقهما بوجوده.

ولكن كلتا السيدتين لا تحملان دراهم! إنه اعتراض مزعج يحتاج الى تفكير.

لا شك أن مخفظة المال كانت مع الحاجب. أما مركبتهما التي قد تكون أصبحت حطاماً الآن فهي على جانب كبير من الأناقة، والجواد ... إذا كنت ممن يعرفون بالخيل فإنه يُثمّن بماية وخمسين ديناراً ذهبيا. ومن ثم فالنساء الثريات فقط يتركن مثل هذه المركبة ومثل هذا الجواد دون أسفٍ عليهما. فالمال لا يعني إذن شيئاً بالنسبة لهما.

ولكن أية عادة هي هذه: أن يتكلما لغة غريبة وهما فرنسيتان؟

هذا دليل تربية عالية، فليس من الطبيعي أن تتكلم نساء مغامرات الألمانية بمثل هذا النقاء الجرماني، ولا الفرنسية كالباريسيّات تماماً.

وتابع الضابط تفكيره قائلاً في نفسه : يبدو على هاتين السيدتين رفعة الحسب والنسب . لقد كان توسّل المرأة الصبية مؤثراً ، ودفاع السيدة الكبرى نبيل الوقع على عظمة .

ورتّب الضابط سيفه في العربة لئلا يزعج جارتيه ، وظلّ مسترسلاً في محادثة نفسه : تُرى، أما من خطر على عسكريّ في أن يقضي ساعتين في عربة بصحبة امرأتين جميلتين؟ إنهما جميلتان كتومتان لأنهما لا تتكلمان وتنتظران مني أن أفتح الحديث معهما .

وكانت أفكار السيدتين الغضّتين مشغولة بالضابط الشاب كما كانت أفكاره مشغولة بهما ، لأنه في اللحظة التي وردت فيها هذه الفكرة إلى رأس الضابط توجهت إحدى السيدتين الى رفيقتها وخاطبتها بالانكليزية قائلة :

– يسوق بنا هذا الحوذي ، يا صديقتي العزيزة ، كأموات ، ولن نصل أبداً بمثل سرعته هذه إلى فرساي . ولا شكَّ في أن رفيقنا المسكين يكاد يموت من الضجر .

فابتسمت المرأة الصغرى وقالت : لأن حديثنا معه لا يسلّي كثيرا ، بالاضافة إلى بطء العربة .

– ألا ترين أن دلائله تشير إلى أنه رجل بكلّ معنى الكلمة ؟

– بلى ، هذا هو رأيي يا سيدتي .

– ثم أما لاحظتِ أنه يرتدي زيَّ البحرية ؟

– ليست لي خبرة واسعة في الأزياء .

– بلى ، كما قلت لك إنه يرتدي زيّ ضابط في البحرية ، وجميع ضباط البحرية هم من بيوت عريقة . ثم إن زيّه منسجم عليه ، وإنه لفارس جميل ، ألا ترين كذلك ؟

وكانت السيدة الصغرى على وشك أن تجيب وتستفيض بالإجابة على سؤال محدثتها عندما قام الضابط بحركة أوقفتها وقال بلغة انكليزية رفيعة :

– عفواً يا سيدتيّ ، اعتقد أنه من واجبي مصارحتكما بأنني أتكلم الانكليزيّة وأفهمها بيسر ، ولكنني أجهل الاسبانية ، فإذا كنتما تعرفانها ويروق لكما التحدث بها ، تصبحان على الأقل متأكدتين من أنني لا أفهم ما تتحدثان به .

فأجابت السيدة الكبرى وهي تضحك : لم يخطر ببالنا أن نقول فيك سوءًا كما خُيّل إليك يا سيدي ، ولن نحتار بعد الآن ، بل سنتخاطب بالفرنسية إذا كان لدينا شيء نقوله .

– شكراً على هذا المعروف يا سيدتي ، وعلى كلّ حال إذا كان وجودي يزعجكما فـ ...

– ليس بإمكانك ان تعتقد هذا يا سيدي ، لأننا نحن طلبنا إليك أن تكون بيننا .

وأضافت السيدة الصغرى : بل لقد طلبنا ذلك منك بإلحاح شديد .

- لا تخجليني يا سيدتي ، واغفري لي ما أبديته من تردّد في بادئ الأمر . إنك تعرفين باريس ، وما تحفل به من أشراك وتهوّر وخيبة .

- إذن لقد ظننتنا ... قل الحقيقة ، تكلّم . فتابعت رفيقتها :

- لقد ظنّنا شركاً من الأشراك .

فشعر الضابط بخجل وقال :

- كلا يا سيدتيّ ، أقسم لكما أن شيئاً من هذا لم يخالج ذهني إطلاقاً .

- عفواً ، ما الذي جرى ؟ وقفت العربة !

- ماذا حصل ؟

- سأرى بنفسي يا سيدتيّ .

وكانت يد السيدة الصغرى قد امتدّت بحركة مفاجئة وتوقفت ضاغطةً على كتف الضابط ، فجعلته يقشعرّ . فحاول بحركة طبيعية أن يقبض عليها ، ولكن أندريه التي تغلّب عليها الخوف كانت قد ارتمت في قعر العربة . فوجد الضابط عندئذ نفسه طليقاً ، فخرج إلى الأرض ووجد الحوذيّ

منهمكاً في إنهاض أحد جواديه الذي عقلته الحبال وحال دون نهوضه جذع الخشب النافر من العربة.

جرى ذلك على مقربة من جسر سيڤر. وبفضل المساعدة التي قدّمها الضابط للحوذيّ استطاع الجواد المسكين أن ينهض من كبوته ويقف على قوائمه. ثم عاد الضابط فدخل إلى العربة، أمّا الحوذيّ فقد هنأ نفسه على هذه المهارة التي اكتسبها من خبرته الطويلة، ثم قرع بسوطه قرعاً فرحاً لغايتين: لكي ينشّط جواديه ولكي يُكسب نفسه بعض الدفء. أما في داخل العربة فكأني بالبرد الذي دخل من بابها قد جلّد تلك المحادثة بين ركابها، وجمّد تلك العلاقة الحميمة المولودة ولادة جديدة والتي بدأ الضابط يشعر بوقعها على نفسه وقعاً جميلا دون أن يدري لها سببا.

لذلك فقد اكتفت السيدتان بالاستفسار عن الحادث، واكتفى هو بوصفه. وعاد الصمت يرزح على كواهل المسافرين الثلاثة.

ولكن الضابط الذي شغلته تلك اليد الفاترة المرتعشة أراد أن يردّ لجارته فعلاً مماثلاً، فمدّ ساقه نحوها، ولكنه بالرغم من مهارته لم يلمس شيئاً، أو أنه لاحظ متألماً أن ما لمسه قد انزاح بسرعة عنه. وقد صدف لحظةً أن مسّت مساً خفيفاً قدم السيّدة الكبرى، فقالت له بلا اكتراث:

- إني أضايقك كثيراً يا سيدي، فعفواً.

فتضرّج وجه الضابط الشاب حتى أذنيه، وراح يهنئ نفسه على كثافة الليل الذي يخفي احمراره. وشعر أن بهذا قد انتهت جميع محاولاته، لذلك فقد لاذ بالصمت، وسكن في موضعه بوقار كأنه في معبد، خائفاً من أن يتنفس، ومنكمشاً على نفسه كغلام صغير.

ولكن إحساساً غريبا أخذ يجتاح فكره وكل كيانه، وبالرغم من إرادته. فكان يشعر بوجود المرأتين اللذيذتين دون أن يلمسهما، وكان يراهما مصورتين في نفسه دون أن ينظر إليهما. ثم سرعان ما اعتاد البقاء بقربهما فصار يخيَّل إليه أن جزءاً من حياتهما قد ذاب في حياته. ولكم اشتهى الآن أن يوصل المحادثة المنقطعة بينه وبين السيدتين، ولكن الجرأة أخذت تخونه لأنه أصبح يخشى أن يفوه بأشياء تافهة وأن يبدو بمظهر الغبي الوقح امام هاتين المرأتين، هو الذي كان يعتقد منذ ساعة انه قد منحهما كثيراً من الشرف إذ منحهما ديناراً ذهبياً وبعض اللياقة. ويمكن القول بكلمة واحدة أنه كما تتوالد الألفة في هذه الحياة من العلائق بين السُدُم الذي يلتقي بعضها ببعض، كذلك فإن جاذباً قوياً ناجماً عن عطور وحرارة تلك الأجسام الثلاثة الفتية المجتمعة معاً بعامل الصدفة فقط، قد استولى على الضابط الشاب فانشرحت أفكاره وانبسط فؤاده.

على هذا المنوال يولد العشق ويعيش ويفنى في لحظات معدودة، ويكون من أصدق وأعذب وأحرّ ما يقع على قلوب العاشقين. وهذا العشق فتّان قوي لأنه يجمع بين الخفقة العابرة والحس المستمر العميق.

وظلّ ضابطنا صامتاً فلم تخرج من فمه كلمة واحدة، أما السيدتان فقد وشوشتا فيما بينهما بعض الأحاديث بصوت منخفض. ولما كان الضابط يرهف سمعه دائماً فقد سمع بعض كلمات متقطعة استطاعت مخيلته أن تلبسها بعض معانيها. وهذا ما بلغ أذنيه:

- تأخرنا كثيراً ... الأبواب المغلقة ... حجّة خروجنا من القصر ...

هنا توقفت العربة من جديد. ولم يكن سبب توقفها هذه المرة حصاناً كبا أو عجلة من عجلاتها تحطمت، إنه الوصول إلى فرساي. وقد استطاع الحوذي أن يبلغها بعد ثلاث ساعات من الجهد والشجاعة وبفضل ساعديه القويين اللذين جعلا العرق يتفصّد من جواديه. وكانت شوارع فرساي الطويلة العريضة قاتمة خالية، تبدو تحت ضياء القناديل التي ابيضت من الجليد كأنها في استعراض مزدوج تسير فيه اشباح سوداء نافرة العظام.

وفهم الضابط أن العربة وصلت إلى المكان المنشود، فتساءل: تُرى أية عصا سحرية جعلت الزمن يبدو هكذا قصيراً أمام عينيه؟ إلا أن الحوذيّ لم يجعله يستغرق طويلاً بهذا التفكير إذ أنه انحنى نحو الزجاج الأماميّ وقال:

- يا معلمي، إننا في فرساي.

فسأل الضابط قائلاً:

- أين تريدان الوقوف يا سيدتيّ؟

- في ساحة السلاح.

فصرخ الضابط بالحوذي: في ساحة السلاح! ولكن الحوذيّ سأل من جديد:

- عليَّ الانطلاق إلى ساحة السلاح؟

- نعم، هذا ما يُطلب إليك.

- وهل من إكرامية صغيرة؟

- هيّا انطلق!

فأعمل السوط من جديد بمؤخرة الجوادين. أما الضابط فقد حدّث نفسه قائلاً: «طال عليّ الصمت ويجب أن أتكلم لئلا أظهر بمظهر الغبيّ بعد أن ظهرت بمظهر الوقح». ثم اتجه الى السيدتين وقال متردداً:

- ها أنتما يا سيدتيّ في المكان الذي قصدتما إليه.

فقالت السيدة الكبرى: هذا بفضل مساعدتك الكريمة.

ثم أردفت السيدة الصغرى قائلة : لقد كلّفناك تعباً جمّاً .

– هذا ما نسيته يا سيدتي .

– أما نحن فلن ننساه أبداً . ما اسمك إذا شئت يا سيدي ؟

– إسمي ؟

– إننا نسألك عنه للمرة الثانية . فهل تتحفظ إلى هذا الحد !

وتابعت السيدة الصغرى تقول:

– وأعتقد أنكَ لن تترك دينارك الذهبي هدية لنا ؟ فأحسّ الضابط بوخز هذا الكلام وقال :

– ما دام الأمر كذلك يا سيدتي فإني أستسلم لإرادتكما : إنني الكونت دي شارني ، ضابط في البحرية الملكية كما لاحظت ذلك سيدتي بنفسها .

– شارني ! أعادت هذا الاسم السيدة الكبرى بلهجة من يريد أن يعني : « حسناً ، لن أنساه » . أما الضابط فقد أردف قائلاً :

– جورج ، جورج دي شارني .

– جورج ...

– وأين تقطن ؟

– في نزل الأمراء ، شارع ريشاليو .

وتوقفت العربة، ففتحت كبرى السيدتين الباب إلى يسارها ووثبت إلى الأرض وثبة ماهرة ومدّت يدها إلى رفيقتها. فهتف الضابط الشاب وهو يهمّ أن يلحق بهما:

- إقبلا ذراعي يا سيدتيّ حتى تصلا إلى مقرّكما، فساحة السلاح ليست منزلاً.

إلا أن السيدتين قالتا معاً: لا تتحرك!

- وكيف لا أتحرك!

- كلا، إبق داخل العربة.

- ولكنه يستحيل عليكما أن تسيرا وحيدتين في مثل هذا الليل القارس.

فقالت السيدة الكبرى بلهجة مرحة:

- ها إنك بعد أن رفضت أن نعترف لك بجميل صنعك، تريد أن تطوّق عنقنا بجميل كبير.

- إذن!

- لا تقل إذن، وكن حتى النهاية فارساً لطيفاً مستقيماً. شكراً لك يا سيد دي شارني، شكراً لك من صميم الفؤاد. ولما كنت مقتنعة من أنك فارس لطيف مستقيم، فإني لا أطلب منك أي عهدٍ بشرفك.

- وعلى أي شيء يا سيدتي ؟

- على أن تغلق باب العربة وتأمر الحوذيّ بأن يعود إلى باريس. هذا ما ستفعله كما أعتقد دون أن توجه نظرك نحونا ؟

- أنتنّ على حق يا سيدتيّ ، لا حاجة لي معكن لعهد الشرف . يا حوذي ! هيّا لنرجع يا صديقي .

ثمّ دسّ الضابط الشاب ديناراً ثانياً في يد الحوذيّ الكبيرة ، فارتعش هذا من الفرح ، وأرخى العنان لجواديه قائلاً :

- ليمت الجوادان إذا طاب لهما الموت !

فتمتم الضابط بدوره :

- أعتقد أنهما تقاضيا فوق أجرهما .

وجرت العربة جرياً سريعاً ، خانقة بقرقعة دواليبها تنهيدة اشتهاء صعّدها الضابط بعد أن استلقى على المسندين اللذين كانا ما يزالان دافئين بحرارة الحسناوين المجهولتين . أما المرأتان فقد مكثتا في مكانهما، ولم تبرحاه إلى القصر إلا بعد أن غابت العربة عن أبصارهما .

التدبير المرعب!

★

في الوقت الذي استأنفت فيه السيدتان المسافرتان سيرهما حمل صرير الريح القارسة إلى أذنيهما رنين ساعة كنيسة القديس لويس التي كانت تدقّ الثلاثة أرباع. فهتفت السيدتان بصوت واحد:

– يا الله! انها الساعة الحادية عشرة وثلاثة أرباع!

ثم أضافت السيدة الصغرى قائلة:

– انظري، جميع المداخل مغلقة.

– لا أحفل بهذا يا عزيزتي أندريه. حتى وإن كانت مفتوحة، فإن وصولنا في مثل هذه الساعة المتأخرة لا يسمح لنا أن ندخل من باب التشريفات. فهيّا أسرعي لندخل من الممرات الجانبية الخفية.

واتجهت السيدتان الى الجهة اليمنى من القصر، حيث يوجد ممرّ خاص يقود إلى الحدائق. وما كادتا تصلان إلى هذا الممر حتى قالت كبرى السيدتين بقلق:

– الباب الصغير مغلق يا أندريه!

– لنقرع يا سيدتي.

– كلا ، من الأفضل أن ننادي « لوران » الذي ينتظرني ، فقد أخبرته بأنني قد أعود متأخرة .

– إذن سأناديه .

ودنت أندريه من الباب منادية . إلا أن صوتاً صاح من الداخل قائلاً : من هذا ! فهتفت أندريه مذعورة :

– ما هذا بصوت لوران !

وقالت رفيقتها: لا، هذا ليس صوته .

ثم اقتربت السيدة الكبرى من الباب وتمتمت في شقّه منادية : لوران ! ولكنها لم تسمع جواباً . فقرعت الباب وهي تنادي مرة ثانية : لوران ! إلا أن الصوت أجاب من الداخل بشراسة : لا يوجد لوران بيننا . فقالت عندئذ أندريه بإلحاح : إن كنت لوران او غيره ، إفتح الباب !

– كلا ، لن أفتح .

– ولكنك تعلم يا صديقي أنّ من عادة لوران أن يفتح لنا .

– إني أسخر من لوران سخرية شديدة لأنني مأمور بحراسة المدخل .

– ومن أنت ؟

– من أنا ؟

– نعم .

– وأنتِ ، من تكونين ؟

كان السؤال فظاً ، ولكن لا مفرّ من الإجابة عليه ، لذلك تابعت الصغرى قائلة :

– إننا سيدتان من البلاط ، نسكن القصر ونريد الدخول إلى منازلنا .

– أما أنا يا سيدتيّ فإني سويسراني انتمي إلى السرّية الأولى ، وإني بعكس لوران تماماً لن افتح لكما بل سأترككما خارج الباب .

فغمغمت السيدتان استنكارا ، وشدّت إحداهما على يدي رفيقتها بغضب . إلا أنها تمالكت نفسها وقالت :

– يا صديقي ، لا ألومك على تنفيذ الأوامر الصادرة اليك ، فهذا دليل على أنك جندي أمين ، ولا أريد أن تتقاعس عن القيام بوظيفتك . ولكن أدِّ لي فقط هذه الخدمة ونادِ لي لوران .

– لا أستطيع أن أترك مركزي .

– أرسل واحداً في طلبه .

– ليس لديّ أحد كي أُرسله .

– أرجوك !

– رعاك الله يا سيدتي ! نامي في المدينة . فأنا لو أُغلقت أبواب الثكنة في وجهي لتدبرت أمري . بالله عليك أن تمضي في سبيلك .

عندئذ قالت السيدة الكبرى بلهجة جازمة :

– اسمع أيها الجنديّ ، لك إذا فتحت عشرون ذهبية .

– وعشر سنوات في السجن، شكراً لك يا سيدتي ، تكفيني الثماني والأربعون ليرة التي أتقاضاها .

– وإني أرقيك إلى رتبة رقيب .

– أجل ، ثم يأتي آمري فيرمني بالرصاص .

– ومن الذي أمرك بحراسة المكان ؟

– الملك .

– الملك ! كرّرتها السيدتان خلف الحارس وقد استولى عليهما ذعر شديد لأن صورة الهلاك قد ارتسمت أمام ناظريهما . وكادت السيدة الصغرى أن تجنّ هلعاً ، فالتفتت اليها رفيقتها وقالت :

– ماذا تعتقدين ؟ أما من مدخل آخر ننفذ منه إلى القصر ؟

– آه يا سيدتي ! من أغلق هذا الباب يُغلق الأبواب الأخرى .

– كلاّ ! هذا تحامل منك !

– إذا لم نجد لوران على هذا الباب الذي اعتاد حراسته ، فأين عسانا نجده ؟

– إنك على حق يا أندريه ، فهذا مأزق مخيف وضعنا الملك فيه .

تلفظت السيدة الكبرى بهذه الكلمات باحتقار ينذر بالعاصفة. أما باب هذا المدخل المنحرف فقد كان في جدار سميك مجوّف يكوّن حجرة شبيهة بحجر الانتظار. وكان يتفرّع عن جانبيه مقعدان حجريّان ارتمت عليهما السيدتان في اضطراب يشبه اليأس. وكانتا تشاهدان في أسفل الباب شقاً مضيئاً وتسمعان خلفه وقع أقدام السويسراني الذي كان يرفع بندقيته حيناً، وحيناً يدقها في الأرض. وكان السلام يسود خلف هذا الحاجز الدقيق من خشب السنديان، فيما كانت عوامل الخجل والخوف من الفضيحة والموت تقريباً تختلج في الجانب الآخر في نفسي المرأتين. وما لبثت السيدة الكبرى أن غمغمت:

- آه! ماذا سيقولون غداً!

- ولكنك ستذكرين الحقيقة.

- وهل يصدّقون؟

- لديك البراهين المقنعة يا سيدتي. ثم أضافت السيدة الصغرى التي بدأت تستعيد رباطة جأشها حين أخذت رفيقتها تفقدها: لن يسهر الجندي طيلة الليل، سيجري استبداله في الساعة الواحدة، وقد يكون خلفه من هو أسلس منه، فلننتظر.

– هذا صحيح . لكن فصائل من الجنود ستمر في منتصف الليل فيجدوني منتظرة في الخارج مختبئة . يا للعار ! أنظري يا أندريه ، إن الدم يصعد إلى وجهي ويكاد يخنقني .

– أوه ! تشجعي يا سيدتي . ولا حاجة لي أنا التي كنت ضعيفة منذ لحظات إلى أن أشدد من عزيمة امرأة قوية مثلك .

– إننا ضحية مؤامرة حيكت ضدّنا يا أندريه . ولم يحدث أبداً أن أُغلق الباب في وجهنا . إني أموت غيظاً يا أندريه ! ثم انكفأت إلى خلف كأنها تختنق حقاً .

في هذه اللحظة سُمع وقع أقدام على البلاط الأبيض الجاف الذي لم تعد تدوسه اليوم سوى أقدام قليلة . وقد رافق ذلك صوت نحيف مرح ، صوت فتى راح يغني أغنية رقيقة ، وهذا بعض ما جاء في الأغنية :

« لماذا لا أصدّق ؟
أما هي الحقيقة !
ذلك أننا كنا معاً ،
في ظلمة هذا الليل الحالك ،
ولقد صيّرتني « مورفيه » الساحرة
فولاذاً ليّناً عندما أطبقت جفنيّ .
إنك يا حبيبتي حجر ممغنط
وقد جذبتني إليك ...»

فكّرت السيدتان معاً أنه سبق لهما أن سمعتا هذا الصوت . وما لبثت السيدة الكبرى أن قالت :

- إني أعرفه . فقالت رفيقتها :

- إنه صوت ...

ولكن الصوت قاطعها إذ تابع منشداً :

« وبخطةٍ بارعة ،

جعل الله صدىً لهذا الحجر الممغنط » .

عندئذ همست السيدة التي استبدّ بها القلق في أذن أندريه قائلة : إنه هو ! وسينقذنا .

في هذه اللحظة دخل في المنعطف شابّ يلتفع معطفاً من الفرو ، ودنا من الباب دون أن يرى المرأتين فقرعه منادياً : لوران !

فمدّت السيدة الكبرى يدها إلى كتف الشاب وقالت : هذا أنت يا أخي ! فتراجع هذا خطوة إلى الوراء ونزع قبعته عن رأسه وهتف : الملكة !

- اسكت : مساء الخير يا شقيقي .

- أسعدت مساءً يا سيدتي . أسعدت مساء يا شقيقتي . أرى أنك لست وحيدة .

- كلا ، برفقتي الآنسة أندريه دي تافرني .

– حسناً . مساء الخير يا آنستي . فانحنت هذه وأجابت متمتمة :

– مولاي !

– أوتخرجان يا سيدتيّ ؟

– كلا .

– إنكما داخلتان إذن ؟

– إننا نودّ أن ندخل .

– أما ناديتما لوران .

– بلى .

– وماذا إذن ؟

– نادِ لوران بدورك ، وسترى .

وأردفت أندريه : نعم ، نعم ، ناد يا مولاي ، وسترى .

فاقترب الشاب الذي عرفنا ولا شك أنه الكونت « دارتوا » من الباب وقرعه من جديد منادياً : لوران ! فأجاب صوت السويسراني : ها هي المداعبة تبدأ من جديد ، أنذركم أنني سأدعو قائدي إذا أصررتم على إزعاجي طويلاً .

فارتبك الشاب واستدار نحو الملكة وقال : ما هذا ؟

– إنه سويسراني استبدلوا به لوران ، هذا كل شيء .

– ومن استبدل به لوران ؟

– الملك .

الملك !

– أيتها العذراء ! هو قال لنا ذلك منذ لحظات .

– ومعه أمر بمنع الدخول من هذا الباب ؟

– أمر مشدّد على ما يبدو .

– يا للشيطان ! علينا إذن أن نرضخ .

– وكيف ؟

– لنغره بالدراهم .

– عرضت عليه فرفض .

– لنقدم له ترقية .

– قدّمتها له فرفض .

– يبقى إذن وسيلة واحدة .

– وما هي ؟

– أفتعل الضجيج أمام الباب .

– ولكنك ستعرّضنا للفضيحة يا عزيزي شارل ، أرجوك !

– لن أعرضكما لشيء .

– بالله عليك !

– انتحيا جانباً ، فأقرع كأصم ، وأصرخ كأعمى ، حتى اذا ما فتحوا الباب تدخلان خلفي .

– حاول إذن .

فشرع الأمير الشاب ينادي لوران من جديد ، ويقرع

الباب ، ويقرقع بقبضة سيفه حتى صرخ به السويسراني غاضباً :

– ما دام الأمر كذلك ، رويدك ، فسأنادي قائدي .

– وماذا تنتظر ، إنك والله تضحكني ! نادِ قائدك ، فإني انتظر هذا منذ ساعة .

وبعد لحظة سمع وقع أقدام في الجانب الآخر من الباب ، فاصطفّت الملكة وأندريه خلف الكونت وقد تأهبتا للافادة من الممر الذي اعتقدتا أنه سيسمح لهما بالدخول .

وسمع السويسراني يشرح لقائده أسباب هذه الجلبة قائلاً :

– إنهما يا سيدي الملازم امرأتان ورجل نعتني بأنني غريب الأطوار مضحك . وإنهم يريدون الدخول عنوة .

فردّ عليه الشابّ من الخارج قائلاً :

– وما هو وجه العجب في هذا ما دمنا من البلاط ونريد الدخول إلى القصر .

إلا أن الضابط أجابه قائلاً : قد يكون هذا يا سيدي رغبة طبيعية ، ولكن الدخول ممنوع .

– ممنوع ! ومن منعه بالله عليك ؟

– الملك .

– أطلب منك المعذرة ، ولكن الملك لا يرضى بأن يبيت ضابط من البلاط خارج القصر .

– ليست مهمتي البحث عن مقاصد الملك ، إن مهمتي تنفيذ أوامره الصادرة إليّ .

– اسمع أيها الملازم ، إفتح الباب قليلاً لكي نتحدث وجهاً لوجه لا من خلال الخشب .

– أكرر بأن الأمر صدر لي كي أدع الباب مقفلاً . فإذا كنت حقاً ضابطاً كما تقول فإنك تعرف معنى الأوامر .

– إنك تتكلم أيها الملازم مع كولونيل فيلق .

– أعذرني يا سيدي الكولونيل ، لأن الأمر الصادر إليّ هو أمرٌ مطلق .

– الأوامر لا تسري على الأمراء . إنني أمير ، والأمير لا يبيت خارج القصر .

– إنك تحملني على اليأس يا مولاي الأمير ، ولكنني لا أستطيع تجاوز أمر الملك .

– الملك أمرك بأن تطرد شقيقه كمتسوّل أو لص ؟ إنني الكونت « دارتوا » يا حضرة الملازم ، وأقسم لك بأنك تجازف مجازفة كبرى إذا تركتني أقاسي البرد والجليد على الباب .

– يشهد الله يا مولاي الكونت «دارتوا» بأنني مستعد أن أقدم كل دمي لسموّكم الملكي . ولكن ما حيلتي وقد أمرني الملك عندما أوكل إليّ أمر حراسة هذا الباب بألا أفتحه مطلقاً لأحد ، حتى له شخصياً إذا ما أراد الدخول بعد الساعة

الحادية عشرة. لذلك فإنني ألتمس عفوك بكل تواضع يا مولاي، لأنني جنديّ، وه‍ ب أني رأيت صاحبة الجلالة الملكة واقفة مكانك خلف هذا الباب وهي ترتجف من البرد لما حدّثتني نفسي بأن أفتح لها، ولكنت أجبتها بما يؤلمني أن أجيبك به.

نطق الضابط بهذه الكلمات، ثم تمتم تحية تنطوي على معاني الإحترام والاجلال، وعاد إلى مركزه بخطوات متّزنة بطيئة. أما الجندي الذي كان ملتصقاً بالباب وهو مدجج بسلاحه فلم يعد يجرؤ على أن يتنفس، وقد أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً لو أنصت الكونت «دارتوا» اليه من الجهة الثانية لسمعه من خلال الخشب. وأما الملكة فقد أمسكت بيد شقيق زوجها وقالت: ها قد أدركنا الهلاك. فلم يجب الكونت على كلامها، ولكنه سأل: أيعلمون أنك خرجت من القصر؟

- إني أجهل هذا الأمر ويا للأسف!

- قد يكون الملك قصدني وحدي بهذا الأمر، يا شقيقتي، لأنه يعلم أنني أخرج أثناء الليل وأتأخر عن الرجوع أحيانا. وقد تكون زوجتي الكونتس «دارتوا» قد بلغها شيء من أمري فشكت ذلك لجلالته الذي أصدر هذا الأمر الصارم.

- أوه! كلا، كلا يا شقيقي. إني أشكرك من صميم فؤادي لأنك تتلطف ببعث الطمأنينة في نفسي. ولكنني متأكدة من أن هذا التدبير موجه ضدي.

- هذا مستحيل يا شقيقتي، فالملك يحمل لك اعتباراً كبيراً في نفسه.

- ومع ذلك فإنه يقفل الأبواب في وجهي، لكي يثير عملي البريء غداً فضيحة مخزية. لا شك أن لي عدواً بجانب الملك يثير ضغينته عليّ.

- لك عدوّ بجانب الملك، هذا أمر ممكن. لذلك فقد وردتني فكرة.

- فكرة؟ قلها بالله عليك.

- فكرة تجعل عدوك أشدّ حمقاً من حمار ضائع يسرح بلا رسن.

- المهم أن تنقذني من هذا المأزق، هذا كل ما أطلبه منك.

- أرجو أن أوفّق إلى إنقاذك. فما أنا بأشدّ بلاهة منه وإن كنت أقل علماً منه.

- ومن تعني؟

- يا الله! إنني أعني الكونت دي بروفانس.

- إنك تعترف إذن مثلي بأنه عدوّي.

- كيف لا وهو عدوّ الشباب ، وعدوّ الجمال ، وعدوّ ... كلّ ما لا يستطيع إتيانه .

- يبدو يا شقيقي أنك تعرف شيئاً من أمر هذا التدبير ؟

- لربما أعرف شيئا . ولكن لنبتعدن أولاً عن هذا الباب ، فالبرد قارس هنا . هيّا رافقيني يا شقيقتي العزيزة .

- إلى أين ؟

- سترين بأمّ عينك ، إلى مكان فيه دفء على الأقل . تعالي ، وفي الطريق أخبرك بما يدور في خلدي حول هذا الإقفال للباب . أوّاه منك أيها الكونت دي بروفانس ، يا شقيقي العزيز العقوق ! أعطني ذراعك يا شقيقتي ، وخذي ذراعي الآخر يا آنسة دي تافرني ، ولندر نحو اليمين .

واستأنف الثلاثة سيرهم ، فقالت الملكة : وماذا عن الكونت دي بروفانس ؟

- إليكِ ماذا عرفت : في هذا المساء، بعد أن تناول الملك طعام العشاء ، جاء الكونت دي بروفانس إلى القاعة الكبيرة . وكان الملك أثناء النهار قد تحدّث طويلاً إلى الكونت دي هاغا فمنعه ذلك عن مشاهدتك .

- ذهبت إلى باريس منذ الساعة الثانية .

- عرفت ذلك ، والملك ، اسمحي لي أن أقول هذا يا شقيقتي العزيزة، لم يفكر بك أكثر من تفكيره بهارون الرشيد

ووزيره جعفر، لأنه كان يتحدّث بالجغرافيا. وكنت استمع إليه فارغ الصبر لأنني أنا أيضاً كنت أودّ الخروج. ولكن عفواً! ما بالي أذكر هذه الأشياء إذ قد لا يكون الدافع الواحد هو سبب خروجنا...

- ما عليك، تابع حديثك.

- لندر إلى اليسار.

- ولكن إلى أين عساك تقودني.

- مسافة قصيرة لا تتعدّى العشرين خطوة. احذري، أمامك كومة من الثلج. وأنت يا آنسة تافرني إذا تركت ذراعي فستسقطين على وجهك لا محالة. وبالمختصر المفيد، وبالعودة إلى الملك، فقد كان لا يفكر إلاّ بخطوط العرض والطول عندما قال له الكونت دي بروفانس: «أريد أن اقدّم تحياتي وإجلالي للملكة».

فهتفت ماري أنطوانيت قائلة: ويحاً له!

- فأجابه الملك: الملكة تتناول طعامها في شُقّتها. فأجاب شقيقي الكونت دي بروفانس: كنت أظنها في باريس. فقال الملك مطمئناً: كلا، إنها في شقتها. فأجاب دي بروفانس: إني قادم من هناك ولم يستقبلني أحد. فقطّب الملك عندئذ حاجبيه وطلب إلينا الخروج من القاعة أنا وشقيقي. وقد يكون استفسر عنك بعد خروجنا، فلعبت في رأسه الظنون، فلجأ

إلى هذا التدبير الصارم ليتأكد من أنك غائبة عن القصر، وهذا ما جعلنا نظلّ واقفين على الباب.

- ألا تعترف بأن هذا التدبير هو تدبير مرعب؟

- بلى، أعترف. ولكن ها قد وصلنا.

- أهذا هو المنزل!..

- ألا يروقك يا شقيقتي؟

- لا أقول هذا، بالعكس إنه يفرحني، ولكن ماذا يكون من أمر حاشيتك؟

- وماذا يهمك من حاشيتي؟

- وإذا شاهدني أحدهم؟

- ادخلي يا شقيقتي، واني كفيل بأن أحداً لن يراك.

- حتى الذي سيفتح الباب؟

- حتى هذا.

- هذا مستحيل.

- سنحاول. قالها الكونت دارتوا وهو يضحك، ثم قرّب يده من الباب. ولكن الملكة أوقفت ذراعه هاتفة:

- أتوسل اليك يا شقيقي، خذ حذرك.

ولكن الأمير ضغط بيده الثانية على إطار منقوش أنيق الصنع، ففتح الباب في الحال أمام ناظري الملكة التي لم تستطع أن تخفي خوفها. إلا أن الأمير توجه اليها قائلاً:

ادخلي يا شقيقتي ، أرجوك أن تدخلي ، فقد شاهدت بنفسك حتى الآن أنه لا أثر لأحد البتة .

فنظرت الملكة إلى الآنسة دي تافرني وكأنها حيال مجازفة ، ثم اجتازت عتبة الباب بحركة من تلك الحركات اللطيفة التي تقوم بها النساء عادة وكأنهن يقلن : على بركة الله ! وإذا بالباب يغلق خلفها دون أية جلبة ، وإذا بها تجد نفسها في مدخل أسفلُ جدرانه من الرخام ، ضيّق ولكنه يدلّ على ذوق مرهف ، وكان ينطلق من المكان دفء لذيذ وعطر شهي يستولي على الحواس ، مما جعل السيدتين تنسيان قسماً من خوفهما بل قسماً من وساوسهما . وهمست الملكة تقول :

– هذا حسن الآن ، إننا في مأوى ، ويجب الاعتراف أنه مأوى مريح لا بأس به . ولكن أما يحسن بك يا شقيقي أن تهتمّ بشيء ؟

– بماذا ؟

– بأن تبعد خدمك عن هذا المكان .

– لا شيء أسهل من هذا الأمر .

ثم تناول الأمير من فرجة عمود جرساً صغيراً قرعه مرّة واحدة فتجاوب رنينه في قعر الدرج تجاوباً غريباً جعل المرأتين تصرخان من الذعر . وما لبثت الملكة أن قالت : أبهذه الطريقة تبعد خدمك يا أخي ؟ ظننت أنك تناديهم ليحضروا إليك .

- لو قرعت الجرس قرعة ثانية لكان أحد حضر إليّ ، ولكنني قرعته قرعة واحدة ، فاطمئني إذن يا شقيقتي . لن يحضر أحد .

فضحكت الملكة وقالت : إنك والله رجل محترز . فتابع الأمير قائلاً : والآن يا شقيقتي العزيزة لا يمكنك طبعاً أن تخلّي في هذا المدخل ، فكلفي نفسك واصعدي إلى الطابق الأعلى . فقالت الملكة : علينا أن نطيع لأن جوّ المنزل يحمل على الاطمئنان . وشرعت تصعد والأمير يصعد أمامها دون أن يثير وقع الأقدام جلبة ما على البُسط التي تغلّف الدرج .

وصل الأمير في الطليعة إلى الطابق الثاني ، فحرّك جرساً آخر بعث رنينه من جديد الاضطراب في نفس الملكة ورفيقتها الآنسة دي تافرني اللتين تضاعف ذهولهما عندما أبصرتا أبواب هذا الطابق تفتح من ذاتها . ولم تستطع الملكة أن تضبط نفسها فخاطبت رفيقتها قائلة :

- بالحقيقة بدأت أرتجف يا أندريه ، وأنت ؟

- أنا يا سيدتي ، ما دمت تسيرين قدّامي فإني اتبعك واثقة .

وهنا قال الأمير الشاب :

- لا شيء أيسر مما يجري يا شقيقتي ، وهذا الباب الذي بوجهك هو باب شقتك . وأشار بيده إلى مدخل لطيف لا

يسعنا أن نهمل وصفه . فهو يتكوّن من حجرة صغيرة من خشب الورد ، وخزانتين وسقف ، وأرض من خشب الورد أيضا ، ويتصل بمخدع تدلّت على جدرانه الستائر الحريرية البيضاء التي طرّزتها أيدي أمهر المطرّزين . وكانت أرض هذا المخدع مفروشة بسجّاد دخل في حياكته الحرير حتى أصبحت كل سجادة وكأنها لوحة لفنّان شهير . وبعد المخدع كان هناك ردهة نوم زرقاء جميلة ، تدلّت حولها ستائر التنتناء والحرير المرهف الثقيل ، وكان في عمقها سرير فخم ، وفي جدارها مدفأة من الرخام الأبيض تتألق فيها النار ، وفي جانبها الآخر إثنا عشر شمعدانا تشتعل فيها شموع معطرة ، وكذلك فقد كان فيها حاجز باللون اللازوردي مزيَّن بشرائط صينية مذهبة . كل هذه الأشياء تراءت لناظري السيدتين عندما دخلتا بخوف إلى هذا المدخل الأنيق .

ولم يكن هناك أثر لإنسان حي ، سوى أن النور والدفء كانا ينتشران في أرجاء المكان . أما الملكة ، التي دخلت بحذر إلى المخدع ، فقد توقفت لحظة عند عتبة ردهة النوم . فدنا منها الأمير واعتذر لها بأدب جم عن الضرورة التي دفعته لانزال شقيقته في هذا المنزل « الخاص » الذي لا يليق بمنزلتها . فأجابته الملكة بنصف ابتسامة كانت أشدّ تعبيراً من الكلام . فأضاف الأمير عندئذ قائلاً :

- هذه الشقّة يا شقيقتي هي خاصة بنزوات الشباب، أدخلها دائماً وحدي ولا يدخلها أحد غيري.

- ليس دائما...

- بلى، دائما.

فتنهدت الملكة تنهيدة ذات معنى. إلا أن الأمير الشاب أضاف قائلاً: يوجد في هذا المخدع «صوفا» وكرسي هزاز أنام عليهما عندما يفاجئني الليل بعد الصيد فأجد فيهما لذّة وكأني في سريري.

- بتّ أفهم الآن لماذا تقلق الكونتس زوجتك أحياناً عليك...

- هذا صحيح، ولكن اعترفي يا شقيقتي بأن الكونتس إذا ما قلقت عليّ في هذه الليلة فإنها تكون مخطئة.

- لا أعني هذه الليلة وإنما الليالي الأخرى.

- إن الذي يخطئ مرة يا شقيقتي يكون دائماً على خطأ.

فجلست الملكة على كنبة وقالت: لنختصر الحديث، إني متعبة كثيراً. وأنت يا عزيزتي أندريه المسكينة؟

- أنا؟ إني منهوكة من التعب، فاذا كانت تسمح لي جلالتك بالجلوس فإني...

فقاطعها الكونت «دارتوا» قائلاً:

- إنك بالحقيقة مصفرّة يا آنسة.

فقالت الملكة :

– خذي راحتك يا عزيزتي ، اجلسي ، بل نامي إذا أردت ، فالكونت دارتوا يخلي لنا هذه الشقة ، أتوافق يا شارل ؟

– بكل أمانة يا سيدتي .

– ولكن لحظة أيها الكونت ، فلدي كلمة أخيرة إليك .

– ما هي ؟

– إذا مضيت كيف يتسنّى لنا أن نناديك ؟

– لن تحتاجي إليّ بشيء يا شقيقتي ، المنزل لك تتصرفين به كما تشائين .

– وهل من غرف في هذه الشقة غير هذه الردهة ؟

– بالطبع ، فهنا غرفة للطعام أدعوك إلى زيارتها .

– وفيها مائدة معدّة طبعاً ؟

– طبعاً ، وستجد فيها الآنسة دي تافرني التي أرى أنها جائعة مقبلاتٍ ودجاجاً ونبيذاً فاخراً ، وتجدين فيها أنت يا شقيقتي أنواعاً من الثمار التي تحبّينها .

– وكل هذه الأشياء دون خادم ؟

– أجل ، لا وجود لأحد .

– سوف نرى بأنفسنا . ولكن بعد ذلك ؟

– بعد ذلك ؟

- أجل، بشأن عودتنا إلى القصر.

- لا تفكري مطلقاً بدخوله ليلاً ما دام الحجز مفروضاً عليه، ولكنّ الحجز سوف يسقط عنه مع قدوم النهار، فتفتح الأبواب في الساعة السادسة صباحاً، ويمكنك أن تغادري هذا المكان الساعة السادسة إلا ربعاً، وإذا أردت التنكر ففي الخزائن أردية من كل الألوان والأشكال. وعندما تدخلين الى القصر توجهي حالاً إلى حجرتك ونامي في سريرك ولا تقلقي بعد ذلك لشيء.

- وأنت؟ ماذا تود ان تفعل؟

- سأغادر المنزل.

- كيف هذا؟ أمن اللياقة أن نطردك من منزلك يا شقيقي المسكين؟

- ليس من الملائم أن نقضي الليل تحت سقف واحد يا شقيقتي.

- ولكن يلزمك مأوى آخر ما دمنا قد استولينا على منزلك.

- ما عليكِ، لديّ ثلاثة منازل تشبه هذا المنزل.

فشرعت الملكة تضحك وهي تقول: ويزعم ان الكونتس دارتوا هي على خطأ في قلقها عليه. ثم أضافت، مع إشارة

لطيفة تنذر بالتهديد : لسوف أخبرها عنك . فأجابها الأمير باللهجة ذاتها : وأنا أيضاً سأخبر الملك عن كل شيء .

- إنك على حق، فنحن الآن تحت سلطانك .

- تماماً . هذا مذل ، ولكن ماذا عساكما تفعلان ؟

- لا شيء سوى أن نخضع . ولكن قل لنا ، سنخرج غداً دون أن نلتقي أحداً ...

- أجل ، ويكفي أن تضغطا على زرّ في العمود الموجود في الطابق السفلي .

- أي عمود ؟ ذاك الذي على اليمين أم على اليسار ؟

- لا فرق بينهما .

- ويفتح الباب من ذاته ؟

- وكذلك يغلق .

- شكراً ، وتصبح على خير يا شقيقي .

- وأنت من أهله يا شقيقتي .

حيّا الأمير الملكة ومضى ، فأغلقت أندريه الأبواب في أثره .

في مقصورة الملكة

★

في صبيحة اليوم الثاني ، او على الأصح في صبيحة اليوم ذاته ، ذلك أننا ختمنا فصلنا السابق نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، جاء الملك يقرع باب شقة الملكة وهو يرتدي سترة الصباح البنفسجية دون أن يستكمل هندامه أو يرشّ بودرته على وجهه. فشقّت إحدى الوصيفات الباب فشاهدت الملك وهتفت : مولاي ! فقال الملك باختصار :

– الملكة !...

– جلالتها نائمة يا مولاي .

فأومأ الملك إليها وكأنه يأمرها أن تنحرف عن الباب ، ولكنها لم تتحرك من موضعها . فقال لها :

– ما بالك لا تتحركين ؟ أما ترين أنني أريد المرور ؟

وكان من عادة الملك أن يتسرّع ببعض حركاته فينسب خصومه ذلك إلى فظاظة في طباعه . أما الوصيفة فقد أجابت بتخوّف :

– الملكة تستريح يا مولاي .

– قلت لك أن تفسحي لي مجال المرور!

لفظ الملك هذه الكلمات بحدّة وأزاح الخادمة ودخل متجهاً نحو غرفة النوم، ولكنه شاهد مدام «دي ميزاري» رئيسة وصيفات الملكة التي كانت تقرأ صلاتها في كرّاستها الخاصة، والتي سرعان ما هبّت واقفة عندما أبصرت الملك فحيّته بإجلال وقالت له بصوت منخفض:

– مولاي، جلالتها لم تنهض حتى الآن. فقال الملك بلهجة ساخرة: أحقاً ما تقولين؟

– لم تتعدّ الساعة السادسة والنصف، واعتقد أن جلالتها لا تنهض أبداً قبل السابعة.

– وأنت متأكدة من أن جلالتها في سريرها ومن أنها تنام؟

– لا أؤكد أنها تنام، ولكنني متأكدة من أنها في سريرها.

– إنها في سريرها؟

– نعم يا مولاي.

لم يستطع الملك أن يضبط نفسه وقتاً أطول، فاتجه مباشرة نحو الباب وأدار زرّه المذهب بلجاجة صاخبة. وكانت غرفة الملكة في هذه الساعة سوداء مظلمة كأنها في صلب الليل لأن نوافذها كانت مغلقة وجميع ستائرها مسدلة على النوافذ. وكان سراج صغير يشتعل على منضدة في زاوية بعيدة، إلا أن ذلك لم يحل دون بقاء مقصورة الملكة غارقة

بالظلمة وقد تدلت ستائرها العريضة الحريرية البيضاء التي زينتها الزنابق المذهبة حول السرير الذي بدا بحالة مشوّشة. وعندما رأى الملك السرير بمثل هذه الحال اتجه نحوه بخطى سريعة، ولكنه سرعان ما وقف منذهلاً عندما سمع الملكة تقول:

– آه منك يا سيدة «ميزاري»، كم أنت مزعجة، لقد أيقظتني! فتمتم الملك قائلاً:

– لستُ السيدة ميزاري. فنهضت ماري أنطوانيت عندئذ وقالت بتعجب:

– هوذا أنت يا مولاي؟! فأجابها الملك بلهجة تنمّ عن سخرية ولوم:

– صباح الخير ... يا سيّدتي.

– ما لقدومك باكراً يا مولاي، عساه خيراً؟

ثم رفعت صوتها منادية: مدام ميزاري، مدام ميزاري، افتحي النوافذ.

فدخلت الوصيفات إلى غرفة الملكة وطفقن يشرّعن الأبواب والنوافذ كما عوّدتهن الملكة على ذلك، لكي يدخل إلى الغرفة الهواء النقي الذي كانت ماري أنطوانيت تجد لذّة كبيرة في استنشاقه عند نهوضها من النوم. أما الملك فقد

أجال نظرة متفحّصة في جو الغرفة، ثم جلس بجانب السرير وقال:

- إنك تنامين بشهيّة يا سيدتي.

- نعم يا مولاي، فقد بقيت أقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل، ولو لم توقظني جلالتك لنمت أيضاً.

- ما السبب في أنك لم تستقبلي البارحة يا سيدتي؟

- أستقبل من؟ شقيقك الكونت دي بروفانس؟

وكانت الملكة بهذا الجواب تقطع الطريق على ظنون الملك الذي تابع قائلاً:

- نعم، شقيقي. لقد أراد أن يقدّم إليك تحيته، ولكنه أُبقي على الباب.

- يعني ماذا؟

- قيل له إنك غائبة.

فقالت الملكة بلهجة لامبالية: ميزاري! مدام ميزاري!

فبدت كبيرة الوصيفات في الباب وهي تحمل على طبق من الذهب كمية من الرسائل المرفوعة إلى الملكة، وقالت:

- هل نادتني جلالة الملكة؟

- نعم. هل قيل أمسِ للسيد دي بروفانس إنني كنت غائبة عن القصر؟

أما السيدة ميزاري فقد استدارت حول الملك لكي تتحاشى المرور أمامه وقدّمت طبق الرسائل للملكة، وكانت تضغط بإصبعها على رسالة سرعان ما عرفت الملكة خطها فتناولتها وأخذت تفضّها وهي تقول بغير اكتراث: أجيبي الملك يا سيدة ميزاري وأطلعي جلالته على ما قيل للسيد دي بروفانس عندما جاء البارحة يطرق بابي، فأنا نسيت ذلك تماما.

- حضر غبطة الكونت دي بروفانس البارحة يا مولاي ليقدّم احترامه لجلالة الملكة، وقد أجبته بأن جلالتها لا تستقبل اليوم.

- وبأمر من؟

- بأمر الملكة.

- آه!

في هذه الأثناء كانت الملكة قد فضت الرسالة وقرأت فيها هذين السطرين: «عدتِ البارحة من باريس، ودخلت القصر في الساعة الثامنة مساء، وقد شاهدك لوران ...» إلا انها ظلت محافظة على لامبالاتها، وفضّتْ نصف دزينة من البطاقات والرسائل التي كانت مبعثرة على الشرشف. ثم رفعت رأسها نحو الملك وقالت:

- وماذا رأيت؟

فالتفت الملك إلى كبيرة الوصيفات وقال :

- شكراً يا سيدة !

فابتعدت عندئذ مدام ميزاري وخرجت من غرفة الملكة التي أسرعت تقول :

- عفوك يا مولاي ، أطلب إليك أن توضح لي شيئاً .

- وما هو يا سيدتي ؟

- هل أنا حرة في أن أرى السيد دي بروفانس أو لا أراه ، أم تُراني فقدت هذا الحق ؟

- لك ملء الحرية يا سيدتي ، ولكن ...

- ولكن ماذا تريد ؟ إنه لا يحبني ؛ وإنني أردّ له الكيل كيلين ، لذلك لزمت سريري منذ الساعة الثامنة عندما علمت بزيارته التي لا أرغب فيها . فعلى أي ذنب تلومني إذن يا مولاي ؟

- كلا ، كلا ، لا ألومك على شيء .

- ولكنني أرى أمارات الشك في نفسك .

- ذلك أنني ...

- ماذا ؟

- كنت أعتقد أنك كنت البارحة في باريس .

- في أي ساعة ؟

- في الساعة التي تدعين أنك لزمت سريرك فيها .

– طبعاً ، ذهبت إلى باريس . ولكن هل تُرى سكنتها وما عدتُ منها ؟

– بلى عدتِ ، إنما الأمر يتعلق بالساعة التي عدتِ فيها .

– آه ! آه ! تريد أذن أن تعرف تماماً الساعة التي عدت فيها من باريس ؟

– طبعا .

– هذا أسهل شيء يا مولاي . ثم نادت الملكة مدام ميزاري وسألتها قائلة :

– كم كانت الساعة عندما عدت البارحة من باريس يا سيدة ميزاري ؟

– الثامنة تقريباً يا مولاتي .

فقال الملك : لا أظن هذا صحيحاً ، قد تكونين مخطئة يا سيدة ميزاري ، استطلعي حقيقة الأمر .

فمكثت كبيرة الوصيفات في مكانها منتصبة القامة واثقة من نفسها ، واستدارت نحو الباب وهتفت منادية :

– مدام دوڤال !

– نعم يا سيدتي .

– في أي ساعة عادت جلالة الملكة من باريس مساء البارحة ؟

– نحو الساعة الثامنة يا سيدتي .

- أولستِ مخطئة ؟

فانحنت الوصيفة الثانية ، مدام دوفال ، نحو نافذة الغرفة الخارجية وصرخت بدورها : لوران !

فسأل الملك قائلاً : ومن يكون لوران هذا ؟

فأجابته مدام ميزاري :

- إنه حارس الباب الذي دخلت منه جلالتها البارحة .

وكررت مدام دوفال نداءها إلى لوران، ثم سألته بعد أن حضر :

- لوران ! في أي ساعة عادت جلالة الملكة البارحة من باريس ؟

- عادت من باريس نحو الساعة الثامنة .

فخفض الملك رأسه .

وعندئذ انصرفت الوصيفتان ولوران وظل الزوجان وحدهما . وقد شعر لويس السادس عشر بخجل شديد ، ولكنه عمل ما في وسعه ليخفي خجله . بيد أن الملكة ، بدل أن تستغلّ هذا الانتصار الذي حققته ، اتجهت إليه وسألته بلهجة باردة :

- ماذا تريد أن تعرف أيضاً أيها العاهل ؟

فهتف الملك وهو يضغط على يدي زوجه :

- أوه ! لا شيء، لا شيء !

- ومع ذلك ...

- أغفري لي يا سيدتي ، فلست أدري ما الذي خطر في رأسي . وها إن فرحي يوازي ندامتي ، وأظن أنك لن تحقدي عليّ . اسمعي ، لا أريدك أن تحردي ، فهذا والله يلقي بي في أحضان اليأس .

ولكن الملكة سحبت يدها من يد الملك الذي سألها قائلاً : ماذا تُراك تفعلين يا سيدتي ؟

فأجابت ماري انطوانيت قائلة :

- يستحيل على ملكة فرنسا أن تكذب أيها العاهل .

- وماذا تقصدين ؟!

- أقصد أنني لم أعد البارحة في الساعة الثامنة مساء ...

فتراجع الملك إلى الوراء مندهشاً ، فيما تابعت الملكة تقول ببرودة :

- أي أنني عدت في الساعة السادسة من هذا الصباح .

- ماذا تقولين يا سيدتي !

- ولولا الكونت دارتوا الذي قدّم لي ملجأ ، وأنزلني في منزله شفقةً عليّ ، لبقيت على باب القصر كمتسولة .

فأربد وجه الملك عندئذ وقال : صحّ ظني ، كنتِ ما تزالين خارج القصر .

- عفوك أيها العاهل، إنك تستنتج من كلامي حلاً حسابياً دون أن تتصرف تصرّف رجلٍ دمث.

- وفيمَ أسأت التصرف يا سيدتي؟

- ما كنتَ بحاجة لإيصاد بابك ولا لإقفال المنافذ بواسطة الجنود لكي تتأكد من عودتي مبكرة أو متأخرة، كنت تستطيع فقط أن تأتي فتسألني عن الساعة التي عدت فيها.

فتنهد الملك وظل صامتاً، فتابعت الملكة تقول:

- لم يبق من حقك أن تشك يا سيدي طالما رأيت أن جواسيسك وأرصادك قد خُدعوا أو ارتشوا، وأن أبوابك قد فُتحت مسايرة أو عنوة، وأن مخاوفك وهواجسك قد تلاشت مندحرة. إني أعيبك في استخدام العنف مع امرأة لها ملء الحق في التصرف، وكان باستطاعتي أن أنعم بانتصاري عليك، ولكنني وجدت أساليبك معيبة لا تليق بملك أو برجل نبيل، وإني لأجد متعة بأن أصارحك بذلك.

فشرع الملك ينفض الغبار عن سترته كمن يبحث عن جواب يدرأ به سهام خصمه. ولكن الملكة تابعت تقول وهي تهز رأسها:

- مهما فعلت يا سيدي فلن تجد مبرراً لتصرّفك.

- بلى يا سيدتي، إني أجد المبرر بيسر: هل ارتاب واحد فقط من أهل البلاط في أنك لم تعودي إلى القصر؟ ولما كان

الجميع يعلمون أنك عدت إليه ، فما من أحد ظنّ أن أوامري بإيصاد الأبواب كانت موجّهة ضدك . أما أن يظنوا بأنها ضدّ الكونت دارتوا وطيشه ، أو ضدٌ سواه من أهل القصر ، فلا أظنك تجهلين أنني لا أحفل بذلك .

– وماذا بعد أيها العاهل ؟

– وبعد ، إني أختصر فأقول : كنتُ على حق في أن أنقذ المظاهر بتصرفي ، وكنتِ على خطأ في أنك حملت مقصدي على غير محمله . أما وأنني أردت فقط أن ألقّنك من طرفٍ خفي درساً صغيراً ، أظن أنك تفيدين منه بالرغم من الغيظ الذي يستولي عليك ، فإنني على حقّ في هذا أيضاً ، ولن أتراجع عن شيء مما فعلت .

أصغت الملكة إلى جواب زوجها المبجّل وهي تسكّن روعها شيئاً فشيئاً ، لا لأنها خفّفت من حدّة غيظها ، ولكنها أرادت أن تحتفظ بجميع قواها للمعركة التي ، عوضاً عن أن تنتهي ، آذنت بأن تنشب الآن . لذلك فقد استجمعت قواها وقالت :

– لن تعتذر إذن عن فعلتك ، إذ جعلت ابنة ماري تيريز ، زوجتك وأم بنيك ، تتألم كغريبة على باب منزلها ؟ طبعاً إن هذا بنظرك دعابة ملكية زدتها قيمة بما أضفيت عليها من لباقة الاخراج . وإنه من الطبيعي بنظرك أن ترغم ملكة فرنسا على

قضاء ليلها في منزل الكونت دارتوا الصغير الذي يستقبل فيه بنات الأوبرا وعشيقات القصر. طبعا كل هذا لا يشكل شيئاً بنظر ملك يحلّق فوق مثل هذه التفاهات، ولا سيما إذا كان فيلسوفا، مثلك أيها العاهل! ولكن سجّل في مفكرتك أن الكونت دارتوا لعب دوره جيداً، سجل أنه أدّى لي خدمة جُلّى، وأنني شكرت السماء هذه المرة على طيش سلفي، لأن طيشه ستر خجلي، وهفواته أنقذت شرفي.

فاحمرّ وجه الملك وتحرك ضاجّاً في مقعده، إلا أن الملكة لم تمهله وتابعت تقول وهي تبتسم ابتسامة مرة:

- أعرفُ أيها العاهل أنك ملك رائده الأخلاق، ولكنك هل فكرتَ إلى أين سيوصلك تعلقك بالأخلاق؟ لقد ادّعيت أن أحداً لم يدر شيئاً عن تأخري عن العودة إلى القصر، وأنت نفسك كنت تظنني هنا، فهل تدّعي أن جاسوسك الكونت دي بروفانس كان يظنّ ذلك؟ وأن الكونت دارتوا ظن ذلك أيضاً؟ وكذلك وصيفاتي اللواتي كذبن عليك بأمرٍ مني؟ ولوران الذي رشوناه أنا والكونت دارتوا؟ إنك ولا شك ملك، والملوك لا يخطئون، ولكن الحقّ قد يكون أحياناً بجانب الملكة.

ما رأيك أيها العاهل في أن نسير على هذا النمط: تحيطني أنت بالجواسيس والحرس السويسراني، وأرشو أنا حرسك

وجواسيسك. ونضيف بعد شهر أبهة العرش الى كرامة الزواج، ونُجري بيننا الحساب لنرى، كما فعلنا اليوم، أيّنا سيكون الخاسر؟

اتضح أن الملك قد تأثر بهذه الكلمات، فقال بصوت متهدّج:

– تعلمين أنني صادق، وأنني أبوح بأخطائي. ولكن هل يمكنك يا سيدتي أن تبرهني لي بأنك كنت على حق في أن تغادري فرساي بزلاّجة، برفقة شُبّانٍ من حشمك، أمثال هؤلاء الماجنين الذين يعرّضون بسمعتك في مثل هذه الظروف الحرجة التي نمرّ فيها؟ برهني لي أنك كنت على حق في أن تقصدي باريس برفقتهم فتضيعون فيها كما يضيع المقنّعون في حفلة راقصة، ثم تعودين ليلاً، في ساعة متأخرة تثير حولك الشبهات، بعد أن يكون مصباحي قد نضب زيته، والكرى قد أطبق أجفان جميع من في القصر. لقد تكلمت على كرامة الزواج، وأُبّهة العرش وواجب الأمومة، فهل يليق فعلك هذا بزوجة وملكة وأم؟

– أجيبك يا سيدي بكلمتين، وبازدراء أشد من ازدرائك، لأنه يبدو لي أن قسماً من اتّهامك إيّاي لا يستحق سوى الازدراء. فقد غادرت فرساي بالزلاّجة لكي أبلغ باريس بسرعة، وقد خرجت برفقة الآنسة «دي تافرني» التي هي

والحمد لله من أنقى وصيفات القصر، وقصدت باريس لأتأكد بنفسي من أن ملك فرنسا، أبا الأسرة الكبيرة التي هي الأمة، الملك الفيلسوف، نصير جميع الملهوفين وذوي الحاجة، الذي غذّى المساكين الغرباء، ووفّر الدفء للمتسوّلين، فاستحقّ باحسانه حبّ شعبه، أجل أردت أن أتأكد بنفسي من أن هذا الملك أهمل بين أحضان الفاقة والنسيان والعار والبؤس شخصاً من أسرته، من حسبه ونسبه، من سلالة الملوك الذين حكموا فرنسا.

فعقلت الدهشة لسان الملك، وتابعت الملكة تقول:

– صعدتُ إلى منزل حقير، وشاهدت سليلة أمير كبير تعيش في الظلام بلا نار ولا مال، ضحيةً للنسيان والاهمال من جانب الملك. فنقدتها مائة دينار، ومكثت حيالها أفكر بعظمتنا كيف أنها كالهباء تزول، لأنني أنا أيضاً أكون أحياناً فيلسوفة. وهذا ما جعلني أتأخر، بالإضافة إلى تراكم الجليد الذي يعترض سير الخيل التي تجرّ المركبات.

– خيل المركبات! وهل عُدتِ في مركبة؟

– نعم أيها العاهل، في المركبة ذات الرقم ١٠٧.

وراح الملك يعيد كلمة مركبة، وساقه اليمنى تتأرجح فوق ساقه اليسرى كعادته عندما يكون في حالة من النزق وفروغ الصبر. أما الملكة فقد تابعت تقول:

– نعم في مركبة، وكم كان طالعي سعيداً في أن أجد مركبة أعود فيها.

– أحسنتِ الصنيع يا سيدتي، وإن مقاصدك في غاية النبل، وإن حققتها أحياناً بخفة. إن الذنب ولا شك واقع على سجية الجود الزاخرة التي تتحلين بها.

فأجابته الملكة بلهجة ساخرة: شكراً أيها العاهل!

– يجب أن تعتقدي أن ظنوني لم تحفل إلا بما هو مستقيم شريف. بيد أن مسلك المغامر الذي لا يليق بملكة هو الذي لم ينل رضاي. إنكِ فعلتِ خيراً كعادتك، ولكن الخير الذي أسديته للآخرين انقلب شراً على نفسك. هذا هو مأخذي عليك. والآن إني مستعد أن أصلح الإهمال الذي وقعتُ به، لأن واجبي يقتضيني السهر على من هم من سلالة الملوك. أفيديني عن بؤسهم وحاجتهم، وسترين كيف أغدق عليهم الهبات.

– إن اسم «فالوا»، أيها العاهل، أشهر من نار على علم، وأظن أن ذاكرتك لن تنساه بعد الآن.

فانفجر لويس السادس عشر ضاحكاً عند سماعه اسم «فالوا»، وهتف قائلاً:

– علمتُ الآن بمن تهتمين، بتلك السيدة الصغيرة من آل فالوا، التي تدعى الكونتس ... دعيني أتذكر ...

– الكونتس « دي لاموت » .

– إنها كذلك ، وزوجها دركي ؟

– نعم يا مولاي .

– إنها قهرمانة ماهرة . اسمحي لي أن أدعوها كذلك ولا تغضبي ، فهي تحرّك من في السماء وعلى الأرض ، وتزعج الوزراء ، وتقلق عمّاتّي بشتى الوسائل ، وتسحقني أنا نفسي بتوسلاتها وعرائضها وبيّناتها التناسلية .

– هذا يثبت أيها العاهل أن مطلبها لم يحظ باهتمامك .

– إني لا أنكر هذا مطلقاً .

– أهي من آل « ڤالوا » أم أنها ليست منهم ؟

– أعتقد أنها منهم .

– إذن ، لتُعطَ راتباً محترماً ، ورتبة لزوجها ، يوفّران لهما حالة تليق بمن هم من سلالة ملكية .

– يا للشيطان ! رويدك يا سيدتي ! فلعلك تتسرعين . إن هذه السيدة الصغيرة من آل « ڤالوا » قادرة على نتف ريشي دون أن تلجأ الى مساعدتك ، وذلك لأنها ماكرة ومنقارها صلب !

– ولكنني لا أخشى عليك أيها العاهل ، لأن ريشك قاسٍ لا يُنتف .

– تقترحين لها راتباً محترماً؟ معاذ الله أن أفعل! ألا تعلمين كيف استنزف هذا الشتاء القارس خزينتي؟ وتقترحين رتبة لزوجها الدركي الصغير الذي ركب رأسه عندما قبل أن يقترن بسليلة من آل ڤالوا؟ كلا يا سيدتي، لم يبق لديّ رتب أمنحها حتى للذين يشترونها أو يستحقّونها. ثم تقترحين لهؤلاء المتسولين حالة تليق بأسلاف الملوك؟ رعاك الله! ألا ترين في أية حالة نرتع نحن الملوك إذ أصبحنا دون الموسرين من عامة الشعب غنىً وحفظاً للمال؟ فها هوذا شقيقي، دوق اورليان»، قد أرسل خيوله وبغاله الى انكلترا، لتباع هناك، كما أنه ألغى كل الأبنية المتممة لقصره. وكذلك أنا فقد استغنيت عن قصر الصيد، ولجأت الى السيد «سان جرمان» لكي يعيد ترميم قصري العسكري. إننا يا عزيزتي، نعيش كما ترين كباراً وصغاراً في حالة من الحرمان والتقتير.

– ومع هذا أيها العاهل، فان آل «ڤالوا» لا يستطيعون الموت جوعاً.

– أما أخبرتني أنك نقدتها ماية دينار؟

– يا لها من حسنة هزيلة!

– بل إنها حسنة ملكية.

– تبرّع بمثلها إذاً؟

– هذا ما أتورّع عن فعله. إن ما تبرعتِ به هو عن كلينا.

- عيّن لها إذن راتباً صغيرا.

- كلا أبدا! لن أعيّن شيئاً ثابتاً. يكفي هؤلاء الناس ما يحتلبونه منا، لأنهم من فصيلة القوارض. أما أنا، فعندما أجد رغبة في العطاء، أعطي ما لم يُعيّن سلفاً، وما لا يُعتبر فرضاً في المستقبل. وبكلمة، إنني أعطي عندما أجد لديّ فائضاً من المال. أما هذه الصغيرة من آل «ڤالوا» فإنني لا أستطيع أن أبوح لك بكل ما أعرف عنها. لا بد أن يكون قلبك الخيّر قد وقع في أحابيلها يا عزيزتي أنطوانيت، وإني لأطلب المغفرة عن ذلك لقلبك الخيّر.

وفيما كان الملك يتلفظ بهذه الكلمات مدّ يده لزوجته الملكة، التي أخذتها وقربتها بحركة عفوية من شفتيها. إلا أنها ما برحت أن أبعدتها قائلة:

- إنكَ لست خيّراً معي، وإني حاقدة عليك!

- تحقدين علي! أنت! أما أنا فلا...

فقاطعته قائلة بلهجة ساخرة:

- ستدعي طبعاً أنك لست حاقداً عليّ أنت الذي أوصدت في وجهي أبواب فرساي، وبكّرت في الساعة السادسة والنصف إلى مقاصيري لتفتح بابي عنوة وتدخل إلى غرفتي وأنت تقلّب فيها عينيك المتجسستين.

فتضاحك الملك وقال:

- كلا ! إني لا أحقد عليك .

- يسعدني أنك لست بحاقد .

- ماذا تعطينني إذا برهنت لك أنني لم أحقد عليك حتى عندما ولجت مكانك هذا ؟

- قدّم أولاً البرهان على ذلك .

- هذا سهل جدّا ، فالبرهان هنا في جيبي .

فنهضت الملكة وقد استبدّ بها الفضول وهتفت قائلة :

- جلبت شيئاً تريد أن تعطيني إياه ؟ حقاً إنك ملك محب . ولكن احذر ، لن أصدّقك إلا إذا عرضت برهانك أولاً ، لأنني أخشى أن يكون ادعاؤك حيلة لن تنطلي عليّ ، وأراهنك على أن ما تدّعيه هو أيضاً مجرّد وعد .

عندئذ ابتسم الملك ابتسامة طيبة ورضى ، وشرع يبحث في جيبه بتؤدة تعمدها لكي يضاعف فضول الملكة ، مثل هاتيك التؤدة التي تجعل الطفل يتراقص فارغ الصبر أمام لعبته ، والحيوان أمام طعامه ، والمرأة أمام الهدية التي تحلم بها . وأخيراً أطلع الملك من جيبه علبة جلدية نُقشت نقشاً فنيّاً مذهباً . فلم تستطع الملكة أن تتمالك نفسها ، وهتفت صارخة .

- ما هذا ، حلية !

فوضع الملك العلبة على السرير ، فتلقّفتها الملكة بفارغ صبر ، وما لبثت أن فتحتها ، فإذا بها تصرخ مذهولة مبهورة :

– ما أجمله ! يا الله ، ما أجمله !

فشعر الملك أن قلبه يرتجف من الفرح ، فسألها :

– أترين حقاً أنه جميل ؟

إلا أن الملكة لم تحر جواباً ، لأنها كانت مذهولة تلهث ، وقد نزعت من العلبة عقداً من الماس ضخماً نقياً ، رُكّب بحذقٍ شديد ، حتى أنه خيّل اليها أنها ترى نهراً من الفسفور واللهب يجري على يديها الجميلتين . وكان العقد يتماوج بين تينك اليدين كحلقات أفعى يلمع في كل قشرة من جلدها برق متوهج . وعندما استطاعت الملكة أن تتمالك نطقها قالت :

– إنه رائع ! رائع !

كررتها مراراً بعينين متوهجتين لانعكاس الجواهر الباهرة عليهما ، أو لأنها فكّرت أن أي امرأة في العالم لا تستطيع أن تملك مثيل هذا العقد . وعندئذ سألها الملك :

– هل أنت مسرورة الآن ؟

– بل إني في غاية الحبور يا مولاي ، فلقد بعثتَ فيضاً من السعادة في قلبي .

– أحقاً ما أسمع !

– أنظر إلى هذا الصف الأول ، فإن حبوبه بحجم حبوب البندق .

– إنه كما تقولين .

- وكم هو منسّق! حتى يخيل للمرء أن حبوبه بحجم واحد، فقد راعى الصائغ تدرّج الأحجام بمهارة فائقة، وحافظ على النسب بطريقة علمية تموّه الفرق بين الحبة الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة. إن الصائغ الذي نسّق هذا العقد هو حقاً فنّان.

- إنهما صائغان لا واحد.

- أراهن إذاً على أنهما «بوهمير» و «بوسّانج» الشهيران؟

- أجل، لقد عرفتهما.

- لا يوجد حقاً غيرهما من يجرؤ على مثل هذا الابداع. إنه جميل يا مولاي، إنه رائع!

- ولكن حافظي على هذا العقد يا سيدتي، لأنك تدفعين ثمنه غالياً جداً.

ولم يكد الملك يتلفظ بهذه الكلمات حتى اربدّ جبين الملكة الذي كان مشرقاً، وانحنى منخفضاً. إلا أن هذا التغيّر الطارئ على سحنة الملكة قد تلاشى بسرعة، فلم يتسنّ للملك أن يلاحظه، لذلك فقد نطق يقول:

- إسمحي لي تحقيق متعة واحدة.

- وما هي؟

- أن أعلّق هذا العقد في عنقك.

بيد أن الملكة اعترضته وهي تقول بلهجة حزينة:

- إنه غالي الثمن ، أليس كذلك ؟

فأجاب الملك وهو يضحك :

- طبعاً إنه غالي الثمن ، ولكنك تستحقين ما هو أثمن منه . إن هذا العقد لن يكون له ثمن حقيقي إلا في موضعه ، أي في عنقك .

وبينما كان الملك لويس السادس عشر يفوه بهذه الكلمات ، كانت يداه تلتقطان طرفي العقد الباهر وقد اقترب من الملكة ليبكّله لها في عنقها بيكلته المكونة هي أيضاً من ماسة كبيرة . إلا أن الملكة صدّته قائلة وهي تهز برأسها :

- كلا أيها العاهل ! دعك من هذا العمل الصبياني ، وأعد العقد إلى علبته .

- أتمانعين في أن أكون أول من يراه عليك ؟

- لا سمح الله أن أمنع عنك هذه اللذة يا مولاي ، فيما لو أخذت العقد ، ولكنني ...

فقاطعها الملك مندهشاً وقال :

- ولكن ماذا ؟!

- ولكن لن يرى أحد ، أنتَ أو سواك ، عقداً بمثل هذا الثمن في عنقي .

- ألن تلبسيه يا سيدتي ؟

- لن ألبسه أبدا !

– أترفضين رغبتي ؟

– إني أرفض أن أعلق مليوناً بل مليوناً ونصف المليون من الدنانير في عنقي ، وهي كما أعتقد ثمن هذا العقد ؟

– إني لا أنكر ذلك .

– إني أرفض أن أعلق في عنقي هذا المبلغ الضخم عندما تكون خزائن الملك فارغة ، وعندما يضطرّ الملك إلى التقتير في مساعداته وإلى مخاطبة ذوي الفاقة قائلاً : « إن خزينتي فارغة ، فليعلكم الله ! »

– ماذا ، أجدّاً ما تقولين ؟

– اسمع يا مولاي ، قال لي السيد « دي سارتين » ذاتَ يوم إن مبلغ مليون ونصف يمكّننا من الحصول على باخرة تجارية . وفي الحقيقة أيها العاهل إن ملك فرنسا هو أكثر حاجة الى باخرة تجارية من حاجة ملكة فرنسا إلى عقد تعلقه في عنقها .

فهزّ الفرح العاهل الفرنسي واغرورقت عيناه بالدموع ، ولم يلبث أن صاح :

– يا للقول الرائع والموقف النبيل ! شكراً لك يا أنطوانيت ، شكراً ، شكراً ، شكراً ! إنك امرأة صالحة .

ولكي يتوّج ثناءه عليها بطريقة بورجوازية عطوفة ، فقد طوّقها بذراعيه وقبّلها هاتفاً :

- لكم سيباركونك في فرنسا يا سيدتي عندما تصل إلى أسماعهم كلماتك هذه .

فتنهّدت الملكة . إلا أن الملك عاجلها قائلاً :

- لم يفت الوقت ، إذا كنت تتنهدين أسفاً !

- كلا يا سيدي ! إن تنهدي تعبير عن التعزية . هيّا أغلق هذه العلبة وأعدها للصائغين .

- ولكنني أعددت فواتير الدفع ، والدراهم اللازمة ، فماذا أفعل بها ؟ فلعلك ستندمين يا سيدتي ؟

- لا ، لن أندم ، فكّرت ملياً بالأمر ، وعزمت على رفض هذا العقد ، ولكنني أطلب شيئاً آخر .

- اطلبي ما تشائين . ها هما مليونان من الدنانير رهن بتصرفك .

- مليونان من الدنانير؟ أكان العقد ثميناً إلى هذه الدرجة ؟

- خرجت اللفظة من فمي عن غير قصد ، ولن أكذّبها يا سيدتي .

- ولكن اطمئن ، إن ما أطلبه يكلّف أقل من ذلك كثيراً .

- وماذا عساك تطلبين ؟

- الذهاب إلى باريس مرّة أخرى.

- هذا أمر سهل ، ولا يكلّف شيئاً .

- أريد أن أزور السيد « ميسمار » في ساحة الفندوم .

فحكّ الملك أذنه ثم قال :

- بما أنك رفضت حلية تكلف مليونين من الدنانير ، فإني أوافق على طلبك هذا . زوري السيد « ميسمار »، ولكن بشرط .

- وما هو هذا الشرط ؟

- أن تصطحبي معك أميرة أثيلة .

ففكرت الملكة قليلاً وقالت :

- أتعجبك مدام دي لامبال ؟

- مدام دي لامبال ، لا بأس !

- أعدك بذلك .

- إنني موافق إذن .

- شكراً .

عندئذ أضاف الملك قائلاً :

- منذ الآن سأوصي على باخرتي التجارية ، وسأطلق عليها اسم « عقد الملكة » ، وإني لجاعلها تشدّ رحالها لتصل الى لابيروز .

ثم قبّل الملك يد زوجته وخرج من مقصورتها مسروراً .

نهوض الملكة في الصباح

★

لم يكد الملك يخرج حتى نهضت الملكة من سريرها ودنت من النافذة تتنشق نسيم الصباح البارد . وكان النهار قد انبلج ممتلئاً بتلك العذوبة التي يسلّفها الربيع للأيام الأولى من شهر نيسان . فالشمس البازغة قد أطلقت دفئها الناعم بعد جليد الليل، والرياح الخافتة حلّت محلَّ ريح الشمال القارسة ، حتى خيّل للناس أن هذا الشتاء المرعب ، شتاء ١٧٨٤، قد شارف على نهايته . وفي الواقع ، أخذ يبدو في الأفق الوردي بخار رمادي إن هو إلا الرطوبة التي بدأت تكشّحها الشمس .

أما في الحدائق فقد أخذ الجليد يتساقط شيئاً فشيئاً عن الأغصان ، وشرعت العصافير تتنقل حرّة فوق البراعم النافرة . كذلك أخذت زهور نيسان المنخفضة الجبين تحت الجليد ، ترفع رؤوسها المسودّة كلما كان يذوب الثلج ، وأزرار البنفسج تتحرك بين أوراقها السميكة الصلبة العريضة وتتفتح تويجاتها إيذاناً بانتشار العطر .

وبين حالتي التجمد والذوبان كان الجليد يزلق كالماس البرّاق في الممرات وعن التماثيل ومختلف الحواجز المعدنية، وكأني بكل شيء في الطبيعة قد بات يعلن صراع الربيع الخفي ضدّ الصقيع والزمهرير، مؤذناً بانهزام الشتاء هزيمة نكراء.

وبعد أن سبرت الملكة بناظريها غدر الطقس السائد، استدارت نحو السيدة دي ميزاري وقالت بلجاجة:

– يجب أن نسرع لكي نستفيد من الجليد، فهوذا الربيع يعلن عن مقدمه.

فأجابت الوصيفة الأولى: منذ زمن طويل أعلنت جلالتك عن رغبتها في التزلج على البحيرة.

– وإني أفضّل التزلج هذا اليوم، لأن الانتظار إلى الغد يفوّت علينا هذه المتعة.

– إذن في أية ساعة تريد مولاتي إصلاح هندامها؟

– في هذه اللحظة بالذات، وبعد أن أتناول فطوراً خفيفاً.

– هذه هي فقط أوامر مولاتي الملكة؟

– ليُسأَل عن الآنسة دي تافرني إذا نهضت، ولتُخبر أنني أرغب في رؤيتها.

– الآنسة دي تافرني هي في بهو الانتظار الخاص بجلالتك.

فاندهشت الملكة عندما عرفت بنهوض أندريه في مثل هذه الساعة المبكرة لعلمها أنها لجأت إلى فراشها في ساعة متأخرة . وعندما استوضحت وصيفتها ، أجابت هذه قائلة :

- إنها يا مولاتي في بهو الانتظار منذ عشرين دقيقة ونيّف .

- أدخليها إليّ إذن .

فدخلت أندريه إلى ردهة الملكة في اللحظة التي كانت فيها ساعة قصر الرخام تقرع القرعة الأولى من الساعة التاسعة ، وكان هندامها على أكمله شأن كل سيدة في البلاط عندما تبدو أمام مولاتها ، وكانت تبتسم ويخالجها شيء من القلق . إلا أن الابتسامة التي طالعتها بها الملكة قد هدّأت روعها وبعثت في نفسها الإطمئنان .

عندئذ خاطبت الملكة وصيفتها قائلة :

- إذهبي يا ميزاري ، أيتها المرأة الطيبة ، وابعثي لي ليونار والخياط .

وطفقت الملكة ترافق مدام ميزاري بعينيها حتى خرجت وأغلقت خلفها الباب . عندئذ التفتت إلى أندريه وقالت لها :

- لم يحدث شيء ، كان الملك لطيفاً وقد ضحك مستسلماً .

- وهل عرف بقصّتنا ؟

– تعلمين يا أندريه أن ملكة فرنسا لا تكذب ، لا سيما إذا لم ترتكب خطأ .

فتخضّب وجه أندريه بحمرة كحمرة الشفق وقالت :

– هذا حق يا سيدتي .

– ومع ذلك يا عزيزتي أندريه ، يبدو أننا ارتكبنا بعض الخطأ .

– بل أكثر من خطأ يا سيدتي .

– هذا ممكن . ولكن الخطأ الأول هو شفقتنا على السيدة « دي لاموت » ، فالملك لا يحبّها . بيد أني لا أخفي عليك أنها أعجبتني .

– لمولاتي من فطنتها ما يجعل حكمها عين الصواب .

هنا دخلت مدام دي ميزاري وبصحبتها ليونار مزيّن الملكة . فجلست الملكة أمام مرآتها وشرع المزيّن الشهير يمارس عمله في أجمل شعر في العالم . وكانت الملكة تجد لذّة كبيرة في أن تعتني بتصفيف شعرها لكي تجلب إليه الأنظار . وكان ليونار يفهم شعورها فراح يتمهّل في ممارسة فنّه ، كما لا يفعل ذلك مع أية امرأة أخرى ، تاركاً للملكة فرصة التلذّذ بمشاهدة شعرها طويلاً .

وكانت ماري أنطوانيت في ذلك النهار مسرورة مغتبطة ،

تتألق حسناً وبهاء . وكانت من خلال مرآتها تبادل أندريه أرقّ النظرات . ولم تعتّم أن خاطبتها قائلة :

– ما أنّبك أحد ، أنت ، لأنك حرّة معزّزة ، وإنك لعاقلة حكيمة كالإلهة مينرڤا التي يرهب جانبها الناس .

– أنا يا سيدتي ؟

– نعم أنت . أنت التي تعرفين كيف تكبحين طيش مجناء البلاط . يا الله ! ما أحسن طالعك في أن تكوني فتاة عذراء ، وفي أن تجدي سعادتك في ذلك ؟

فاحمرّ وجه أندريه ، وارتسم على سحنتها ظل ابتسامة حزينة ، وقالت :

– نذرتُ أن أبقى كذلك .

– وستوفين نذرك يا عذراء الهيكل الرائعة ؟

– هذا ما أرجوه .

– ولكن هذا الحديث يجعلني أتذكر شيئاً ...

– وما هو يا ذات الجلالة ؟

– أنه ، وإن كنت عزباء ، فقد أصبح لك بعل ، منذ يوم أمس .

– بعل يا مولاتي !

– نعم : شقيقك العزيز . اسمه فيليب كما أعتقد ؟

– نعم ، فيليب يا مولاتي .

- وقد وصل؟

- وصل البارحة كما ذكرت جلالتك.

- وما رأيتهِ حتى الآن؟ إني أنانية، فقد انتزعتك منه البارحة لتصطحبيني إلى باريس. هذا حقاً شيء لا يُغتفر.

- رعاكِ الله يا مولاتي! إني أغفر لك من صميم فؤادي، وكذلك شقيقي فيليب.

- أحقاً ما تقولين؟

- أستطيع أن أؤكد لك.

- تؤكدين عن نفسك؟

- عني وعن شقيقي أيضاً.

- وكيف حاله؟

- إنه كعادته بهيّ الطلعة طيّب الجنان.

- كم عمره الآن؟

- اثنتان وثلاثون سنة.

- مسكين فيليب! أوتدرين أنني أعرفه منذ أربع عشرة سنة، وأنني لم أره منذ تسع أو عشر سنين؟

- عندما تشاء جلالتك استقباله فإنه ليغتبط بأن يؤكد لها أن غيابه لم يبدّل مشاعر التبجيل والاخلاص التي نذرها للملكة.

- أباستطاعتي أن أراه في الحال؟

- إذا سمحت جلالتك، فإنه يكون عند قدميها بعد ربع ساعة.

- نعم أسمح. بل إني راغبة في ذلك.

ولم تكد الملكة تتلفظ بهذه الكلمات حتى انزلق شخص بخفة ولباقة وجلبة فوثب على سجادة المقصورة الخاصة بهندام الملكة، وسرعان ما انعكس وجهه الضاحك الماكر في المرآة التي كانت ماري انطوانيت تنظر فيها بحبور الى وجهها. ولم تكد ماري أنطوانيت تشاهد وجهه حتى قالت:

- هوذا أنت يا أخي الكونت «دارتوا»؟ لقد أرعبتني.

- التحية لجلالتك. كيف قضت جلالتك ليلتها؟

- شكراً لاستفسارك، قضيت ليلة عاطلة.

- والصباح، كيف كان؟

- على خير ما يرام.

- هذا هو المهم. فقد حزرتُ أن التجربة مرّت بسلام، لأنني التقيت الملك منذ قليل فابتسم لي ابتسامة تدلّ على الرضى والوئام. وهذا طبعاً دليل على ثقته بي.

ضحكت الملكة لسذاجة كلماته الأخيرة، وضحك الكونت دارتوا بدوره لسبب آخر، ثم ما عتّم أن قال:

- أظن أنني كنت طائشاً البارحة فنسيت أن أسأل الآنسة دي تافرني المسكينة كيف تقضي أوقاتها؟

أخذت الملكة تنظر في المرآة التي كانت تعكس لها كل ما يمكن أن يحدث في حجرتها . وكان ليونار قد فرغ من عمله فنزع عن كتفي الملكة المئزر المنسوج من حرير الهند الذي تستعمله عادة عند تصفيف شعرها أو تمشيطه ، فقامت الملكة والتفعت بثوب الصباح . وعندئذ فُتح الباب ، فقالت ماري أنطوانيت للكونت دارتوا :

– ها هي أندريه ، وبإمكانك أن تعرف عنها ما تشاء .

وفي الواقع فقد دخلت أندريه في هذه اللحظة ، وهي تأخذ بيد شاب بهيّ الطلعة أسمر الوجه تنعكس على عينيه سمات النبل والكآبة . إنه عسكريّ ذو قامة صلبة وجبين ذكي ووقفة صارمة يشبه لوحة من اللوحات الجميلة التي رسمها الرسّامان الشهيران « كوييل » و « غانسبوروت » لأبناء الأُسر العريقة . وكان فيليب دي تافرني ، شقيق أندريه ، يرتدي بزّة رمادية قاتمة مطرّزة بتطريز فضي نحيف ، تبرز على لونها الداكن ربطة العنق البيضاء وحرير السترة الأبيض الخافت اللون . أما مجمل هندامه فقد كان يبرز سمات الرجولة في بشرته وقسماته .

تقدّم فيليب من الملكة ممسكاً بيد قبعته ، وبالأخرى يد شقيقته أندريه التي انحنَت باجلال أمام ماري أنطوانيت وقالت :

- هذا هو أخي يا صاحبة الجلالة.

فقدّم فيليب للملكة التحية برصانة وبطء. وعندما رفع رأسه كانت ماري أنطوانيت ما تزال تنظر في مرآتها التي كانت تشاهد فيها فيليب كما لو أنها نظرت إليه وجهاً لوجه. وبعد أن أجابت الملكة على تحية فيليب استدارت نحوه، فكانت رائعة، وكان لحسنها ذلك الإشراق الدائم الذي طالما جمع حول العرش أنصار الملكية وعُبّاد المرأة. فقد كانت ماري أنطوانيت في الواقع تملك القدرة في الجمال، أو بالأحرى كان لها جمال القدرة والجلال.

وعندما رآها فيليب تبتسم له، وشعر بعينيها الصافيتين الفخورتين الرقيقتين تحطّان عليه، شحب لونه وبدا عليه تأثر عميق. فخاطبته الملكة قائلة:

- يبدو يا سيد دي تافرني أنك تزورنا أوّل مرة، فشكراً لك.

فأجاب فيليب:

- تلطفت جلالتك فنسيت أنني أنا المدين لها بالشكر...

- ما أطول الزمان الذي انقضى دون أن نرى بعضنا! إنه أجمل فترات عمرنا!

- هذا صحيح بالنسبة لي يا مولاتي، أما بالنسبة لجلالتك فكل أيامك هي أيام جميلة.

– هل استطعت الانسجام في أميركا يا سيد دي تافرني ؟ ولماذا مكثت فيها بعد أن عادت منها جميع قواتنا ؟

– قبل أن يغادرها قائدنا السيد دي لافاييت ، يا سيدتي ، احتاج إلى ضابط يثق به لكي يعهد له بقيادة القوات ، فاقترحني على الجنرال واشنطن الذي وافق على بقائي في أرض العالم الجديد .

– يبدو لي أن من هذه الأرض الجديدة عاد لنا أبطال عديدون .

فابتسم فيليب وأجاب : قول جلالتك لا ينطبق عليّ .

– ولمَ لا ؟

ثم استدارت الملكة نحو الكونت دارتوا وقالت :

– أنظر يا أخي إلى هذه الطلعة البهية النبيلة التي للسيد دي تافرني .

وعندما رأى فيليب أنه عُرض على الكونت دارتوا ، وكان لا يعرفه قبل ذلك ، خطا نحوه ورجاه أن يأذن له بتحيته . فأعلن الكونت موافقته بإشارة من يده ، فيما انحنى الضابط الشاب أمامه يحيّيه . عندئذ قال الأمير الكونت دارتوا في نفسه:

«إنه ضابط بهيّ ، وفتى نبيل ، وتسرّني معرفته» .

ثم توجه إلى فيليب سائلا :

- ما هي مراميك بعد عودتك إلى فرنسا ؟

فنظر فيليب إلى شقيقته وأجاب :

- رأي شقيقتي يا مولاي يغلب رأيي ، وإني سأعمل بمشيئتها .

- ولكن هناك كما أعتقد والدك السيد دي تافرني ؟

- نعم يا مولاي ، إن بقاءنا في كنف والدنا هو من حسن حظنا .

إلا أن الملكة قاطعته قائلة باهتمام :

- أفضّل ، بالرغم من وجود الوالد ، أن تكون أندريه في حماية شقيقها ، وأن يكون شقيقها في حمايتك يا سيدي الكونت . عِدني بأن تهتم بالسيد دي تافرني .

فأشار الكونت دارتوا بأنه موافق ، فيما تابعت الملكة تقول :

- أتعلم أن روابط حميمة تربط بيننا ؟

- بينكما يا شقيقتي ؟ بالله ، ما هي ؟

- السيد دي تافرني هو الفرنسي الأول الذي وقعت عليه عيناي عندما وصلت الى فرنسا ، وكنتُ قد عاهدت نفسي بأن أُسعد الفرنسيّ الأول الذي أصادفه .

فشعر فيليب أن الحمرة صعدت الى جبينه ، فعضّ شفتيه لكي يحافظ على هدوئه . أما أندريه فقد نظرت إليه ثم

خفضت رأسها، وقد لاحظت ماري أنطوانيت النظرة التي تبادلها الشقيقان، ولكن كيف عساها تكتشف ما قد تحمل تلك النظرة من أسرار حزينة؟ فإنها كانت تجهل الأحداث التي رويناها في القسم الأول من هذه القصة، لذلك فقد نسبت الحزن الذي استشفّته لسبب آخر. تُرى ما الذي يمنع أن يكون السيد دي تافرني قد شقي فؤاده بحب ابنة ماري تيريز، شأنه في ذلك شأن الكثيرين الذين أولعوا بها عام ١٧٧٤ ولعاً لا شفاء منه؟

لا شيء يجعل هذا الافتراض مستحيلاً، حتى استطلاع هذه الفتاة جمالها في المرآة بعد أن اصبحت امرأة وملكة. ولعلّ ماري أنطوانيت قد نسبت تنهّد فيليب إلى بوح من هذا النوع باح به الشقيق لشقيقته، فابتسمت للشقيق ولاطفت الشقيقة بأحب النظرات. ولم تكن ماري أنطوانيت في شعورها هذا قد بلغت كل الصواب، ولكنها لم تكن كذلك مخطئة كل الخطأ، لأنها كانت تتحلى بذلك الدلال البريء الذي لا يُعتبر جرماً، ولأنها كانت دائماً تحمل طبيعة المرأة التي تفخر بأن تجد نفسها محبوبة. فإن بعض النفوس تشعر بميل إلى تحبّب الآخرين، ولعلها تكون أسخى النفوس بين العالمين.

ولكن مهلاً أيتها الملكة المسكينة! إنك توجهين هذه الابتسامة إلى قوم يحبّونك، وسيأتي يوم توجهينها فيه ويا

للأسف إلى قومٍ كفّوا عن حبّك، فتتبدّد ابتسامتك بينهم هباء.

وبينما كانت الملكة تستطلع أندريه رأيها في ثوب أعدّته للصيد، دنا الكونت دارتوا من فيليب وسأله قائلاً:

- هل تعتقد بصراحة أن الجنرال واشنطن هو قائد عظيم؟

- نعم يا سيدي، إنه إنسان عظيم.

- وما كان تأثير الفرنسيين هناك؟

- كان تأثيرهم حسناً، بعكس تأثير الانكليز السيء.

- إني موافق على رأيك. إنك يا سيد دي تافرني من أنصار الأفكار الجديدة. ولكن هل فكّرت بشيء؟

- أيّ شيء تقصد يا سيدي؟ إني أبوح لك أنني هناك، على عشب المعسكرات، وفي السهول المنبسطة على ضفاف البحيرات الكبيرة، أُعطيتُ الوقت لأفكر بأمور كثيرة.

- هل فكرت بأن الحرب التي خضتم غمارها هناك لم تخوضوا غمارها ضد الهنود أو ضد الانكليز؟

- ضد من إذاً يا سيدي؟

- ضدّ أنفسكم.

- إني لا أناقض فكرتك يا سيدي، فالأمر ممكن.

- أوتعترف بهذا؟

- إني أعترف بالصدمة المريرة، ولكنها صدمة أنقذت الملكية .

- أجل ، ولكن تأثير الصدمة قد ينجم عنه موت الذين جرى إنقاذهم .

- هذا مؤسف يا سيدي !

- لذلك فإني أرى أن الانتصارات التي أحرزها الجنرال واشنطن والمركيز دي لافاييت هناك، ليست باهرة كما يدّعون . إنها أنانية ومحض أنانية . واسمح لي أن أصارحك أنني لست الوحيد الذي يعتبرها كذلك .

- معاذ الله أن أناقضك يا سيدي !

- وهل تعلم لماذا سأبذل أقصى جهدي لمساعدتك ؟

- مهما كان دافع مولاي فإنني سأحفظ لسموّك الملكي أصدق الجميل .

- لأنك يا عزيزي السيد دي تافرني لست من أولئك الذين جعلهم البوق، العسكري أبطالاً على مفترق الطرقات عندنا ، لقد زاولت خدمتك العسكرية ببسالة دون أن تنزلق دائماً في فوهة البوق . ثم لا أحد يعرفك في باريس ، لذلك فإني أحبك . ولو أختلف الأمر لما فعلت يا سيد دي تافرني... إنني أنانيّ كما ترى .

عندئذ قبّل الأمير الكونت دارتوا يد الملكة وهو يضحك، ثم حيّا أندريه تحية محبة واحترام لم يألفها مع غيرها من النساء، وما لبث أن خرج من الباب الذي انفتح أمامه. فقطعت الملكة حديثها مع أندريه، واستدارت نحو فيليب وقالت له:

– هل رأيت والدك يا سيدي؟

– نعم رأيته يا سيدتي، التقيته في ردهات الانتظار هنا في القصر، لأن شقيقتي أخبرته عن قدومي.

– ولماذا لم تذهب إلى المنزل لترى والدك أولاً؟

– بعثت إليه يا سيدتي خادمي ومعه حوائجي الصغيرة، إلاّ أن والدي أعاده وقد حمّله أمره بأن أزور أولاً جلالة الملك أو جلالتك.

– ولقد أطعته؟

– بكل غبطة يا سيدتي، وقد تسنّى لي هكذا أن أعانق شقيقتي.

هنا طرأ على الملكة شعور مرح فهتفت قائلة:

– إن الطقس رائع! وغداً يا مدام ميزاري يذوب الجليد، فأعدّي لي زلاّجة في الحال.

فخرجت الوصيفة الأولى لتنفذ أمر سيّدتها التي أضافت تقول:

هذه الشمس تسحرني وتدعوني إليها. وإن جمعاً غفيراً سيكون على صفحة البحيرة.

فسألها فيليب قائلاً:

أتريد مولاتي التزلج على الجليد؟

– لا بد أنك ستسخر منا يا سيدي الأميركي... أنت الذي اجتزت بحيرات فسيحة لا تعدّ بحيرتنا شيئاً بالنسبة اليها.

– ولكن البرد والطريق هما مسليان هنا يا سيدتي، وإنهما مميتان هناك.

وكانت الملكة قد استغنت عن فطورها واستعاضت عنه بكأس من الشوكولا أحضرته لها وصيفتها إلى مقصورتها. فعرضت ماري انطوانيت على أندريه أن تحسو كأساً مثلها، فاحمرّت هذه الأخيرة من شدّة سرورها وانحنت معلنة عن قبولها، فيما خاطبت الملكة السيد دي تافرني قائلة:

– هل رأيت يا سيد دي تافرني كيف أنني لم أتغير؟ فالمراسم ما زالت تزعجني. أوتذكر أوقاتنا الغابرة؟ أم تراك تغيّرت أنت؟

نفدت هذه الكلمات نفاد السهم إلى خافق الشاب، ذلك أن عبارات التأسف على الماضي التي تطلقها شفتا المرأة قد

تكون بمثابة خنجر يدمي فؤاد الذين كانوا على اتصال بها. ولقد أجاب فيليب باختصار:

- كلا يا سيدتي ما تغيّرت، وخصوصاً فؤادي ما تغيّر ...

- ما دام قلبك الطيب لم يتغيّر، فإننا نشكرك على طريقتنا الخاصة: هاتي كأساً من الشوكولا للسيد دي تافرني يا مدام ميزاري!

فهتف فيليب مضطرباً:

- أرجوك يا سيدتي، هذا شرف عظيم لعسكري مجهول مثلي.

- يكفي أنك صديق قديم. إنّ هذا النهار يعيدني بالذاكرة إلى ربيع الشباب وكل طيوبه، وإني لأجد نفسي فيه سعيدةً حرّةً فخورةً ومجنونة!.. إنه يذكرني بنزهاتي الأولى في قصر التريانون، قصري العزيز عليّ، وبلهونا فيه أنا وأندريه. إنه يذكّرني بورودي وزنابقي وثمار الفريز وبالعصافير التي كنت أبحث عن أسمائها في حديقتي. وبكل شيء، حتى بعمّال حدائقي الأعزاء الذين كانت وجوههم المغتبطة تبشر دائماً بزهرة جديدة أو بثمرة لذيذة. إنه يذكّرني بالسيد «جوسّيو»، وبروسّو الغريب الأطوار الذي مات. هذا النهار يبهرني حتى الجنون! ولكن ماذا بكِ يا أندريه حتى تضرّج وجهك؟ وماذا بكَ يا فيليب حتى أصبحت باهت

اللون؟ وكانت هذه الذكريات في الواقع قد قلبت سحنة الفتيين، وقد استعان كل منهما برباطة جأشه لكي يخفي ما بعثت في نفسه كلمات الملكة. لذلك قالت أندريه:

- لقد أحرقت سقف حلقي، أعذريني يا سيدتي.

- وقال فيليب:

- أنا أيضاً يا سيدتي لم أستطع ضبط نفسي إذ أرى أن جلالتك تكرمني كنبيل كبير.

فقاطعته ماري أنطوانيت وهي تسكب سائل الشوكولا الحارّ في كأسه قائلة:

- هيّا يا سيد فيليب، قلت إنك عسكري، أي أنك معتاد على النار، هيا كلل جبينك بغار المجد واحترق بهذا الشوكولا لأن الوقت لا يسمح لي بالانتظار طويلا.

وشرعت تضحك، فيما سارع فيليب الى احتساء كأسه بطريقة جدّية كما يفعل قرويّ في مثل موقفه، ولكن بفارق واحد: فالقروي يفعل ذلك بارتباك، بينما فعله فيليب بشجاعة رغم أن الملكة كانت ما تزال تنظر إليه. وعندما أفرغ كأسه في جوفه تضاعف ضحكها وقالت:

- إنك حقاً رجل فذّ!

ثم نهضت. وكانت وصيفاتها قد أحضرن لها قبعة جميلة ومعطفاً من الفرو الأبيض وقفّازين، فلم يستغرق هندامها أكثر

من دقائق معدودة . أما فيليب فقد لفّ ذراعه حول قبعته وهمّ أن يخرج ، ولكن الملكة استوقفته قائلة :

– لا أريد أن تتركني يا سيد دي تافرني ، ويمكنني اليوم أن أدّعي ، بلغة السياسة ، أنني احتجزت أميركياً . خذ يميني إذن يا سيد دي تافرني ...

فأطاع الشاب ، وانتقلت أندريه إلى يسار الملكة التي خرجت من مقاصيرها وأخذت تنحدر على الدرج العريض . وسرعان ما استقبلتها ، في ساحات القصر ، الطبول وهي تقرع ، وأبواق الحرس ، وقرقعة الأسلحة التي أخذت تتأهب لتحيتها . أما هذه الأبّهة الملكية ، وهذا التبجيل الذي كان يقدّمه الجميع للملكة بحرارة تبلغ درجة العبادة ، فقد كان كل ذلك يملأ رأس السيد دي تافرني بالدوار ، حتى أن حبّات من العرق قد لمعت على جبينه فشعر أن الارتباك قد استولى على خطواته ، ولو لم تصفعه عاصفة الصقيع في عينيه وشفتيه لكان قد أُغمي عليه .

ولقد شعر هذا الفتى أنه ، بعد السنين الحزينة المؤلمة التي قضاها في المنفى ، قد عاد فجأة إلى صبوات الفرح المكتظة بالاعتزاز ومتع القلب .

وكانت الملكة تسير في موكب من البهاء ، فتنحني في طريقها الرؤوس ، وتتأهب الأسلحة . إلا أن شيخاً مسناً قد بدا

منهمكا بهذا المشهد فلم يحفل بمراعاة المراسم المترتبة عليه ، إذ بقي رأسه مرفوعاً متطاولاً ، وعيناه منصبتين على الملكة وعلى السيد دي تافرني . وعندما ابتعدت الملكة عنه شوهد هذا الشيخ الصغير الجسم يخرج من الصف المكتظ حوله ويعدو ملء ساقيه القصيرتين البيضاوين ، ساقي الشيخ الذي ناهز السبعين من عمره .

على صفحة البحيرة الصغيرة

★

كان الممر الذي يمتدّ على ضفتي البحيرة المعروفة بالبحيرة السويسرانية حافلاً بالمتنزهين الذين كانت تظللهم أشجار الزيزفون المنبسطة اغصانها بفرح في ذلك اليوم المشمس . وكان المتنزهون من جميع الأعمار وقد أبهجهم مشهد التجلد على الجليد ولفتت انظارهم زينات النساء التي اختلط قديمها المزعج بحديثها المبتكر المتطرّف . فقد كانت هناك القبعات العالية ، والقبعات التي معظمها من القماش ومعاطف الفرو ، وفساطين الحرير الفضفاضة التي تؤلّف مع الأردية الحمراء ، والسترات الزرقاء بلون السماء ، وملابس الخدم الصفراء ،

والسراويل البيضاء، مزيجاً غريباً يثير الفضول. وكان منظر الخدم وهم يشقّون جمع أولئك الناس بثيابهم الحمراء أو الزرقاء يشبه منظر شقائق النعمان عندما تتماوج مع الريح في حقل من السنبل أو النفل. وفي بعض الأحيان كانت تنطلق من هذا الجمع المحتشد صيحة إعجاب توجّه للمتزلج الماهر «سان جورج» كلما رسم على الجليد دائرة بارعة لو قاسها مهندس لما عثر فيها على خطأ صغير.

وبينما كانت ضفاف البحيرة تكتظ بمثل هذا العدد الضخم من المشاهدين الذين كان يلتصق بعضهم ببعض فيبدون وكأنهم بساط مخطط الألوان يعلوه بخار الأنفاس المتجمدة، كانت صفحة البحيرة الشبيهة بمرآة ضخمة من الجليد تحفل بمشهد متنوع شديد الحركة. ففي ناحية منها زلاجة يجرّها ثلاثة كلاب ضخام على طريقة الزلاّجات الروسية فتنطلق انطلاقاً جنونيا. وكانت الكلاب ترتدي نوعاً من الصدارى المخملية المنقوشة، ويخفق الريش فوق رؤوسها فتبدو وكأنها حيوانات أسطورية تشبه لوحات «كالو» و«غويا» الشهيرة بغرابتها. أما قائدها، السيد «دي لوزون»، فقد كان يجلس في الزلاّجة المبطنة بفراء النمر جلسة لامبالية، بيد أنه كان يميل على جانبه لكي يتجنب خط الريح الناجم عن السرعة فيتسنى له بذلك أن يتنفس. وكانت

زلاّجات أخرى، أقل سرعة من تلك، تنفرد هنا وهناك على صفحة البحيرة، وفي كلّ منها سيّدة متنكرة بسبب البرد، وقد انحنى على مؤخّرة زلاجتها متزلّج جميل يلتفع برداء مخملي عراه مذهبة فيدفع الزلاجة بشدّة ويوجهها بالاتجاه الذي يريد. أما الكلمات التي كانت تتبادلها السيدة وفتاها الجميل فقد كانت تضيع مع الريح، لا سيما لأنه لم يكن هناك من يلوم موعداً سرّياً ينعقد بين حبيبين تحت قبة السماء وعلى مرأى من فرساي بأجمعها. إن ما كان يقوله الاثنان لم يكن ليضيق به الآخرون لأنه كان يجري تحت بصرهم، ولم يكن ليهتمّ به المتخاطبان لأنه كان لا يتساقط في الأسماع. وكان من الواضح أن هذين العاشقين كانا يمرّان وسط ذلك الجمع من المتفرجين كطائرين من الطيور الراحلة، قاصدين عالماً مجهولاً تنشده النفوس ويدعى السعادة.

وفجأة، بين تلك الأرواح الهائمة التي تنزلق على الجليد أكثر مما تسير عليه، حدث هياج كبير وعلا ضجيج صاخب. فقد ظهرت الملكة على ضفة البحيرة، فعرفها الناس، وهمّ كلّ منهم ليُفرغ لها موضعه فيما كانت تشير بيدها لكل امرئ أن يبقى في مكانه. وسرعان ما ارتفعت من حناجر الجميع صرخة مدوّية: لتحيَ الملكة! ولم تمضِ لحظات حتى تحلق الجميع حول المكان الذي وقفت فيه الزائرة العظيمة. وأخذ

الرجال يقتربون منها بطرق مدروسة، والنساء يستصلحن هندامهنّ لكي يبرزن بطريقة فضلى. وكان الجميع يختلطون بجماعة النبلاء والضباط الكبار الذين أقبلوا لتقديم تودّدهم للملكة. بيد أنه بين تلك الشخصيات التي عرفها الجمهور شوهدت شخصية بارزة جداً لم تجارِ الشعور العام فتقترب من الملكة، ولكنّها بالعكس عندما عرفت الملكة من هندامها وحاشيتها خرجت من زلاّجتها مسرعة وتوغلت في ممرّ معاكس مع من يتبعها. أما الكونت دارتوا الذي كان يتميّز بأناقة مظهره وبخفّته في التزلّج فقد أسرع باجتياز المسافة التي تفصله عن زوجة أخيه وأقبل يلثم يدها وهو يقول:

– أرأيت كيف أن شقيقنا السيد دي بروفانس يتجنّبك؟

وقد أشار بإصبعه إلى سموّ أخيه الذي كان يسير بخطى واسعة بين الأشجار المليئة بالجليد لكي يصل بطريق معوّجة الى مركبته. فقالت الملكة:

– إنه يتجنبني خوفاً من توبيخي إياه.

– أنا سأتدبّر توبيخه يا سيدتي، ولكنه يخافك لشيء آخر.

فقالت الملكة وهي تضحك: إن ضميره يؤنبه.

– بل لسبب آخر يا شقيقتي.

– وماذا تُراه يكون؟

– لقد علم أن السيد دي سوفران، المنتصر الباهر، يعود في هذا المساء. إنه خبر هام توخّى أن يخفيه عنك.

ونظرت الملكة حولها فرأت آذان الفضوليين صاغية لسماع ما يتلفظ به شقيق زوجها، فأرادت أن تبعدهم عنها، لذلك التفتت إلى السيد دي تافرني وقالت له:

– أرجوك أن تهتمّ بزلاجتي، وإذا كان والدك حاضراً هنا فامضِ وقبّله، إني أعطيك فرصة ربع ساعة.

فانحنى الشاب ثم انطلق بين الجمهور ليحقق أمر الملكة. أما الجمهور فقد فهم قصدها بغريزته الحادّة فوسّع الحلقة حولها لكي تتابع حديثها مع الكونت. عندئذ قالت الملكة:

– أرجوك أن تشرح لي يا أخي ما الذي يربحه الكونت دي بروفانس إذا ما أخفى عليّ قدوم السيد دي سوفران.

– أرجوك يا شقيقتي، هل من الممكن ألا تفهمي، أنت المرأة والملكة والخصم، مقصد هذا السياسيّ المحتال؟ إن وصول السيد دي سوفران مجهول في البلاط، والسيد دي سوفران هو بطل بحار الهند ويستحقّ أن يُستقبل استقبالاً رائعاً في فرساي. ولكن الملك يجهل أنه قادم، لذلك سيتناساه عن غير علم منه وعن غير إرادة. وكذلك أنت ستفعلين، بينما يمضي دي بروفانس وحده لاستقبال البحّار

العائد، فيبتسم له ويلاطفه ويمدحه ويحتكّ ببطل الهند فيصبح بذلك بطل فرنسا.

فقالت الملكة: هذا شيء في غاية الوضوح.

- طبعاً يا شقيقتي.

- ولكنك تنسى نقطة واحدة يا مخبري العزيز.

- وما عساه يكون هذا الشيء؟

- كيف عرفت كل هذا المشروع الجميل الذي اختطه شقيقنا العزيز؟

- كيف عرفته؟ كما أعرف كلّ ما يفعل. وهذا أمر في منتهى البساطة، ذلك أنني عندما عرفت أن دي بروفانس قد نصب عليّ الأرصاد لمراقبة أعمالي، اشتريت بدوري أناساً يقصّون لي كل أعماله وأفعاله، هذا ما قد يفيدني ويفيدك أنت أيضاً يا شقيقتي.

- شكراً لارتباطك بي يا شقيقي. ولكن ماذا يكون شأن الملك؟

- لقد بلّغته النبأ.

- أنت بنفسك؟

- كلا، بواسطة وزير البحرية الذي أرسلته لمقابلته. إنك طبعاً تعتقدين أن هذا الأمر لا يعنيني لأنني أعيش حياة عابثة طائشة مجنونة ولا أحتفل بأشياء هامة كهذه.

- ووزير البحرية كان يجهل هو أيضاً عودة السيد دي سوفران إلى فرنسا؟

- يا الله! عشتِ يا شقيقتي العزيزة في فرنسا أربعة عشر عاماً وليّةً للعهد أو ملكة، وعرفت كثيراً من الوزراء، وأظنك تيقنتِ أن هؤلاء السادة يجهلون دائماً الأمور الهامة. لذلك فقد أخبرت وزيرنا الذي أبدى حماسته.

- هذا ما لا أشكّ فيه.

- إنك تفهمين، يا شقيقتي العزيزة، أن هذا الرجل سيعترف لي بالجميل طيلة حياته، وإني بحاجة إلى عاطفته هذه.

- ولماذا أنت بحاجة إليه؟

- ليساعدني على تحقيق قرضٍ مالي.

فهتفت الملكة وهي تضحك:

- لا رعاك الله! لقد أفسدت فعلتك الصالحة.

هنا بدت الرصانة على وجه الكونت وصوته، فقال:

- أظن يا شقيقتي أنكِ بحاجة إلى مال، وإني أقسم بشرفي العائلي أنني سأضع تحت تصرفك نصف المبلغ الذي أقبضه.

- كلا يا أخي! بالله عليك! فإني والحمدلله لست بحاجة إلى شيء في الوقت الحاضر.

- ولكن لا تنتظري طويلاً لمطالبتي بوعدي يا أختي العزيزة .

- ولماذا ؟

- لأنك إذا انتظرت طويلاً ينفد المال ، فلا أستطيع بعدئذ أن أفي بوعدي .

- لا تخف ، إنني أتدبّر أمري عند الحاجة فألتجئ إلى سرّ من أسرار الدولة .

- ها إن أعراض البرد تبدو عليك يا شقيقتي ، إني أنبهك ، خدّاك يزرقّان .

- ما عليك ، ها هوذا السيد دي تافرني يعود بزلاّجتي .

- إذاً ما عدت بحاجة إليّ يا شقيقتي ؟

- كلا !

- اطرديني إذن ، أرجوك !

- ولماذا أطردك ؟ أوتعتقد أنك تزعجني في شيء ما ؟

- كلا ، ولكنني أنا محتاج إلى حريتي .

- وداعاً إذاً .

- بل إلى اللقاء يا شقيقتي العزيزة .

- ومتى تريد ؟

- في هذا المساء .

- وهل من داع للقائنا هذا المساء؟

– نعم .

– وما هو ؟

– لأن قاعات الملك ستغصّ بالزائرين .

– وبأية مناسبة ؟

– لأن الوزير سيرافق السيد دي سوفران إلى القصر .

– حسناً ، فإلى المساء إذن .

عقبَ هذه الكلمات حيّا الأمير الشاب زوجة أخيه بتلك اللياقة الطبيعية التي كان مفطوراً عليها ، ثم ابتعد فغاب في جمهرة الناس .

وكان السيد دي تافرني ، الوالد ، قد راقب ابنه بينما كان يبتعد عن الملكة ليهتمّ بزلاّجتها . ولكن عينه المتيقظة ما عتّمت أن حطت على الملكة ، وقد أقلقه ذلك الحوار الذي جرى بينها وبين شقيق زوجها ، لأنه كان سبيلاً إلى قطع العلاقة الودّية التي كانت لدقائق خلت متوثقة بين ابنه وصاحبة الجلالة . لذلك فقد اكتفى بإشارة ودّية أطلقها لابنه فيليب عندما انتهى هذا الأخير من الاعدادات الضرورية لسير الزلاّجة على الجليد . وعندما أراد ابنه الشاب ، كما أوصته الملكة ، أن يأتي لمعانقة والده الذي لم يعانقه منذ عشر سنوات ، أبعده والده بيده قائلاً :

- نتعانق فيما بعد، عد الآن إلى عملك. وفيما بعد نتحدّث بأمور كثيرة.

فابتعد فيليب عنه، وما أعظم ما كانت سعادة البارون الشيخ عندما رأى الكونت دارتوا يغادر الملكة التي اتجهت نحو زلاّجتها فدخلت إليها ودعت أندريه أن تدخل معها. عندئذ تقدّم عتعيتان لدفع الزلاّجة، ولكن الملكة صاحت قائلة:

- لا، لا! لا أريد دفع زلاّجتي بهذه الطريقة. ألا تحسن التزلق يا سيد دي تافرني؟

- المعذرة منك يا سيدتي.

- هاتوا زلاّقتين للفارس دي تافرني! لست أدري ما الذي يخالجني بأنك تضارع سان جورج بالتزلق؟

فقالت أندريه:

- في الماضي كان فيليب يتزلّق بحذق وأناقة.

- والآن لن تترك لك قرينا، أليس كذلك يا سيد دي تافرني؟

- سأحاول جهدي يا سيدتي ما دام لك هذه الثقة بي.

ولم يلبث فيليب أن وضع في قدميه زلاّقتين حادّتين كأنهما شفرتا سكين، وجاء فوقف خلف الزلاجة الملكية ودفعها بيده، فبدأ هكذا السباق.

وكان مشهد يُثير الفضول، إذ وجد المتزلق الشهير سان جورج، سيّد المتزلقين وأحذقهم على الاطلاق وأشهر الرياضيين بمرونة تمارينه وحركاته، وجد له خصماً قوياً في شخص هذا الفتى الذي كانت له الجرأة في مجاراته في مضماره. لذلك فقد شرع يدور حول زلاّجة الملكة وهو يرسم انحناءات التبجيل بحركات عذبة يعجز عن القيام بمثلها، داخل فرساي نفسها، أصلب النبلاء وأمهرهم. ثم أخذ يرسم حول الزلاجة حلقات سريعة صحيحة كان يتصل بعضها ببعض باتساق لا مثيل له. وفيما كانت الزلاّجة تصل إليه ثم تتركه خلفها، كان يعود بحركاته اللولبيّة فيتغلب عليها مستأنفاً رسم صوره الساحرة حولها. ولم يكن أحد يستطيع متابعة هذا المشهد بمجرّد النظرة دون أن تنبهر عيناه ويستولي عليه الذهول. لذلك فقد شعر فيليب بالنكاية توجه إليه، فعزم أن يلجأ إلى أسلوب جريء متهور، فإذا به يدفع الزلاجة بسرعة مخيفة جعلت المتزلق سان جورج يقطع دائرته مرتين متتاليتين وينكفئ إلى ما وراء الزلاجة. وعندما سمع فيليب أصوات الرعب تنطلق من أفواه الناس جميعاً ظن أن سرعته والصياح الذي يعلو على ضفاف البحيرة قد يبعثان الخوف في قلب الملكة، فخاطبها قائلاً:

- إذا أمرت مولاتي فإنني أتوقف أو أتباطأ.

ولكن الملكة هتفت به بتلك الحرارة وذلك الجموح اللذين يتسلطان عليها في انتهابها اللذائذ قائلة :

- كلا ! كلا ! لست خائفة . أسرع أكثر أيها الفارس اذا استطعت ، أسرع أكثر .

- إني شاكر لك يا سيدتي ، كلي أمرك إليّ فإنّ زلاجتك في قبضة حديدية .

عندئذ توثّقت يده القوية حول المثلث الفولاذي في ظهر الزلاجة ودفعها بعنف فارتجّت ارتجاجاً شديدا، حتى بدت وكأنه يرفعها فوق الجليد بيده الممدودة . ولم يكن فيليب حتى الآن قد استخدم سوى يد واحدة ، فعندما استخدم الثانية أصبحت الزلاّجة بين يديه الفولاذيتين وكأنها لعبة يتصرّف بها كما يشاء . عندئذ أصبح يقطع الطريق على سان جورج بدوائر أوسع وقد أصبحت الزلاّجة تتحرك بمرونة فائقة وكأنها رجل يندفع على زلاّقتيه الحادّتين . بل لقد أصبحت الزلاّجة بالرغم من حجمها ووزنها وامتدادها زلاّقة راحت تدور وتطير وتصمر على الجليد وتنساب بخفة راقص لم يقع البصر على مثله . وسرعان ما أخذ القلق يسطو على نفس سان جورج الذي كانت حركاته أكثر نعومة ونحافة ودقة ، والذي كان يتزلّق على صفحة البحيرة منذ ساعة ونيّف . وعندما شاهده

فيليب والعرق يتصبب من جبينه وقد بدأت ساقاه ترتجفان من الجهد قرّر أن يلجأ إلى إنهاكه لكي ينتصر عليه. لذلك فقد غيّر نسق سيره وتخلّى عن الدوائر اللولبية التي كانت تضطرة دائماً إلى رفع الزلاجة، دافعاً بالآلة في خط مستقيم، فإذا بها تنطلق كالسهم الرائش. فاستطاع سان جورج أن يلتحق بها بدفعة واحدة، ولكن فيليب استغلّ اللحظة التي همّ فيها خصمه أن يجدّد اندفاعه فمال بالزلاجة على كتلة من الجليد غير مطروقة فتشبثت في مكانها وظلّ فيليب خلفها، وعندما استدار سان جورج على نفسه وعاد نحوها عبر فيليب أمامه على زلاقتيه وسمّر يديه في مثلث الزلاّجة ودفعها بالاتجاه المعاكس، ففتّ هذا في عزم سان جورج الذي انقطع بعيداً عن الزلاجة الملكية. فإذا بالهتاف يشقّ كبد الفضاء حتى تضرّج وجه فيليب من الحياء.

عندئذ، وبعد أن صفقت الملكة طويلاً، التفتت إلى فيليب وقالت بلهجة تختلط فيها اللذّة بالعياء:

- بعد أن حالفك الانتصار يا سيد دي تافرني، أرجوك أن تتوقف لئلا تقتلني.

الشيطان الصغير

★

عندما سمع فيليب أمر الملكة ، أو بالأحرى توسّلها إليه ، شدّ عضلاته الفولاذية وسمّر ساقيه فتوقفت الزلاّجة في الحال ، وكان منظره يشبه منظر الجواد العربيّ الذي يرتعش على قائمتيه في رمال الصحراء . فخرجت الملكة من زلاّجتها وهي تقول :

– استرح الآن ! لم أكن أعتقد أن السرعة تبعث في نفسي مثل هذه النشوة . آه ! كدتَ تُفقدني عقلي !

ثمّ توكأت على ذراعه لأن الدوار قد تعتع قواها . ولكن همهمة الاستغراب التي علت من أفواه العسكريين والنبلاء ذوي الشرائط المذهّبة ، أنذرتها بأنها إنما ترتكب ذنباً جديداً من ذنوبها المتكرّرة ضد الأعراف الملكية ، وهي ولا شك ذنوب لا تُغتفر في نظر أهل الحقد والحسد من المحافظين اللؤماء . أما فيليب فقد بهره هذا الإيثار وشعر بجسمه يقشعر وبوجهه يتضرّج حياءً ، فخفض عينيه ، وكان قلبه يخفق خفقاناً شديداً فيكاد يفرّ من صدره . وشعرت الملكة هي أيضاً بشعور غريب تسرّب إلى قلبها ، فنزعت ذراعها في الحال

وعقلته بذراع الآنسة دي تافرني، ثم طلبت أن يؤتى لها بمقعد لتجلس عليه. فجلبوا لها مقعداً هزّازاً ألقت بنفسها عليه وهي تهمس قائلة:

- المعذرة يا سيد دي تافرني. يا الله! إنها مصيبة كبيرة أن نجد حولنا دائماً الحُمق والفضوليين.

وسرعان ما أقبل نحوها النبلاء العاديّون ووصيفات الشرف، وهم يحملقون جميعاً بفيليب الذي تشاغل، لكي يخفي خجله، بفك الزلاّقتين من قدميه. وعندما انتهى من ذلك انكفأ إلى الوراء لكي يترك مكانه لعملاء البلاط الذين همّوا أن يحيطوا بالملكة التي مكثت بضع ثوانٍ تفكرّ حالمة، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها وقالت:

- إن بقائي هكذا بلا حركة يعرّضني للبرد، أفضّل أن أقوم بجولة ثانية.

ثمّ اندفعت فصعدت إلى زلاجتها. وانتظر فيليب أمراً منها، ولكن عبثا. فأقبل حينئذ عشرون شابّاً عارضين أنفسهم لدفع زلاحتها. ولكنها هتفت بهم قائلة:

- كلا! إني أفضّل خدّامي، فشكراً لكم أيها السادة.

عندئذ استلم الخدّام مراكزهم، وشرعوا يدفعون زلاجة الملكة بتمهّل كما طلبت إليهم أن يفعلوا، وقد أغمضت الملكة عينيها سارحة وراء حلم عميق. وكان الناس حولها

يشيّعون زلاجتها بنظرات عطشى فضوليّة حسودة . أما فيليب فقد مكث وحيداً في موضعه ماسحاً قطرات العرق عن جبينه . وكان يبحث بعينيه عن خصمه سان جورج لكي يطيّب خاطره ، بعد هزيمته ، ببعض الثناء الذي يستحقّه ، ولكن سان جورج كان قد تلقّى أمراً من حاميه ، دوق اورليان ، فانسحب في الحال من ميدان المعركة . فظلّ فيليب مسمّراً في مكانه وقد شعر بالحزن والتعب يتسرّبان إلى قلبه ، بل لقد شعر بمثل الرعب ينفذ إلى نفسه بعد أن أخذ يفكر بما جرى له . وكانت عيناه تتبعان زلاّجة الملكة المبتعدة عنه والمتوغّلة فوق صفحة البحيرة عندما شعر بأن شيئاً ما لمس خاصرته . فاستدار ، فرأى بجانبه والده الشيخ الصغير الجسم ، مكوّراً ملتفعاً بمعطف من الفرو الكثيف ، وقد لمس ابنه بمرفقه لكي لا يُخرج يديه من معطفه . وقد لاحظ فيليب أن عيني والده تنفرجان واسعتين وتتوهجان من البرد أو من الحبور ، وأحسّ أن في صوته شيئاً من الزهو يشبه ما كان يشعر به شيوخ اليونان عندما كانوا يعانقون أبناءهم الأبطال بعد خروجهم ظافرين من حلبات المصارعة والقتال ، وقد سمعه يقول له :

– أوَلا تعانقني يا بني ؟

– بلى يا أبي ، ومن كل قلبي .

وكان من الواضح أن أي اتّساق لم يكن موجوداً بين لفظ هذه الكلمات ومدلولها . أما الوالد فلم يكد ينتهي من معانقة ابنه حتى دفعه بكتفه قائلاً :

- والآن ، بعد أن عانقتني ، إمضِ ، إمضِ في الحال !

- إلى أين تريدني أن أمضي يا سيدي ؟

- يا للشيطان ! إلى هناك .

- إلى هناك ؟

- أجل الى هناك ، حيث الملكة .

- كلا ، كلا يا والدي ، شكراً لك .

- لماذا كلاّ ! ولماذا شكراً ! هل أصابك مسٌّ من الجنون ؟ ألا تريد أن تلتحق بالملكة التي تنتظرك ؟

- إنها تنتظرني ، أنا ؟

- نعم إنها تنتظرك وتشتهيك .

- تشتهيني أنا ؟!

هنا حدّق فيليب دي تافرني في عيني والده البارون بعض لحظاتٍ ، ثم قال بفتور :

- لعلك نسيت يا والدي مركز الملكة .

فشقل الشيخ قامته وخبط الأرض برجله وقال :

- أقسم بشرفي أن أمرك عجيب غريب ! قل لي بالله عليك من أين أنت قادم !

فقال عندئذ فيليب بلهجة حزينة :

– أخاف يا سيدي من فكرة كدت أن أقتنع بها .

– وما هي ؟

– هي أنك تسخر مني ، أو ...

– أو ماذا ؟

– أو أنك أُصبتَ بالجنون ، أعذرني على هذا التعبير الفظ !

فقبض الشيخ عندئذ على ذراع ابنه قبضة عنيفة شديدة جعلته يقطّب حاجبيه من الألم وقال :

– اسمع يا سيد فيليب ، إن أميركا ، كما أعلم ، بلد بعيد عن فرنسا .

– نعم إنها بعيدة عنها يا والدي ، ولكنني ما فهمت قصدك .

– إنها بلد لا ملك فيها ولا ملكة .

– ولا رعايا يا والدي .

– ولا رعايا أيضاً أيها الفيلسوف ، هذا لا يعنيني . وإنما الذي يعنيني ويحزنني ويخجلني هو فكرة بدأت تخالجني .

– وما هي يا والدي ؟ أعتقد على كل حال أن أفكارنا مختلفة .

- فكرتي هي أنك معتوه، وهذا لا يليق بعتليت مثلك. أنظر، أنظر هناك! إن الملكة تستدير للمرّة الثالثة لتراك. فعمّن تُراها تبحث أيها الغبي، أيها القسيس المتأمرك؟

وعضّ الشيخ الصغير، لا بأسنانه بل بلثتيه من شدّة الحنق، على قفازه الرماديّ الواسع على مثل يده الصغيرة. فقال فيليب:

- وهب ذلك صحيحاً يا سيّدي؟

فطرق الوالد الأرض بقدميه وغمغم يقول:

- يا الله! إنه ما زال مرتابا! لا شك في أن هذا الفتى هو من غير دمي، ومن غير أسرة آل تافرني!

- نعم إني لست من دمك، وقد يكون من واجبي أن أشكر الله على ذلك!

- إني أكرر لك أيها السيّد أن الملكة تريدك وأنها تبحث عنك.

فقال فيليب بلهجة جافّة:

- ما أحدّ بصرك يا والدي!

ولكنّ الشيخ حاول أن يخفّف من عنفه ولجاجته فقال:

- دعني، دعني أشرح لك. لا شك في أن لك مبرّراتك، ولكنني أملك خبرة أكثر منك. قل لي يا بنيّ فيليب، هل أنت رجل أم لا؟

فاكتفى فيلب بهزّ كتفيه ولم ينبس ببنت شفة . وعندما لم يظفر الشيخ بجواب من ولده شرع يحدّق فيه بنظرات ملؤها الازدراء ، ولكنه سرعان ما أحسّ بذلك النبل العميق وبتلك الأنفة الأصيلة وتلك الإرادة الخيرة التي كان يتحلّى بها وجه ابنه ، لذلك فقد كظم الألم الذي حزّ في نفسه ، ومسح أنفه المحمرّ بكمّه ، ونطق بصوت رقيق يشبه صوت الإله اليوناني أورفيوس عند مخاطبته صخور « تسّاليا » الصمّاء :

- فيليب ، يا صديقي ، أصغ لي .

- إني أصغي لك منذ أكثر من ربع ساعة ، ولا أفعل غير هذا يا والدي .

هنا صمت الوالد لحظة وهو يغمغم في نفسه قائلاً : « سأجعلك تسقط من عرش جلالك يا سيدي الأميركي !.. إن لديك أيها العملاق نقطة ضعف ، فسأستغلها بمخالبي الصلبة المسنّة ! ولسوف ترى ! » ثم ما لبث أن قال بصوت مرتفع :

- أما لاحظت أمراً يا بني ؟

- ماذا تعني ؟

- أمراً لا يعيب سذاجتك .

- أفصح ، أفصح يا سيدي !

- إنك قادم من أميركا، وقد ذهبت إليها في وقت لم يكن هنا ملك أو ملكة. كان يحكم البلاد السيد «دي بارّي» دونما جلال. وها أنت تعود فتجد ملكة، وقد ملأت رأسك فكرة إجلالها.

- هذا أكيد ولا ريب فيه.

- يا للصبي الغشيم!

قالها الشيخ وهو يخنق في كمّه سعالاً وضحكة منفجرة. فاحتجّ فيليب قائلاً:

- ماذا، أوتلومني يا سيّدي على احترامي الملكية، أنت العريق من آل تافرني ومن خيرة نبلاء فرنسا؟

- رويدك، إني لا احدّثك عن الملكية، إني أحدّثك عن الملكة.

- وهل تفرّق بينهما؟

- رعاك الله يا عزيزي! ما هي الملكية؟ إنها تاج قيل إنه لا يُمسّ. ولكن من هي الملكة؟ إنها امرأة، والمرأة تُلمس. فهتف فيليب متعجباً.

- إنها تلمس!

وقد علت وجهه حمرة الغضب والازدراء، وندّت عنه إشارة لو رأتها أي امرأة لهامت به، وأي ملكة لعشقته حتى العبادة.

عندئذ ابتسم الشيخ ابتسامة شيطانية، وقال بصوت منخفض لا يخلو من الشراسة:

- ألا تصدّق أيها الغلام؟ عليك إذن أن تسأل السيد «دي كونيي» والسيد «دي لوزون» والسيد «دي فودرويل»، فعندهم الخبر اليقين...

- أصمت يا أبي، أصمت! إن سيفي لينبو عن طعنك طعنات ثلاث مقابل هذه التجديفات الثلاث، ولكنني أقسم لك أني مغمد سيفي في صدري إذا لم تكفّ!

فتراجع الشيخ خطوة إلى الوراء، ودار على نفسه كشابّ في الثلاثين وقال وهو يهزّ كمه:

- حقاً إنه حيوان أحمق! ظننت الحصان حصاناً فإذا هو حمار، وإذا النسر إوزّة والديك دجاجة! ألا عم مساء يا سيدي، ظننت نفسي أنني شيخ متساقط، فإذا بي أبولّون وأدونيس بالنسبة لك. ألا عم مساءً إذن!

واستدار كالدولاب على عقبيه. ولكن فيليب الذي بدت الكآبة على وجهه أوقفه قبل أن يتمّ دورته وهتف به قائلاً:

- لا شك في أنك ما نطقت جدّاً يا والدي، لأنه يستحيل على نبيل عريقٍ مثلك أن يساهم في نشر الدسّ والنميمة لا ضد المرأة أو الملكة فحسب، وإنما أيضاً ضد الملكية.

– يا للبهيم ! إنه ما زال يرتاب بصحة قولي !

– وهل حدّثتني كأنك أمام الله ؟

– كأنني حقاً أمام الله .

– أمام الله الذي تصلي له كل يوم ؟

فشعر البارون الشيخ أن ابنه بدأ يستأنف الحوار معه ، وهذا انتصار بالنسبة إليه . لذلك فقد اقترب منه وأجاب قائلاً :

– أعتقد أنني من النبلاء يا ولدي العزيز ، فلا أكذب ... دائماً .

بدا لفيليب أن الكلمة الأخيرة مثيرة للضحك ، ولكنه لم يضحك ، وتابع يسأل :

– رأيك يا سيدي إذن أن للملكة عشاقاً ؟

– بكل تأكيد .

– وهم من ذكرت ؟

– وقد يكون لها غيرهم ... من يدري ! سل المدينة والبلاط بأسره ، فما يجهل ذلك إلا العائدون من أميركا .

– ومن الذي يدسّ ذلك يا سيدي ، أهم بعض الهجّائين الأنذال ؟

– يا رعاك الله ! لعلك تظنني مخبراً صحفياً ؟

– لا ، ليس هذا . ولكن هنا يكمن الداء ، إذ أن رجالاً مثلك يردّدون مثل هذه الدسائس التي تتلاشى سريعاً كما

تتلاشى الأبخرة الداكنة التي تغطي أحياناً أبهى الشموس. وإن مَثَلَك ومَثَل غيرك من أهل العرق والنسب إنما يساعد على نشر هذه الأضاليل. فباسم الدين يا سيدي أرجوك أن تكفّ عن تكرار مثل هذه الأشياء.

- بل إنني أكررها دائماً.

- ولماذا بالله عليك؟

فتشبّث الشيخ مرّة ثانية بذراع فتاه، وحدّق في عينيه وهو يبتسم ابتسامة شيطانية وقال:

- لكي أبرهن لك أنني على صواب عندما أقول لك: يا فيليب، الملكة تلتفت وتنظر إليك، يا فيليب، الملكة تبحث عنك، يا فيليب، الملكة تهواك. فهيّا إذاً يا فيليب، طرْ، إن الملكة تنتظرك.

فخبّأ فيليب رأسه بين يديه وهتف بوالده متألماً:

- باسم السماء، كُفّ عني يا والدي، فإني أكاد أجن!

- حقاً إنني لا أفهمك يا فيليب، فهل من جريمة في أن يحبّ الانسان؟ بالعكس، الحب دليل على وجود القلب. أم تراك لا تحسّ بقلب هذه المرأة في عينيها وصوتها وتصرفها؟

هذه المرأة تحب، إنها تحب! ولكن ما العمل بك وأنت الفيلسوف والقسّ المتأمرك؟ إنك لا تحب، فدعها إذن تنظر، ودعها تلتفت، ودعها تنتظر، بل أهنها واحتقرها وصدّها عنك يا سيد فيليب ويا سليل آل تافرني!

وبعد أن تلفظ الشيخ الصغير بهذه الكلمات بسخرية متوحشة، وقد استشفّ ما فعلته في نفس فتاه، انسحب مبتعداً كما يفعل المحرّض على الجريمة. فمكث فيليب مغموماً ملتهب الرأس، ومرّت نصف ساعة دون أن ينتبه إلى أنه ظلّ مسمراً في مكانه، والى أن الملكة قد عادت من جولتها فنظرت إليه طويلاً ثم نادته قائلة:

- لا بدّ من أن تكون استرحت يا سيد دي تافرني؟ تعال إذن، فلا أحد أجدر منك بجعل الملكة تتنزه بطريقة ملوكية.

فاندفع فيليب نحوها وهو ثمل، أعمى، مشرّد اللب... وعندما وضع يده على مقبض الزلاجة شعر بأنه يحترق، لأن ماري أنطوانيت قد استلقت إلى الوراء، فلامس شعرها أصابعه...

البارجة «سوفران»

★

بقي سرّ وصول السيد « دي سوفران » ، على غير عادة ، مجهولاً في البلاط ، فلم يعرف أحد سوى الملك والكونت دارتوا شيئاً عن موعد وطريقة وصوله . وكان الملك قد عيّن اللعبة التي سيمارسها في المساء. وعندما حانت الساعة السابعة دخل الملك إلى قاعة الألعاب وبصحبته الأميرات والأمراء من عائلته ، وكذلك وصلت الملكة وهي ممسكة بيد سموّ وليّة العهد ، ابنتها التي لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها . وكان الحفل في ذلك المساء عديداً متألقاً . وبينما كان كلٌّ يجلس في المكان المعدّ له ، اقترب الكونت دارتوا من الملكة بنعومة وقال لها :

– تطلعي حولك يا شقيقتي ، وقولي لي ماذا ترين ؟

فجالت الملكة بنظرها في الحلقة المحيطة بها ، وبحثت في الوجوه ، وحدّقت في الأماكن الفارغة ، فلم تعثر إلا على أصدقاء وأنصار ومن بينهم أندريه وشقيقها . لذلك أجابت سائلها قائلة :

– إني لا أرى غير وجوه الأصدقاء اللطيفة .

- لا تنظري إلى الحضور يا شقيقتي ، أنظري إلى المتغيّبين .
- أوه ! هذا وأيم الحقّ صحيح !
فشرع الكونت دارتوا يضحك ، وقد فهمت الملكة أنه يعني شقيقه وشقيق الملك الكونت « دي بروفانس » ، فأجابت وهي تمزح :
- إنه متغيب أيضاً ! أويجعله وجودي يفرّ دائماً مني ؟
- كلا ! ولكن الفكاهة ما زالت مستمرّة ، لأنه مضى الى الحدود لينتظر القائد « دي سوفران » .
- فعلام تضحك إذن يا شقيقي ؟
- أما فهمت لماذا أضحك ؟
- طبعاً لا ، إن الكونت بذهابه إلى الحدود لاستقبال « دي سوفران » كان أكثر لياقة منا ، وإنه يسبق الجميع إلى تكريمه .
- ولكنك يا شقيقتي العزيزة تستهينين بدبلوماسيتنا . فشقيقنا الكونت مضى ينتظره في « فونتينبلو » ، بينما أرسلنا نحن من ينتظره في محطة « فيلجويف » التي هي أبعد من « فونتينبلو » .
- أحقاً ما تقول ؟
- وهكذا سيظل الكونت ينتظره على الحدود ، وحيداً مخجولاً من نفسه ، فيما يستقبل رسول الملك السيد دي سوفران ثم يرافقه مباشرة إلى فرساي .

- إنها خطة رائعة !

- خطة لا بأس بها ، وإني مسرور في نفسي . هيا ابدئي لعبك يا سيدتي .

كان يجتمع في هذه اللحظة ، في قاعة اللعب، ما لا يقل عن مائة شخص من الأشراف ومن بينهم « دي كونديه » « دي بانتيافر » و « دي لاتريمويل » وغيرهم من الأمراء والأميرات . وقد لاحظ الملك وحده أن الكونت دارتوا كان يُضحك الملكة ، فأراد أن يُظهر لهما أنه ليس غريباً عما يحوكانه فأرسل إليهما نظرة عميقة المعنى .

ولقد ذكرنا آنفاً أن نبأ وصول القائد « دي سوفران » ظلّ مكتوماً ، ولكن أمراً مفاجئاً كان يعتلج في نفوس الجميع الذين كانوا يحسّون بأن سراً خفيّاً سيُكشف عنه ، وأن شيئاً جديداً سيُعلن جهارا . إن فضولاً مجهولاً كان يخالج أفكار أولئك القوم الذين من عادتهم الاهتمام بأتفه الأحداث التي تستشفّها مخيلتهم كلما نظروا إلى الملك فرأوه يقطّب ما بين حاجبيه ، أو رأوه يزمّ فمه ليبتسم .

وكان من عادة الملك ، عند ممارسته لعب القمار ، أن يجازف بقطع نقدية صغيرة لكي يضرب المثل لأمراء وأسياد القصر فيضطرون إلى الاعتدال في الإسراف ، ولكنه في ذلك المساء لم ينتبه الى أنه بسط أمامه على الطاولة كل ما تحتويه

جيوبه من دنانير ذهبية . أما الملكة فقد استطاعت أن تلعب دورها على أكمله فوضعت كل حماستها في اللعب لكي تضلل اهتمام الحفل المزدحم حولها . وكان فيليب دي تافرني في جملة اللاعبين ، وقد جلس على طاولة القمار وجهاً لوجه أمام شقيقته . إن هذا الإكرام الذي لقيه كان يستولي على حواسّه ويذكي في عروقه ناراً متأججة . بيد أن كلمات والده كانت تعود إلى ذهنه فتجعله يتساءل عن صدقها وصوابها ، لا سيما وأن ذلك الشيخ قد رافق عهود ثلاث أو أربع ملكات ووعى بذلك تاريخ الأزمنة والأخلاق .

تُرى ألم تكن براءته الناجمة عن العبادة الدينية هي شيء مضحك جلبه معه من تلك البلاد البعيدة ، أي من أميركا التي كان مسافراً إليها ؟ والملكة ، الملكة الخيالية الرائعة الحسن ، أليست غير امرأة مدلوعة مخيفة تريد أن تضيف إلى ذكرياتها السالفة هوىً جديداً ، تماماً كما يفعل عالم الطبيعيات إذ يضع تحت عدسته حشرة أو فراشة ويغرز في قلبهما دبّوساً مميتاً دون أن يحفل بالألم الذي يكتوي به هذان الكائنان البريئان ؟ ثم ليست الملكة امرأة عادية مبتذلة ، فإن نظرةً منها إنما تعني دائماً شيئاً ما ، لا سيما وأنها لا تُرسل نظراتها جزافاً بل تتحكم بها كما تشاء . هنا أخذ فيليب يردّد أسماء عشاق الملكة التي ذكرها له والده ، قائلاً في نفسه :

– « كونيي » و « فودرويل » أحبا الملكة ، وأحبتهما هي أيضاً ... يا الله ! لماذا يبدو هذا النمّ هكذا قاتماً ؟ وما الذي يمنع في أن يتسرّب شعاع الحب المنير إلى اللجة العميقة التي يسمّونها قلب المرأة ، والتي هي أعمق أيضاً عندما يكون هذا القلب قلب ملكة ؟

وعندما همس فيليب في ذهنه هذين الاسمين التفت إلى صاحبيهما اللذين جمعهما القدر العابث جنباً إلى جنب على طاولة واحدة ، وقد جلسا لامبالين ، لكي لا نقول متناسيين، وأبصارهما متجهةً إلى مكان آخر غير الذي تجلس فيه الملكة . أما هو ، فلو أحبته الملكة ، لكان أسعد الناس جميعاً ! وهب أنها تناسته بعد حب ، لكان انتحر من يأسه المرير !

ثم حوّل فيليب بسرعة نظره عن السيدين « كونيي » و« فودرويل » وانتقل به إلى ماري أنطوانيت ، ومكث طويلاً يستوضح عن السرّ الكامن وراء هذا الجبين النقي والفم المهيب والنظر المشوب بالجلال والعظمة . ولكنه سرعان ما هتف في داخله قائلاً :

– أوه ! كلا ! كلا ! إن جميع هذه الإشاعات هي مجرد دسّ ونميمة بدأت تلوكهما ألسن الشعب بعد أن فجرّتهما أحقاد من في البلاط ومطامعهم ودسائسهم .

وكان فيليب غارقاً في أفكاره هذه عندما دقّت الساعة الثامنة إلا ربعاً في قاعة الحَرَس، وعندما سُمع في هذه اللحظة ضجيج مرتفع، إذ تجاوب في القاعة المذكورة وقع أقدامٍ مسرعة مندفعة، واصطكّت أعقاب البنادق على الرخام، وعلا صراخ دخل من الباب المشقوق فنبّه الملك الذي أصغى قليلاً ثمّ وجّه للملكة إشارة ذات مغزى، ففهمت الملكة مقصده ورفعت في الحال جلسة اللعب. عندئذ جمع كل لاعب دراهمه، وأخذ يترقب أن تُفصح الملكة عن قصدها. أما الملكة فقد انتقلت في الحال إلى قاعة الاستقبال التي كان الملك قد سبقها إليها. وهناك في القاعة اقترب مساعد وزير البحرية السد «دي كاستري» من الملك وهمس في أذنه بعض كلمات أجاب الملك عليها قائلاً:

- حسناً، امضِ. ثم التفت إلى الملكة وقال:

- كل شيء على ما يرام.

فأثارت هذه الكلمات المبهمة فضول الجميع فراح كلٌّ يوجه إلى جاره نظرات التساؤل والاستفهام. ولم ينقضِ وقت طويل حتى دخل الماريشال «دي كاستري»، وزير البحر، وصاح بصوت مرتفع انبعثت أصداؤه الظافرة في أرجاء القاعة الواسعة:

– هل يريد جلالة مولاي أن يستقبل القائد « دي سوفران » العائد من طولون ؟

وما كادت هذه الكلمات تتساقط في أسماع الحاضرين حتى استثارت فيهم ضجّة عارمة . أما الملك فقد أجاب قائلاً :

– نعم يا حضرة الوزير ، نريد استقباله بكل سرور .

فخرج « دي كاستري » من القاعة ، وقد شخصت إلى الباب الذي خرج منه الأبصار مشدوهة مترقبة .

ولكن ، تُرى ، ما الذي يجعل فرنسا بأسرها تقيم للسيد « دي سوفران » هذا الاحتفال المهيب ؟ وما الذي يثير اهتمام الملك والملكة وأمراء العائلة المالكة ويدفعهم إلى التمتع بمشاهدته قبل أي شخص آخر ؟ الجواب مختصر وبسيط : إن اسم « دي سوفران » هو اسم فرنسي أصيل ، إنه شبيه بأسماء القادة المشهورين في تاريخ فرنسا أمثال « تورين » و « كاتينا » و« جان بار » . ذلك أن القائد « دي سوفران » ، في الحرب مع انكلترا ، وخلال المعارك التي تقدّمت معاهدة السلام ، قد خاض ظافراً سبع معارك بحرية ، فاستولى على مرفأي « ترنكمال » و « غوندلور » ، ووطّد الممتلكات الفرنسية فيهما ، ونظف البحر من الأعداء ، وأفهم الأمير حيدر علي أن فرنسا هي صاحبة السيادة الأولى في أوروبا . كما أنه استخدم

في ممارسة حرفته كبحّار حنكة المفاوض الذكي الشريف، وخطط الجندي الباسل، ومهارة الحاكم الحصيف في رأيه.

وعندما كان الأمر يتعلق بكرامة عَلَم بلاده كنت تراه مقداماً جلوداً إلى حدّ الأنفة والكبرياء، حتى أنه أرهق خصومه الانكليز في البرّ والبحر فما جرؤوا مرّة، وهم الذين ادّعوا سيادة البحار، على فتح معركة معه لأنه كان ينقضّ عليهم انقضاض الأسد الكاشح عن أنيابه. أمّا بعد المعركة التي كان يجازف فيها بحياته كآخر بحّار من بحّارته، فقد كنتَ تراه إنساناً شهماً كريماً رفيقاً بالآخرين. وكانت صفاته هذه تجعله مثال البحّار الحق الذي لم تشاهد مثله فرنسا منذ «جان بار» وغيره من الأبطال. لذلك لا يمكننا أن نصوّر الحماسة الهائلة التي بعثها قدومه إلى فرساي في نفوس أولئك النبلاء الذين كانوا مجتمعين في القصر.

وكان «دي سوفران»، وقد ناهز الخامسة والستين من عمره، ممتلئ الجسم، قصير القامة، عينه تقدح شرراً، وحركاته طائعة على مرونة ونبل. يعتمر قبعته باعتزاز، وكأنها عُفرة الأسد على جبينه، ويرتدي سروالاً أزرق مطرزاً بخيوط مقصّبة وسترة حمراء ترك فوقها ياقته العسكرية التي طوقت عنقه وقد ارتفع منها رأسه الضخم. وعندما دخل «دي

سوفران » إلى قاعة الحرس ، اقترب رجل وقال كلمة للوزير « دي كاستري » الذي كان يتمشى في عرض القاعة وطولها بفارغ صبر ، فصرخ هذا قائلاً :

– السيد « دي سوفران » ، أيها السادة !

عندئذ وثب رجال الحرس على بنادقهم ، واصطفّوا من أنفسهم وكأنهم يحيّون ملك فرنسا . وعندما مرّ « دي سوفران » أمامهم اصطفّوا وساروا خلفه أربعةً أربعة في موكب منتظم . وقد صافح « دي سوفران » السيد دي كاستري ، وهمّ أن يعانقه ، ولكن وزير البحرية أوقفه بلطف قائلاً :

– لا ، لا يا سيدي ! لا أريد أن أحرم من هذه اللذة من هو أحقّ بتقبيلك أولاً .

ثم دخل به على لويس السادس عشر وحاشيته . وعندما لمحه الملك هتف له متهللاً :

– أهلاً بك أيها القائد في فرساي ، فإنك تحمل إليها غار المجد وكلّ ما يحمله الأبطال إلى معاصريهم على الأرض . إني لا أحدثك عن المستقبل لأنه ملك يديك ، فهيا عانقني أيها القائد الباسل .

وكان « دي سوفران » قد حنى ركبته أمام الملك ، ولكن هذا رفعه وعانقه عناقاً حاراً حتى هزّت الحاضرين نشوة الفرح

والانتصار، ولولا احترامهم للملك لكان هتافهم ملأ المكان.

وعندما انتهى الملك من معانقته، التفت إلى الملكة وقال:

– ها هوذا السيد «دي سوفران» أيتها الملكة، القائد الظافر في معاركنا الشهيرة، الذي بعث الرعب في قلوب جيراننا الانكليز؛ إنه عندي بمثابة «جان بار».

فقالت الملكة: لا أستطيع إطراءك أيها السيد، يكفيني أن تعلم بأنك ما أطلقت طلقة مدفع واحدة في سبيل مجد فرنسا إلا وقد خفق قلبي إعجاباً بك!

ولم تكد الملكة تنتهي من كلمتها حتى اقترب الكونت دارتوا مع نجله الدوق «أنغوليم»، الذي خاطبه قائلاً:

– هذا بطل يا بني، أنظر إليه مليًا لأن فرصة اللقاء بالأبطال نادرة.

فأجاب الأمير الصغير أباه قائلاً:

– منذ لحظات كنت أقرأ يا سيدي سيرة العظماء الذين يتحدّث عنهم بلوتارك، ولكنني لم أرهم بأمّ عيني، فشكراً لك لأنك جعلتني أشاهد السيد دي سوفران.

فأثارت كلمات الصبي همهمة من الإعجاب جعلته يدرك أنه تفوّه بما له قيمته.

وعندئذ تأبط الملك ذراع «دي سوفران» وأراد أن يصطحبه أولاً إلى مكتبه لكي يتبادل وإياه الأحاديث الجغرافية

المتعلقة بأسفاره وحملته . ولكن « دي سوفران » تمنّع باحترام وقال : عفواً مولاي، إني أسألكم شيئاً واحداً .

– لك ما تشاء أيها السيد .

– إن أحد ضبّاطي يا مولاي اقترف ذنباً ضد الطاعة والنظام ، وقد فكّرت أن أحتكم الى جلالتكم في أمره .

– أوه يا سيد دي سوفران ! كنت أتمنى أن يكون مطلبك الثواب لا العقاب .

– لي الشرف يا مولاي أن احتكم الى جلالتكم فيما يجب اتخاذه من تدابير .

– تكلم ، فأنا مصغٍ اليك .

– إن الضابط الذيِ أكلمك عليه يا مولاي ، كان في المعركة الأخيرة يقوم بحراسة « السافار » .

فقطّب الملك ما بين حاجبيه وقال : أوه ! إنها تلك السفينة التي استسلمت للعدو .

فانحنى سوفران أمام الملك وأجاب :

– في الواقع يا مولاي ، أن قائد السافار قد استسلم ، وأن الأميرال الانكليزي ، السير هيجز ، قد أرسل زورقاً محملاً بالجنود للاستيلاء على السفينة ، لكن الملازم الذي كان يشرف على بطاريات المدفعية فيها ، ما أن توقف إطلاق النار وتلقّى أمراً بإسكات المدفعية ، ورأى السفينة وقائدها يستعدان

للاستسلام، حتى ثارت ثائرته وغلا في جسده الدم الفرنسي، فاستلم هو قيادة السفينة وأمر باستئناف إطلاق النار وركّز الراية الفرنسية على مقدمتها تحت وابل من النار الجهنمية. وبهذا العمل يا مولاي، أُنقذت السافار وبقيت ملكاً لجلالتكم.

فهتف الملك: يا للعمل العظيم!

وصاحت الملكة: يا لها من بطولة!

أما القائد سوفران، فقد استأنف يقول:

– نعم يا صاحبي الجلالة، إنه لعمل بطولي، ولكنه تمرد وعصيان على الأوامر وعدم انضباط فظيع. فالأمر قد أُعطي بواسطة قائد السفينة، وكان على الملازم أن يطيع. لذا، فأنا أطلب المغفرة لهذا الضابط يا مولاي، وإني أطلبها بكثير من اللجاجة، لأن هذا الضابط هو ابن شقيقتي.

فصاح الملك: ابن شقيقتك ولم تكلمني عليه!

– لا يا مولاي، ولكني قدمت تقريراً عن الحادث الى وزير البحرية، ورجوته ألّا يطلع جلالتك عليه قبل أن ألتمس منها العفو عن المذنب.

فقال الملك: إني أمنحك هذا العفو أيها القائد. ومقدماً، أعد بحماية كل متمرد على الأوامر، إذا ما انتقم هكذا

بتمرده ، لشرف ملك فرنسا وعلمها . وإني اطلب اليك أن تقدم إليّ هذا الضابط الشهم .

فأجاب السيد سوفران : طالما أنك سامحته ... فهو هنا يا مولاي !

ثم استدار وقال : تقدم أيها السيد شارني .

فارتعشت الملكة عند سماعها هذا الاسم الذي لم يَّمحِ من ذاكرتها بعد ...

وعندئذ ، انفصل ضابط شاب عن زملائه وتقدم شامخ الرأس . فبدرت من الملكة حركة دلّت على استعدادها للتقدم من ذلك الشاب فخورة بعمله المجيد . ولكن ما أن طرق أذنيها اسم ذلك البحار الذي قدَّمه السيد سوفران الى الملك ، حتى توقفت واصفرّ لونها وأطلقت همهمة خافتة ... كذلك فعلت الآنسة تافرني ، إذ اصفرت هي الأخرى بدورها وأخذت تنظر الى الملكة بقلق واضطراب !

أما الضابط شارني ، فلم يتطلع يمنة ولا يسرة ولا انفعل أو تبدلت تعابير وجهه إطلاقاً. بل انحنى باحترام أمام الملك الذي قدَّم إليه يده فقبّلها ، ثم عاد الى حلقة الضباط الذين أخذوا يهنئونه بحرارة ويربتون على كتفه تيهاً وإعجاباً وقد ظهر التأثر على الجميع .

ثم ساد الصمت برهة ، بدا معها وجه الملك مشرقاً مشعاً ، بينما كانت الملكة تبتسم بحيرة وارتباك . أما شارني وفيليب دي تافرني ، فقد خفض الاول عينيه ، وساور القلق الثاني وارتسمت على وجهه اكثر من علامة استفهام ، لأنه لم يخف عليه ارتباك الملكة ...

وأخيراً تكلم الملك فقال :

– هيّا وتقدم يا سيد سوفران ، تقدم كي نتطارح الكلام ، فقد كنت أنتظرك بشوق لاهب لأثبت لك كم كنت أفكر فيك .

فصاح سوفران :

– يا لطيبتك ودعتك يا مولاي !

فقال الملك :

– أوه ! يا لك من قاضٍ يقرأ أفكاري ويعرف مقدماً كل خطوة سوف أقدم عليها. تعال ، تعال !

وبعد أن سار الملك عدة خطوات وهو ممسك بيد القائد سوفران ، التفت الى الملكة وقال لها :

بالمناسبة يا سيدتي ، سوف أُنشئ كما تعلمين بارجة مجهزة بمئة مدفع ، ولقد غيَّرت رأيي فيما يتعلق بالاسم الذي كنت سأطلقه عليها ، فعوضاً عن أن تحمل الاسم الذي كنَّا اتفقنا عليه ، أليس كذلك يا سيدتي ...

فانتبهت ماري انطوانيت الى نفسها، وعرفت لتوها ما يقصده الملك، فقالت :

– نعم، نعم، سوف نسميها سوفران، وسوف أكون عرابتها الى جانب حضرة القاضي.

فتعالت الهتافات مدوية : عاش الملك! عاشت الملكة!

وعندئذ زاد الملك بأن صاح : «وعاش سوفران! لأنه ليس باستطاعة أحد أن يهتف بحضور الملك : عاش السيد سوفران، بينما أشدّ المحافظين على التقاليد باستطاعتهم أن يهتفوا : عاشت بارجة جلالته!»

فردّد مجلس البلاط بأجمعه : عاش سوفران!

فشكر الملك بإشارة من يده أولئك الذين فهموا جيداً، واقتاد «القاضي» الى جناحه الخاص.

الضابط دي شارني

★

ما أن توارى الملك عن الأنظار حتى أقبل على الملكة كل من كان في القاعة من أمراء وأميرات. وكان القائد سوفران قد أشار الى ابن شقيقته كي ينتظره، فبقي الملازم شارني بين الجمع حسب أوامر خاله.

أما الملكة التي تبادلت النظرات ذات المعاني مع وصيفتها أندريه، فبقيت في الوقت نفسه تلاحق بنظراتها الشاب الوسيم وتقول في نفسها كلما ألقت ببصرها عليه:

«مما لا شك فيه، أنه هو بعينه.»

وكانت الآنسة تافرني تردّ على تساؤلات الملكة بقولها الجازم لها: «يا إلهي! نعم مولاتي، إنه هو بذاته!»

وانشغال الملكة بالضابط الشاب، لفت انتباه شقيق وصيفتها فيليب، فلعب الفأر بعبه وقال يخاطب نفسه: «حقاً إن الذي يحب، لا يستطيع أن يخفي مشاعره عن حبيبه.»

إذن لقد حزر بأن الملكة تعرضت لحادث فريد وغامض ومجهول من كل الناس، باستثناء الملكة نفسها وأندريه.

وبالواقع، لقد فقدت الملكة السيطرة على نفسها، وحاولت ستر اضطرابها بمروحتها، هي التي اعتادت أن تجعل الكل يخفضون أبصارهم أمامها.

وبينما كان الضابط الشاب يتساءل إلى أين انشغال بال الملكة سيوصلها، ويحاول سبر غور السيدين دي كوانيي ودي فودريل، الى أن تأكد له أن سرّ الملكة لا يعنيهما وأنهما منهمكان بالكونت دي هاغا الذي جاء الى فرساي متملقاً، بينما كان يفعل ذلك، دخل الى القاعة رجل مهيب يرتدي ثوب كردينال ومتبوعاً بعدد من الضباط ولفيف من الأحبار.

فعرفت الملكة في الداخل لويس دي روهان ، فألقت عليه نظرة من طرف القاعة وهزّت برأسها دون أن تكلف نفسها حتى إخفاء تقطيب حاجبيها .

فاجتاز الحبر الحضور بأجمعهم دون أن يلقي التحية على أحد ، واتّجه رأساً الى الملكة فانحنى أمامها كرجل دنيا يحيي امرأة ، أكثر منه كتابع يحيي ملكته ...

ثم وجّه الى الملكة كلمات المجاملة وفيها الكثير من الشهامة وسموّ الأخلاق ، مما حمل الملكة بصعوبة على هزّ رأسها والرد عليه بكلمتين أو ثلاث كلمات بروتوكولية باردة . وبعدها استأنفت حديثها مع السيدتين دي لامبال ودي بولينياك[١] .

فتحاشى لويس دي روهان أن يظهر عليه تأثير استقبال الملكة السيء له ، واستدار بتؤدة وبكل عظمة رجل البلاط نحو عمات الملك ، فاستقبلنه بأفضل مما استقبلته به الملكة نظراً لما كان يمثل من فضيلة وحنكة في البلاط . فقد كان الكردينال لويس دي روهان وقور الجانب عليه خمائل الذكاء والطيبة ، وكل ما فيه يدل على أنه واحد من اثنين : إما رجل

---

١ - الدوقة دي بولينياك كانت صديقة حميمة لماري انطوانيت وذات نفوذ قويّ عليها.

شهوات وإما رجل علم. والواقع ان الأمير دي روهان كان يجمع الصفتين معاً، إذ كان رجلاً تستلطفه النساء اللواتي يعشقن الأناقة وتهويهنّ المغازلة الهادئة والبعيدة عن التملق. وكن يشهدن له بكرمه الفائق، مع ذلك استطاع أن يظهر نفسه بمظهر الرجل الفقير رغم ايراداته التي كانت تبلغ المليون والستماية الف ليرة.

وكان الملك يحبه كرجل علم ومعارف. أما الملكة، فقد كانت عكس الملك، تكرهه وتمقته.

وأسباب كره الملكة له بقيت سراً من الأسرار. ولكن باستطاعتنا أن نحدد لها تفسيرين إثنين:

أولهما، كون الأمير لويس دي روهان، كتب عندما كان سفيراً لبلاده في غينيا، كتب الى الملك لويس الخامس عشر رسائل عن والدتها ماري تيريز، مشحونة بالهزء والتهكم اللذين لم تستطع ماري انطوانيت أن تغتفرهما لهذا الدبلوماسي.

وبالإضافة الى ذلك، وهذا افتراض أقرب الى الحقيقة، هو أن هذا السفير، أخذ بمناسبة زواج ماري تيريز بأمبراطور النمسا فرنسوا الثالث، يبعث بالرسائل الى الملك فرنسوا الخامس عشر، الذي كان هذا يقرأها بصوت عالٍ أمام

عشيقته الكونتس دي باري أثناء تناوله العشاء عندها ، أخذ يبعث بالرسائل التي تتحدث بعداء عن خصوصيات وأنانيات تلك المرأة الشابة ، رغم أنها في ذلك الوقت كانت جدَّ نحيلة وهزيلة .

هذه التهجمات قد جرحت ماري انطوانيت في الصميم ولم تستطع ان تصفح عن جريمة مروجها ، لكنها صممت على الانتقام منه إن عاجلاً أم آجلاً .

وهناك بالطبع دسائس دبلوماسية أخرى ، منها أن السيد بروتيل قد استبعد من سفارة النمسا لمصلحة الأمير روهان . ولما كان السيد بروتيل أضعف من أن يجابه الأمير المذكور ، فقد استعمل بما يسمى بلغة الدبلوماسيين « االشطارة » ، إذ تمكن من الحصول على نسخ من رسائل ذلك الأمير ، وحتى على بعض رسائله الأصلية عندما كان سفيراً ، وأخذ يقارن بين ما أدَّاه هو من خدمات حقيقية أثناء قيامه بمهمته الدبلوماسية ، وبين العداء السافر والحقير الذي كان يكنّه الأمير روهان للعائلة المالكة النمساوية ، فلقي عمله هذا أصداء طيبة لدى أمبراطورة النمسا ، كما لقي في هذه الامبراطورة مساعداً صمَّم على الانتقام من الأمير روهان في يوم من الأيام .

وكان لهذا الكره اصداؤه البعيدة في البلاط، مما جعل وضع الكردينال روهان صعباً ومقلقلاً.

ومن هنا كان هذا الاستقبال الغاضب الذي استقبلته به الملكة، والذي كانت تستقبله بمثله في كل مرة تلتقيه.

لكن الكردينال المذكور، كان أقوى من كل ما اعترض سبيله. فهو لم تفته الوسيلة للتودد الى الملكة والتقرب منها. فالأمير لويس دي روهان كان مرشد البلاط الأكبر.

وهو لم يتشكَّ مرة ولا سعى وراء التوسط. فاثناء حلقة من الاصدقاء كان بينهم البارون بلانتا، وهو ضابط الماني كان روهان يأتمنه على أسراره نظراً للصداقة الحميمة التي تشدهما، حاول هذا الضابط إصلاح ذات البين بين صديقه الكردينال وسيدات البلاط اللواتي اقتدين بالملكة في سوء استقباله، فلم يفلح. ومع ذلك، مرّ الكردينال كالشبح المرعب على اللوحة الضاحكة التي كانت تتراءى للملكة. وما أن توارى عنها، حتى عادت بشاشتها اليها وسألت الأميرة دي لامبال:

« هل تعلمين أن ما قام به الضابط الشاب، ابن شقيقة دي سوفران، سيبقى أعظم عمل في هذه الحرب؟ وبالمناسبة، ما اسم هذا الضابط؟ »

فأجابت الاميرة: أعتقد أنه يدعى السيد دي شارني.

ثم استدارت نحو الوصيفة أندريه وسألتها: أليس كذلك أيتها الآنسة دي تافرني؟

فأجابت أندريه. نعم يا صاحبة السموّ، إنه يدعى دي شارني.

فأكملت الملكة قائلة:

– من المستحسن أن يقصّ علينا السيد دي شارني بذاته، وبالتفاصيل، ما قام به من بطولة. فليأتوا به، ألا يزال هنا؟

فانفصل ضابط عن سربه وأسرع ينفّذ رغبة الملكة.

وفي ذات اللحظة، وبينما كانت الملكة تنظر الى ما حولها، وقعت عيناها على فيليب دي تافرني، فصاحت بدهشة كما اعتادت دائماً:

– السيد دي تافرني، إنك هنا إذن!

فاحمرّ فيليب حتى أذنيه، واعتقد أن عليه القيام بعمل يفرح قلب الملكة، فأسرع بدوره يفتش عن الضابط السعيد الذي لم تفارقه نظراته منذ أن دخل المكان.

وكان البحث عن الضابط المنشود سهلاً، فما هي لحظات، حتى دخل على الملكة السيد دي شارني ودخل وراءه رسولاها.

فاتسعت بعد دخوله الحلقة أمامه، مما أتاح للملكة أن تتفحّصه بانتباه لم يتوفر لها في العشية. فبدا لها شاباً بهيّ

الطلعة في السابعة أو الثامنة والعشرين من عمره، ذا قامة مستقيمة ممشوقة، وكتفين عريضتين، وعينين زرقاوين واسعتين وعميقتي النظرات لم ترَ الملكة مثيلاً لهما.

والغريب في الأمر، أن هذا الضابط العائد من حرب الهند، احتفظ ببشرته بيضاء عكس فيليب الذي كان اسمر اللون. وكان عصبي العنق تتدلى من خلال خطوطه الرائعة المدهشة ربطة عنق بياضها أقل نصاعاً من بياض بشرته.

ولما اقترب من اللفيف الذي يحيق بالملكة، أحاط به الضباط وأخذوا يطرحون عليه الأسئلة وهو يجاوب عليها بأدب جمّ، وقد تناسى أن الملك قد استدعاه وأن الملكة تنظر اليه، حتى أنه لم يظهر عليه شيء يستدل منه أنه سبق له أن عرف الآنسة تافرني أو الملكة!

هذا الأدب، وهذا التحفظ، كان من شأنهما أن حملا الملكة على الإمعان في تأمل دي شارني، وقد زادها تأثراً الأسلوب الذي اتّبعه في إظهار تأدبه وتحفظه. إذ إنه لم يخفِ على الآخرين معرفته بالملكة ووصيفتها فقط، بلى أخفى أيضاً معرفته بالملكة حتى عليها نفسها.

فنظرات دي شارني بقيت طبيعية، وقد غالى في الحياء ورهافة الذوق، حتى أنه لم يرفع عينيه إلا بعد أن وجهت اليه الملكة قولها هذا:

- إن هؤلاء السيدات ايها السيد دي شارني ، يشعرن بالشوق ، وبالشوق الطبيعي الذي أشعر به أنا نفسي ، للوقوف على تفاصيل العمل البطولي الذي قمت به على ظهر السفينة سافار ، فأرجوك أن تقصّ علينا ما حدث بالضبط .

فأجاب البحار الشاب بعد ان خيَّم الصمت على الجميع :

- إني أتوسل صاحبة الجلالة مولاتي ، بدافع الانسانية لا بدافع التواضع ، ان تعفيني من هذه الرواية . فالذي قمت به كملازم في السافار ، قد فكّر بالقيام به في ذات الوقت عشرة من رفاقي الضباط ، ولكني كنت أنا السبَّاق ، وهذا هو فضلي الوحيد في العملية . أما الحديث الذي نقل الى صاحب الجلالة ، فأرجو مولاتي أن لا تعيره ذلك الاهتمام ، كما أرجو أن يستوعب قلب جلالتها الكبير ، الحقيقة ويتفهمها . فقائد السافار السابق ، كان ضابطاً بطلاً بكل معنى الكلمة ، ولكنه فقد صوابه في ذلك اليوم ، وإنه لشيء طبيعي يا مولاتي أن لا يكون الشجعان شجعاناً كل الأيام . فهو قد استعاد رشده بعد عشر دقائق ، ولكن كنا في خلال هذه الدقائق العشر قد عملنا ما يتوجب علينا لإنقاذ السافار . ومنذ ذلك الحادث ، أظهر من البطولة ما لم يظهره أحد منّا . من أجل ذلك ، أتوسل الى جلالتك أن لا تطنب عملي اكثر مما يستحق . فقد حصل اتفاقاً أن فقد ذلك البطل سمعته ، وهو الآن يبكي

بصورة متواصلة الفرصة التي فاتته في غفلة من غفلات الدهر.

فقالت الملكة مبتسمة ومتأثرة بهذه الشهامة النادرة التي تجلت في كلام ذلك الضابط الشاب:

– حسناً، حسناً أيها السيد دي شارني، إنك رجل نبيل شهم. ولا غرو ولا عجب، فهذا ما كنت أعرفه عنك!..

عند هذا الكلام، رفع الضابط رأسه واحمرّ حتى أذنيه... وأخذت عيناه تتنقلان بين الملكة وأندريه مع شيء من الرهبة، إذ ساورته الشكوك في حقيقة ما أظهرته الملكة من إطراء وتبجيل له.

واسترسلت الملكة في حديثها متوجهة بكلامها الى سيدات البلاط:

– في الواقع، إن السيد دي شارني لم يكن غريباً عنا. فهذا الضابط الشاب، هذا البحار الذي كان حتى الأمس القريب مجهولاً من الغير، كنا نحن على معرفة تامة به قبل أن يمثل أمامنا هذا المساء، وهو يستحق أن يُعرف من نساء البلاط كافة، وأن يصفقن له إعجاباً.

فظنت النسوة أن الملكة ستحدثهن عن حادث غريب وقع لها، أو أنها ستكشف لهن سراً غامضاً، لذا تحلقن حولها وأمسكن أنفاسهن مصغيات، وأكملت الملكة تقول:

– تصورن أيتها السيدات ، أن السيد دي شارني بقدر ما كان غير شفوق مع الانكليز ، كان شفوقاً وحليماً مع النساء . فقد رووا لي قصة عنه ، سأرويها أنا لكم بدوري ، جعلتني أنظر اليه على أنه أشرف الشرفاء!

فقال الضابط الشاب متلجلجاً : أرجوك مولاتي !..

وسرت همهمة بين الحضور جميعاً ، جعلت جبين دي شارني يتفصّد عرقاً ويتمنى لو بقي سنة أخرى في الهند .

أما الملكة فقد تابعت تقول :

– اليكم ما حدث : هناك سيدتان أعرفهما جيداً ، تأخرتا عن الأوبة الى منزليهما ، ووجدتا نفسيهما أمام حشد يشكل بالنسبة اليهما خطراً عظيماً . واتفق أن مرّ السيد دي شارني في لحظة الخطر الداهم ، فأبعد الحشد المحدق بهما دون أن يتعرف اليهما ، وكان من الصعب أن يعرف مكانتهما . وبسط حمايته على السيدتين ورافقهما ، درءاً للخطر ، الى مسافة بعيدة جداً... مسافة تبعد عشرة فراسخ عن باريس كما أعتقد .

وهنا قال شارني ضاحكاً وقد شجّعه الجو على الكلام : أوه ، إن مولاتي تفرط في التقدير!

فتدخل الكونت دارتوا في الموضوع وقال : لنحسم الخلاف ونقدر المسافة بخمسة فراسخ .

فاستأنفت الملكة تقول :

– لتكن مشيئتك يا أخي . لكن الأغرب من هذا كله ، هو أن السيد دي شارني لم يحاول أن يعرف اسمي السيدتين اللتين أنقذهما . فهو ما أن أوصلهما الى المكان الذي عينتاه له ، حتى ابتعد عنهما ولم يلتفت الى ورائه ، بشكل جعلهما تتفلتان من قبضتيه المنقذتين دون أن ينتابهما القلق لحظة واحدة .

فهتفت النسوة إعجاباً وأقبلت أكثر من عشرين امرأة يهنئنه ويمتدحنه دفعة واحدة ، وتابعت الملكة تقول :

– إنه لعمل جميل ، أليس كذلك؟ ففرسان الطاولة المستديرة ،[1] لم يقم أحد منهم بمثل هذا العمل المجيد .

فصاحت النسوة بصوت واحد : إنه لعمل عظيم !

وهنا توجهت الملكة بكلامها الى السيد دي شارني ، فقالت :

– لا شك أن الملك أيها السيد دي شارني ، لم يسمح له الوقت كي يكافئ خالك السيد دي سوفران . أما من جهتي

---

١ – إن «فرسان الطاولة المستديرة» هي من اشهر روايات الفروسية والحب التي ألّفها الكسندر دوماس الكبير.

أنا ، فإني أريد عمل شيء بالنسبة الى ابن شقيقة هذا الرجل العظيم .

ثم مدّت له يدها ، فطبع عليها دي شارني شفتيه ، وقد اصفرّ لونه من فرط سروره ... بينما اصفرّ فيليب دي تافرني من فرط غيظه وألمه وتوارى وراء ستائر القاعة الفضفاضة .

وأندريه أيضاً اصفرت بدورها ، لأن ما يؤلم أخاها يؤلمها هي الأخرى في آن واحد .

فقطع صوت الكونت دارتوا هذا المشهد الذي كان غريباً بالنسبة للمراقب ، بقوله :

– آه ، أهذا أنت يا أخي دي بروفانس ، لقد وصلت إذن ، ولكن فاتك مشهد جميل ، مشهد استقبال السيد دي سوفران . لقد كانت فعلاً برهة لن تنساها قلوب الفرنسيين إطلاقاً ! فكيف بربك تخلفت عن هذا الاستقبال يا أخي ، وأنت المشهور بالدقة في كل تصرفاتك ؟

فأجاب دي بروفانس جواباً مبتذلاً بعد أن زمّ شفتيه وحيّا الملكة وهو ذاهل ساهٍ ، ثم انحنى بكليته على رئيس حرسه الكابتن دي فافراس وسأله :

– متى حدث أن جاء الى فرساي ؟

فأجابه الكابتن دي فافراس :

– آهٍ يا مولاي ، إنني أتساءل عن ذلك منذ ساعة ، وحتى الآن لم أفهم شيئاً !

ذهبيات الملكة المئة

★

والآن ، وبعد أن استعدنا مع القراء استعراض الشخصيات الرئيسية لهذه الرواية ، ودخلنا معهم الى منزل الكونت دارتوا الصغير ، كذلك الى قصر فرساي ، سنعود بهم الى ذلك المنزل الواقع في شارع سان كلود ، حيث دخلت ملكة فرنسا متنكرة وصعدت مع أندريه دي تافرني الى الطابق الرابع .

ما كادت الملكة تخرج من هذا المنزل وتتوارى عن الأنظار حتى أسرعت الكونتس دي لاموت التي عرفها القراء ، أسرعت تعدّ وتعيد عدّ المئة قطعة ذهبية التي جاءتها كأعجوبة هبطت عليها من السماء .

وبعد أن امتلأ قلبها فرحاً بهذه الذهبيات المئة نادت خادمتها قائلة لها :

- تعالي يا كلوتيلد، تعالي الى هنا وانظري.

فخطت الخادمة العجوز عدة خطوات نحو سيدتها وصاحت مندهشة بعد أن ضمت يديها الاثنتين وتطاول عنقها: آه سيدتي!.. آه سيدتي!

فقالت لها سيدتها:

- هل ما زلت قلقة على مرتباتك؟

- عفوك سيدتي، أنا لم أقل إلا كلمة واحدة في الموضوع. كل ما قلته، هو أني سألت سيدتي الكونتس متى باستطاعتها أن تدفع لي أجرتي، وهو سؤال طبيعي، فأنا منذ ثلاثة أشهر لم أقبض من أجرتي قرشاً واحداً.

- وهل تأكدت الآن بأنه لدي ما يكفي لدفع مرتباتك؟

فحملقت الخادمة بالذهبيات البراقة وأجابت:

- بحق المسيح يا سيدتي، لو كنت أملك ما هو موجود على هذه الطاولة لأصبحت غنية مدى الحياة.

فتطلعت السيدة لاموت باحتقار الى خادمتها، ورفعت كتفيها وقالت:

- إنه لشيء مفرح أن يتذكر بعض الناس الاسم الذي أحمله، بينما اولئك الذين يتوجب عليهم أن يتذكروه قد تناسوه!

فسألتها الخادمة كلوتيلد:

– ماذا ستفعلين بهذه الدراهم يا سيدتي ؟

– سأفعل بها كل شيء .

– قبل كل شيء ، فكري فيّ يا سيدتي ،فالأهم برأيي هو أن أصعد الى المطبخ كي أحضّر لك الغداء ، أليس كذلك بعد أن أصبح المال ملك يديك ؟

فصاحت الكونتس دي لاموت :

– صه ! إنهم يطرقون على الباب .

فأجابتها السيدة العجوز : إنك تتصورين ذلك يا سيدتي ، فأنت دائماً موسوسة .

– إني أقول لك هناك من يقرع الباب .

– ولكني لم أسمع شيئاً يا سيدتي .

– اذهبي وانظري ، إنك دائماً لا تسمعين شيئاً !

فأطاعت السيدة كلوتيلد وذهبت الى الباب ففتحته وقالت للكونتس : إنك على حق يا سيدتي .

فأسرعت السيدة دي لاموت وجمعت بيديها الاثنتين الذهبيات المئة ودستها في أحد الأدراج وهمهمت قائلة بعد أن أغلقت الدرج : أيتها العناية الإلهية ، مئة ذهبية ثانية ...

في خلال هذا الوقت ، فتح باب السطح وسمع في الغرفة الاولى من ذلك الطابق وقع خطوات رجل ، تلاها تبادل

الكلام بين الداخل والسيدة كلوتيلد دون أن تتمكن الكونتس من فهم شيء .

وبعد أن أغلق الباب من جديد وتلاشى وقع الخطوات على الدرج ، عادت العجوز الى سيدتها وهي تحمل رسالة قدمتها اليها قائلة : تفضلي !

فتفحصت الكونتس الرسالة جيداً ، تفحصت الخط والغلاف والخاتم الذي عليها ، ثم رفعت رأسها وسألت السيدة كلوتيلد : هل يلبس لبس الخدم ؟

- نعم سيدتي .
- ثياب خدم أي أسياد ؟
- ليست ثياباً مميزة يا سيدتي .

فألقت السيدة لاموت نظرة جديدة على الخاتم ، ثم قرّبته من المصباح وقالت : إنها ألوان ذات شعب ذهبية تسع ، فمن يحمل هذا الشعار يا ترى ؟

وبعد أن أطلقت العنان لتفكيرها لحظة ، لم تنبئها في خلالها ذاكرتها بشيء ، أكملت تقول : ولكن لنقرأ ما في الرسالة .

ثم فضّتها بعناية كي يبقى خاتمها سليماً ، وقرأت ما يلي :
« سيدتي ، إن الشخص الذي لجأت إليه ملتمسة ،

باستطاعته أن يراك غداً مساءً، إذا كان يسرك أن تفتحي له بابك .»

فعادت إلى ذاكرتها تستشيرها وتقول:

– ولكني كتبت الى عدة أشخاص ... فهل هو رجل أم امرأة صاحب الجواب؟ إن الخط لا ينبئ عن شيء، إنه مبهم !..

ثم عادت تردد : « الشخص الذي لجأت اليه ملتمسة ...» إن في العبارة كثيراً من الاحتقار، فهي لا شك امرأة .

واكملت تقول :

« ... سوف يأتي غداً مساءً إذا كان يسرني أن أفتح له الباب ! »

ثم تابعت القول : إنها امرأة . إذ لو كان رجلا لقال : « انتظريني غداً مساءً .»

وعادت تتأمل الرسالة التي لا تحمل توقيعاً ، والشعار ذا الشعب الذهبية التسع ، ثم صاحت : آه ، هل فقدت صوابي ؟ إنه شعار آل روهان . يا إلهي ! نعم ، لقد كتبت الى السيد دي جامانيه والى السيد دي روهان ، فواحد من الاثنين قد أجابني . ولكن الترس الذي يحمل شعار الشرف ليس مكوناً من أربعة أجزاء ، فالرسالة من الكردينال ... آه ! إن الكردينال

من آل روهان ، إن هذا المعازل الطماع ، يريد رؤية السيدة دي لاموت ، إذا فتحت السيدة دي لاموت له الباب !

وأردفت تقول :

– حسناً ! ليكن مطمئناً ، فالباب سيفتح له . ولكن متى ؟ غداً مساءً ؟

وبعد أن تاهت في مهامه التفكير ، أكملت تقول :

– إن سيدة المحبة التي تهب مئة قطعة ذهبية ، تقبل أن تستقبل في كوخ صغير ، وباستطاعتها ان تتجمد برداً على بلاطي البارد وأن تتحمل عذاب الجلوس على كراسيّ الخشنة القاسية . لكن أميراً من أمراء الكنيسة ، ورجلاً لبقاً وأنيقاً ، وسلطاناً من سلاطين القلوب ، يأبى أن يستقبل إلا بمظاهر الأبهة والغنى .

ثم استدارت نحو خادمتها التي كانت قد انتهت لتوها من ترتيب سريرها ، وقالت لها :

– تصبحين على خير أيتها السيدة كلوتيلد . لا تنسي إيقاظي في ساعة مبكرة .

فتركت الخادمة العجوز سيدتها وحدها بناء لرغبتها ، وذهبت فنبشت الجميرات المغطاة بالرماد ، مما زاد في مظهر المكان بؤساً ، ثم أوصدت الباب ولجأت بدورها الى فراشها .

أما جان دي ڤالوا ، فعوضاً عن أن تغفو ، أخذت تفكر فيما يجب عمله في اليوم التالي . وقد كتبت على نور المصباح الليلي بعض تصاميمها على ورقة ، واسترسلت للرقاد عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وإذا كانت الكونتس قد نامت واستراحت بعض الشيء ، فإن السيدة كلوتيلد لم تعرف طعم الرقاد ، وقد أقبلت تهزّ سيدتها في مطلع النهار عملاً بأوامرها .

وما أن أزفت الساعة الثامنة حتى كانت الكونتس قد أكملت زينتها ولبست أفخر ما عندها من ثياب ، ثم استدعت نقالة[1] فركبتها وطلبت الى سائقها أن يسير بها الى « الساحة الملكية » حيث كانت تباع أفخم الأثاثات العائدة للملكين : هنري الرابع ولويس الثالث عشر .

وما هي إلا عشر دقائق حتى كانت الكونتس جان دي فالوا في الساحة المذكورة التي كان يملكها السيد « فانغرات » . وبعد أن جالت ببصرها على موجودات تلك المحلات الواسعة ، وقع بصرها على مجموعة من المقاعد المكسوة بالحرير الاصفر والمزررة بالأزرار المذهبة ، فراقت لها

---

١ - النقالة في ذلك العصر كانت مجرد كرسي خشبي له دولاب واحد ومقبضان ويجره الانسان جراً.

وصممت على استئجارها ، لأن مثل هذه الاثاثات كانوا في باريس يؤجرونها في تلك الأيام اذا لم يشأ الطالب شراءها ، ولكنها وجدت هذه المجموعة المؤلفة من عشر قطع لا يتسع لها المكان في ردهة منزلها الواقع في الطابق الرابع من شارع سان كلود . فكي تنسقها تنسيقاً جميلاً عليها أن تستأجر الطابق الثالث المؤلف من غرفة للانتظار ، وقاعة طعام ، وردهة للضيوف ، وغرفة نوم .

وبهذه الطريقة تستقبل في الطابق الثالث صدقات الكرادلة ، وفي الطابق الرابع صدقات مكاتب رسل المحبة . أي أنها في الطابق الفخم تستقبل صدقات الناس الذين يمارسون المحبة بالمجاهاة ، وفي الطابق الحقير تستقبل تقدمات الناس الطيبين الذين يهبون العطايا الى مستحقيها دون منّة ولا مباهاة .

على هذا الأساس قرّ قرار الكونتس واستدارت بعينيها نحو الجهة المظلمة من الموجودات ، أي نحو الجهة التي يتمثل فيها الغنى الباهر بالبلور النادر والمرايا النقية والأشياء المطلية بالذهب .

فرأت في هذه الجهة بورجوازياً باريسياً يبتسم ويحمل قبعته بيده ويدير مفتاحاً بين سبّابتي يديه المتلاحمتين .

ولم يكن هذا البورجوازي سوى السيد « فانغرات » الذي أسرع الخدم اليه فأبلغوه عن قدوم سيدة جميلة كانت تركب نقالة . فهبّ السيد فانغرات واقفاً واقبل نحوها واضعاً نفسه تحت تصرفها ، فعرّفته الكونتس عن نفسها بقولها : « الكونتس دي لاموت فالوا » .

فانحنى السيد فانغرات امامها ووضع المفتاح في جيبه وقال لها :

– عفوك سيدتي ، إنه لا يوجد هنا ما يناسبك . فأنا لدي كل جديد وجميل وفاخر ، و « الساحة الملكية » لا بدّ من أن ترضي ذوق سيدتي الكونتس ، فاتركي كل هذه الأشياء وشرّفي الى المخزن الآخر .

فاحمرت جان دي فالوا من هذا التواضع المخجل إذ أنها كانت امام مجموعة من الأشياء المدهشة ... وتملكتها الحيرة امام هذا المأزق الذي جعل منها في نظر السيد « فانغرات » بورجوازية كبيرة مع أنها بالواقع ليست سوى بورجوازية متواضعة الحال . وأخيراً تفتّق ذهنها عن فكرة منقذة ، فقالت لصاحب الساحة الملكية :

– إني لا أرى أشياء جديدة ، لذلك لا أريد شراء شيء .

فقال لها السيد فانغرات :

– لا شك أن سيدتي تريد تأثيث شقق بعض الأصدقاء؟

فأجابته الكونتس :

- لقد نطقت صواباً أيها السيد فانغرات ، فهي شقة صديق ، وانت تعرف ما يلزمها شقة الصديق ...

فردّ عليها السيد فانغرات باسلوب لبق فيه الكثير من إغراءات تجار باريس :

- إنك مدهشة يا سيدتي في ذوقك . فالهوا والشباب لا يليق بهما العتيق ، بل يلزمهما الجديد ، لأن في الجديد تجديداً للحيوية والشباب .

فسألت الكونتس بتكلف :

- ما رأيك بهذه المجموعة ذات الازرار المذهبة ؟

- أوه ! إنها لا تكفي ، فهي مؤلفة من عشر قطع فقط .

- ولكني أريدها لقرنة متوسطة .

- إذن لا بأس ، فهي مفروشات جديدة كما ترى سيدتي .

- جديدة ... أحقاً ما تقول ؟

فأجاب السيد فانغرات ضاحكاً :

- بدون شك . وعلى كل ، سواء كانت جديدة أم لم تكن ، فإنها تساوي ثمنماية ليرة . فأرعش هذا الثمن الكونتس ، إذ كيف يمكنها أن تعترف بأن وريثة آل فالوا

يسعدها الحصول على هذه القطع الأثاثية ولكنها لا تستطيع دفع ثمنماية ليرة. فاحتالت على الموضوع وقالت :

- ولكني لا أريد شراءها، بل استئجارها، فهل من المعقول أن اشتري مثل هذه الأثاثات القديمة؟

وبعد المفاصلة على السعر استأجرت هذه المقاعد مع الستائر التابعة لها لمدة شهر واحد، وأردفت تقول للسيد فانغرات :

- وماذا ستقدم لي من أجل غرفة ثانية؟

- هذه المقاعد الخضراء، وهذه الخزانة المصنوعة من خشب السنديان، وهذه الطاولة ذات الأرجل الملتوية، وهذه الستائر الدمشقية.

- حسناً. ومن أجل غرفة للنوم؟

- سرير عريض جميل، وغطاء له من المخمل المطرز باللونين الوردي والفضي، وستائر زرقاء، وستارة للموقد مطلية بالذهب.

- ومن أجل غرفة الزينة؟

- دانتيلا وخزانة ذات أبراج صنع بلجيكا، وصوفا من السجاد مع كراسٍ شبيهة بها، ومصباح أنيق كانت تستعمله المركيزة دي بومبادور في غرفة نومها.

- وبكم إكراء كل هذه الأشياء لمدة شهر واحد؟

- بأربعماية ليرة .

- أوه « مسيو فانغرات » ، لا تعاملني كامرأة مغناج ، أرجوك . فالنساء اللواتي من طبقتي لا تفتنهن البوارق . ولا تنسَ أن أربعماية ليرة في الشهر ، تعني أربعة آلاف وثمنماية ليرة في السنة ، وبمثل هذا المبلغ استطيع شراء قصر مفروش .

فحكّ السيد فانغرات أذنه ، بينما تابعت الكونتس قولها : « لا تجعلني أنفر من الساحة الملكية » .

وقد لفظت جان دي فالوا هذه العبارة الأخيرة بنبرة فيها الكثير من العظمة والتسلط النسائي ، مما جعل تاجرنا يفكر بالمستقبل ويقول لها :

- كما تأمر سيدتي .

- إذن ثلاثماية ليرة ، ولكن بشرط ...

- أي شرط سيدتي ؟

- هو أن تكون كل هذه الأشياء بعد ثلاث ساعات من الآن ، قد وضعت ونسقت في الشقة التي أعينها لك .

- ولكن هذا مستحيل يا سيدتي ، فإنها الساعة العاشرة .

- ممكن ، أو غير ممكن ؟

ففكر فانغرات لحظة وسأل :

– وهل المكان بعيد سيدتي ؟

– إنه في شارع سان كلود .

– أوه ، إنه قريب جداً .

ثم فتح الباب ونادى بأعلى صوته : سيلفان ، لاندري ، رامي .

فأقبل الثلاثة متلهفين لرؤية السيدة الجميلة التي بهرت أبصارهم ، فبادرهم سيدهم بقوله بعد أن حدَّد لكل واحد مهمته :

– انقلوا بعناية هذه الأشياء الى الشقة التي تحددها لكم السيدة .

ثم انبرى فحرر ايصالاً بالمفروشات ورجا الكونتس أن توقعه ، ففعلت بعد أن دفعت له الثمن ووعدت العمال بإكرامية إذا ما قاموا بمهمتهم على أفضل وجه .

وبعد أن أعطت السيد فانغرات عنوانها عادت الى النقالة فركبتها وأمرت صاحبها بدفعها . وما هي إلا ساعة حتى كانت قد استأجرت الطابق الثالث وبدأ العمال بوضع كل قطعة من الأثاث في مكانها .

وبعد أن تمّ كل شيء ودفعت الكونتس للعمال إكرامية سخية ، انبرت خادمتها تنظف الزجاج وتوقد النار ، ثم

جلست هي جان دي فالوا ، بكامل زينتها وبهائها ، على كنبة قرب الموقد في غرفة النوم وكأنها حورية من حوريات الجنة .

وكانت تمسك كتاباً بين يديها وتصيخ السمع الى دقات الساعة والى ضجيج العربات البعيدة التي كانت تعكر صفو المكان بعض الشيء . وبينما هي كذلك ، دقت الساعة معلنة التاسعة ، ثم العاشرة ... فالحادية عشرة ... ولم يقبل أحد لا بالعربة ولا سيراً على الأقدام !

ثم انتصف الليل والكونتس ما زالت وحدها ، والخادمة المتأهبة في غرفة الانتظار تكاد الشمعة تحرق رأسها الذي أخذ يكبو من شدة النعاس ...

وعند الساعة الثانية عشرة والنصف ، فتحت جان دي فالوا نافذة غرفتها وانطلق بصرها يغوص في أعماق الشارع، فإذا بالحي كله هادئ ساكن كأن أرجل البشر لم تطأه بعد!

عند ذاك خلعت ثيابها الجميلة ولبست ثياب النوم بعد أن صرفت الخادمة ورفضت تناول العشاء . ولكنها كالليلة السابقة لم تستطع الرقاد . ففي الليلة السابقة كان الفرح سبب سهادها ، أما في هذه الليلة فالحلم الذي لم يتحقق كان سبب السهاد .

ولكن هذا الحلم بقي يراودها ، إذ أنها بعد أن عللت الأسباب التي جعلت الكردينال دي روهان يتخلف عن المجيء

في الموعد الذي حدَّده هو بنفسه ، وجدت له عذرين إثنين : الاول هو أنه كردينال ومشاغله كبيرة وكثيرة ، والثاني هو أنه لم يسبق له أن عرف جان دي فالوا كي يقدر قيمتها كامرأة جذابة وفاتنة .

فاطمأن قلبها لهذا التحليل وقفزت من سريرها فأضاءت شمعات القنديل الليلي وتأملت نفسها طويلاً في المرآة فتأكدت من جمالها وبهائها ، ثم أطفأت الشمعات وعادت الى سريرها حيث استرسلت الى النوم مطمئنة .

الكردينال دي روهان

★

نهضت جان دي فالوا في اليوم الثاني من نومها وأسرعت الى غرفة زينتها دون أي اضطراب ، فتبرجت وتحلّت بحلاها ولبست ثيابها وكأن مرآتها تقول لها بأن السيد دي روهان سيحضر قبل الساعة التي تنتظرها .

وفعلاً ما أن دقت الساعة مشيرة الى العاشرة ، حتى توقفت عربة فاخرة في طلعة شارع سان كلود وهبط منها رجل متدثر

برداء سميك وصعد درج البناء بينما اتجهت العربة الى شارع ضيق مجاور بانتظار أوبة السيد .

ثمّ رنّ الجرس مؤذناً بقدوم الضيف المنتظر ، فأخذ قلب السيدة دي لاموت يخفق خفقاناً شديداً ... ولكنها خجلت من الاستسلام الى تأثيرات لا مبرر لها ، فتمالكت نفسها وأخذت ترتب بعض الأشياء في الغرفة كي يعود لقلبها خفقانه الطبيعي .

وبعد لحظات أقبلت السيدة كلوتيلد تقول للكونتس :

– الشخص الذي كتب قبل البارحة .

فأجابتها جان على الفور : دعيه يدخل .

فدخل البهو بخطى رشيقة رجل جميل الطلعة شامخ الرأس يرتدي المخمل والحرير بأناقة . فنهضت جان لاستقباله وقد رأت المكان جدّ حقير بالنسبة لشخصيته ، ومع ذلك استعملت اسلوب النساء العظام وقالت له :

– مع من لي شرف التكلم ؟

فأجابها الأمير بعد أن رأى باب البهو يغلق وتختفي وراءه الخادمة العجوز :

– أنا الكردينال دي روهان .

فأحنت السيدة دي لاموت رأسها خشوعاً وكأنها في

حضرة ملك ، ثم قدمت له كنبة . وعوضاً عن أن تجلس هي على كرسي عادي وفق ما تقضي به الآداب ، جلست على الكنبة الكبيرة .

ورأى الكردينال أن كلا منهما يمكنه أن يتصرف على هواه ، فوضع قبعته على الطاولة وأخذ ينظر ، وجهاً لوجه ، الى جان دي فالوا التي كانت هي الأخرى تنظر اليه ، ثم قال لها :

– أصحيح إذن أيتها الآنسة ؟..

فقاطعته جان قائلة : سيدة ؟.

– عفواً ... لقد سها عن بالي . أصحيح إذن سيدتي ؟..

– إن زوجي يا مولاي ، يدعى الكونت دي لاموت .

– تماماً ، تماماً ، إنه في سلك الدرك .

– نعم يا مولاي .

– وأنت سيدتي ، هل تتحدرين بالولادة من آل فالوا ؟

– نعم يا مولاي .

فقال الكردينال بعد أن وضع رجلاً فوق رجل :

– إنه اسم كبير ! اسم قلّ وجوده ، بل انقرض .

– انقرض !.. كلا يا مولاي ، لأني أحمله ، ولأن لي أخاً هو البارون دي فالوا .

– وهل هو معروف ؟

- ليس بحاجة لأن يعرف يا مولاي. فأخي، سواء كان غنياً أو فقيراً، قد ولد البارون دي فالوا.

- أرجو سيدتي أن تقصّ علي قليلاً قصة هذه الحقوق المتوارثة، فأنا شغف بأشعرة الشرف.

فقصّت عليه جان بكل بساطة وبرودة ما سبق للقراء ان عرضوه. وكان الكردينال ينظر اليها بإصغاء وتأثر واشتهاء بصفتها امرأة جميلة وفقيرة. أما حقوقها المهضومة ومكانتها فلم يكن يؤمن بها إطلاقاً. ولقد لاحظت هي انفعالات نفسه وعرفت أفكاره الخبيثة.

وبعد أن انتهت الكونتس من قصتها، قال لها دي روهان دون اكتراث: حقاً إن حالتك تعيسة.

- أنا لا أتشكى يا مولاي.

- الواقع أنهم قد جسموا لي كثيراً الصعوبات التي تعترض سبيلك.

ثم نظر الى ما حوله وأكمل:

- إن هذه الشقة لا بأس بها، فهي مريحة ومؤثثة تأثيثاً حسناً.

فأجابته جان بخشونة ونفاد صبر.

- نعم يا مولاي، لا بأس بها من أجل عاملة مغناج...

فبدرت من الكردينال حركة تعجب وقال:

– أتعتبرين هذه الأثاثات ، هي أثاثات عاملة مغناج!
فأجابته جان دي فالوا :
– على كلٍ ، لا أعتقد أن باستطاعة مولاي اعتبارها أثاثات أميرة .
فسألها الكردينال بلهجة فيها الكثير من السخرية والتهكم :
– وهل أنت أميرة ؟
– أنا من أسرة فالوا بالولادة ، يا مولاي ، تماماً كما أنت من أسرة روهان . وهذا كل ما أعرفه .
وقد لفظت الكونتس هذا الكلام بجلال وعظمة المرأة التي تثور لكرامتها ويعتمل الألم في نفسها ، فكان لها وقعها المنسجم والمتوافق في آنٍ معاً ، مما جعل الكردينال يرتعش ويقول :
– لقد سها عن بالي سيدتي ، بأنه كان علي أن أعتذر منك بادئ ذي بدء لأني كتبت اليك بأني سأحضر البارحة ، ولكن كانت لدي مشاغل في فرساي بمناسبة استقبال السيد دي سوفران ، منعتني من تحقيق ما كنت أصبو إليه .
– إن تفكيرك فيَّ اليوم يا مولاي ، قد أنالني شرفاً كبيراً . وزوجي الكونت دي لاموت سيزداد شقاء في منفاه ، لأن هذا المنفى قد منعه من التمتع برؤيتكم .

فلفتت كلمة « زوجي » انتباه الكردينال وقال :

- وهل تعيشين وحدك سيدتي ؟

- نعم يا مولاي .

- هذا شيء جميل بالنسبة لامرأة شابة وجميلة .

- هذا أمر في غاية البساطة يا مولاي ، بالنسبة لامرأة أبعدها الفقر عن كل مجتمع .

فصمت الكردينال هنيهة ، ثم قال :

- يبدو أن النسَّابة لا يجادلون في نسبك .

فرفعت جان بحركة فاتنة خصلات شعرها المجعد عن جبينها ، وقالت باختصار :

- وماذا يهمني الأمر ؟

عندئذ قدّم الكردينال مقعده بحركة يستدل منها أنه يريد تقريب رجليه من نار الموقد ، وقال :

- أريد أن أعرف سيدتي ، ماذا باستطاعتي أن أنفعك .

- ولكني لا أريد شيئاً يا مولاي .

- كيف لا تريدين شيئاً ؟!

- إن نيافتك قد أكسبتني فخراً وشرفاً ، وهذا يكفيني .

- لنتكلم بحرية أكثر .

- ما كنت يوماً حرة أكثر مما أنا حرة هذا اليوم يا مولاي .

فتطلّع الكردينال الى ما حوله كأنه يريد تذكيرها بقولها : « إن هذه الشقة لا بأس بها من أجل عاملة مغناج » ، ثم قال لها :

- ولكنك الآن كنت تتشكين .

- نعم ، كنت أتشكى فعلاً .

- إذن سيدتي ؟

- حسناً مولاي . إني أرى بأن نيافتك تريد التصدق عليّ ، أليس كذلك ؟

- أوه سيدتي !..

- لا شيء سوى ذلك . فالصدقة سوف أقبلها هذه المرة ، ولكني لن أقبلها مرة ثانية .

- ما هذا القول الذي تقولينه ؟

- يا مولاي ، أنا امرأة أعاني من الذل كفاية ، وليس باستطاعتي أن أرفع هذا الذل عني .

- إنك تسيئين استعمال الكلمات يا سيدتي ، فالشقاء لا يستوجب الشنار أو العار ...

- حتى مع الاسم الذي أحمله ؟ أيمكنك أنت ، وأنت الكردينال دي روهان ، ان تتسول ؟

فأجاب الكردينال بحيرة ممزوجة بالكبرياء : أنا لا أتكلم عن نفسي .

- إني لا أعرف يا مولاي سوى طريقتين لطلب الصدقة : في عربة فاخرة أو على باب كنيسة: بالثياب المخملية المذهبة أو بالثياب الرثة . لذا فأنا لا أطمح بالشرف من زيارتك ، وقد ظننت بأنك نسيتني .

- أوه ! إذن كنت تعرفين بأني أنا الذي كتبت اليك ؟

- وكيف لا وقد رأيت شعارك على خاتم الرسالة التي بعثت بها إليّ ؟

- ومع ذلك تظاهرت بعدم معرفتي !

- نعم ، والسبب أنك لم تشرفني بتوقيعك .

فقال الكردينال ملاطفاً وهو ينظر بانتباه الى عيني جان المشعتين والى هيئتها الشامخة :

- حسناً ، إن هذه الأنفة تروق لي .

وأردفت الكونتس تقول :

- كنت قبل أن أراك ، قد قررت أن أخلع عني هذا المعطف الذي يستر شقائي وإسمي ، واستعيض عنه بالثياب الرثة وأذهب ككل متسولة مسيحية ، استجدي عيشي من محبة المارة لا من كبرياء المتكبرين .

- أليس لديك أي مورد سيدتي ؟

فصمتت جان ولم تجاوب وأكمل الكردينال يقول:

- أراضٍ مثلاً ، أو جواهر متوارثة ؟

فتناولت المرأة الشابة علبة وأخذت تنقّل عليها أصابعها الناعمة البيضاء، ثم قالت له : هذه !

- إنها لعمري علبة مبتكرة .. هل تسمحين ؟

وبعد أن أمسك بالعلبة قال مندهشاً : آه ! إنها صورة !..

فسألته جان : وهل تعرف صاحبة هذه الصورة ؟

- إنها صورة ماري تيريز .

- ماري تيريز ؟

- نعم ، امبراطورة النمسا .

فصاحت جان : أحقاً ما تقول يا مولاي ؟

فأخذ الكردينال يقلب العلبة بين يديه ، ثم سألها : من أين جاءتك هذه العلبة ؟

- من امرأة جاءت أول البارحة .

- الى عندك ؟

- نعم ، الى عندي .

فعاد الكردينال يتأمل العلبة بانتباه ، وسأل مرة ثانية : من سيدة ؟

فقالت الكونتس : عفوا ، لقد كانتا سيدتين .

- وإحدى هاتين السيدتين أعطتك هذه العلبة ؟

- كلا ، لم تعطني إياها .

- إذن كيف وصلت اليك؟

- لقد نسيتها عندي.

فأطرق الكردينال مفكراً بعض الوقت، ثم رفع رأسه وتطلع الى الكونتس بانتباه وقال لها:

- وماذا تدعى هذه السيدة؟ أرجو المعذرة من طرحي هذا السؤال عليك، فأنا خجول من قيامي بدور المحقق.

فقالت السيدة دي لاموت:

- الواقع أن هذا السؤال غريب يا مولاي.

- قد يكون مغايراً للرصانة، أما غريب...

- نعم غريب، إني أردد هذه الكلمة. فلولا أني عرفت السيدة التي تركت هنا علبة الملبس هذه...

- لماذا فعلت؟

- لكنت أرسلتها إليها. فهي بدون شك تهمها، وأنا لا أريدها أن تدفع قلق ثمانٍ واربعين ساعة مقابل زيارتها الكريمة.

- هكذا إذن، لا تعرفينها؟

- لا، وكل ما أعرفه عنها، هو أنها رئيسة جمعية خيرية.

- من باريس؟

- لا، من فرساي...

- من فرساي؟.. ورئيسة جمعية خيرية؟!

– إن عطاء النساء لا يجرح يا مولاي . فهنّ لا يحتقرن امرأة فقيرة إذا ما حملن اليها إعانة ما . وهذه السيدة التي وقفت على حالتي ، وضعت على هذه المدفأة عندما زارتني ، مئة قطعة ذهبية .

فقال الكردينال مندهشاً : مئة قطعة ذهبية ؟!

ثم أردف يقول بعد أن لاحظ بأنه قد جرح شعور جان دي فالوا :

– عفوك سيدتي ، فأنا لم أتعجب من إعطائك هذا المبلغ ، فأنت تستحقين كل حدب جماعات الرحمة والمحبة . ولكنّ الذي أدهشني ، هو لقب هذه السيدة . إذ المعروف عن سيدات المحبة ، أنهن لا يقدمن الى المستحقين إلا الصدقات الضئيلة . فهل باستطاعتك أيتها الكونتس ، أن تصفي لي تلك السيدة ؟

– هذا صعب يا مولاي .

– ولماذا صعب ، طالما أنها قد زارتك ؟

– صعب لأن هذه السيدة كانت تجهد لإخفاء ملامحها ، ومع ذلك ...

– مع ذلك ، ماذا ؟

– مع ذلك ، أعتقد يا مولاي ...

– ماذا تعتقدين ؟

- أعتقد ان عينيها زرقاوان .

- وفمها ؟

- وفمها صغير وشفتاها سميكتان ، خصوصاً الشفة السفلى .

- هل هي طويلة القامة أو متوسطة ؟

- متوسطة .

- وماذا عن يديها ؟

- في غاية الجمال .

- وعنقها ؟

- طويل وأملس .

- وهيئتها بشكل عام ؟

- إن لها هيئة النبل والوقار . ولكن هل تعرف هذه السيدة يا مولاي ؟

- وكيف تريدينني أن أعرفها يا سيدتي الكونتس ؟ كلا ، إني لا أعرفها .

- ولكن أسئلتك تدلّ على أن بعض الظنون قد ساورتك ، فإذا كان ذلك صحيحاً كما أعتقد ، يمكنك أن تستوحي شيئاً من الصورة المطبوعة على العلبة .

فانتفض الكردينال وأجاب :

– آه ، صحيح ما تقولين ، هذه الصورة ... يتراءى لي أنها صورة ...

– الامبراطورة ماري تيريز ، أليس كذلك ؟

– هذا ما أظنه .

– إذن ماذا تعتقد ؟

– أعتقد أن محسنة المانية قد زارتك ، محسنة من تلك المحسنات اللواتي أسسن فرعاً للأعمال الخيرية ...

– في فرساي ؟

– نعم سيدتي ، في فرساي .

وهنا صمت الكردينال ، وكان يبدو عليه بأن الشك ما زال يشغل باله ، وأن وجود هذه العلبة في منزل الكونتس قد أحيا كل محاذيره وجعله يتصور بأنه ربما كان هناك فخّ ينصب له . فأخذ يفكر ويفكر وجان تتأمله وتحاول سبر غوره . كان يفكر في نفسه ويقول : « كيف وصلت هذه العلبة التي سبق له أن رآها مئة مرة بين الأيدي الى جان المتسولة ؟ هل جاءت الملكة فعلاً الى هذا المنزل المتواضع ؟ وإذا كانت قد جاءت ، لماذا جاءت متسترة وأخفت عن جان شرف معرفتها ؟ وهل إن ماري انطوانيت محسنة وشفوقة الى هذه الدرجة ؟

بينما كان الكردينال يفكر بكل هذه الأمور ونظرات جان دي فالوا لا تفارقه والصمت مخيّم، قطع حبل الصمت بهذا السؤال الجديد:

- والسيدة التي كانت ترافق المحسنة، هل لاحظتها؟ وهل باستطاعتك رسم صورة عنها؟

فأجابته الكونتس قائلة:

- بكل تأكيد، فهذه قد رأيتها جيداً. إنها امرأة جميلة وطويلة القامة، ذات وجه حازم وبشرة بهية، وعليها مظاهر الغنى.

- والسيدة الثانية، ألم تنادها باسمها؟

- لقد لفظت اسمها مرة واحدة، ولكنها لفظت اسمها الشخصي.

- وما اسمها الشخصي؟

- اندريه ...

فارتعش الكردينال وهتف قائلاً: اندريه!

فلم توحي حركته بشيء جديد الى الكونتس. أما بالنسبة الى الكردينال، فقد كشف له اسم اندريه كل شيء. ففي العشية تناقل الكل في قصر فرساي خبر سفر الملكة والآنسة تافرني الى باريس ورجوعهما في ساعة متأخرة وبعد أن كانت

بوابات القصر قد أوصدت ، كذلك خبر الجدال الزوجي بين الملك والملكة .

وبعد أن تأكد له بأن ليس هناك فخّ ولا مؤامرة في شارع سان كلود ، بدت السيدة دي لاموت في عينيه جميلة وطاهرة القلب وسليمة النية كملاك . ومع ذلك بقي لديه ما يشغل باله وتعليقه كرجل دبلوماسي ، فسأل الكونتس قائلاً :

– ما زال هناك أمر أستغربه أيتها الكونتس .

– ما هو يا مولاي ؟

– هو أنك رغم الاسم الذي تحملينه ورغم ألقابك ، لم تتوجهي الى الملك .

– إلى الملك ؟

– نعم .

– ولكني بعثت عشرين توسلاً الى الملك ، ولم أحصل على نتيجة .

– ولكن اذا أسقطنا الملك من الحساب ، يبقى أمراء البيت المالك ، فدوق اورليان مثلاً ، هو شخص شفوق ويحب أن يعمل ما لا يعمله الملك .

– لقد التمست العون من سموّ دوق اورليان أيضاً يا مولاي ، ولكن بدون جدوى .

– بدون جدوى ! إن ذلك لمدهش حقاً .

– لا تندهش يا مولاي ، فطالما أني فقيرة وليس لدي من يشفع بي ، فكل التماس أقدمه لن يتعدى غرفة الانتظار .

– هناك أيضاً الكونت دارتوا . فالأناس الطائشون يقومون بعض المرات بأعمال لا يقوم بمثلها أصحاب القلوب الرحيمة والمحبة .

– والكونت دارتوا أيضاً توسلت اليه ، فلم يكن أفضل من سموّ دوق أورليان ولا من صاحب الجلالة ملك فرنسا .

– إذن لم يبق سوى عمات الملك . فهؤلاء أيتها الكونتس ، إن لم أكن جدّ مخدوع بهنّ ، سوف يستجبن ملتمسك .

– لا يا مولاي ، لن يستجبن .

– أوه ! أنا لا أستطيع أن أصدق بأن السيدة اليزابيت ، شقيقة الملك ، ليست ذات قلب رقيق .

– هذا صحيح يا مولاي . فقد قدمت التماساً الى سموها الملكي ، ووعدت باستقبالي . لكنها بعد أن استقبلت زوجي ، لا أعرف ماذا حدث حتى رفضت استقبالي .

فقال الكردينال : إنه لأمر غريب فعلاً !

وأردف فجأة وكأن فكرة جديدة طرأت على باله :

– يا إلهي ! ولكننا نسينا شخصاً ...

– من هو هذا الشخص ؟

- لقد نسينا الشخص الذي كان من الواجب أن تتوجهي اليه قبل أي شخص آخر.

- أي شخص تريدني أن أتوجه إليه ؟

- يجب أن تتوجهي الى موزعة الهبات، الى تلك التي لم ترفض طلباً حقاً، الى الملكة.

- إلى الملكة ؟

- نعم، الى الملكة. فهل رأيتها ؟

فأجابت جان ببساطة كلية : كلا.

- كيف ! ألم تقدمي التماساً الى الملكة ؟

- إطلاقاً.

- ألم تحاولي طلب مقابلة جلالتها ؟

- لقد حاولت، ولكني لم أنجح.

- كان من الواجب عليك على الأقل، أن تعترضي طريقها، أن تلفتي نظرها اليك كي تستدعيك الى البلاط، فهذه وسيلة من الوسائل.

- إنها وسيلة لم أستعملها أبداً.

- في الحقيقة يا سيدتي، إن ما تقولينه لا يصدق.

- هذا هو الواقع. فأنا لم أذهب الى فرساي إلا مرتين، ولم أرَ سوى شخصين : الدكتور لويس الذي اعتنى بوالدي

في أوتيل ديو، والبارون دي تافرني الذي لجأت اليه، متوسلة.

- ماذا قال لك السيد دي تافرني؟ لا شك أنه حاول إيصالك الى الملكة.

- لقد قال لي بأنه ليس من الحكمة والتعقل، أن تطلبي من الملك لقباً يقربك منه وهو يأبى التقرب من الفقراء.

فقال الكردينال: يا للبارون الأناني الشرس!

وبعد أن فكّر بزيارة أندريه الى الكونتس، قال في نفسه: «شيء غريب! الأب يحرم المتوسلة من حقها، والملكة تصطحب الابنة الى عندها. في الحقيقة، يجب استخلاص شيء من هذا التناقض».

ثم أردف بصوت عالٍ: إنه ليدهشني أن أسمع مثل هذا الكلام يقال لامرأة مرتبتها الأولى في الحسب والنسب، كذلك يدهشني كونها لم تواجه الملك ولا الملكة إطلاقاً. إني سأقودك بنفسي ال فرساي، وسأعمل كي تُشرَّع الأبواب أمامك.

فصاحت الكونتس وقد غمر الفرح قلبها: يا لك من رجل طيب يا مولاي!

فاقترب الكردينال منها وقال لها:

- من غير الممكن، بعد مضيّ وقت قليل، أن لا تصبحي موضع اهتمام الجميع.

فتنهدت جان من أعماق قلبها وقالت: آه مولاي! هل أنت واثق مما تقول؟

- نعم أنا واثق.

- إني أعتقد بأنك تتملق إليّ يا مولاي.

قالت عبارتها الأخيرة وأخذت تتأمله بعذوبة المرأة الصارخة الأنوثة، فوقعت نظراتها كالسهم على قلب الكردينال، مما جعل الشهوة تضج في جسده ويشعر بنار الرغبة تحرقه، وبأن هذه المرأة هي من القلائل اللواتي تعرّف إليهن وشعر بإغرائهنّ، فقال في نفسه: «إنه لغريب حقاً أن تجتمع في هذه المرأة مظاهر المراوغة والشقاء في آنٍ معاً!»

وبعد أن صمت قليلاً، قالت له الكونتس:

- إن صمتك يقلقني يا مولاي، فاغفر لي ما سأقوله:

فسألها الكردينال: ماذا ستقولين؟

- سأقول بأن رجلاً مثلك لا يتخلى عن أدبه سوى مع نوعين من النساء.

- آه، إنك ترعبينني أيتها الكونتس، فبربك ماذا تريدين قوله؟

قال هذا القول وأمسك بيدها... فرددت الكونتس كلامها: قلت مع نوعين من النساء...

- أيهما؟

- مع نساء تحبهنّ كثيراً، ومع نساء لا تقدرهن كفاية.

- كونتس، كونتس، لقد أخجلتني. فهل بدر مني قلة أدب تجاهك؟

- أرجوك، قل سيدتي...

- أعفني منها، فهذه الكلمة لم تعد تروق لي!

- إني في الواقع يا مولاي لا ألومك على شيء، طالما أنك لا تستطيع أن تحبني كثيراً، وطالما أنني لم أتح لك حتى الآن أن تقدرني كفاية.

- ولكنك تكلمينني وكأنك غضبانة عليّ!

- كلا، فأنت حتى الآن لا تستحق غضبي.

- ولن أستحقه أبداً يا سيدتي. فأنت ابتداء من هذا اليوم، ستكونين موضع اهتمامي الدائم.

فقالت الكونتس دون أن تسحب يدها من يدي الكردينال:

- بالله عليك، كفى يا مولاي.

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- لا تحدثني عن حمايتك لي.

- ولكني لم ألفظ كلمة حماية . أوه سيدتي ، لست أنت من نالك الاحتقار ، بل أنا !

- إذن لنتفق على شيء يرضيني يا حضرة الكردينال .

- أنا مستعد لكل ما يرضيك .

- إن ما يرضيني هو القول بأنك قد زرت السيدة دي لاموت دي فالوا زيارة مجاملة ، ولا شيء سوى ذلك .

فابتسم الكردينال الضليع في فن المغازلة ورفع يد الكونتس الى شفتيه وقبّل أصابعها قبلة طويلة ، سحبت جان دي فالوا على أثرها يدها ، فقال الكردينال برزانة وذوق مرهف :

- إنها قبلة مجاملة ...

فأعادت جان يدها ... وأعاد الكردينال الكرة فطبع عليها هذه المرة قبلة احترام نهمة ، مما جعل الكونتس تهتف :

- آه ، هذا كثير يا مولاي !

وأكملت بعد أن انحنى الكردينال عليها :

- ربما استمرّ نصيبي من رجل مثلك سنة واحدة ، فإني أقسم لك بأني قابلة بهذه القسمة .

- سنة واحدة ! هذا قليل جداً ... فكري بأكثر أيتها الكونتس .

فابتسمت جان دي فالوا وأجابت :

- ربما ... فأنا لن اعترض يا حضرة الكردينال .

فقرّب الكردينال نفسه منها زيادة وقال لها : ضعي ثقتك بي .

– إن الثقة موجودة يا مولاي ، لأن نيافتك ...

فقاطعها الكردينال بقوله :

– إنك الآن تخليت عن كلمة مولاي ، فلماذا عدت إليها ؟

– عفوك يا مولاي ، فأنا لا أتقن فن المغازلة . لقد قلت إذن بأن لي ثقة بك لأنك جدير بأن تفهم روحاً مغامرة وشجاعة كروحي ، وقلباً نقياً كقلبي . فأنا رغم الفقر الذي عانيته ، ورغم ما لحقني من الأصدقاء الخسيسين ، لا يسعني إلا أن أثق ، وإلا أن أشعر بعطف نيافتك .

– لقد أصبحنا إذن صديقين يا سيدتي . هل تريدين أن نقسم على صداقتنا ؟

– نعم ، أريد .

. فنهض الكردينال وتقدم نحو السيدة دي لاموت وذراعاه مفتوحتان للقسم ...

لكن الكونتس تملصت بخفة ورشاقة وقالت له بنبرة فيها الكثير من اللباقة والتهكم البريء .

– يجب ان يشتمل القسم على محبة ثلاثة !

فسأل الكردينال بتعجب : محبة ثلاثة ؟! وكيف ذلك ؟

– بدون شك ، أليس هناك دركي فقير يدعى الكونت دي لاموت ؟

– اوه كونتس ! أية ذاكرة محزنة هي ذاكرتك !

– ولكن علي أن أحدثك عنه ، طالما أنك أنت لم تتكلم عليه .

– ألا يكفي ما سيقوله الناس ؟

– ماذا سيقولون ؟

– سيقولون مثلاً ، بأن حضرة الكونت دي لاموت ، قد وجد من المستحسن أن يأتي الكردينال دي روهان ، ثلاث أو أربع أو خمس مرات في الاسبوع ، لزيارة السيدة دي لاموت في شارع سان كلود .

– آه ! أربع أو خمس مرات في الاسبوع ؟

– وأين تذهبين بالمحبة أذن أيتها الكونتس ؟ لقد قلت خمس مرات ، ولكني كنت أكذب ، أذ يجب أن أقول ست أو سبع مرات . هذا إذا أسقطت من حسابي أيام الكبيس .

فأخذت جان تضحك وتضحك حتى لاحظ الكردينال بأن مزاحه قد بدأ يدخل السرور الى قلبها ، ثم قالت :

– وهل ستمنع الناس من أن يتكلموا ؟ أنت تعلم بأن هذا الشيء غير ممكن .

فقال الكردينال : نعم سأمنعهم .

- وكيف ذلك ؟

- إنه لأمر بسيط جداً ، فإن الشعب الباريسي يعرفني ، سواء كان ذلك خطأ أم صواباً .

- نعم ، إنه يعرفك يا مولاي ، وهو عين الصواب .

- ولكن من سوء حظه ، انه لا يعرفك أنت .

- ماذا تريد أن تقول ؟

- أريد أن أقول ...

- أكمل !

- أريد أن أقول ، ماذا لو تخرجين أنت عوضاً عن أن أخرج أنا ؟

- أن أذهب أنا الى قصرك يا مولاي !

- سوف تذهبين لزيارة وزير .

- والوزير ، أليس رجلاً يا مولاي ؟

- ليس من الضروري أن تذهبي الى قصري أيتها المعبودة ، فلديّ بيت ...

- إنه بيت صغير خاص ... أليس كذلك ؟

- كلا ، بل هو بيت لك .

- بيت لي ! وأين يقع هذا البيت ؟ إني لا أعرفه .

فوقف الكردينال الذي كان جالساً ، وقال :

– غداً، عند الساعة العاشرة صباحاً، سوف تتلقين عنوان البيت.

فاحمرت الكونتس ... وتناول الكردينال يدها برقة وقبّلها قبلة فيها من الجسارة والحنوّ بقدر ما فيها من الاحترام.

وبعد أن ودّعا بعضهما البعض بالابتسامات والنظرات التي تدل على تفاهمهما التام ... صاحت الكونتس تقول بصوت مرتفع: أنيري الطريق يا كلوتيلد.

فأسرعت الخادمة العجوز ولبّت أمر سيدتها، وخرج الحبر الجليل بينما كانت جان تقول في نفسها: «يبدو لي أني قد خطوت خطوة كبيرة في هذا العالم.»

أما الكردينال، فقد قال يخاطب نفسه بعد أن صعد الى عربته: «لقد قمت بعمل مزدوج، فهذه المرأة تتمتع بقدر من الذكاء يجعلها تستقبل الملكة عكس ما استقبلتني به.»

في عيادة الدكتور ميسمار

★

في ذلك الوقت، أي في العام ١٧٨٤، كان الموضوع الذي طغى على كل المواضيع في باريس، هو موضوع

« الميسمارية » ، ذلك العلم الغامض وغير المحدود الذي جاء به الى العاصمة الفرنسية الطبيب الألماني ميسمار الذي قال بنظرية المغناطيس الحيواني ، أي الجاذبية الموهومة في بعض الناس ، والتي عرفت بالميسمارية . فقد طبقت شهرة هذا الطبيب الآفاق وأخذ الناس يتحدثون عن المرضى الذين أشفاهم بواسطة علمه العجيب المدهش ، وعن المجانين الذين أعاد اليهم عقولهم ، وعن العميان الذين أعاد اليهم أبصارهم ، مما جعل الملك لويس السادس عشر يسمح للملكة ماري انطوانيت أن تزور عيادة هذا الطبيب ، بدافع الفضول . شرط أن ترافقها في هذه الزيارة إحدى أميرات البلاط .

وقد تمت زيارة الملكة لهذا الطبيب بعد مضيّ يومين على الزيارة التي قام بها الكردينال روهان الى الكونتس دي لاموت .

وكان الطقس في ذلك اليوم قد غدا جميلاً لطيفاً وأخذت الثلوج تذوب وانبرى جيش من الكناسين الفرحين بانتهاء فصل الشتاء يدفعون الى البواليع ، بهمة الجنود الذين يقومون بحفر الخنادق ، بقايا الثلوج الوسخة التي تحولت بعد ذوبانها الى سواقٍ سوداء .

وعندما أضاءت أولى النجوم القبة الزرقاء الصافية في تلك الليلة لبست السيدة دي لاموت أجمل ثيابها حتى بدت عليها

مظاهر الثراء والأناقة ، وركبت عربة جميلة اختارتها لها خادمتها السيدة كلوتيلد واتجهت بها الى ساحة الفاندوم حيث ترجلت امام منزل فخم المظهر تشع الأنوار من نوافذه العالية .

ولقد كان هذا المنزل منزل الدكتور ميسمار ...

وعدا عربة السيدة دي لاموت كان هناك عدد من العربات الأنيقة تقف أمام هذا المنزل ، بالاضافة الى ما يقارب الثلاثماية فضولي يدوسون الوحول بانتظار خروج المرضى المعافين أو دخول المرضى القاصدين الشفاء .

أما المرضى فكانوا جميعهم من طبقة الأغنياء وأصحاب الألقاب وقد نزلوا من عرباتهم التي تحمل أشعرة الشرف بمساعدة خدمهم .

وسط هذا الجمهور المحتشد شقّت السيدة دي لاموت طريقها بقوة وهي مقنَّعة الوجه وبشكل لفت الانظار وجعل البعض يردد : « هذه ليست مريضة ، هذه ليست مريضة » . ولكن إذا لم تكن السيدة دي لاموت مريضة ، فماذا جاءت تفعل عند الطبيب ميسمار؟

الواقع ان السيدة دي لاموت قد أطالت التفكير في زيارة الكردينال دي روهان لها ، خصوصاً في ما أبداه من اهتمام بالعلبة التي نسيتها المحسنتان عندها وبالصورة التي عليها .

وبما أن في اسم صاحبة العلبة يكمن كل السر الذي جعل الكردينال يبدي ما أبداه من لطف مفاجئ ... فقد عمدت السيدة دي لاموت الى وسيلتين لمعرفة هذا الاسم.

اتجهت أولاً الى فرساي وأخذت تستعلم عن السيدات الالمانيات اللواتي يعملن في مكاتب البر والاحسان، ولكنها لم تحصل على نتيجة لأن عدد هؤلاء النساء في فرساي كان كبيراً جداً بسبب المعاملة الحسنة التي كانت توفرها الملكة الى مواطنيها الألمان. ورغم ان كلهن كنَّ من المحسنات، فلم تكن أية واحدة منهن تضع على صدرها شارة المكتب الذي تنتمي اليه. وعبثاً قالت السيدة دي لاموت بأن إحدى السيدتين المحسنتين اليها تدعى جان، فلم تكن بين النساء الألمانيات في فرساي أية واحدة منهن تحمل هذا الاسم، عدا أنه ليس اسماً المانياً.

ولما أعيتها الحيلة، فكرت بالطبيب الالماني الذي سمعت بعجائبه الشبيهة بعجائب السيد المسيح والذي لم تكن قدرته السحرية موقوفة على شفاء المرضى وحسب، بل كان ينتزع الأسرار الخفية ويفرِّج عن النفوس المعذبة.

وبعد أن استقصت أخبار هذا الطبيب وأصغت الى الروايات الكثيرة عن عجائبه، باتت مقتنعة بأنه الوحيد الذي

باستطاعته أن يكشف لها اسم صاحبة العلبة . ولهذا السبب رأيناها تشق طريقها بالصورة التي وصفناها الى القاعة التي تجمع فيها المرضى بانتظار جلسة الطبيب ميسمار المغناطيسية لتقف بنفسها على مقدرة هذا الطبيب الفائقة الوصف .

وكانت الشقة التي اتخذها الطبيب المذكور مقراً له تتألف من قاعتين رئيسيتين . فعندما يجتاز المرضى غرف الانتظار ويبرزون تذاكر المرور الضرورية الى الحجاب القائمين على خدمته ، يسمح لهم بالدخول الى قاعة نوافذها مغلقة بإحكام كي تحجب النور والهواء أثناء النهار ، والضوضاء والهواء أثناء الليل .

وفي وسط هذه القاعة وتحت ثريًا ينبعث من شمعاتها نور ضئيل يكاد يتلاشى ، يلاحظ المرء وعاء كبيراً مغطّى شبيهاً بالدِنّ ، ولم يكن هذا الوعاء أنيق الشكل ولا مزيناً بأي رفرف يخفي عري جوانبه المعدنية ، وكان تقريباً مملوءاً بالماء الممزوج بالكبريت وغيره من المواد الكيمائية ، ومن هذا المزيج كانت تتصاعد الأبخرة من خلال الغطاء المتعدد الثقوب فتشبع المكان بالرطوبة التي سيكون لها تأثيرها الفعال على الحضور .

وقد ثُبِّت في غطاء « الدن السحري » الذي كانوا يسمونه «دلو السيد ميسمار » حلقة شُدَّ اليها حبل طويل سوف نعرف الغاية منه بعد ان نلقي نظرة على المرضى .

فهؤلاء المرضى الذين رأيناهم يدخلون عيادة الطبيب ميسمار، كانوا يجلسون على مقاعد صُفَّت حول «الدن» وقد اصفرت وجوههم وظهرت عليهم دلائل الضعف والوهن. وكانوا خليطاً من الرجال والنساء، بعضهم غير مبالٍ وبعضهم ينتظر نتيجة التجربة بجدية وقلق.

وقد تقدم احد الخدم وأخذ يلف الحبل الطويل حلقات حلقات حول المرضى، وبشكل أصبح معه الكل مربوطين بسلسلة واحدة، مما جعلهم يشعرون بتأثير الكهرباء التي يحتويها «الدن السحري».

ثمّ كي لا يتعطل أبداً عمل الجاذبية الحيوانية، المنقولة والمتكيفة مع كل طبيعة، كان على المرضى، بناء لأوامر الدكتور ميسمار، أن يلمسوا بعضهم البعض، سواء بالمرافق، أو بالأكتاف، أو بالأرجل، بشكل يتيح للوعاء السحري المنقذ أن يُنفذ في وقت واحد، حرارته المجددة للقوى والأنسجة الى كل الأجساد.

وهنا يرتسم هذا المشهد المدهش العجيب الذي أثار فضول الباريسيين على اختلاف فئاتهم ودرجاتهم: ثلاثون مريضاً تقريباً مصطفين كالبكم حول الدن المعهود، أو «دلو ميسمار»، مع خادم أبكم ايضاً يقف امام اولئك الأشخاص الموثوقين بحبل ملفوف على أجسادهم كالحية. ثم ينسحب

هذا الخادم بخطوات حذرة بعد أن يعين للمرضى القضبان الحديدية التي بفضل تداخلها ببعض الثقوب في الدلو السحري تولّد الجاذبية الميسمارية التي ستشفي أمراضهم .

وعند افتتاح الجلسة تنطلق دفعة من الحرارة الناعمة النافذة وتأخذ بالدوران في القاعة ، فترتخي على أثرها قليلاً ألياف المرضى المتوترة . ثم تأخذ هذه الحرارة بالارتفاع تدريجياً من أرضية القاعة الى السقف ، ولا يطول الوقت حتى تتحول هذه الحرارة الى أبخرة ذات رائحة عطرية لذيذة تجعل أكثر الرؤوس تمرداً تترنح وتنحني .

وبينما نرى المرضى مستسلمين الى هذا الاحساس اللذيذ في ذلك الجو المعطّر ، تنطلق فجأة من موسيقيين غير منظورين لا هم ولا آلاتهم ، موسيقى ناعمة مؤثرة وتتلاشى أصداؤها في ذلك المكان الدافئ والعابق بالشذا كما يتلاشى نور الشعلة الضئيل في آخر الليل ، ثم تعود هذه الموسيقى بقوة وكأنها انبثقت من مقلع بلوري لتهزّ الأعصاب بشكل لا يقاوم ، كمثل صخب الطبيعة غير المنظور الذي يرعب حتى الحيوانات ويسلب لبّها ، وكمثل صرير الرياح الهوجاء في الليلة العاصفة المظلمة .

ولا يمضي طويل وقت حتى تلتقي مع هذه الألحان الموسيقية أصوات متناسقة كأنها كومة أزهار نثرتها العلامات الموسيقية على رؤوس الحاضرين .

وعلى كل الوجوه التي أحيتها المفاجأة في أول الأمر، يأخذ الحبور الهيولي بالارتسام شيئاً فشيئاً. فالنفس التي كانت ترزح تحت وطأة المرض في كل جسد، خرجت من ملاذها الذي لجأت اليه عندما كانت آلام الجسد تحاصرها، وانتشرت حرة فرحة في أعضاء الجسد كافة. لقد قهرت هذه النفس المادة وأخذت تتحول من حالة الى حالة.

إنها اللحظة التي أمسك فيها كل واحد من هؤلاء المرضى قضيباً حديدياً من تلك القضبان المتداخلة في «دلو ميسمار» السحري وأدار هذا القضيب باتجاه صدره أو قلبه أو رأسه، أي باتجاه مكمن المرض الذي من أجله قصد عيادة الدكتور ميسمار.

ولنتصور ساعتذاك الغبطة التي حلت محل الألم والقلق على الوجوه، والصمت المطبق الذي ساد الجميع والذي كانت تتخلله بعض التنهدات والزفرات، لنكوّن فكرة قريبة من الواقع عن ذلك المشهد الذي لخصناه بعد مضيّ ثلثي قرن على اليوم الذي جرى فيه.

ولنلق الآن نظرة على الممثلين الذين اشتركوا بهذا المشهد، والذين كانوا ينتسبون الى طائفتين من الناس. الطائفة الاولى كانت مؤلفة من المرضى، وهم الممثلون الحقيقيون الذين أمّوا

هذه القاعة بقصد الشفاء، وكان همهم الوحيد أن تتحقق آمالهم.

أما الطائفة الثانية، فقد كانت من المشككين أو الفضوليين الذين لا يشكون من أي مرض، وقد دخلوا الى منزل الدكتور ميسمار كما يدخلون الى أي مسرح من المسارح ليروا بأم أعينهم هذه الظاهرة الميسمارية التي شغلت الباريسيين وبات الناس يتحدثون عن المرضى الذين استعادوا عافيتهم بواسطتها ومن دون أي دواء كأن ذلك قد تمّ بفعل سحر ساحر.

وقد لفتت الأنظار بين جماعة المرضى الذين آمنوا بالدكتور ميسمار إيماناً صادقاً وباتوا من اتباعه الخلّص، امرأة ممشوقة القوام جميلة الوجه ذات أناقة فريدة، كانت مستسلمة لتأثير المغناطيس المسلط بشكل ملحوظ على رأسها وعلى أعلى صدرها بواسطة أحد القضبان الحديدية، وكانت بالوقت نفسه تجول بعينيها الساحرتين هنا وهناك والكل يتوقون لمعرفتها، بينما كانت يداها ترتعشان بصورة عصبية ظاهرة.

وعندما أرخت هذه المرأة الجميلة رأسها الى الوراء وأسندته على مؤخرة الكنبة، استطاع الحضور أن يروا بوضوح وسهولة جبهتها الصفراء وشفتيها المتشنجتين وعنقها البديع الذي جعله انسياب الدم في شرايينه شبيهاً بقطعة من المرمر.

وبينما كان الكثيرون من الحضور يصبون نظراتهم بدهشة على هذه المرأة الشابة ، كان هناك ثلاثة أشخاص ينحنون على بعضهم البعض ويتهامسون فيما بينهم عن سرّ اكتشفوه وقد ضاعف انتباههم وفضولهم .

وكان في عداد الفضوليين في تلك الساعة السيدة دي لاموت التي كانت تمسك بيدها قناع « الساتان » الذي وضعته على وجهها ساعة اخترقت الجموع كما سبق وذكرنا ، من دون أن يبدو عليها أنها قلقة أو خائفة من أن يعرفها أحد .

ومع ذلك ، حاولت بما أظهرته من تصرفات ، التهرب من كل النظرات . اذ انسلت رويداً رويداً الى قرب الباب وأسندت ظهرها الى إحدى الركائز وحجبت نفسها بستارة للزينة، بمعنى أنها أصبحت بوضع يسمح لها بأن ترى كل شيء ولا يراها أحد .

ولكن من بين كل الذين وقعت عليهم أنظارها ، لم يثر اهتمامها سوى وجه تلك المرأة الشابة المكهرب بالمغناطيس المسماري . فقد أذهلها هذا الوجه لدرجة جعلتها تبقى في مكانها عدة دقائق ، جامدة وشاخصة اليه والرغبة الملحة التي لا تقاوم تدفعها للمزيد من التحديق فيه ، الى أن هتفت أخيراً دون أن تفارق عيناها هذه المريضة الجميلة : « آه ، لقد عرفتها !

إنها تلك السيدة المحسنة التي زارتني ذلك المساء، والتي كانت السبب الوحيد الذي جعل السيد دي روهان يهتم بي ذلك الاهتمام.»

وبشوق كبير دفعها هذا الاتفاق غير المنتظر الى قرب تلك السيدة لتتأكد من أنها غير مخدوعة. لكن تلك الشابة المتشنجة الأعصاب، أغمضت في تلك اللحظة عينيها، وانقبض فمها، وأخذت تضرب الهواء بيديها الواهنتين.

ويجوز لنا القول، بأن اليدين اللتين كانتا تضربان الهواء، لم تكن أبداً تلك اليدين الناعمتين النحيلتين والناصعتي البياض اللتين أعجبت بهما السيدة دي لاموت عندما وقع عليهما بصرها منذ عدة أيام.

وقد سرت عدوى تلك النوبة الكهربائية حتى شملت معظم المرضى. فالأدمغة قد أُشبعت بالضجيج والطيوب، والتوتر العصبي بلغ أقصى الدرجات، مما جعل الرجال والنساء يتأوهون، ويهمهمون، ويصرخون، ويحركون أذرعهم وسيقانهم ورؤوسهم بشكل عجيب غريب!

وعندما بلغت النوبة أشدها، ظهر في القاعة رجل لم يدرِ أحد كيف دخل ولا من أين جاء!..

فهل خرج هذا الرجل من الدلو السحري؟ هل كان ذلك البخار المعطَّر الذي تكاثف في القاعة حتى انتشت منه

الرؤوس وترنحت؟ إن ظهوره بهذا الشكل المفاجئ، وبثوبه الليلكي الذي كان يرتديه، وبمنظره المحبب ووجهه الجميل الشاحب والمعبّر عن ذكاء وصفاء، أوحى بأنه من طينة شبيهة بطينة الآلهة.

ولقد كان يمسك بيده مقرعة طويلة أشار بها إشارة فتحت على أثرها الأبواب، وأسرع عشرون خادماً فحملوا بسواعدهم المفتولة، المرضى الذين فقدوا توازنهم على المقاعد التي كانوا يجلسون عليها، ونقلوهم بسرعة لم تتعدَّ الدقيقة الواحدة الى قاعة مجاورة.

وبينما كانت تجري هذه العملية المثيرة للاهتمام، خصوصاً بعد أن كانت المرأة الشابة التي رأيناها متشنجة الأعصاب قد استسلمت الى غبطة ما بعدها غبطة، بينما كانت تجري هذه العملية أسرعت السيدة دي لاموت مع من أسرع من الفضوليين الى تلك القاعة الجديدة التي نقلوا اليها المرضى، وما أن دخلتها حتى سمعت رجلاً يصيح: إنها هي! إنها هي!..

فتهيأت السيدة دي لاموت لتسأل ذلك الرجل: ومن تكون هي؟ ولكن فجأة ولجت القاعة الأولى سيدتان واتجهتا الى أقصاها، وكانتا تتكئان على بعضهما البعض ويتبعهما على مسافة قصيرة منهما، رجل تنكر بثوب بورجوازي ويدل مظهره على أنه خادمهما وموضع ثقتهما.

وقد أدهشت هيئة هاتين السيدتين، خصوصاً هيئة إحداهما، أدهشت الكونتس ودفعتها الى أن تتقدم نحوهما بعض الشيء. وفي هذه اللحظة، تفلتت من بين شفتي المتشنجة في القاعة صرخة كبيرة، هرع الكل على أثرها باتجاهها. والرجل الذي سبق له أن هتف: إنها هي! إنها هي! والذي كان في تلك اللحظة بالقرب من السيدة دي لاموت، صرخ هو الآخر بصوت مخنوق وخفيّ: أيها السادة، انظروا، إنها الملكة!

فارتعشت جان عند سماعها هذه الكلمة ... وصاحت دفعة واحدة عدة أصوات خائفة ومنذهلة: الملكة عند ميسمار!

ورددت أصوات أخرى: الملكة في حالة بحران!!

ثم قال أحدهم: أوه، هذا غير ممكن!

فأجابه الرجل المجهول بكل هدوء: إذن، أنت لا تعرف الملكة.

ساعتئذاك تمتم معظم الحاضرين: فعلاً، إن الشبه لا يصدق!

وكان لدى السيدة دي لاموت قناعها كسائر النساء اللواتي كان بودّهن، بعد الخروج من لدن ميسمار، أن يتوجهن الى دار الاوبرا لحضور الحفلة الراقصة. لذا كان

باستطاعتها أن تطرح الأسئلة دون أي حرج. فسألت ذاك الرجل، وقد كان ضخم الجثة مملوء الوجه ملتمع النظرات شديد الملاحظة، سألته قائلة:

- ألم تقل إن الملكة هنا؟

فأجابها الرجل:

- أوه سيدتي، إن الأمر لا يحتمل الشك.

- وأيها تكون؟

- إنها تلك المرأة الشابة التي ترينها هناك على الوسائد البنفسجية، وهي تعاني من نوبة حادة.

- ولكن على أي أساس ارتكزت في اعتقادك يا سيدي، بأن هذه المرأة هي الملكة بذاتها؟

فأجابها الرجل ببرودة: إني ارتكزت على معرفتي بأن هذه المرأة هي الملكة.

ثم ترك الكونتس وانبرى ينشر الخبر ويؤكده بين الحضور.

أما جان، فقد أشاحت بوجهها عن ذلك المشهد المثير والشبيه بمشهد المصاب بداء النقطة، واتجهت نحو الباب. ولكن ما أن خطت بضع خطوات، حتى وجدت نفسها أمام السيدتين اللتين كانتا، وهما تجتازان المتشنجين، تنظران باهتمام الى الوعاء السحري، والى القضبان الحديدية والغطاء.

فما أن وقع نظر جان على السيدة الأكبر سناً ، حتى أطلقت بدورها صرخة ، مما جعل السيدة تسألها : ما بك ؟

فرفعت جان قناعها بسرعة وقالت : ألا تعرفينني ؟

فبدرت من السيدة حركة دلَّت على اضطرابها وأجابت :

- كلا يا سيدتي !

- أما أنا ، فإني أعرفك ، وسوف أقدم لك البرهان على معرفتي إياك .

وبعد هذا السؤال والتأكيد عليه ، التصقت السيدتان بعضهما البعض بدافع الخوف . أما جان ، فقد سحبت من جيبها العلبة المعهودة وقالت لها :

- لقد نسيتما هذه العلبة عندي .

فسألت السيدة الكبرى : متى كان ذلك ، ولماذا أنت مضطربة الى هذه الدرجة يا سيدتي ؟

- إن سبب اضطرابي هو الخطر الذي ستتعرض له جلالتك في هذا المكان .

- أوضحي أيتها السيدة .

- سأوضح ، ولكن ليس قبل أن تضعي هذا القناع على وجهك يا سيدتي .

قالت جان هذا ثم قدمت الى الملكة قناعها ، فترددت

الملكة في أخذه اعتقاداً منها بأنها محتجبة كفاية تحت قلنسوتها، فأكملت جان تقول :

- أرجوك، ليست هناك لحظة للضياع.

فقالت المرأة الثانية للملكة : خذيه، خذيه يا سيدتي.

عندئذ تناولت الملكة القناع ووضعته على وجهها بحكم العادة ومن دون تفكر. ولما تمّ ذلك قالت جان :

- أما الآن، فتعالي، تعالي!

وجرّت السيدتين بقوة ولم تسمح لهما بالتوقف إلا عند مدخل الشارع الذي بلغته في عدة ثوانٍ.

وهناك أخذت الملكة نفساً وقالت : وأخيراً؟

فسألتها جان : ألم يرَ جلالتك أحد؟

- لا أعتقد.

- حسناً.

- ولكن هل ستوضحين لي أخيراً ...

فقاطعتها الكونتس بقولها :

- أرجو صاحبة الجلالة أن تؤمن بما قالته لها خادمتها الأمينة، وهي أنها كانت منذ هنيهة وما زالت، معرضة لخطر جسيم.

- وما هو نوع هذا الخطر الذي ما زال يلاحقني؟

– سوف يكون لي الشرف بقول كل شيء لصاحبة الجلالة ، اذا ما تنازلت جلالتها ومنحتي شرف مقابلتها لمدة ساعة في يوم من الأيام . أما الآن ، فالبحث طويل وقد تلفتين الأنظار ويتعرف اليك المارة .

ولما لاحظت جان بأن الملكة أخذت تتبرّم ، قالت لرفيقتها ، أميرة لامبال :

– آه سيدتي ، أرجوك أن تساعديني على إقناع الملكة بأن تذهب ، وأن تذهب في هذه اللحظة بالذات .

فألقت الأميرة على الملكة نظرة توسل ، قالت بعدها الملكة : لنذهب ، طالما أنكما تريدان ذلك .

ثم استدارت نحو السيدة دي لاموت وأردفت تقول : ألم تطلبي مني مقابلة ؟

– أني أتوق للحصول على شرف إطلاع صاحبة الجلالة على سيرة حياتي .

– حسناً ، عليك أن تحملي هذه العلبة وتطلبي البواب لوران ، فهو سيكون على علم بالأمر .

قالت الملكة هذا واستدارت نحو الشارع وصاحت بالألمانية : تعال الى هنا يا ويبار !

وللحال تقدمت من الملكة عربة فاخرة ،فصعدت اليها هي والأميرة دي لامبال ، ثم انطلقت بأقصى سرعتها .

وبعد أن شيّعت السيدة دي لاموت العربة حتى توارت عن الأنظار، قالت بصوت خافت جداً.

«إن ما عملته حتى الآن لا بأس به. أما الباقي ... فهو يستحق التفكير.»

الآنسة أوليفا

★

خلال هذا الوقت، كان الرجل الذي لفت الانظار الى الملكة في عيادة الدكتور ميسمار، وقد كان رجلاً نهم النظرات يرتدي ثوباً بالياً، يلامس كتف أحد الحضور ويقول له:

– إنه لموضوع شيّق بصفتك صحافي، أليس كذلك؟

فأجابه الصحافي: كيف ذلك؟

– أتريد موجزاً عن الموضوع؟

– بكل طيبة خاطر.

– حسناً، هاك الموجز: «إنه لمن الخطر أن يكون هناك بلد تحكم ملكَه ملكةٌ تهوى الاسترسال الى النوبات الهستيرية.»

فأخذ الصحافي يضحك، ثم قال: والباستيل؟

– ولا يهمك ! أليس هناك كلمات تستطيع التلاعب بها لتتجنب كل المراقبين الملكيين؟ إني أسألك ، هل باستطاعة مراقب أن يمنعك من قصّ حكاية الأمير « سيلو » والأميرة « أتانيوتنا » عاهلة النارفيك ؟ ما قولك بذلك ؟

فصاح الصحافي متحمساً : هذا صحيح ، إنها لفكرة مدهشة .

– وإني أرجو أن تؤمن بأن مقالاً يتوج بعنوان « نوبات الأميرة أتانيوتنا عند الفقير رمسام » سوف يحقق نجاحاً باهراً .

– إني أعتقد اعتقادك .

– إذهب إذن وحبّر لنا هذا المقال بقلمك السيّال .

فضغط الصحافي على يد الرجل المجهول وقال له : أتريد أن أبعث اليك ببعض النسخ ؟ أنا على استعداد تام ، إذا شئت أن تفصح لي عن اسمك .

– طبعاً نعم ، فطالما أن الفكرة موفقة جداً ، وأنت ستقوم بتنفيذها ، فمما لا شك فيه أنها ستنجح مئة بالمئة . فكم اعتدتم أن تطبعوا من منشوراتكم الصغيرة التي تحمل الانتقاد العنيف والقدح والهجو ؟

– ألفان .

– إذن ، سوف أطلب منك خدمة صغيرة .

– وأنا على استعداد لخدمتك بطيبة خاطر .

- خذ هذه الخمسين ليرة ذهبية ، واطبع عوضاً عن الألفين ستة الآف .

- كيف يا سيدي ! ولكنك غمرتني بفضلك ... فعرّفني على الأقل باسم أسخى نصير لرجال القلم .

- سوف أعرّفك بنفسي عندما أحضر الى مكتبك كي أشتري ألف نسخة وأدفع ثمن النسخة الواحدة ليرتين . فهل ستكون المنشورات جاهزة بعد ثمانية أيام ؟

- سوف أعمل ليلاً نهاراً يا سيدي .

- على أن يكون عملك مثيراً للضحك والسخرية .

- سوف أُبكي الباريسيين كلهم من شدة الضحك ، باستثناء شخص واحد .

- إن ذلك الشخص سيبكي دماً ، أليس كذلك ؟

- آه يا سيدي ! كم أنت ثاقب الفكر !

- وأنت يا لك من رجل طيب . بالمناسبة ، أرّخ المنشورات على أنها طبعت في لندن كي تتجنب الملاحقة .

- بالطبع ، هكذا اعتدت .

- وأنا دائماً خادمك يا سيدي .

وعند ذلك أطلق المجهول الضخم الجثة سراح الثائر التي امتلأت جيوبه بالخمسين ليرة ذهبية ، فمضى هذا مسرعاً بخفة طائر الشؤم .

وبقي المجهول جالساً وحده، أو بالأحرى من دون رفيق، فعاد ينظر الى المرأة الشابة في قاعة التشنج حيث حل الاختطاف محل الوهن المطلق، وحيث أخذت إحدى النسوة المخصصة بخدمة المتشنجات تخفض بعفَّةٍ التنانير المنحسرة بشكل مغاير للرصانة.

فلاحظ في جمال تلك المرأة أساريرها الشهوانية الناعمة، وتلك الكياسة الأثيلة في استسلامها المطمئن، فرجع الى الوراء وقال في نفسه:

«حقيقة، إن الشبه لمخيف! فالخالق الذي ابتدعها، قد توخّى أن تكون ملامح هذه، شبيهة بملامح تلك.»

وما أن انتهى من تكوين تلك الفكرة المهددة، حتى نهضت المرأة الشابة بهدوء من بين وسائدها، وبمساعدة جارٍ لها أفاق لتوّه من الاختطاف، نهضت وانهمكت بإعادة ترتيب زينتها التي قضي عليها كلياً.

وبعد ان احمرت قليلاً عندما لاحظت اهتمام الحضور بها، وأجابت بتهذيب مغناج على أسئلة ميسمار الوقورة والبشوشة في آنٍ معاً، مدَّدت ذراعيها وساقيها الجميلتين كما تفعل القطة عندما تصحو من النوم، ثم اجتازت القاعات الثلاث دون أن تفوتها أية شاردة أو واردة من نظرات الحضور

اليها ، وقد تفاوتت هذه النظرات بين السخرية والانشداه والاشتهاء .

لكن المفاجأة التي حملتها على الابتسام ، هي أنها بينما كانت تمرّ أمام جماعة يتهامسون في إحدى زوايا القاعة ، قوبلت ، عوضاً عن الغمزات وكلمات الغزل ، بانحناءات الرؤوس وتقديم الاحترامات بصورة لا يستطيع أي فرنسي من البطانة الملكية ان يتقن أفضل منها إذا ما شاء تقديم الاحترام الى ملكته .

والواقع أن هذه الجماعة التي تكلفت الاحترام المبالغ فيه ، قد استعجل في إعدادها ذلك المجهول الذي لا يملّ ولا يتعب ، واختبأ هو وراءها وأخذ يقول لأفرادها بصوت منخفض :

« لا تكترثوا لا تكترثوا أيها السادة ، فهي ليست أبداً ملكة فرنسا . حيّوها ، حيّوها باحترام . »

واجتازت الشابة الجميلة التي قوبلت بمظاهر الاحترام هذه ، مع شيء من القلق ، المدخل الأخير ووصلت الى الباحة حيث أخذت تفتش بعينيها المتعبتين عن عربة أو محفة ، فلم تجد لا عربة ولا محفة . لكنها بعد حيرة لم تتعدَّ الدقيقة الواحدة ، اقترب منها خادم من خدم العائلات الغنية وقال لها :

- أتريدين عربتك يا سيدتي ؟

فأجابته المرأة الشابة : لا ، إني لا أملك عربة ؟

– وهل جاءت سيدتي بعربة ؟

– نعم .

– ومن شارع دوفين ؟

– نعم .

– إذن سأتولى أمر نقلك يا سيدتي .

فقالت المرأة الجميلة بعد تفكير قصير : حسناً ، انقلني .

وللحال ، وبعد إشارة من الخادم المذكور ، تقدمت عربة فخمة منهما ، فرفع الخادم موطئها وصاح بالحوذي بعد أن صعد هو والسيدة اليها : « الى شارع دوفين » . فانطلقت الجياد بسرعة حتى وصلت الى الجسر الجديد .

هناك ترجل الخادم بعد أن أرخى موطئ العربة ، ومدّ يده فتناول مفتاحاً عمومياً كان سكان باريس في ذلك الوقت يفتحون بواسطته بوابات منازلهم المتواضعة والتي ليس لها بوابون كما هي الحال في القصور .

إذن ، حرصاً من الخادم على أصابع السيدة الجميلة ، فتح لها البوابة ، ثم حيّاها وأغلق البوابة في اللحظة التي دخلت هي فيها الممرّ المظلم .

وبعد أن عادت العربة من حيث أتت ، صاحت المرأة الشابة قائلة :

– آه كم أنا تعبة ! لكنها كانت مغامرة لذيذة . فميسمار طبيب عظيم ، ولقد كان شهماً وشريفاً .

وكانت ، عندما قالت هذه الكلمات ، قد وصلت الى سطح في الطابق الثاني يقود الى بابين إثنين . فما أن طرقت على أحدهما وأقبلت امرأة عجوز ففتحت لها ، حتى بادرتها بقولها :

– مساء الخير يا أماه ، هل العشاء حاضر ؟

– نعم ، ولقد برد أيضاً.

– وهو ، هل حضر ؟

– لا ، لم يحضر بعد ، ولكن السيد هنا .

– أي سيد تعنين ؟

– السيد الذي أنت بحاجة لتكليمه هذا المساء .

– أنا !

– نعم ، أنت .

هذه المحادثة جرت في فسحة غرفة الانتظار الصغيرة والمزججة ، والتي تفصل سطح الدرج عن غرفة كبيرة تطل على الشارع . وكان القنديل الذي يضيء هذه الغرفة يُرى من خلال الزجاج ، مما جعل المشهد مرضياً نوعاً ما . فستائر هذه الغرفة كانت من الحرير الأصفر وقد ابيضت مع الأيام وتخللتها خطوط داكنة . أما أثاثها فقد كان مؤلفاً من عدة

كراسٍ مكسوة بالمخمل الأخضر، وخزانة كبيرة ذات أدراج، وأريكة صفراء عتيقة.

إن المرأة الشابة لم تعرف الرجل الذي ينتظرها، لكن القراء يعرفونه جيداً. فهو نفس الرجل الذي أثار الفضوليين عند مرور الملكة المزعومة، أي الرجل الذي أعطى الصحافي خمسين ليرة ذهبية.

لقد فتحت المرأة الباب المزجج ودفعته بسرعة، فوجدت نفسها أمام الأريكة التي كان يجلس عليها مطمئناً رجل حسن المنظر بدين بعض الشيء. فحيّا هذه الرجل الفريد مضيفته بأن قام بنصف حركة ونصف انحناءة، وألقى عليها نظرة لطيفة فاتنة، ثم قال لها:

- أنا أعرف ما سوف تسألينني إياه. ولكن أرى من الأفضل أن أجيبك بسؤالي لك: هل أنت الآنسة أوليفا؟

- نعم يا سيدي.

- إنك امرأة عذبة وعصبية جداً وهائمة جداً بطريقة الدكتور ميسمار.

- إني عائدة لتوّي من عنده.

- عظيم! والآن، لا شك أن عينيك الجميلتين تسألانني عمّا لم أفصح عنه بعد، وهو لماذا أنا جالس على أريكتك. هذا ما تودين معرفته كما أعتقد، أليس كذلك؟

- لقد حزرت تماماً يا سيدي .

- هل تتكرمين علي بالجلوس؟ إن بقيت واقفة سأضطر أنا الى النهوض ، وعند ذاك لن يكون بإمكاننا أن نتحدث ملياً .

فأجابته المرأة الشابة التي سنطلق عليها من الآن فصاعداً اسم الآنسة أوليفا :

- إنك ولا شك تتمتع بأساليب غير اعتيادية في الحديث مع النساء.

فأجابَ الرجل بعد أن جلست :

- آنستي ، لقد رأيتك منذ قليل عند الدكتور ميسمار ، فوجدتك كما كنت أتمناك .

- أرجوك سيدي !

- أوه ! لا تشهري السلاح يا آنستي ، فأنا لم أقل لك بأني وجدتك فاتنة . لا ، فهذه الكلمة هي بمثابة تصريح بالحب ، وأنا ليس الحب قصدي . أرجوك ، لا ترتدي الى الوراء ، وإلا ألزمتني على الصراخ كالأصمّ .

فسألته أوليفا ببساطة : ماذا تريد إذن؟

فأكمل الرجل المجهول قوله :

- إني أعرف بأنك اعتدت على كلمات الإطراء ، الكلمات التي تمتدح جمالك ، وأنا أقدر هذا الجمال ، لكني جئت أقترح عليك اقتراحاً لا علاقة له بالجمال .

– فعلاً يا سيدي ، إنك تحدثني بترفُّع .

– إذن لا تقاطعيني قبل أن تستمعي إلي . هل هناك أحد مخبأ هنا ؟

– لا يا سيدي ، لا يوجد أحد ، فتكلم وأفصح عما تريد .

– إذن طالما أنه لا يوجد أحد ، يمكننا أن نتحدث من دون ازعاج ... ما رأيك بشراكة صغيرة بيننا ؟

– شراكة ... انت ترى جيداً ...

– إنك ما زلت تخلطين . أنا لم أقل لك علاقة ، بل قلت شراكة . لم أقل لك حباً ، بل قلت أعمالاً .

فسألته أوليفا وقد تحول فضولها الى دهشة شديدة :

– أي نوع من الأعمال ؟

– ماذا تعملين طوال يومك ؟

– لكن ...

– لا تخافي أبداً . فأنا لا أقصد ذمَّك وملامتك .

– إني لا أعمل شيئاً يذكر .

– إنك كسلانة ؟

– أوه !

– حسناً جداً .

– أوه ! وتقول حسناً جداً !

- بدون شك. فماذا يهمني أنا إن كنت كسلانة؟ هل تحبين التنزه؟

- كثيراً.

- وهل تسعين وراء التمثيليات والحفلات الراقصة.

- دائماً.

- أتحبين حياة الترف والتنعّم؟

- بصورة خاصة.

- إذا أعطيتك خمساً وعشرين ليرة ذهبية في الشهر، هل ترفضين؟

- سيدي!

- ها إنك قد عدت تشكين يا آنستي العزيزة أوليفا. فلا داعي لأن تجفلي. فأنا قلت خمساً وعشرين ليرة ذهبية، وكان عليّ أن أقول خمسين.

- أنا أفضل الخمسين على الخمس والعشرين، ولكني أفضل على الخمسين ليرة ذهبية، أن اختار عشاقي بنفسي.

- يا للشيطان! لقد قلت لك منذ هنيهة بأني لا أريد أن أكون عشيقك. فسكنّي بالك من هذه الناحية.

- حسناً، قل لي الآن ماذا يجب علي أن أفعل كي أربح الخمسين ليرة ذهبية؟

- وهل قلنا خمسين؟

- نعم .

- لتكن خمسين . عليك أن تستقبليني عندك ، وأن يكون وجهك باشاً بقدر الامكان ، وأن تساعديني ساعة أطلب مساعدتك ، وأن تنتظريني في المكان الذي أعيّنه لك .

- ولكن لي عشيق يا سيدي .

- أوه ! دائماً العشيق ؟

- ماذا تريدني أن أفعل ؟

- أريد ... أن تطرديه !

- يا إلهي ! وهل تعتقد أن طرد « بوزير » من الأمور الهينة ؟

- هل تريدين أن أساعدك على ذلك ؟

- لا ، إني أحبه ... ولكن قليلاً .

- بل كثيراً ...

- هذا هو الواقع .

- إذن احتفظي ببوزير .

- يا لك من رجل دمث الاخلاق يا سيدي .

- على شرط الانتقام . هل تناسبك هذه الشروط ؟

- إنها تناسبني إذا أوضحتها كاملة غير منقوصة .

- لقد قلت لك أيتها العزيزة كل ما يجب أن أقوله في الوقت الحاضر .

- كلام شرف؟

- كلام شرف! ولكن مع ذلك، عليك أولاً أن تفهمي شيئاً...

- ما هو هذا الشي؟

- هو أني قد أضطرك بعض المرات، لكي تتصرفي معي وكأنك عشيقتي.

- إذا كان التصرف ظاهرياً، فلا مانع.

- نعم ظاهرياً، واليك الشهر الاول مقدماً.

قال الرجل المجهول هذا وقدَّم الى الآنسة أوليفا كيساً يحتوي على خمسين ليرة ذهبية، قدّمه من دون أن يلمس أطراف أصابعها. ولما تظاهرت بالتردد، دسَّه في جيب فستانها من دون أن تمس يده أيضاً وركها المستدير والمتهزز كأنه ورك أبرع الراقصات الاسبانيات.

وما كادت الليرات الذهبية تلامس قعر جيبها، حتى نُقر الباب الخارجي نقرتين خفيفتين، حملتا أوليفا على القفز الى النافذة، ثم صاحت:

- يا إلهي؟ أهرب بسرعة، إنه هو...

- هو، من؟

- بوزير... عشيقي... عجّل يا سيدي، عجّل!

- أوه، لا بأس، ليدخل!

- كيف لا بأس ! إنه سيقطّعك إرباً إرباً . ألا تسمع كيف يضرب ؟ لقد أوشك أن يخلع الباب .

- هاها ! افتحي له وإن كان الشيطان بنفسه !

ثم تمدد الرجل المجهول على الأريكة ، وقال بصوت جدّ منخفض : « يجب ان أرى هذا الشخص الحقير وأن أصفي الحساب معه » .

وتوالت الضربات على الباب وتعالى التجديف المخيف حتى بلغ مسامع الذين فوق الطابق الثاني . عندئذ قالت أوليفا وقد عصف بها الغضب :

- إذهبي يا أماه ، إذهبي وافتحي . أما أنت يا سيدي ، فخسارة إذا حصل لك مكروه .

فأجاب ذلك الرجل المجهول والثابت الجنان من دون أن يتحرك عن الأريكة : نعم ، كما قلت ، خسارة .

ووقفت أوليفا على سطح الدرج خافقة الفؤاد مرتجفة ، وصامتة صمت أهل القبور ...

السيد بوزير

★

وما أن فتح الباب ، حتى ارتمت أوليفا أمام رجل غاضب ، باسط اليدين ، أصفر الوجه ، وقد دخل الشقة مهدداً متوعداً كأنه أحد الغزاة الفاتحين ، ثم قالت له بصوت هادئ النبرة نسبياً في محاولة لاستعادة شجاعتها :

– رويدك يا بوزير ، رويدك .

فصاح بها بوزير : اتركيني !

وتخلَّص من بين يديها بشراسة وفظاظة وأكمل طريقه الى الداخل ، ثم وقف مرغياً مزبداً وصاح :

– هاها ! لأن لديك رجلاً لم تفتحي لي الباب ...

أما الرجل الذي نعرفه ، فقد بقي على الأريكة في وضع هادئ ومن دون حراك ... فاقترب بوزير حتى أصبح أمامه ، وقال له :

– يفترض فيك أن تجاوبني أيها السيد .

فأجابه الرجل المجهول بكل برودة :

– ماذا تريدني أن أقول لك أيها السيد العزيز بوزير ؟

– أولاً من أنت ؟ ثم ماذا جئت تفعل هنا ؟

– إن من تنظر اليه بعينين غاضبتين هكذا، هو رجل مطمئن جداً، وقد كان يتحدث مع السيدة بشرف وبما هو خير كله.

فرددت أوليفا من ورائه: نعم، بشرف وبما هو خير كله.

فصاح بها بوزير منذراً: حاولي أن تصمتي أنت.

فقال الرجل المجهول:

– لا تكن عنيفاً هكذا مع السيدة التي هي بريئة كل البراءة. أما إذا كانت أخلاقك سيئة...

– نعم، أخلاقي سيئة.

فقالت أوليفا بصوت مخنوق: يظهر أنه خسر في اللعب.

فصاح بوزير زاعقاً:

– نعم، خسرت كل ما لدي. الموت لكل الشياطين؟

فقال الرجل المجهول وهو يضحك:

– ولن يضيرك إن سطوت قليلاً على نقود أحد الأشخاص، فهذا ما تضمره أيها السيد العزيز بوزير.

– دعك من المزاح السمج أنت، واذهب من هذا المكان فوراً.

– أوه، خذني بحلمك يا سيد بوزير.

– لتمت كل شياطين جهنم! إنهض واذهب، وإلا سحقت هذه الأريكة وكل ما عليها.

فتلفَّت الرجل المجهول الى الآنسة أوليفا وقال لها :

- لم تقولي لي يا آنسة بأن السيد بوزير تتوتر أعصابه هكذا في هلات القمر ...

فاستشاط بوزير غضباً وسحب سيفه وضرب به الهواء في حركة مسرحية بارعة ، ثم قال :

- إنهض وإلا سمّرتك على مؤخرة الأريكة .

فقال الرجل المجهول : في الحقيقة إنك شخص مخيف .

ثم تظاهر بالنهوض البطيء . وبيده اليسرى ، أخرج من الغمد السيف الصغير الذي كان قد وضعه على الأريكة خلفه بشكل أفقي . فما أن رأت أوليفا السيف في يده ، حتى أخذت تطلق الصرخات الحادة . فقال لها الرجل باطمئنان بعد أن أصبح السيف في قبضته ومن دون أن يتحرك من مكانه .

- اصمتي يا آنسة ، اصمتي ! اصمتي لأنك ستشوشين على السيد بوزير فأشكه بسيفي كما يشكون اللحم بالسفود .

فاستعاضت أوليفا عن الصراخ بالإيماءات والإشارات الأشد تعبيراً ، فكانت هذه المشاهد مضحكة حقاً . فمن جهة ، كان السيد بوزير ثملاً مكشوف الصدر ومرتعشاً من الهياج يسدد الضربات الى خصمه بلا نظام وبشكل عشوائي فلا يدركه ، ومن جهة ثانية ، كان الرجل الجالس على

الأريكة يبسط إحدى يديه على ركبته ويمسك السيف بالثانية ويدفع عنه الضربات باحتراز وبخفة ولباقة دون أن يهتز، وفي الوقت نفسه يضحك بشكل يرعب أمهر الفرسان.

في هذه المبارزة الغريبة لم يحافظ سيف بوزير قط على خطه المستقيم، بل كان دائماً يهتز ويرتج بفضل دفاع خصمه الذي كان يردّ الضربات ويخيّبها بفن وقوة.

أخيراً بدأ التعب يظهر على بوزير. لكنه عندما فكر بالإندحار، عصف الغضب الشديد في رأسه واستجمع قواه المهزومة وانقضّ على خصمه بضربة اعتبرها الفاصلة، إلا أن خصمه تنبّه لها، وبأسرع من لمح البصر ردّ ضربته بضربة مباشرة هائلة، فطار السيف من يد بوزير وفرّ عبر الغرفة فخرق زجاج النافذة واختفى في الخارج.

فجمد بوزير مبهوتاً لا يدري إلى أية جهة عليه أن يتطلع... أما الرجل فقد قال له هازئاً:

- إحذر يا سيد بوزير من أن يكون سيفك قد وقع على حدّه، لأنه إذا وقع هكذا على أحد المارة، كان هناك قتيل ولا شك...

فانتبه بوزير الى نفسه، وأسرع الى الباب وهبط الدرجات بسرعة ليستدرك الشر الذي كاد يلحقه الشرطي بشخص مسكين ظنّ أن السيف يخصّه.

وفي هذه الأثناء أمسكت أوليفا بيد المنتصر وقالت له :

- آهٍ يا سيدي كم أنت باسل؟ ولكن بوزير رجل غادر، وأظنك فهمت بقية ما أقصده، فهو حتماً سيضربني عندما تذهب .

- إذن سأبقى .

- لا، لا، أتوسل إليك . فإذا ضربني سوف أضربه أنا أيضاً، وأنا دائماً أقوى منه . وبما أنه ليس لي مهرب من هذا المكان، فأرجوك أن تنسحب .

- ولكن انتبهي الى شيء مهمّ يا جميلتي، هو أني إذا انسحبت، سوف ألتقيه متربصاً بي على الدرج، وحتماً سنتقاتل، وإذا ما تقاتلنا على الدرج لن يكون بوسعي أن أعامله كما عاملته وأنا جالس على الأريكة .

- ماذا تقصد؟

- أقصد أني سأقتل السيد بوزير أو سيقتلني .

- يا إلهي! إنها ستكون فضيحة كبيرة .

- وأنا كي أتجنب الفضيحة، سأبقى .

- لا، أرجوك، اخرج واصعد الى الطابق العلوي وابق هناك الى ان يدخل . وحالما يدخل، ستسمعني أصفق الباب وأقفله بالمفتاح جيداً وأضع المفتاح في جيبي . وساعتذاك

يصبح هو أسيري وتخرج أنت بينما أكون أنا في عراك شجاع معه.

– يا لك من فتاة ساحرة! الى اللقاء.

– الى اللقاء. ولكن ... متى؟

– هذه الليلة، إذا طاب لك.

– هذه الليلة! هل أنت مجنون؟

– نعم، هذه الليلة. ألا يوجد حفلة راقصة في الاوبرا هذا المساء؟

– ولكنه نصف الليل الآن.

– أعرف جيداً، لا يهمّ.

– ونحن بحاجة الى «دومينو [١]»

– سوف يذهب بوزير ويجلب لنا ثوبين إذا أحسنت التغلب عليه.

فضحكت أوليفا وقالت: معك حق.

وضحك الرجل المجهول أيضاً وقال: وهذه عشر ليرات ذهبية ثمن الثوبين. فشيعته أوليفا الى سطح الدرج وهي تقول: شكراً، الى اللقاء، الى اللقاء! وبعد أن ردّ عليها الرجل المجهول بقوله: الى اللقاء! استدرك قائلاً:

---

١ – إن كلمة «دومينو» مصدرها انكلترا، وهي كناية عن توب تنكري.

- ولكن ماذا لو تغلب هو عليك؟ كيف يمكنك أن تعلميني؟

ففكرت أوليفا قليلاً وسألته: أليس لديك خدم؟

- لدي، وسأضع واحداً منهم تحت نافذتك.

- عظيم! وعلى هذا الخادم أن يبقى متطلعاً الى الهواء حتى يرى ورقة صغيرة تسقط على أنفه.

فأجابها الرجل المجهول: وهو كذلك.

وبعد أن صعد الى الطابق العلوي، أخذت أوليفا تصيح بأعلى صوتها: بوزير! بوزير!

وإذا ببوزير مقبل كالكلب الكَلِب وقد وضع السيف في غمده، فدفعته أوليفا الى غرفة الانتظار وأقفلت الباب بالمفتاح قفلتين إثنتين.

وما هي إلا لحظات حتى ترامى الى مسامع الرجل المجهول الصراخ من الاثنين. وقد تبين له من هذا الصراخ، بأن المرأة التي انذهلت عندما دخل عليها عشيقها في حضوره، تملك مقدرة على المقاومة لم يكن ينتظرها.

فلم يشأ أن يضيع الوقت سدى، بل أراد متابعة المشهد حتى النهاية. لذا هبط الدرج ودار حول زاوية شارع أنجو-دوفين الصغير ووصل الى حيث كانت عربته بانتظاره. فقال كلمة الى أحد رجاله، انفصل على أثرها هذا الرجل عن

رفاقه وذهب فقبع في الظلمة الكثيفة تحت قنطرة مواجهة لنوافذ الآنسة أوليفا ، وأخذ يراقب كل ما يجري داخل ذلك البيت الأثري القديم .

الذهب

★

أما الذي جرى بين الآنسة أوليفا وعشيقها ، فهو التالي :

في بادئ الأمر ، فوجئ بوزير برؤيته الآنسة أوليفا تقفل الباب بالقفل ، ثم فوجئ بصراخها العالي . وأخيراً فوجئ عندما دخل الغرفة ولم يجد خصمه فيها .

فأخذ يفتش عنه ويناديه مهدداً متوعداً وقد ظنّ نفسه أنه انتصر عليه ، الى أن أجبرته أوليفا على الكف عن البحث والإجابة عن أسئلتها .

وقد كان بوزير على شيء من العنف ، فارتفع صوته واشتدت لهجته . لكن أوليفا التي كانت تعرف حدود غضبه وأنه غير أهل لارتكاب جريمة ، صرخت به صوتاً فاق صراخه . وكي يسكتها ، همّ بكمّ فمها بيده .

لكن ظنه خاب . فأوليفا التي عرفت مسبقاً ما سوف يقدم عليه بوزير ، قبضت بإحدى يديها على اليد التي امتدت الى وجهها بحركة فيها من الخفة والرشاقة ما يعادل الخفة والرشاقة اللتين أظهرهما الرجل المجهول منذ هنيهة ، وصفعته باليد الثانية على خده .

فردّ لها بوزير الصفعة بصفعة مثلها جعلت خدها الأيسر يحمرّ ، وكانت هذه الصفعة بداية مشادة عنيفة بين الاثنين طرقت مسمعي الرجل المجهول وهو خارج من البناء . ولما تطورت المشادة ، قذفت أوليفا بوزير بإبريق خزفي ثقيل ، فردّ لها التحية بقذفه إياها بإناء حطّم ما اعترضه واستقرّ على كتف المرأة الشابة .

فثارت ثائرة أوليفا عند ذاك وقفزت على بوزير وأطبقت بيديها على تلابيبه وأخذت تشد ، فاضطر المسكين أن يتمسك بأي شيء كي يدافع عن حياته المهددة ، وكان هذا الشيء فستان اوليفا الذي تمزق شرّ تمزيق ، مما اضطرها الى ان تتركه وتدفعه عنها شراً لعارها فانقلب يتدحرج وسط الغرفة ، ثم وقف مرغياً مزبداً .

ولم يستطع بوزير الذي كان يكن لأوليفا احتراماً عميقاً ، إلا أن يكبر شجاعتها ويستأنف معها الحوار العنيف عوضاً عن العراك ، فقال لها :

– إنك مخلوق شرير هدم حياتي .

– أنت من هدم حياتي وجعلني صفر اليدين .

– أتقولين صفر اليدين وأنت لا تملكين شيئاً ؟

– بل قل لم أعد أملك شيئاً ، لأن ما كنت أملكه قد أنفقته أنت أيها المعدم على اللهو والشرب والمقامرة .

– أتعيِّرينني بفقري ؟

– إن آفتك هي سبب فقرك .

– إن كانت لي آفة ، فأنت كلك آفات .

فأمسكت لحظتذاك أوليفا ملقطاً ضخماً وأخذت تهزه بين يديها ، فارتعب بوزير وتراجع الى الوراء ، وقال :

– لم يعد ينقصك إلا أن تتخذي لك عشاقاً .

– وأنت ماذا تسمي كل هاتيك الشقيات اللواتي يجلسن حولك في المقامر حيث تقضي أيامك ولياليك ؟

– إني أقامر كي أعيش !

– يا لها من تجارة رابحة جعلتك تموت جوعاً .

– أما أنت ، فتجارتك جعلتك تبكين عندما تمزق فستانك ، لأنه ليس لديك نقود لشراء غيره .

فصاحت به أوليفا غاضبة : إنني على حال أفضل منك ، واليك البرهان !

قالت هذا ومدت يدها الى جيبها وأخرجت منه قبضة من الليرات الذهبية ورمتها في طول الغرفة وعرضها .

فعندما رأى بوزير الليرات الذهبية تتدحرج على الأرض ملتمعة فيختبئ بعضها تحت قطع الأثاث والبعض الآخر تحت الباب ويستقر البعض منها على البلاط ، فغر فاه وصاح مندهشاً :

– ليرات ذهبية ! ليرات ذهبية !

أما أوليفا ، فقد أخرجت من جيبها قبضة ثانية ورمت محتوياتها هذه المرة على فمه المفغور وعينيه المحملقتين ، فأغمض عينيه متألماً وركع وهو يفركهما بيديه وأخذ يلتقط الذهبيات ويقول :

– أوه أوه ! إن هذه الأوليفا غنية كما يظهر !

فنكعت أوليفا قفاه بباجوها وقالت له باحتقار : اليك ما جنته تجارتي .

وبينما كان بوزير يلتقط الذهبيات بفرح ويعد : خمس عشرة ... عشرون ... خمس وعشرون ... كانت أوليفا تراقبه وهي تبتسم بهزء وسخرية الى أن انتهى ، فقالت له :

– ردّ لي نقودي .

– ماذا تريدين عوضاً عنها .

– أريد الضعف .

- حسناً، سوف أذهب الى شارع بوسي وألعب بها وأعيد اليك ليس ضعفها، بل خمسة أضعافها.

قال هذا ثم خطا خطوتين نحو الباب، فأمسكته أوليفا بفلقة سترته البالية، مما حمله على القول لها:

- اتركيني، لقد تمزق ثوبي.

- من الأفضل أن يتمزق لتشتري لك ثوباً جديداً، خذ!

- آه! ست ذهبيات يا عزيزتي أوليفا، ست ذهبيات! من حسن الحظ أن اللاعبين في شارع «بوسّي» لا يكترثون كثيراً للمظهر الخارجي.

فأمسكت عندئذ أوليفا بفلقة سترته الثانية وشدت بها حتى انمزقت في يدها، فصاح بوزير ساخطاً:

- الموت لكل الشياطين! لقد عريتني أيتها الشقية ولم يعد باستطاعتي الخروج من هنا.

- بالعكس، سوف تخرج للحال.

- وكيف تريدينني أن أخرج هكذا، أللسخرية مني؟

- سوف تلبس معطف الشتاء.

- ولكنه مثقوب ومرقّع.

- إذن لا تلبسه إذا كان لا يروق لك، ولكنك ستخرج.

- لن أخرج أبداً.

فأطلعت أوليفا من جيبها ما بقي فيه من الليرات الذهبية ، وكان عددها حوالى الأربعين ، ودستها في يديه المضمومتين . فرقص بوزير المفلس فرحاً ، وركع هذه المرة على قدميها وقال لها :

- مريني ! مريني !

- عليك أن تذهب الى شارع السين حيث يبيعون « الدومينو » لحفلات الرقص المقنع في مخزن الكبوشي الساحر .

- حسناً ، وبعد ذلك ؟

- ثم تشتري لي ثوباً كاملاً من الساتان الابيض بما فيه القناع والجوارب ، وتشتري لنفسك ثوباً أسود .

- أمراً وطاعة .

- ولا أعطيك اكثر من خمس وعشرين دقيقة للقيام بهذه المهمة .

- هل سنذهب الى الرقص ؟

- نعم ، الى الرقص .

- وهل سنتناول العشاء في «البوليفار» ؟

- من دون شك ، ولكن بشرط .

- ما هو هذا الشرط ؟

- هو أن تكون مطيعاً .

– أوه ! إني دائماً مطيع ، دائماً .
– إذهب إذن ، وأرني همتك .
– سوف أذهب ركضاً .
– أسرع ولا تنسَ الوقت المحدد ... خمس وعشرون دقيقة فقط !

فخرج بوزير لتوّه مسرعاً وهو ممزق السترة وسيفه يتأرجح على جنبه بوقاحة ، بينما كانت قميصه المنتفخة تحت سترته شبيهة بالقمصان التي كانوا يلبسونها في عصر الملك لويس الثالث عشر .

وما أن وصل ذلك الرجل السافل الى أول شارع السين ، حتى أسرعت أوليفا وكتبت على قصاصة ورق هذه الكلمات المختصرة والمفيدة :

« السلام استتبّ ، والقسمة وقعت ، والرقص اعتمد . بعد ساعتين سنكون في الاوبرا ، وسيكون ثوبي المقنع أبيض ، وعلى كتفي الأيسر شريط من الحرير الأزرق .»

ثم لفّت الورقة حول كسرة من الابريق الخزفي ، وذهبت الى النافذة فأطلت برأسها ورمتها الى الشارع ، فتلقفها خادم الرجل المجهول الذي كان يرقبها في الظلمة .

وبعد برهة قليلة ، رجع بوزير بعد أن اشترى ثوبين من « الدومينو » بثماني عشرة ليرة ذهبية من مخزن الكبوشي

الساحر ، ذلك المخزن الذي كان يزود الملكة وسيدات الشرف بما يحتجن اليه .

البيت الصغير

★

لقد تركنا السيدة دي لاموت تشيع الملكة بعد أن خرجت من عيادة الدكتور مسمار . ولقد بقيت تتابعها بعينيها حتى غابت عن الأنظار وحتى انقطع صوت عجلات العربة التي عادت بها الى قصر اللوفر .

بعد ذاك ، صعدت جان دي لاموت دي فالوا بدورها الى عربتها وعادت الى منزلها لتتفقده وتلبس ثوبها التنكري وتجلب قناعاً عوضاً عن القناع الذي تخلت عنه للملكة . وما أن وصلت الى البناية التي تقطنها ، حتى وجدت أحد خدم الكردينال دي روهان في انتظارها عند البواب ، وقد قدم لها بطاقة من نيافته جاء فيها ما يلي :

« سيدتي الكونتس ،

- إنك لم تنسي ولا شك بأنه لدينا أمور يجب أن نرسي

قواعدها سوية . قد تكون ذاكرتك ضعيفة ، أما أنا ، فلا أنسى أبداً ما يسرني .

« لي الشرف بأن أنتظرك حيث سيقودك حامل هذه البطاقة إذا شئت . »

وكان الصليب الراعوي يحل محل التوقيع على هذه العجالة .

فقابلت السيدة دي لاموت هذه الدعوة المفاجئة في بادئ الأمر ، بشيء من الحذر ، لكنها بعد تفكير قصير ، قررت قبولها وقالت لخادم الكردينال :

- إصعد الى جانب الحوذي ، أو اعطه العنوان .

فصعد الخادم الى جانب الحوذي وجلست هي في العربة . وما هي إلا عشر دقائق ، حتى كانت الكونتس في ضاحية سان انطوان ، وفي مكان تلفّه الأشجار الظليلة من كل جانب وتحجب عن الأنظار واحداً من تلك البيوت الجميلة المشادة في عصر لويس الخامس عشر ، مع الذوق الخارجي للقرن السادس عشر والفرش الأنيق والمريح الذي اتسم به القرن الثامن عشر ، فهمهمت قائلة في نفسها :

« أوه ! أوه ! إنه بيت صغير ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لأمير كبير ، ولكنه شي محقّر بالنسبة الى امرأة من آل فالوا . - أخيراً ! »

فكشفت هذه الكلمة «أخيراً»، التي فيها من الخضوع للأمر الواقع بقدر ما فيها من التأوه ونفاد الصبر، كشفت كل ما كان يكمن في نفسها من توق مفترس وطموح مجنون.

ولكن ما أن اجتازت عتبة المنزل، حتىٰ اشتدت عزيمتها واتخذت قرارها. فقد اخذ الخادم يطوف بها من غرفة الى غرفة، أي من مفاجأة الى مفاجأة، حتى وصل بها الى قاعة صغيرة للطعام لا تجارى في البهاء وحسن الذوق.

هناك وجدت الكردينال وحده بانتظارها.

وقد كان الكردينال يقلب اوراق كتيّب من تلك الكتب الصغيرة التي كانت تتضمن المقالات الانتقادية العنيفة والمحرضة على الانتفاض والثورة في ذلك العهد، والتي كانت توزع سراً. فعندما أطلت عليه الكونتس، وقف وقال:

- آه! أهذا أنت؟ إني أشكرك يا سيدتي الكونتس.

وتقدم منها كي يقبّل يدها، فتراجعت الكونتس ممتعضة وكأنها قد مُسّت في كبريائها، فأردف الكردينال يقول:

- يا للعجب! ما بالك يا سيدتي؟

- إنك لم تتعود أن ترى هكذا وجهاً، بين وجوه النساء اللواتي شرّفتهن نيافتك باستدعائهن الى هنا، أليس كذلك يا مولاي؟

- آه!.. سيدتي الكونتس!

فقالت الكونتس وهي تلقي نظرة احتقار حواليها :

- نحن في بيت صغير ، أليس كذلك يا مولاي ؟

- ولكن ، سيدتي ...

- كنت آمل من نيافتك يا مولاي ، أن تتنازل وتذكر محتدي . كنت آمل من نيافتك أن تتنازل وتذكر بأنه إذا كان الله قد جعلني فقيرة ، فهو قد ترك لي على الأقل ، اعتزاز وفخر المقام الرفيع .

فقال الكردينال :

- أعفنا من هذا أيتها الكونتس ، فأنا قد نظرت اليك كامرأة راجحة العقل .

- إن المرأة الراجحة العقل في نظر مولاي ، كما يبدو ، هي كل امرأة غير مبالية ، كل امرأة تضحك للجميع ، حتى للمتسربلين بالعار والشنار . إني استميح نيافتك عذراً وأقول ، بأني اعتدت أن أطلق على مثل هؤلاء النسوة إسماً يليق بهنّ .

- لا تقولي هذا القول أيتها الكونتس ، فأنت على ضلال . إن المرأة الراجحة العقل في نظري ، هي تلك التي تصغي عندما يحدثونها ، ولا تتكلم قبل أن تصغي للآخرين .

- إن كان هذا رأيك فعلا ، فأنا صاغية ، تكلم !

- لدي أشياء سرية أودّ أن أحدثك عنها .

- وقد جئت بي الى قاعة الطعام من أجل ذلك ؟

– نعم ، وهل تكونين مكرمة أكثر فيما لو انتظرتك في بهو صغير ؟

– إنه تكريم لطيف .

– هذا ما أعتقده أيتها الكونتس .

– وهكذا ، أُصبح ملزمة أن أتعشى مع مولاي ؟

– لا شيء غير هذا ...

– وعلى نيافتك أن تقتنع بأني أشعر بهذا الشرف كما يجب أن أشعر .

– هل تهزئين أيتها الكونتس ؟

– كلا ، إني أضحك .

– تضحكين ؟

– نعم ، وهل تفضل أن أغضب ؟ آه ! إنك ذو طباع صعبة الفهم يا مولاي ، كما يبدو لي .

– أوه ! إنك عذبة عندما تضحكين ، وأنا لا مطلب لي سوى أن أراك دائماً ضاحكة . ولكنك الآن لا تضحكين ، فأنا أرى الغضب وراء شفتيك الجميلتين اللتين تنفرجان عن أسنان لؤلؤية .

– لا ، أبداً يا مولاي . إن قاعة الطعام تجعلني أطمئن ، وإني أرجو لك عشاءً هنيئاً .

– ترجين لي ! وأنت ؟

- أنا لست بجائعة .

- أتأبين مشاركتي العشاء يا سيدتي ؟

- ماذا تقول ؟

- هل تطردينني ؟

- إني لا أفهمك يا مولاي .

- أصغي إليّ أيتها الكونتس العزيزة .

- إني مصغية .

- لو كنت أقل حنقاً لقلت لك أشياء كثيرة ، لأنك لا تستطيعين حجب سحرك وفتنتك . ولكني أخاف أن يؤدي بي الاسترسال في المجاملة الى الطرد من قبلك .

- تخاف أن تطرد ! إني في الحقيقة يا مولاي ، أودّ أن اعتذر منك ، ولكنك رجل مبهم وغامض .

- مع أن ما يجري ، هو في غاية الوضوح .

- إذن أغفر عدم إدراكي .

- على هذا الأساس ، إني أصارحك بأنه يوم استقبلتني عندك ، وجدت أنك تعيشين في شقة لا تليق أبداً بمنزلتك وبالاسم الذي تحملينه ، وهذا ما جعلني اختصر زيارتي ، وبالتالي ما جعلك كالحة الوجه قليلاً . ولقد فكرت عندئذ أن أضعك في وسطك ، وأن أوفر لك العيش اللائق بمقامك ، أي

أن أطلق العصفور من القفص الذي حُبس فيه كي يعود الى الفضاء الوسيع.

فابتدأت الكونتس تعي ما يقصده وسألته بقلق: وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك أيتها الكونتس الجميلة، وكي يصبح بإمكانك أن تستقبليني بحرية، وكي من جهتي أنا، يصبح بإمكاني أن أزورك من دون أي حرج، ومن دون أن أسبب لك حرجاً أيضاً...

وهنا توقف الكردينال وصبّ نظراته على الكونتس، فسألته جان قائلة:

- هكذا إذن؟

- نعم هكذا، وإني أرجو أن تتنازلي وتقبلي هذا البيت الضيق. وأعتقد أنك فهمت أيتها الكونتس، فأنا لم أقل أبداً هذا البيت الصغير.

فصاحت الكونتس وقد أخذ قلبها يخفق بالكبرياء والطمع في آنٍ واحد:

- أقبل، أنا؟ أتهبني هذا البيت يا مولاي؟

- إنه شيء لا يذكر أيتها الكونتس، شيء قليل جداً. ولو لم أكن أخشى أن ترفضي، لوهبتك أكثر بكثير.

فقالت الكونتس:

- أوه! لا أكثر ولا أقل يا مولاي.

- ماذا تقولين يا سيدتي؟

- أقول إنه من غير الممكن أن أقبل هكذا هبة.

- من غير الممكن! ولماذا؟

- لأنه بكل بساطة، من غير الممكن.

- أوه! لا تتلفظي بهذا الكلام أمامي أيتها الكونتس.

- لماذا؟

- لأني لا أريد أن أصدق بأنه صدر عنك.

- مولاي!...

- لقد أصبح البيت يخصك يا سيدتي، وها هي المفاتيح هناك على الصحن العقيقي. إني أعاملك كغازية منتصرة، فهل هناك مهانة في هكذا معاملة؟

- أبداً، ولكن ...

- أرجوك، اقبلي.

- لقد قلت كلمتي يا مولاي.

- ولكن كيف قبلت يا سيدتي، أن تكتبي الى الوزراء ملتمسة المعونة، وكيف قبلت مئة ليرة ذهبية مزدوجة من سيدتين مجهولتين؟

– إن هذا يختلف يا مولاي ، فالتي تقبل...

فقاطعها الكردينال بنبل :

– التي تقبل تخضع أيتها الكونتس. وأنت رأيت بأني قد انتظرتك في قاعة طعامك الصغيرة ، ورفضت حتى أن أرى البهو والغرف ، ولكني أفترض وجودها في بيتك هذا.

– عفوك يا مولاي. فقد أجبرتني على أن أعترف بأنه لا يوجد رجل بلطفك وسلامة قلبك.

قالت الكونتس هذا القول وقد اطمأنت نفسها واحمرت فرحاً عندما فكرت بأنه سيصبح بإمكانها أن تقول : بيتي. ثم رأت نفسها تنقاد الى إشارة الكردينال وتقول بعفوية :

– مولاي ، إني أرجو نيافتك أن تقدم لي العشاء.

فنزع الكردينال عنه عباءته التي كان لم يزل يتسربل بها ، فظهر بثيابه المدنية الأنيقة وأخذ يقوم بمهمة رئيس الخدم على أفضل وجه.

وعندما دخل الخدم الذين كانوا في غرفة الانتظار ، وضعت جان قناعاً نصفياً على وجهها ، فقال لها الكردينال :

– هو أنا من يجب أن يتقنع لا أنت ، لأنك أنت في بيتك وبين خدمك ، ولأني أنا الغريب هاهنا !

فنزعت جان القناع عن وجهها وهي تضحك. ورغم البهجة والمفاجأة اللتين كادتا تخنقانها، فقد أكلت بشهية مما قُدّم لها.

وكان الكردينال معها رجلاً واقعي التفكير وذا قلب كبير، كما عرف عنه. فخبرته الطويلة بالبلاطات الاوروبية الراقية التي كانت تحكمها ملكات، وبطبائع النساء اللواتي كنّ في ذلك العصر يعقدن المسائل السياسية أو يحللنها، إن خبرته هذه التي قلما نجدها في غيره من الرجال، قد جعلت من هذا الأمير رجلاً من الصعب جداً على أخصامه من رجال السياسة، وعلى عشيقاته من النساء، أن يكتشفوا مكنونات صدره.

وهكذا كان الكردينال يعتقد بأنه متفوق على جان. ولكن اعتقاده هذا المقرون بكبريائه، لم يستطع أن يخفي اشتهاءه لها. فجمال الكونتس الصاعق وخفة روحها كانا يغريان ليس فقط الرجال البسطاء، بل أيضاً أشدّ الرجال غطرسة وأكثرهم ترفعاً. وقد عرفت جان كيف تستغل اشتهاء الكردينال لها، فتصرفت معه بذكاء ذلّل كبرياءه وأظهره بمظهر الضعيف لا القوي. ولما نفد صبره أخيراً، قال وهو يملأ للكونتس بالخمرة القبرصية كأساً بلورية صغيرة مطلية بالذهب:

- هيّا أيتها الكونتس، فطالما أنك قد وقعت عقداً معي، عليك أن لا تستائين مني.

– أستاء منك ! أوه ! كلا .

– إذن سوف تستقبلينني هنا بعض المرات دون اشمئزاز ونفور ؟

– أنا لن أكون أبداً جاحدة يا مولاي كي أنسى بأنك أنت هنا في بيتك .

– في بيتي ؟ يا للحماقة !

– كلا ، كلا ، لست بحمقاء ، فأنت تماماً في بيتك .

– إياك ومعاكستي ، وإلا ...

– وإلا ماذا ؟

– وإلا فرضت عليك شروطاً أخرى .

– طالما أنك تحذرني ، فأنا أقول لك : خذ حذرك بدورك .

– من أي شي ؟

– من كل الأشياء . فأنا في بيتي ، وإذا وجدت شروطك غير محقة ، سوف أستدعي خدمي .

فأخذ الكردينال يضحك ، وتابعت الكونتس تقول :

– أرأيت أنك غير جاد ، وأنك تهزأ بي ؟!

– وما الدليل ؟

– إنك تضحك !..

– أضحك لأن الظرف مناسب .

- طبعاً مناسب ، لأنك تعرف جيداً بأن خدمي لن يحضروا إن استدعيتهم .

- أوه ! إذا حدث ذلك ، ليأخذني الشيطان ؟

- الشيطان !.. ولكنك تجدف يا مولاي .

- أنا هنا لست كردينالاً أيتها الكونتس . فأنا عندك ، أي في سعادة ما بعدها سعادة .

فاه بهذا الكلام وأخذ يضحك ، فقالت الكونتس في نفسها : « حقاً إنه رجل فريد .»

ثم سألها الكردينال وكأن فكرة مفاجئة قد طرأت على باله :

- بالمناسبة ، ماذا كنت قد قلت لي عن تلك السيدتين المحسنتين ، السيدتين الالمانيتين ؟

- السيدتان صاحبتا الصورة ؟

- نعم ، صاحبتا الصورة .

- أوه ! إنك تعرفهما جيداً يا مولاي ، إني أشارط بأنك تعرفهما أفضل مني .

- أنا ؟! أوه ! إنك على خطأ في اعتقادك أيتها الكونتس ، ألم تتظاهري بالشوق لمعرفتهما ؟

- بلى ، وهذا شيء طبيعي .

– إذن لو كنت أعرف هاتين المحسنتين، لما كتمت عنك إسميهما.

– سيدي الكردينال، لقد قلت بأنك تعرف هاتين السيدتين جيداً.

– كلا.

– إذا قلت كلا مرة ثانية، سأناديك بالكاذب؟

– وأنا سأنتقم لشرفي إذا ما أهنتني.

– بربك قل لي، كيف ستنتقم؟

– بتقبيل عينيك!..

– يبدو لي يا حضرة السفير لدى بلاط النمسا، ويا أيها الصديق الكبير للأمبراطورة ماري تيريز، بأنك عكس ما تتظاهر، تعرف جيداً صورة صديقتك.

– ماذا!.. صحيح أيتها الكونتس، إنها صورة ماري تيريز!

– وقد تجاهلتها أيها الدبلوماسي!

– لم أتجاهلها، ولكنها سقطت من بالي. على كلٍ، ماذا أستنتج من هذه الصورة؟

– إن الذي يعرف صورة ماري تيريز، يجب أن يعرف المرأة التي تحملها.

– ولماذا يجب عليّ أن أعرفها؟

- لأنه ليس مستغرباً أن تكون صورة الأم - أقول الأم وليس الأمبراطورة - بين يدي ...

- أكملي ؟

- بين يدي الإبنة .

فصاح لويس دي روهان بنبرة صادقة انخدعت لها جان : الملكة ! الملكة ! جلالتها جاءت الى عندك !

- يا للعجب ! وهل لم تعرف ذلك يا سيدي ؟

فأجاب الكردينال بلهجة اعتمد فيها البساطة التامة :

- كلا ، كلا ، فقد جرت العادة في هنغاريا ، بأن تنتقل صور الأمراء الحاكمين من عائلة الى عائلة . فالذي يكلمك مثلاً ، وهو ليس ابناً ولا ابنة ولا حتى قريباً لماري تيريز ، يملك مع ذلك صورة لها .

- تملك صورة لها يا مولاي ؟

فأجاب الكردينال ببرودة : وها هي .

ثم سحب من جيبه علبة تبغ وأراها الى جان ، وقال لها بعد أن أفحمها :

- وكما أملك أنا هذه الصورة ولا أحظى بشرف الانتماء الى العائلة الامبراطورية ، كما قلت ، قد يملك مثلها غيري وينساها عندك ، ولا يكون من العائلة النمساوية المالكة والجليلة القدر .

فخانت جان الدبلوماسية التي ولدت منها ، وصمتت ولم تحر جواباً ، فأكمل الأمير لويس قائلاً :

– إذن ، حسب رأيك ، هي الملكة ماري انطوانيت التي زارتك ؟

– الملكة مع سيدة أخرى .

– هل هي السيدة دي بولينياك ؟

– لا أعرف .

– السيدة دي لامبال ؟

– إنها امرأة شابة خارقة الجمال ورزينة جداً .

– قد تكون الآنسة دي تافرني ؟

– محتمل ، فأنا لا أعرفها .

– إذن ، إذا كانت جلالتها قد قامت بزيارتك ، فأنت بالتأكيد قد حظيت برعاية الملكة ، وبالتالي خطوت خطوة نحو الثروة.

– هذا ما أعتقده يا مولاي .

– استمحيك عذراً عن هذا السؤال : هل كانت جلالتها سخية نحوك ؟

– بالطبع ، فلقد أعطتني مئة قطعة ذهبية .

– ولكن جلالتها ليست غنية ، خصوصاً في هذه الأيام .

– وهل شهدت لك شهادة فيها منفعتك الخاصة ؟

– شهادة فيها من الشهامة ما يكفيني .

فقال الحبر وهو يفكر بصاحبة الرعاية الملكة ، لا بالمشمولة برعايتها :

– إذن كل شيء يسير على ما يرام ، ولم يبق ينقصك سوى عمل واحد .

– ما هو؟

– الدخول الى قصر فرساي .

فابتسمت الكونتس ، وأكمل الكردينال يقول :

– لا تستخفي بهذا الأمر ايتها الكونتس، ففيه تكمن الصعوبة الحقيقية .

فعادت الكونتس الى الابتسام من جديد ، لكن ابتسامتها هذه المرة كانت معبرة أكثر من الأول ، فابتسم الكردينال بدوره وقال :

– في الحقيقة ، أنت عكس أبناء الأقاليم . فبمجرد أنك رأيت قصر فرساي ببواباته المشبكة بالقضبان الحديدية وبسلالمه ، تصورت أن باستطاعة كل الناس ان يلجوا هذه البوابات وأن يصعدوا هذه السلالم . فهل رأيت كل الحيوانات التي يحتويها فرساي ، والمرمر والرصاص اللذين يزينان حدائقه وسطوحه أيتها الكونتس ؟

- كلا يا صاحب النيافة، فهلاّ ساعدتني على مشاهدة كل ما في فرساي من عجائب وغرائب؟

- سأحاول، ولكن ذلك سيجلب لي متاعب كثيرة. فقبل كل شيء، عليك أن لا تتلفظي باسمي، وإلا أصبح ذلك مستحيلاً بعد الزيارة الثانية.

فقالت الكونتس:

- من حسن الحظ، أنني أتمتع بحماية الملكة المباشرة. لذلك، إذا دخلت فرساي، سوف أدخله بالمفتاح الصالح.

- أي مفتاح أيتها الكونتس؟

- آه! إنه سريّ سيدي الكردينال ... ولكن لا، فأنا لا أقول الحقيقة، إذ لو كان سرياً لأطلعتك عليه، لأني لا أريد أن يبقى هناك سرّ بيني وبين الشخص الأحب إليَّ الذي تعهد حمايتي والدفاع عني.

- إذن، صارحيني القول.

- الحقيقة أنني غداً سأذهب الى قصر فرساي، وكلي أمل بأني سأستقبل فيه خير استقبال.

فأخذ الكردينال يتأمل تلك المرأة الشابة، ثم ضحك وقال لها:

- سنرى أيتها الكونتس، إذا كنت ستدخلين فرساي.

- أنا لا أكذب إطلاقاً.

– وأنا منذ الغد ، سأبدأ بالتصريح عن الشرف التليد الذي سينالك من دخول فرساي .

– نعم يا مولاي ، وسيكون ذلك في الشقق الدافئة التي ترتادها .

– أؤكد لك أيتها الكونتس ، أنك لغز حيّ بالنسبة لي !

– كواحد من تلك الحيوانات التي تحتويها حدائق فرساي ؟

– أوه ! أنت تعتبرينني رجل ذوق ، أليس كذلك ؟

– بدون شك يا مولاي .

فانحنى الكردينال وأمسك بيدها وقبلها بحرارة ثم قال لها :

– إذن لا يمكنك أن تقولي بأن شفتيّ قد لامست مخلباً وبأن يدي قد قبضت على ذنب سمكة ذات أسفاط .

فقالت جان ببرودة :

– إني أتوسل اليك يا مولاي أن تتذكر بأني لست عاملة مغناج ولا ابنة من بنات الاوبرا ، وهذا يعني أنني سيدة نفسي ، وأني يوم يصبح زوجي في نظري مثل أي رجل في المملكة ، سوف اختار تلقائياً وبحرية تامة وساعة يطيب لي ، الرجل الذي يروق لي . لذلك عليك أن تحترمني يا مولاي ،

وإذا ما احترمتني تكون قد احترمت كرم الأصل الذي ننتسب اليه نحن الإثنين .

فانتفض الكردينال وقال :

– إيه ، هل تريدين أن أحبك حباً أفلاطونياً ؟

– أنا لا أقول هذا يا سيدي الكردينال . ولكن أريد أن أحبك أنا أيضاً . فصدقني بأنه عندما يحين الوقت ، إذا حان ، سوف تكتشف بكل سهولة هذا الحب . فأنا واثقة من شبابي ، ولن أتهيب التمهيد لأكون مقبولة من رجل نبيل مثلك .

– إذا كان الأمر يتعلق بي دون سواي ، فإني أؤكد لك أيتها الكونتس ، بأنك سوف تحبينني .

– سنرى .

– وبانتظار الفوز بحبك ، هل يمكنني الاعتماد على صداقتك ؟

– إن بيننا أكثر من صداقة .

– أحقاً ما تقولين ؟ إذن نحن في منتصف الطريق .

– وعلينا أن نجتاز هذا الطريق بسرعة .

فتنهد الكردينال وقال :

– يا لك من امرأة معبودة أيتها الكونتس ، دعيني أقيم لك هيكلاً في قلبي .

– سوف أدعك بعد أن تبتسم لي الثروة كفاية، وذلك كي أعفيك من التذلل لي ومن تقبيل يدي قبل الأوان.

– كيف؟

– نعم، عندما أصبح بغنى عن إحسانك، ينتفي ظنك بأني أسعى وراء زياراتك لمنفعة ما. وبالتالي يرتفع شأن نظراتك إليّ، فأكون أنا رابحة يا مولاي، ولا تكون أنت خاسراً.

قالت الكونتس هذا القول بكل هدوء ورزانة، ثم وقفت كي تعزز معنوياتها، فقال الكردينال:

– إذن أنت تلقين بي في سجن المستحيلات؟

– كيف ذلك؟

– إنك تمنعينني من مغازلتك.

– لا ... أبداً. ألا يوجد وسيلة لمغازلة المرأة، سوى السجود والشعوذة؟

– لنتكلم بصراحة أيتها الكونتس، ماذا ستهبينني؟

– كل ما هو غير مغاير لرغباتي وواجباتي.

– أوه! أوه! إنك تضعين أصعب شرطين في العالم.

– لقد قاطعتني قبل أن أنهي كلامي يا مولاي، إذ لدي شرط ثالث.

– شرط ثالث أيضاً!.. ما هو؟

- هو أهوائي !

- لقد أفقدتني صوابي ...

- هل تريد نقض الإتفاق ؟

ففكر الكردينال ملياً ، وأجاب بعد أن انتصرت فتنة جان على سلامة تفكيره :

- لا ، لن أنقض الاتفاق .

- ولا حتى أمام واجباتي ؟

- ولا حتى أمام رغباتك وأهوائك .

- ما هو برهانك ؟

- هو أن تأمري فأطيع .

- أريد الذهاب هذا المساء الى مرقص الأوبرا .

- إن الأمر يعنيك أيتها الكونتس . فأنت حرة كما الهواء ، وإني لا أرى سبباً يمنعك من الذهاب الى مرقص الأوبرا .

- ولكن هذه نصف رغبتي . أما النصف الثاني ، فهو أن تأتي أنت أيضاً الى الاوبرا .

- أنا الى الاوبرا !.. أوه كونتس !

وقام الكردينال بحركة مسرحية اعتاد القيام بها في مثل هذه المواقف ، فقالت له الكونتس :

- إذن أنت لا تريد مرضاتي ومسرتي ؟

– ولكني كردينال أيتها الكونتس، والكردينال لا يذهب الى مرقص الأوبرا. فهذا الاقتراح كما لو أقترح عليك أنا الدخول الى محششة ...

– تريد القول إن الكردينال لا يرقص أبداً؟

– أبداً ...

– إذن لماذا رقص الكردينال دي ريشيليو «الساراباند [1]»، كما قرأت؟

– هذا صحيح. ولكنه رقص أمام الملكة آنّ دوتريش.

فأجابته الكونتس بعتب ظاهر: وأنت أيضاً قد ترقص امام ملكة ...

فوقع الأمير روهان في حيرة وارتباك، ولّم يستطع، رغم مهارته وقوة إرادته، أن يخفي الاحمرار الذي صبغ وجهه. ولما رأته تلك المخلوقة الماكرة على هذه الحالة، شاءت ان تنقذه من حيرته وارتباكه، فأردفت قائلة:

– كيف لا تريدني أن أغتاظ عندما أرى بأنك تقدرني أقل من ملكة، وعندما تفشّلني في أول طلب أطلبه منك وفيه ما يفرح قلبي ويبهج نفسي، مع أني لا أريدك أن تذهب معي الى الأوبرا إلا مقنعاً؟

---

١ – الساراباند رقصة خاصة بنبلاء ذلك العصر.

فطابت نفس الكردينال لتخلصه من المأزق الذي وجد نفسه فيه ولشعوره بانتصاره على الكونتس، فارتمى على يدها وقبّلها بحرارة وقال لها:

- كرمى لعينك، أنا على استعداد لعمل المستحيل.

فأجابته الكونتس:

- شكراً لك يا مولاي، فإن الرجل الذي يقوم بهكذا تضحية من أجلي، إنما هو صديق لا يقدر بثمن. لذا سأعفيك من طلبي بعد أن أظهرت استعدادك لتنفيذه.

- لا أبداً، لا أبداً، فتحقيق رغبتك وحدها، باستطاعتها أن تشفع بي تجاهك. سوف أتبعك أيتها الكونتس، ولكن بالثياب التنكرية.

- حسناً، سوف نمرّ في شارع سان دينيس المجاور للأوبرا، حيث سأدخل أنا مقنّعة أحد المخازن وأشتري لك «دومينو» وقناعاً، فتلبسهما في العربة.

- وسيكون ثوباً تنكرياً رائعاً، أليس كذلك أيتها الكونتس؟

- أوه سيدي، إنك على قدر من الطيبة أخجلني ... ولكني أعتقد بأنه ربما كان هناك في قصرك الفخيم، «دومينو» يتلاءم مع ذوق سيادتك اكثر من «الدومينو» الذي سوف نشتريه.

– إن في كلامك أيتها الكونتس، خبثاً لا يمكن الصفح عنه. فأنا كي أذهب الى مرقص الأوبرا، عليك الموافقة على شيء...

– ما هو هذا الشيء يا مولاي؟

– هو أنك ستتعشين، وجهاً لوجه، مع رجل غير زوجك، وسيكون هذا العشاء مفاجأة سارة لي...

فلم تجد الكونتس ما تجاوب به، واكتفت من الجواب بالشكر.

وللحال، تقدمت من بوابة ذلك المنزل الصغير عربة خالية من أشعرة الشرف، فصعد اليها الكردينال والكونتس وسارت بهما في طريق البوليفارات.

في مرقص الاوبرا

★

كان الرقص في الاوبرا قد بلغ ذروته عندما اندسَّ خلسة بين الراقصين والراقصات لويس دي روهان والسيدة دي لاموت، وغدا الحبر واحداً من الالوف الذين يلبسون «الدومينو» والأقنعة من كل الأجناس، وما عتَّم الأمر حتى اختلط هو ورفيقته بين الجموع واختفيا كما تختفي عن أعين

المتنزهين على الشاطئ تموجات المياه الصغيرة عندما تتحطم على الصخور بفضل اندفاع التيّار.

وكان هناك بين الجموع الصاخبة والمنتشية إثنان من لابسي «الدومينو» يدفعان الحضور عنهما ويلازمان بعضهما البعض بقدر ما يسمح ذلك الحشد. ولما أعيتهما عملية الدفع لجآ الى تحت مقصورة الملكة حيث كانت الجموع أقلّ صخباً واندفاعاً، ووقفا مسندين ظهريهما الى الحائط.

وكان أحد الإثنين يلبس «دومينو» أسود والآخر دومينو أبيض، أحدهما طويل القامة والآخر متوسط القامة، وهذا ما يدل على أنهما رجل وامرأة. وقد دار بين الاثنين حديث مشبع بالحيوية والحركات التعبيرية، بدأه الشخص الطويل بقوله:

- أنا واثق يا أوليفا بأنك تنتظرين شخصاً ما. فعنقك غدا كدوّارة الهواء التي لا تدور جهة الريح فحسب، بل أيضاً جهة كل آتٍ.

-حسناً، وماذا بعد ذلك؟

- تقولين ماذا بعد ذلك؟

- نعم، ما الذي يزعجك في دوران رأسي؟ ألست أنا هنا من أجل ذلك؟

- بلى، ولكن إذا أدرته للآخرين...

– غريب أمرك يا سيدي! لماذا جئنا إذن الى الأوبرا؟
– جئنا لأجل ألف سبب.
– أوه! إن الرجال يأتون لألف سبب، أما النساء فيأتون لسبب واحد لا غير.
– ما هو هذا السبب؟
– هو أن يدرن رؤوسهن قدر المستطاع. فعليك أن تخضع لهذه الحقيقة طالما أنك أنت قد جئت بي الى مرقص الأوبرا.
فصاح الرجل بانفعال: آنسة أوليفا!
– أوه! لا ترفع صوتك. فأنت تعلم بأن الصوت المرتفع لا يخيفني. ثم إياك أن تناديني باسمي. فأنت تعلم بأن مناداة الناس بأسمائهم في مرقص الأوبرا دليل انعدام الذوق.
فبدت من صاحب «الدومينو» الأسود حركة دلت على سخطه، ولكن هذا السخط لم يعبر عنه بالكلام نظراً لقدوم شخص يلبس «دومينو» أزرق. وقد كان القادم شخصاً بديناً طويل القامة جميل الشكل، وصل وبادر صاحب «الدومينو» الأسود بقوله:
– هدّئ من روعك أيها السيد ودع السيدة تلهو على هواها، فليس كل يوم منتصف الصوم، وحتى في مثل هذه المناسبة قلما يفتح مرقص الأوبرا أمام السيدات.

فأجابه صاحب « الدومينو » الأسود بفظاظة وشراسة :

– عليك ألا تتدخل يا هذا بما لا يعنيك .

فقال صاحب الدومينو الأزرق ببرودة :

– من الجميل أن تتذكر يا سيدي ، بأن الكلام اللطيف لا يكلفك شيئاً .

فردّ صاحب « الدومينو » الأسود بقوله :

– إني لا أعرفك يا هذا ، فلماذا تضايقني وتزعجني هكذا ؟

– قد تكون أنت لا تعرفني ، أما ...

– أما ماذا ؟

– أما أنا فإني أعرفك جيداً أيها السيد بوزير .

فعندما سمع صاحب « الدومينو » الأسود مخاطبه يسميه باسمه ، ارتعش واضطرب ، إذ شعر بحراجة موقفه ، فبادره صاحب « الدومينو » الأزرق بقوله :

– لماذا هذا الاضطراب أيها السيد بوزير؟ فأنا لست الشخص الذي تفكر به .

– ولكن بمن تعتقدني أفكر ؟ هل أنت تعلم بالغيب وتدعي قراءة الأفكار أيضاً ؟

– ولماذا لا ؟

– إذن إحزر ما الذي أفكر به . أنا لم أرَ قط ساحراً ، وفي الحقيقة ، يسرني أن ألتقي واحداً من هؤلاء السحرة .

– أوه ! إن ما تطلبه مني ليس صعباً كفاية كي استحق هذا اللقب الذي يبدو أنك تمنحه بسهولة .

– على كلٍ ، تكلم !

– وهل تصرّ على طلبك ؟

– نعم .

– حسناً ، لقد اعتقدت بأني عميل السيد دي كروسن .

– السيد دي كروسن ؟

– نعم ، وأنت لا تعرف سواه ، السيد دي كروسن ، ضابط البوليس .

– أيها السيد ...

– مهلاً يا سيد بوزير ، فالسيف الذي تفتقده في جنبك قد تركته في منزلك ، وحسناً فعلت . أما الآن ، فلنتكلم بأمور أخرى . هل تسمح لي بمخاصرة السيدة ؟...

– مخاصرة السيدة ؟!

– نعم مخاصرة السيدة . وهذا الطلب ليس غريباً في حفلة راقصة تقام في الأوبرا .

– ليس بالغريب اذا وافق المراقص .

- ولكن بعض المرات ايها العزيز بوزير، يكفي أن توافق السيدة .

- وهل تريد مخاصرتها لمدة طويلة ؟

- أفٍ كم أنت فضوليّ أيها السيد بوزير ! قد يكون ذلك لمدة عشر دقائق، وقد يكون لمدة ساعة، وقد يكون طوال الليل .

- إذهب عني ايها السيد، يبدو أنك تمزح معي .

- سيدي العزيز، جاوب بنعم، أو لا ، هل تريد أن تتخلى لي عن ذراع السيدة ؟

- لا .

- دعك من الخبث والمخابثة .

- لماذا تكلمني بهذا الكلام ؟

- لأنك تملك قناعاً، ومن غير المفيد أن تتخذ لك قناعاً آخر .

- ما هذا القول الذي تقوله أيها السيد !

- أرأيت كيف استشطت غضباً، وقد كنت منذ ساعة هيِّناً ليِّناً ؟

- أين كنت هكذا؟

- في شارع دوفين .

فصاح بوزير مندهشاً : شارع دوفين !

وأغربت أوليفا في الضحك ، فانتهرها بقوله : اصمتي ايتها السيدة ! واستدار نحو « الدومينو » الأزرق وقال له :

– إنني لم أفهم شيئاً مما قلت أيها السيد . فأفصح لي عما تقصد بصدق وأمانة إذا كان ذلك ممكناً .

– ليس هناك ما هو أصدق وأكثر أمانة من الحقيقة أيها السيد ، أليس كذلك أيتها الآنسة أوليفا ؟

فتظاهرت الآنسة أوليفا بالتعجب وسألته : وهل تعرفني أنا أيضاً ؟

– ألم يتلفظ باسمك السيد منذ بعض الوقت ، وبصوت مرتفع ؟

فعاد بوزير الى الحديث ، وسأله : والحقيقة ، ما هي ...

– الحقيقة أنه في اللحظة التي كنت تهمّ فيها بقتل هذه السيدة المسكينة ، أي منذ ساعة ، في تلك اللحظة أوقفتك عن قتلها رنة عشرين ليرة ذهبية ...

– كفى ايها السيد ، كفى .

– ليكن ما تريد . أعطني ذراع السيدة إذن ، طالما أنك قد اكتفيت .

– أوه ! إنني أرى جيداً ، أن السيدة وأنت ...

– ماذا أنا والسيدة ؟

– متفاهمان ومتفقان على اللقاء .

- أقسم لك أن لا ، وإذا ما اتفقنا ، فسيكون ذلك لخيرك .

- لخيري أنا ؟

- بدون شك.

- فقال بوزير : عندما يكون في نية المرء عمل الخير ، فيجب أن يقدم البرهان على ذلك .

- بكل طيبة خاطر . فالبرهان هو أن وجودك هنا مضرٌ بك ، بينما غيابك مفيد لك .

- مفيد لي ؟

- نعم ، لك .

- أرجوك ، ما هو نوع هذه الافادة ؟

- نحن عضوان في أكاديمية واحدة ، أليس كذلك ؟

فارتسم الغضب على وجه بوزير وصاح : أنا وأنت ؟!

- لا تغضب أيها العزيز بوزير ، فأنا لا أتكلم على الأكاديمية الفرنسية .

فدمدم مراقص أوليفا : أكاديمية ... أكاديمية ...

- في شارع « بو دي فير » ، وفي الطابق الذي يسبق الطابق الأرضي . هل أنا مخطئ ايها السيد العزيز بوزير ؟

- اصمت !

- يا للعجب !

- نعم، اصمت! أوه! يا لك من رجل بغيض أيها السيد.

- يجب أن لا تقول هذا القول.

- لماذا؟

- لأني أقسم لك بأنك لا تستطيع أن تصدق كلمة منه. لنرجع إذن الى هذه الأكاديمية.

- أما زلت تقول الأكاديمية؟

فسحب «الدومينو» الأزرق ساعته، وكانت ساعة جميلة وغنية بالأحجار الكريمة، فثبّت عليها بوزير بؤبؤي عينيه وبدرت منه صيحة أعجاب، فقال له صاحب «الدومينو» الأزرق:

- بعد ربع ساعة، وفي اكاديميتك الواقعة في شارع «بو دي فير» أيها السيد العزيز بوزير، سوف نناقش مشروعاً صغيراً قد يدرّ مليونين من الليرات على إثني عشر شريكاً حقيقياً، ستكون أنت واحداً منهم أيها السيد بوزير.

- وحتماً ستكون أنت أيضاً أحد الشركاء، إذا ما كنت...

- أكمل.

- إذا ما كنت أحد رجال المباحث.

– في الواقع، كنت أعتقدك رجلاً عاقلاً أيها السيد بوزير، ولكن تبين لي ويا للأسف، بأنك لست سوى أحمق. فأنا لو كنت من رجال المباحث، لكنت حتى الآن قد قبضت عليك عوض المرة الواحدة عشرين مرة، في أمور أقل أهمية وشأناً من مشروع المليوني ليرة الذي سننظر في أمره ونناقشه في الأكاديمية بعد دقائق معدودات.

ففكر بوزير قليلاً، وقال:

– يا للشيطان! أتريد إرسالي الى شارع «بو دي فير» كي تقبض علي! ولكني لست مجنوناً.

– ألا تريد التخلي عن حماقاتك؟

– حماقاتي!..

– بدون شك. فلو كانت لي السلطة لأن أفعل ما قلته، ولو كان باستطاعتي أن أعلم ما يحاك في أكاديميتك، لما جئت أطلب أذنك للحصول على السيدة. بل لكنت، والحالة هذه، أوقفتك فوراً، وتخلصنا منك نحن الاثنين: أنا والسيدة. ولكن تراني بالعكس، أتصرف معك بكل لطف وكياسة وإقناع أيها السيد بوزير، لأن هذه هي طريقتي الفضلى في الحياة.

عند ذاك ترك بوزير ذراع أوليفا وسأله: ألست أنت الذي كنت على أريكة السيدة منذ ساعتين؟ ها! أجب.

فسأله صاحب «الدومينو» الأزرق بدوره: أية أريكة هذه؟

وتابع يقول بعد أن قرصت أوليفا بنصره قرصة خفيفة: إني، في الواقع، لا أعرف أريكة سوى أريكة غرابيون الابن [1].

فأجاب بوزير:

– إن الأَمر سيان عندي، وحججك الجميلة هي كل ما يهمني. أقول حججك الجميلة، وكان علي أن أقول الممتازة. فخذ ذراع السيدة وتصرف معها كرجل ظريف يتقن مغازلة النساء.

فأغرب صاحب «الدومينو» الأزرق في الضحك، إذ أعجبه لقب «الرجل الظريف» الذي أنعم به عليه بوزير بملء الحرية، ثم ربَّت على كتفه وقال له:

– نم مطمئن البال، وإذا ما رأيتك هناك، سوف أقدم لك هدية لا تقل عن مئة الف ليرة. لأنك إن لم تذهب الى الأكاديمية هذا المساء، حسب ما اعتاد عليه شركاؤك، ستخسر حصتك، بينما إذا ذهبت...

---

١ – غرابيون الابن من كبار الكتاب اللغويين في القرن التاسع عشر، ومن مؤلفاته الشهيرة رواية شرقية بعنوان «الأريكة».

فغمغم بوزير : حسناً ، سوف أذهب ، ولن أدع هذه الثروة تفوتني .

ثم حيّا أوليفا وفارسها الجديد وانصرف بعد ان استدار دورة كاملة على قدم واحدة .

وبعد أن تأبط صاحب « الدومينو » الأزرق ذراع الآنسة أوليفا وخلا لهما الجو ، قالت هذه الأخيرة :

– أما وقد تركتك تتلاعب بهذا المسكين بوزير على هواك ، فإني أحذرك ، بعد أن أصبحنا وحيدين ، بأني سوف أكون صعبة الانقياد اكثر منه ، أنا التي تعرفك جيداً ، لذا عليك ان تبحث لي عن الأشياء الجميلة ، وإلا ...

فقال صاحب « الدومينو » الأزرق بعد أن ضغط بلذة على الذراع المستديرة لتلك المرأة الصغيرة :

– إني لا أعرف ما هو أجمل من قصتك أيتها الآنسة نيكول .

فأطلقت تلك المرأة الصغيرة صرخة مخنوقة عند سماعها هذا الاسم يهمس به الرجل المقنع في أذنها . لكنها عادت فتمالكت نفسها وتظاهرت كأنها لم تفاجأ به إطلاقاً ، وقالت :

– الله !... ما هذا الاسم نيكول ؟ وهل هو يعنيني حتى تفاجئني به ؟ إنني أُدعى أوليفا ولا شيء سوى ذلك .

- إني أعرف جيداً. فأنت الآن تدعين أوليفا. ولكنك امرأة ذات اسمين: أوليفا ونيكول. وسوف نتكلم فيما بعد على أوليفا، أما الآن، فلنتكلم على نيكول. فهل نسيت الزمن الذي كنت تردين فيه على هذا الاسم؟ إني لا أعتقد ذلك، فالاسم الذي يطلق على فتاة وهي في ربيع العمر، هو الاسم الذي تحتفظ به، إن لم يكن ظاهرياً، ففي أعماق قلبها، مهما كان الاسم الذي يجبرونها على اتخاذه جميلاً كي تنسى اسمها الأول. أليس كذلك أيتها المسكينة أوليفا، بل أيتها السعيدة نيكول؟

عند ذاك أقبل نحو المتنزهين المتخاصرين جمهور من المقنعين، مما اضطر نيكول، أو أوليفا، وقد يكون رغماً عنها، الى أن تلتصق أكثر فأكثر بالرجل الذي يطوق خصرها، فقال لها:

- انظري، انظري الى هذا الخليط العجيب من الناس الموزع اثنين اثنين كي يتهامسوا كلمات الغزل والحب. إن كل هؤلاء يحملون مثلك أكثر من اسم واحد، وبينهم الكثيرون الذين سوف تعتريهم الدهشة فيما لو سميتهم بالأسماء التي يتذكرونها ويعتقدون بأن الناس قد نسوها.

- لقد قلت: المسكينة أوليفا!..

- نعم.

- ألا تعتقد بأني سعيدة إذن؟

- من الصعب أن تكوني سعيدة مع رجل مثل بوزير.

فتنهدت أوليفا وأجابت: لن أكون له بعد الآن!

- ومع ذلك، فأنت ما زلت تحبينه؟

- إن العقل يفرض عليّ ذلك!

- إن العقل يفرض عليك أن تتركيه، إذا كنت لا تحبينه.

- لا.

- كيف لا؟

- لأني ما من مرة تخليت عنه، إلا وندمت.

- ندمت؟! وعلى أي شيء تندمين في رجل سكير ومقامر، في رجل يضربك، في رجل نصّاب سيأتي يومٌ يلقى فيه حتفه تحت إحدى العجلات؟

- ربما أنك لم تفهم قصدي.

- أوضحي إذن.

- إن ندمي هو بسبب الضجة التي كان يثيرها حولي.

- كان علي أن أحزر. فشتان بين من تعاشرين وبين من أمضيت معه مطلع شبابك.

- مطلع شبابي!.. وهل تعرف مطلع شبابي؟

- كل المعرفة.

فأْخذت أوليفا تضحك وتهز رأسها ، ثم قالت : آوٍ أيها السيد العزيز .

- أتشكين فيما أقول ؟

- كلا ، لا أشك إطلاقاً .

- إذن لنتحدث عن مطلع شبابك أيتها الآنسة أوليفا .

- تحدث ، ولكني أحذرك بأني لن أعطيك أي جواب .

- أوه ! أنا لست بحاجة الى ذلك .

- إذن ، أنا صاغية .

- لن أبدأ بمرحلة طفولتك ، لأن طفولتك لا تعني شيئاً بالنسبة لي ، بل سأبدأ بمرحلة المراهقة ، في هذا الوقت الذي عرفت فيه أن الله قد وهبك قلباً كي يحب .

- كي يحب من؟

- كي يحب جيلبار ...

عندما تلفظ صاحب « الدومينو » الأزرق بكلمة جيلبار ، شعر بأن المرأة الشابة التي يتأبط ذراعها قد ارتعشت من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، ثم قالت :

- أوه ! يا إلهي ! كيف عرفت هذا ؟!

وتوقفت فجأة لتستشف بسهام عينيها من خلال قناعها ، وبشعور لا يحد ، عيني صاحب « الدومينو » الأزرق .

أما صاحب «الدومينو» الأزرق، فلقد بقي صامتاً.

وبعد لحظات من الصمت الرهيب، قالت أوليفا، أو بالأحرى نيكول:

- آهِ سيدي، لقد تلفظت باسم يثير أعذب الذكريات في قلبي. فهل تعرف هذا الجيلبار؟

- طبعاً أعرفه، طالما أني أكلمك عليه.

- واحسرتاه!

- إنه فتى يأخذ بمجامع القلوب، فهل كنت تحبينه؟

- لقد كان جميلاً ... كلا ... لم يكنْ جميلا ... ولكن أنا كنت أجده جميلاً. لقد كان فتى ذكياً، وكان يتحدر من أبوين في منزلة أبويَّ. ولكن لا، أبداً، طالما أن جيلبار لم يكن يريد هذه المساواة، فليس هناك امرأة تساويه.

- حتى ...

- حتى من؟

- حتى الآنسة دي تا ...

فقاطعته نيكول قائلة:

- آه! لقد عرفت ما كنت تودّ أن تقوله. آه؟ إنك رجل جدّ مثقف يا سيدي كما أرى. نعم، لقد كان يحب من هي أرفع منزلة من المسكينة نيكول.

- لقد توقفتُ عن الكلام كما رأيت.

فقالت أوليفا وهي ترتعش :

- نعم ، نعم ، إنك تعرف أسراراً جدّ مرعبة يا سيدي ، والآن ...

قالت كلمة « والآن » ثم تطلعت الى الرجل المجهول وكأنها تحاول أن تقرأ مكنونات صدره من خلال قناعه ، وأكملت : والآن ماذا أصبح عليه ؟

- ولكني أعتقد أنه باستطاعتك ، أفضل من أي شخص آخر ، أن تطرحي أنت عليه هذا السؤال .

- يا إلهي !.. لماذا ؟

- لأنه إذا كان هو قد لحق بك من تافرني الى باريس ، فأنت قد لحقت به من باريس الى تريبانيون .

- نعم ، هذا صحيح ، ولكنه قد مضى على ذلك عشر سنوات ، فأنا أحدثك عن السنوات العشر التي انقضت على هربي وعلى اختفائه . يا إلهي ! كم من الأمور قد جرت في خلال عشر سنوات !

فلزم صاحب « الدومينو » الأزرق الصمت ، وتابعت نيكول تقول بلهجة ملحّة ومتوسلة :

- أرجوك أن تخبرني عما حدث لجيلبار . فلماذا أنت صامت ؟ ولماذا تحوّل رأسك عني ؟ فهل هذه الذكرى تنكأ جراحك وتؤلمك ؟

والواقع أن صاحب « الدومينو » الأزرق لم يحوّل رأسه عن نيكول ، بل أحنى رأسه كأنه قد ناء تحت ثقل ذكرياته .

وتابعت نيكول طرح الأسئلة ، فقالت :

– عندما كان جيلبار يحب الآنسة دي تافرني ...

فقاطعها صاحب « الدومينو » الأزرق بقوله :

– لا تتلفظي بالأسماء هكذا بصوت مرتفع . ألم تلاحظي بأني قد امتنعت عن لفظ الأسماء أنا ؟

فأكملت أوليفا بعد تنهدة : عندما كان عاشقاً ، كانت كل شجرة في تريبيانيون تعلم بحبه .

– حسناً ، ألم تعودي تحبينه أنت ؟

– أنا ، بالعكس ، أكثر من أي يوم مضى . وإن هذا الحب هو الذي يفقدني صوابي ، فأنا ما زلت جميلة ومعتدة بنفسي ، وعندما أشاء ، أكون وقحة وأحطم رأسي على قرمة شجرة ، وهذا أفضل لي من أن أقول بأني طأطأت رأسي .

– هل يؤذيك هذا الحديث يا نيكول ؟

– لا ، أبداً ، فهو يعيدني بالذاكرة الى مطلع شبابي ، وهو كالأنهر بالنسبة للحياة ، فالنهر العكر يكون منبعه نقياً وصافياً أكثر من غيره . فاكمل يا سيدي ولا تكترث لتنهدات صدري .

فتمايل صاحب «الدومينو» الأزرق قليلاً، وقال بعد أن ارتسمت على شفتيه تحت قناعه ابتسامة خفيفة:

– أوه! إني أعرف الكثير عنك وعن جيلبار وعن امرأة أخرى أيتها الابنة المسكينة.

فصاحت أوليفا:

– إذن، قل لي لماذا هرب جيلبار من تريبيانون، واذا ما قلت...

– هل ستقتنعين؟ لا، لن أقول، ومع ذلك ستكونين أكثر اقتناعاً.

– كيف ذلك؟

– ذلك أنك لا تقصدين من سؤالك: لماذا ترك جيلبار تريبيانون، التأكد من الحقيقة، بل أنت تجهلين أمراً ما وتريدين معرفته.

– هذا صحيح.

قالت نيكول «هذا صحيح» وأخذت ترتجف بشدة، ثم أطبقت يديها المتشنجتين على يدي صاحب «الدومينو» الأزرق، وصاحت:

– يا إلهي!.. يا إلهي!..

فقال لها الرجل المقنع: إيه! ماذا جرى لك؟!

فتظاهرت نيكول بأنها قد استبعدت الفكرة التي استبدت بها ، وأجابت :

– لا شيء ، لا شيء .

– من غير المعقول . فأنت تودين سؤالي عن شيء .

– هذا صحيح . فقل لي بربك ، ماذا جرى لجيلبار ؟

– ألم تسمعي بأنه قد مات !

– سمعت ، ولكن ...

– ولكن ماذا ؟ لقد مات ؟

– مات ؟ قالتها نيكول بلهجة الشك ، ثم أردفت بلهجة التوسل :

– رحماك سيدي ، هل تتكرم عليّ بخدمة ؟

– أنا مستعد لخدمتين ، بل لعشر خدمات أيتها العزيزة نيكول .

– منذ ساعتين ، رأيتك عندي ، ألستْ أنت ؟

– أنا بذاتي .

– ومنذ ساعتين ، لم تكن تحاول أن تخفي نفسك عني .

– بالعكس ، كنت أحاول أن أظهر امامك على حقيقتي .

– أوه ! يا لي من مجنونة ! أنا التي تطلعت اليك ملياً . مجنونة ، مجنونة غبية ! امرأة ، لست سوى امرأة ! هذا ما كان يقوله جيلبار .

- ماذا تفعلين يا نيكول؟! دعي شعرك الجميل وشأنه، وراعي صحتك قليلاً.

- لا، أريد أن أنتقم من نفسي لأني نظرت اليك دون أن أتفحصك.

- لم أفهم قصدك.

- أتعلم الذي أودّ أن أطلبه منك؟

- اطلبي.

- إنزع قناعك.

- هنا؟! غير ممكن.

- لا تخشَ ان تراك سوى عينيَّ اللتين منعتهما من التطلع اليك. فهناك وراء هذا العمود، وفي ظلمة الرواق، لن يراك أحد سواي.

- أي شيء يمنعني إذن؟

- أنت تخشى أن لا أعرفك.

- أنا؟

- وأن لا أصرخ: هذا أنت، هذا جيلبار!

- آه! إنك في الحقيقة كما قلت: مجنونة! مجنونة!

- إنزع قناعك.

- حاضر، ولكن بشرط.

- إني أوافق على شرطك مقدماً.

- هو ان تحذي حذوي، وتنزعي قناعك مثلي.

- سوف أنزعه، وإذا لم أفعل، انزعه أنت بالقوة.

فانبرى صاحب «الدومينو» الأزرق الى المكان المظلم الذي حددته المرأة الشابة، ونزع قناعه ووقف أمام أوليفيا التي افترسته بنظراتها لمدة دقيقة، ثم قالت وهي تضرب الأرض برجلها وتحك بأظافرها راحة كفها:

- واحسرتاه! إنه ليس جيلبار.

فسألها الرجل المجهول: من أكون إذن؟

- هذا الأمر لا يهمني، طالما أنك لست جيلبار.

- وماذا لو كنت جيلبار؟

- لو كنت جيلبار لصحت بي: نيكول، نيكول، هل تتذكرين المنزل الأحمر في تافرني؟ آه! عندئذ...

- عندئذ ماذا؟

- عندئذ لما بقي هناك بوزير في حياتي.

- لقد قلت لك أيتها الابنة العزيزة بأن جيلبار قد مات.

فتنهدت أوليفا وأجابت: قد يكون، وهذا أفضل لي.

- نعم، فجيلبار رغم جمالك، لم يحبك قط.

- أتريد القول بأن جيلبار قد احتقرني؟

- لا، بالأصح، كان يخيفك.

– هذا صحيح ، فلقد كنت أشعر بالرهبة تجاهه ، وكان هو يعرف ذلك .

– إذن ، كما قلت ، من الأفضل أن يكون ميتاً .

– لماذا تردد كلماتي ؟ فكلماتي على شفتيك تجرحني . لماذا من الأفضل ان يكون ميتاً ، قل !

– لأنك اليوم أيتها العزيزة أوليفا ، وها إنك تريني قد تخليت عن نيكول – اليوم أيتها العزيزة أوليفا ، باستطاعتك أن تؤمني لنفسك مستقبلاً سعيداً وثروة أكيدة .

– وهل تعتقد ذلك ؟

– بالطبع ، إذا أنت عزمت على أن تفعلي كل ما يوصلك الى هذا الهدف الذي أعدك به .

– إن كان الأمر كذلك ، فكن مطمئناً .

– فقط ، عليك أن لا تتنهدي كما كنت تتنهدين منذ هنيهة .

– لقد كنت أتنهد من أجل جيلبار . وطالما أن جيلبار قد مات ، وطالما أنه لا يوجد جيلبار آخر على وجه هذا البسيطة ، فأنا لن أتنهد بعد الآن .

– لقد كان جيلبار شاباً ، وكانت له أخطاؤه ككل الشبان ، أما الآن ...

– إن عشر سنوات تصرمت لم تفقد جيلبار شبابه .
– لا ، بدون شك ، لأن جيلبار قد مات .
– نعم ، لقد مات شاباً . إن أفراد أسرة جيلبار لا يعمرون .

فصاح الرجل المجهول :

– إيه ايها الشباب ! إيه أيها الجمال ! إنكما بذور الحب الخالدة ، فالذي يفقد شبابه وجماله ، يفقد الحياة فعلاً . فالشباب والجمال هما الجنة ، هما كل شيء ، إذ لا يوجد شيء على الاطلاق يعوض عن خسارة الشباب والجمال .

فقالت أوليفا :

– إن نظرتك الى الشباب والجمال هي ذات نظرة جيلبار ، ولكن دعنا من هذا الموضوع .

– نعم ، لنترك هذا الموضوع جانباً ، ولنتحدث عما يخصك :

– لنتحدث عمّا تريد .

– لماذا هربت مع بوزير ؟

– لأني كنت أريد أن أترك تريبيانون ، وعليّ أن أهرب مع واحد . فقد شعرت بأنه لم يعد باستطاعتي البقاء مع جيلبار أطول مما بقيت كامرأة محتقرة يلفها الشقاء .

– ومع ذلك بقيت وفيّة لحبه عشر سنوات ؟! يا لك من امرأة قد دفعت غالياً ثمن عجرفتها وغرورها !

فأخذت أوليفا تضحك، وقال الرجل المجهول بانفعال :

– إني أعرف جيداً لماذا تضحكين. فأنت تضحكين من رجل يزعم أنه يعرف كل شيء، ومع ذلك يتهمك بالإخلاص لمدة عشر سنوات، بينما أنت في الواقع كنت تعبثين وتهزئين بهكذا إخلاص. فتأكدي أيتها الشابة المسكينة بأني على علم بأنك قد سافرت مع بوزير الى البرتغال حيث بقيتما هناك سنتين، ومن البرتغال انتقلت الى الهند، ولكن ليس برفقة بوزير، بل برفقة قبطان فرقاطة خبأك في غرفة القيادة ثم تركك في مدينة «شاندر تاغور» وقفل عائداً الى أوروبا. وأعرف ايضاً أنك قد سلبت لبَّ أحد حكام المقاطعات الهنود، فأغدق عليك المال والمجوهرات وكان يحتجزك وراء ثلاثة مشبكات من القضبان الحديدية، وأنك قد فريت من ذلك السجن بواسطة عبد امتطيت كتفيه بعد أن قفزت من فوق المشبكات، ثم رجعت الى باريس حيث التقاك بوزير من جديد.

فقالت نيكول متعجبة :

– أوه! من تكون أنت يا إلهي كي تعرف كل هذه الأشياء؟!

– وأخيراً أعرف بأن بوزير قد أوهمك بأنه يحبك، فباع مجوهراتك وتركك فريسة الشقاء والتعاسة ... وأعرف بأنك

ما زلت تحبينه . ولما كان الحب هو ينبوع السعادة ، فيجب أن تكوني أسعد امرأة في العالم .

فطأطأت أوليفا رأسها وأسندت جبهتها بيدها . ومن خلال أصابع هذه اليد تدحرجت دمعتان كاللؤلؤ السائل ، ربما كانتا أثمن من سواريها ، ومع ذلك لم يشأ أحد أن يبتاعهما لبوزير . ثم قالت :

– وهذه المرأة المتعجرفة ، هذه المرأة السعيدة ، قد اشتريتها أنت هذا المساء بخمسين ليرة ذهبية ...

فقال الرجل المجهول بلهجة هي في غاية الرقة ورهافة الذوق لا يتقنها إلا من كان ممالقاً حاذقاً مثله :

– أوه ! إني أعرف جيداً بأن هذا المبلغ قليل جداً يا سيدتي .

– بالعكس يا سيدي ، إنه مبلغ كبير جداً . وأقسم لك بأنك قد فاجأتني به ، إذ استغربت أن تكون امرأة مثلي ما زالت تساوي خمسين ليرة ذهبية .

– إنك تساوين أكثر من هذا المبلغ بكثير ، وأنا مستعد لإقامة الدليل على ذلك . ارجوك أن لا تجاوبيني لأنك لم تفهميني . ثم ...

– ثم ماذا ؟

– ثم إني بحاجة إلى كامل إصغائك في هذه اللحظة .

– إذن عليّ أن أصمت .

– لا ، بالعكس ، كلميني .

– عن أي شي ؟

– عمّا تشائين ، عن الأشياء العديمة الفائدة إذا شئت ، فالأمر لا يهمني ، شرط ان لا نبقى في فراغ .

– حسناً ، ولكنك رجل نسيج وحده !

– أعطني ذراعك ، ولنمشِ.

ومشى الاثنان وسط الجموع التي غصت بها قاعات الاوبرا . وكانت نيكول تختال بقامتها الرشيقة وتلفت الأنظار بحركات رأسها وتمايل عنقها ، وإن من تحت القلنسوة و« الدومينو » ، مما جعل الكل ينظرون اليها باشتهاء ، لأنه في ذلك الوقت ، كانت مشية امرأة مغناج في حفلات الاوبرا تلفت الأنظار كما يلفت عدْو الجواد الجميل اليوم أنظار الهواة بالجياد الأصيلة .

وبعد أن سارا هكذا بضع دقائق ، فاجأت أوليفا الرجل المجهول بسؤال ، أجابها عنه بقوله :

– اصمتي ! أو بالأحرى تكلمي ما شئت ولكن لا تجبريني على الجواب . واذا ما تكلمت ، فليكن صوتك متنكراً ، وليبقَ رأسك مستقيماً ، واستري عنقك بمروحتك .

فرضخت أوليفا لهذه التعليمات .

في تلك اللحظة كان المتنزهان يمران بجماعة يفوح العطر من أفرادها وقد توسطهم رجل ذو قامة أنيقة وهيئته تدل على رفعة المقام ، كان يكلم ثلاثة من رفاقه وهم يصغون اليه باحترام ، فسألت أوليفا رفيقها :

- من يكون هذا الرجل الظريف ذو « الدومينو » الرمادي اللؤلؤيّ ؟

فأجاب الرجل المجهول :

- إنه الكونت دارتوا . ولكن لطفاً ، لا تتكلمي !

فأدهش هذا الاسم الكبير أوليفا واستقامت لترى صاحبه جيداً وهو يتابع إصدار أوامره التي كان يرددها عدة مرات . وبينما هي كذلك انسحب اثنان من أصحاب « الدومينو » كانا مع لفيف لهما واقتربا من مكان يخلو من المقاعد حيث قال أحد الاثنين لرفيقه بصوت خفيض أثار فضول « الدومينو » الأزرق :

- اجلسي أيتها الكونتس على ركيزة العمود .

وفي ذات البرهة تقريباً ، اخترق الجمع شخص يلبس « دومينو » برتقالي اللون وتدل هيئته على أنه ذو نفع أكثر مما هو جليس ممالق ، واقترب من « الدومينو » الأزرق وقال له :

- إنه هو .

فأجابه صاحب «الدومينو» الأزرق : حسناً .

ثم صرف بحركة منه ذلك الرجل وانحنى على أوليفا وهمس في أذنها قائلاً : ما رأيك أيتها الصديقة الطيبة بأن نتلهى بعض الشيء فنروِّح عن أنفسنا قليلاً ؟

فأجابته أوليفا :

– هذا ما أتمناه ، لأنك أدخلت الحزن الى قلبي مرتين . المرة الأولى عندما انتزعت مني بوزير الذي كان يضحكني دائماً ، والمرة الثانية عندما حدثتني عن جيلبار الذي أبكاني عدة مرات .

فقال «الدومينو» الأزرق برصانة :

– سوف أكون لك ولجيلبار وبوزير .

فتنفست نيكول الصعداء وتأوهت ، وأردف صاحب «الدومينو» الأزرق يقول :

– لن أطلب منك أن تحبيني ، افهمي ذلك ، بل سأطلب منك أن تقبلي الحياة كما أرتبها لك ، أي بتحقيق كل رغباتك ، شرط أن تراعي أنت رغباتي من وقت لآخر ، وها هي واحدة من رغباتي حاضرة الآن .

– ما هي ؟

– أرأيت هذا «الدومينو» الأسود ، إنه أحد أصدقائي الألمان .

– آه !

– إنه مخادع ، رفض دعوتي لحضور حفلة الرقص بحجة صداع انتابه .

– وأنت قلت له بأنك لن تحضر الحفلة .

– بالضبط .

– أليست امرأة تكون التي برفقته ؟

– بلى .

– من تكون ؟

– لا أعرفها . سوف نتقدم منهما ، أليس كذلك ؟ وسوف نتظاهر بأنك المانية ، فإياك أن تفتحي فمك مخافة أن يعرف من لهجتك بأنك باريسية خالصة .

– حسناً ، وهل ستثير فضوله ؟

– سوف ترين . امسكي الآن مروحتك وأشيري اليه بطرفها وكأنك تدلين عليه ، ثم اهمسي في أذني ...

فأطاعت أوليفا وقامت بما أمرها به ببراعة فائقة ، مما أثار الفضول فعلاً في نفس ذلك الشخص وأيقظت حركاتها كوامن نفسه رغم تقنعها .

وكان « الدومينو » الأسود ، موضوع هذه التمثيلية ، يدير ظهره الى صالة الرقص ويتحدث الى السيدة التي ترافقه ، فلاحظت هذه الأخيرة بعينيها اللتين كانتا تبرقان تحت

قناعها ، الحركة التي قامت بها أوليفا ، فقالت لرفيقها بصوت يشبه الهمس :

- عجباً سيدي ! فهناك مقنعان يختلسان الينا النظرات ويتهامسان علينا .

- أوه ! لا تخافي أيتها الكونتس ، فمن غير المعقول أن يعرفنا أحد . وبالمناسبة ، اسمحي لي بأن أردد على مسامعك بأن قوامك الرشيق ونظراتك الساحرة لا يضاهيها قوام ونظرات أي امرأة على الاطلاق . واسمحي لي ايضاً بأن أقول لك ...

- كلَّ ما يقولونه تحت القناع .

- لا أيتها الكونتس ، بل كل ما يقولونه تحت ...

- لا تكمل . إنك تعذب نفسك ... ثم هناك خطر كبير يهددنا ، فالجواسيس تسترق السمع الينا .

فصاح الكردينال مرتعشاً : أجاسوسان هما ؟!

- نعم ، وها هما يقتربان منا .

- غيِّري لهجة صوتك تماماً أيتها الكونتس ، إذا ما تكلما اليك .

- وأنت كذلك يا صاحب السيادة .

وبالواقع أخذت أوليفا و « الدومينو » الأزرق يقتربان منهما ، ثم قال هذا الأخير موجهاً كلامه الى الكردينال :

- أيها المقنع .

ومال على أذن أوليفا بحركة تدل على التأكيد ، فأجابه الكردينال بنبرة صوت تنكرية :

- ماذا تريد يا هذا ؟

فأجاب « الدومينو » الأزرق : إن المرأة التي ترافقني ، كلفتني أن أطرح عليك عدة أسئلة .

فأجاب السيد دي روهان : قل بسرعة .

وأضافت السيدة دي لاموت بصوت مزماري النغم : ولتكن أسئلة بعيدة عن التطفل .

فردّ عليها « الدومينو » الأزرق قائلاً :

- إنها أسئلة فيها من التطفل ما لا تستطيعين سماعه أيتها الفضولية .

ومال مرة جديدة على أذن أوليفا ومثّل معها نفس الدور ، ثم طرح على الكردينال بألمانية لا عيب فيها ، هذا السؤال :

- هل أنت مغرم بتلك المرأة التي تصطحبها يا صاحب السيادة ؟

فانتفض الكردينال وأجاب : ألم تناديني بصاحب السيادة ؟

- بلى يا صاحب السيادة .

– إذن ، أنت على ضلال . فأنا لست الشخص الذي ظننته .

– أوه ! من غير المفيد لك أن تنكر يا حضرة الكردينال . فحتى لو كنت أنا على ضلال ، فإن السيدة التي أنا مراقصها ، قد كلفتني بأن أقول لك بأنها تعرفك حق المعرفة .

قال هذا ومال على أوليفا وأفهمها بأن تشير مؤكدة قوله ، وبأن تؤكد بذات الاشارة كل ما يقوله بعد أن يضغط على ذراعها. فقامت بالاشارة المطلوبة فوراً ، وقال الكردينال وهو مضعضع الحواس :

– إنك تدهشني أيها الرجل ، فمن تكون هذه المرأة التي ترافقك ؟

– يا للعجب يا صاحب السيادة ! فقد اعتقدت بأنه سبق لك أن عرفتها ، طالما هي قد عرفتك . ولكن قاتل الله الغيرة ...

فصاح الكردينال : ماذا تقصد بكلامك يا هذا ؟

فأجاب الرجل المجهول : أنا لم أقصد شيئاً ، ولكن الغيرة عند النساء شيء مألوف .

وهنا انبرت السيدة دي لاموت تقول بنبرة حادة وقد ساءها هذا الحوار الذي لم تفهمه : ما هذا الحوار الألماني ؟

فأجابها الكردينال مطيباً خاطرها : لا شيء ، لا شيء .

ولكن صبر السيدة دي لاموت قد عيل ، فأخذت تضرب الارض برجلها ... عندئذ قال الكردينال موجهاً كلامه الى أوليفا بلهجة المتوسل :

- أرجوك سيدتي ، إن كلمة واحدة منك تكفيني لأن أعرفك .

لكن أوليفا التي تجهل الالمانية جهلاً تاماً ، لم تفهم ما قاله الكردينال بالألمانية ، فانحنت على رفيقها تسأله : ما العمل ؟ فأجابها الدومينو الأزرق .

- أتوسل إليك سيدتي ، إياك أن تتكلمي .

فأثارت هذه الحركة وصمت أوليفا فضول الكردينال ، فأردف يقول :

- كلمة واحدة بالألمانية ، تنقذين موقفي الحرج سيدتي .

فتظاهر « الدومينو » الأزرق بأنه ينفذ أوامر أوليفا ، وأجاب الكردينال بقوله :

- سيدي الكردينال . إليك كلام سيدتي حرفياً : « إن الذي لا يوقظه فكره دائماً ، والذي لا تتمثل دائماً في مخيلته صورة الشخص الذي يحبه ، هو شخص غير خليق بالحب . »

فكان لهذا الكلام على الكردينال وقع الصاعقة ، إذ جعله

في موقف المضعضع، الفاقد احترامه وعظمته، فتراخت يداه ودمدم قائلاً بالفرنسية:

- هذا مستحيل!

فصاحت به السيدة دي لاموت التي لم تفهم من هذا الحوار الذي كانت تواقة لفهمه سوى كلمتي: «هذا مستحيل!»، صاحت تسأله:

- ما هو هذا المستحيل؟

فأجابها الكردينال: لا شيء، لا شيء يا سيدتي.

فقالت له بألم: يتراءى لي يا صاحب السيادة بأنك تدفعني للعب دور مؤسف.

قالت له هذا وتركت ذراعه. أما هو، فليس فقط أنه لم يحاول دفع هذه التهمة عنه، بل بدا لفرط تأثره بالسيدة الألمانية، كأنه لم ينتبه لما قامت به السيدة دي لاموت. ثم قال موجهاً كلامه لتلك السيدة المقنعة التي خلبت لبّه:

- إن الكلام الذي فاه به باسمك رفيقك، هو مقطع من قصيدة المانية كنت قد قرأته في منزل تعرفينه كما أعتقد؟

فعبَّرت عن كلمة «نعم» بانحناءة من رأسها، بعد أن ضغط الرجل المجهول على ذراعها، مما جعل الكردينال يرتعش ويسأل متردداً:

- وهذا المنزل ... ألا يدعى ... شوانبرن [1] ؟

فأشارت أوليفا برأسها أن نعم .

عند ذاك توقف الكردينال عن الكلام ، إذ شعر بثورة عارمة تعتمل في نفسه ... ثم تهادى ومدّ يده باحثاً عن شيء يستند إليه ، بينما كانت السيدة دي لاموت تراقب عن بعد خطوتين هذا المشهد الغريب . وأخيراً استقرت يد الكردينال على « الدومينو » الأزرق وقال له : واليك التتمة ...

« ... لكن الرجل الذي يرى محبوبه في كل مكان ، الذي يراه في الزهرة ويحسه في الشذا، فهذا الرجل يمكنه أن يصمت ، لأن صوته في قلبه ، ويكفي أن يسمعه قلب آخر ليكون سعيداً .»

وفجأة سُمع صوت شاب انطلق من بين مجموعة التفت حول الكردينال يقول :

- ما هذا !.. إنهم يتكلمون الالمانية هنا ! لنرى قليلاً . هل تفهم الالمانية أيها الماريشال ؟

- لا يا صاحب السيادة .

- وأنت يا شارني .

---

١ - شوانبرن هو القصر الامبراطوري قرب فيينا، وقد بدأ بإشادته جوزف الاول وأكملته ماري تيريز والدة ماري انطوانيت.

– اوه ! نعم ، إني أفهمها يا صاحب السموّ .

ثم صاحت أوليفا وهي تحشر نفسها بالدومينو الأزرق بعد ان حشرها قليلاً أربعة مقنعين بطريقة خالية من الاحترام :

– إنه الكونت دارتوا !

وفي هذه البرهة عزفت الاوركسترا لحناً صاخباً جن له جنون الراقصين وألهب حماسهم وجعل الغبار يتطاير من أرضية القاعة ويعمُّ المكان بكل ما فيه ويلفّ الثريات المشعة بمختلف الألوان بما يشبه الغمام الخفيف . وامام هذا الجنون شعر صاحب « الدومينو » الأزرق بأن أرجل الراقصين المقنعين تكاد تدوسه فصاح قائلاً :

– مهلاً أيها السادة ؟

– وقال له الأمير دي روهان : أرأيت يا سيدي ، نرجو المعذرة من السيدتين .

ثم قالت السيدة دي لاموت بصوت خافت : لنذهب ! لنذهب سيدي الكردينال .

وللحال شعرت أوليفا بيدين تلامس ثوبها التنكري برشاقة ... واذا بقناعها يفكّ ويسقط على الأرض ... وبملامح وجهها تبدو للعيان ... فأطلق « الدومينو » الأزرق صيحة قلق ، وأطلقت أوليفا صيحة رعب ، ثم توالت صيحات الدهشة والتعجب !

فخارت قوى الكردينال وشعر بالغثيان وكاد يسقط على ركبتيه ... فأسرعت السيدة دي لاموت الى نجدته .

وجرف التيار الذي عصف بالقاعة زمر المقنعين فأقبلوا يفصلون بين الكونت دارتوا والكردينال والسيدة دي لاموت . وأسرع بدوره « الدومينو » الأزرق فركز القناع من جديد على رأس أوليفا وربطه ربطاً محكماً . ثم تقدم من الكردينال وقال له بعد أن شدَّ على يده :

- إن ما حصل يا سيدي شيء فظيع . فالإساءة التي لحقت بشرف هذه السيدة ، أنت المسؤول عنها .

فانحنى الأمير دي روهان ودمدم قائلاً : آه ! سيدي ، سيدي ...

ثم أخذ يمسح بمنديله ، وبيد مرتجفة ، العرق المتصبب من جبهته ... فاغتنم « الدومينو » الأزرق فرصة تضعضعه وقال لأوليفا : تعالي نذهب .

وبعد أن أنسلا بين جمهور المقنعين واختفيا ، وقفت مدام دي لاموت تنظر الى الكردينال وتقول في نفسها : « لقد عرفت الآن سرّ انهياره ... فقد اعتقد أن هذه المرأة هي الملكة بالذات نظراً للشبه الكبير بينهما ، وهو شبه يستأهل الملاحظة والاهتمام» .

وبينما هي تفكر بهذا الشبه ، إذا بالكردينال يقول لها بصوت وهن :

– أتريدين أن نترك حفلة الرقص أيتها الكونتس ؟

فأجابت جان بهدوء وسكينة :

– كما يروق لك يا صاحب السيادة .

– لا أرى أن هناك فائدة من بقائنا ، أليس كذلك ؟

– أبداً ، فإني أشاطرك الرأي .

وعلى الأثر شقّا طريقهما بين المحتشدين ، وكان الكردينال بقامته الطويلة يتلفت ذات اليمين وذات اليسار علَّ بصره يقع على المرأة التي ضعضعت حواسه ، ولكن تلك المرأة كانت قد اختفت . فخرج كئيباً حزيناً واستقل مع رفيقته العربة التي كانت بانتظاره ، فانطلقت بهما وسارت اكثر من عشر دقائق دون أن ينبس الكردينال بكلمة واحدة ...

في منزل الضاحية

★

قطعت مدام دي لاموت حبل الصمت على الكردينال الجالس الى جانبها بقولها :

– الى أين تقودني هذه العربة ؟

فصحا الكردينال من غفلته وقال :

– لا تخافي أيتها الكونتس ، فأنت قد أتيت من منزلك ، والعربة ستعيدك إليه .

– منزلي ... في الضاحية ؟

– نعم أيتها الكونتس . فهو منزل صغير وكل ما فيه يوحي بالسحر والجمال !

قال الكردينال هذا الكلام وأمسك بإحدى يدي جانّ وطبع عليها قبلة حارة ...

ثم أكملت العربة سيرها . وعندما وصلت أمام ذلك البيت الساحر والجميل وتوقفت ، هبطت منها جانّ بخفة وتهيأ الكردينال ليلحق بها ، فقالت له :

– لا تزعج نفسك يا صاحب السيادة ... فليس من الضروري أن ترافقني . فصاح الكردينال مندهشاً :

– كيف أيتها الكونتس ؟! أليس من الضروري أن نقضي معاً عدة ساعات ؟

فقالت جان : وأن تنام يا صاحب السيادة ...

– أعتقد جيداً بأنك سوف تجدين عدة للنوم في منزلك أيتها الكونتس .

- من أجلي ، نعم ، ولكن من أجلك ...

- من أجلي ، لا ؟

فقالت له بلهجة الرفض المقرون بالوعد : حتى الآن ، لا .

فأجاب الكردينال بخيبة أمل مريرة : إلى اللقاء إذن .

- الى اللقاء يا صاحب السيادة .

وأردف الكردينال يقول وهو يهمّ بالخروج : في الواقع ، إني أفضل هكذا .

ثم دخلت جانّ منزلها الجديد ، فأسرع ستة من الخدم أيقظتهم من نعاسهم طرقات المطرقة واصطفوا في البهو ، فألقت عليهم جانّ نظرات التعالي الهادئة التي لا تهبها الثروة لكل الأغنياء ، وسألتهم :

- وأين الوصيفتان ؟

فتقدم منها أحد الخدم باحترام ، وأجاب :

- الوصيفتان في غرفة سيدتي .

- ناديهما .

فأطاع الخادم . وبعد عدة دقائق حضرت الوصيفتان ، فسألتهما جانّ :

- أين تنامان عادة ؟

فأجابت المرأة الاكبر سناً : ليس في العادة ان ننام في مكان معين، بل حيث تشاء سيدتي.

- أين مفاتيح الغرف؟

- ها هي يا سيدتي.

- حسناً، عليكما أن تناما هذه الليلة خارج المنزل.

فأخذت المرأتان تنظران الى سيدتهما بدهشة، وأردفت جانّ تسألهما:

- هل لديكما مأوى آخر؟

- بدون شك، ولكن الوقت أصبح متأخراً قليلاً. مع ذلك، إذا شاءت سيدتي أن تبقى وحدها...

فقاطعتها الكونتس وهي تشير الى الخدم الستة: وهؤلاء السادة سوف يصطحبونكما أيضاً وسيكونون مسرورين أكثر منكنّ.

فسأل أحد هؤلاء الخدم ببرودة:

- و ... متى سنعود؟

- غداً عند الظهر.

فتناظر الخدم والوصيفتان لحظة، ثم اتجهوا نحو الباب ترافقهم جانّ بعينيها الآمرتين. وبعد أن أصبحوا خارجاً، لحقت بهم وسألتهم قبل أن تصفق الباب وراءهم:

- هل بقي أحد داخل المنزل؟

فأجابها الأكبر سناً:

- لا يا سيدتي، لم يعد هناك أحد. فكيف يا إلهي ستبقين وحدك ولا من يهتمّ بك؟! لتبقَ على الأقل وصيفة تسهر عليك. لتبقَ في الممرات، في غرف الخدم، في أي مكان، ولكن لتبقَ.

- لست بحاجة الى أحد.

ثم سحبت الكونتس كيس نقودها وقالت لهم: وهاكم أول دفعة على حساب خدمتكم لي. اذهبوا جميعاً ولتكن ليلتكم سعيدة.

فكان جواب الخدم الوحيد على هذا السخاء همهمات الفرح وكلمات الشكر، ثم انحنوا حتى الأرض محيين سيدتهم وتواروا، وقد سمعتهم جان من وراء الباب يقول الواحد منهم للآخر: «إن القدر قد ساق لنا سيدة غريبة الاطوار!»

وعندما اختفت أصواتهم وتلاشت ضجة أقدامهم في البعيد، أغلقت جانّ الباب وقالت بلهجة المنتصرة: وحدي، وحدي أنا في منزلي!

ثم دخلت الى البهو وأضاءت المشعل المخصص لإنارته وأقفلت مزاليج بابه الضخم وجلست على أحد مقاعده تمثل

مشهداً صامتاً فريداً من تلك المشاهد الاسطورية التي كثيراً ما قدمها الشعراء لعشاق المشاهد الليلية .

وبعد ذلك أخذت جانّ تتجول في المنزل وتتفقد أقسامه واحداً واحداً ، فبدا لها بأثاثه الفخم أنه منزل ذو قيمة كبيرة . فالطابق الأرضي فيه يشتمل على قاعة للحمام، ومكاتب وقاعات للأكل ، وثلاثة صالونات ، وغرفتين للاستقبال . وفرش هذا الطابق ليس بالفرش الحديث الذي يستهوي نساء العصر ، ولكنه فرش أثري مصنوع من خشب الآبنوس المحفور ، بالاضافة الى ثريات الكريستال وساعات الحائط الأثرية والسجاد الفاخر وغير ذلك مما احتوته قصور أثرياء ذلك العصر من كنوز لا تقدر بثمن .

والخلاصة ان كل ما في هذا القصر يشهد على ان صاحبه قد ورث ثروة كبيرة ، وأنه قد أضاف الى الكنوز التي ورثها عن أجداده كنوزاً جديدة ليورثها بدوره الى أولاده .

بعد هذه الجولة التفقدية التي قامت بها جانّ ، شعرت بأن « الدومينو » الذي تلبسه يزعجها ويضغط على جسدها الرخص ، فدخلت الى غرفة النوم ونزعت ثيابها بسرعة وارتدت مئزراً من الحرير المبطن ، فبدت نصف عارية إلا من « الساتان » الهادل على صدرها وقامتها وساقيها المرمريتين ...

لقد صعدت الى غرفة نومها هذه في الطبقة العليا ، متسلقة الدرج والشمعة بيدها تنير سبيلها ولا تخشى نظرة خادم. وعندما رفعت يدها البضة الى خزانة الثياب انزلق مئزرها من أعلاه ، فانحسر عن كتفيها والقسم الأعلى من صدرها المرمري ، فبدت الطنافس والستائر وكل ما في المكان كأنها أعناق ثملة تشرئب الى هذه الضيفة الفاتنة وتودّ لو تمتلكها.

وبعد أن أقفلت جانّ باب غرفتها ونوافذها وأرخت الستائر ، استرخت فوق سريرها الوثير وهي تشعر بحرارة جسدها كأنها سلك كهربائي يسري في عروقها. والحرارة التي شعرت بها جانّ في تلك الساعة لم تكن إلا حرارة الحب الذي يتفجر من حيوية وجمال جسدها وأنوثتها.

لقد وجدت نفسها جميلة وفاتنة تلك الليلة ، وشعرت بشبابها يتدفق حيوية ونشاطاً. ولكن عندما بحثت في ذهنها عن الشخص الجدير بحبها لم تعثر عليه ... فأحنت رأسها على كتفها حتى لامست شفتاها صدرها العادي ، وتأوهت وتنهدت من أعماق قلبها واستكانت ...

وكانت الشمعة التي وضعتها على منضدة من الخزف الفاخر تلفظ أنفاسها الأخيرة عندما أطبقت جان عينيها واستسلمت للرقاد.

أكاديمية مسيو بوزير

★

عمل السيد بوزير بنصيحة « الدومينو » الأزرق وتوجه الى ما كانوا يسمونه اكاديميته ، يحدوه الأمل بالحصول على تلك الثروة التي تقدر بمليوني ليرة . وكانت الشكوك تساور صديق أوليفا من الطريقة التي اعتمدها مساعدوه لتنفيذ هذا المشروع وهو غافل لا علم له به ، لو لم ينبهه اليه في سهرة الاوبرا ذلك « الدومينو » الأزرق .

كان لبوزير بين شركائه في الاكاديمية سمعة الرجل المرعب . ولا غرو ولا عجب ، فقد كان برتبة ضابط شرطة يعرف أن يضع يداً على وركه ويداً على مقبض سيفه ، كما أنه اعتاد أن يغرز قبعته حتى عينيه ليفرض وقاره . لذلك حسب حساب الانتقام من الذين احتقروه بما قرروه دون علمه ، وذلك بإلقاء الرعب في نفوس زبائن مقمرة شارع « بو دي فير » التي كانوا يسمونها أكاديمية بوزير .

كانت المسافة بعيدة بين بوابة سان مارتين وكنيسة القديس سيلبيس ، إلا أن بوزير لم يكن يعوزه المال ، لذا استقل عربة

ونقد حوذيها مبلغاً يكفي لاستئجار عربة يوماً بكامله . فألهب الحوذي أقفية جياده مما جعلها تنطلق بأقصى سرعتها .

وبما أن بوزير في ذلك الوقت كان يرتدي « الدومينو » وليس لديه سيفه ولا قبعته ، فقد اتخذ لنفسه مظهراً فظاً جعل دخوله الى الأكاديمية يوحي بالرهبة والسطوة .

إذن وصل بوزير إلى أكاديميته بأسرع وقت ممكن ، فوجد في القاعة الأولى ما يقارب العشرين مقامراً يحتسون الجعة وغيرها من المشروبات الروحية ، وهم يبتسمون لسبع أو ست نساء كن ينظرن الى أوراق اللعب وهنَّ مخضباتٍ ببشاعة وانعدام ذوق .

وعلى الطاولة الرئيسية في تلك القاعة كانوا يلعبون « الفرعونية » ، وهي نوع من لعب الورق كان شائعاً في القرن الثامن عشر ، وكان الرهان هزيلاً والحماس لا أثر له على وجوه اللاعبين .

فعندما وصل بوزير ، انحنى وأخذ يدعك قلنسوته المسترسلة على طيات ثوبه ، مما جعل النسوة يضحكن مع شيء من السخرية المقرونة بالغنج والدلال . إلا أن بوزير تجاهل حركاتهن وتقدم من طاولة اللعب وكأنه لم يسمع ولم ير شيئاً . وانتظر بصمت الجواب على موقفه هذا .

وقد جاء الجواب من لاعب رأسمالي مبهم لا يخلو وجهه من السذاجة وبساطة القلب ، إذ قال معلقاً على حضور بوزير :

- عجباً أيها الفارس ! إنك تعود من الرقص بسحنة مقلوبة !

- فقالت النسوة : هذا صحيح .

وسأله لاعب آخر : هل إن « الدومينو » قد عقر رأسك أيها الفارس العزيز ؟

فأجاب بوزير بقساوة : لا ، ليس « الدومينو » هو الذي عقر رأسي .

فقال أمين الصندوق في تلك اللعبة وهو يسحب بيده دزينة من الليرات الذهبية :

- يظهر أن الفارس بوزير قد خاننا . ألا ترون أنه كان في الأوبرا ، وأنه وجد في محيط الأوبرا من يلاعبه ، فلعب وخسر ؟

فضحك البعض والبعض الآخر أظهر شفقته ، خصوصاً النسوة ، وأجاب بوزير :

- ليس صحيحاً أني خنت أصدقائي كما تدعي . فأنا لست كبعض معارفي الذين خانوا أصدقاءهم فعلاً .

وكي يعطي لكلامه وزناً أكبر، عمد الى الحركة، أي أنه غرز قبعته في رأسه. ولكن حركته، ويا للأسف، أعطت نتيجة معكوسة. فقبعته التي كانت من الحرير أمَّلست على رأسه فأعطته شكلاً هزلياً عوضاً عن أن تعطيه شكلاً رزيناً.

فسأله إثنان أو ثلاثة من شركائه:

- ماذا تريد أن تقول أيها الفارس العزيز؟

فأجاب بوزير: إني أعرف جيداً ما أودُّ قوله.

فقال أكبر اللاعبين وهو رجل مسنّ وثري وذو ميل الى الدعابة:

- ولكن ما قلته لا يكفينا.

فأجابه بوزير بحماقة ورعونة: إن هذا الأمر لا يعنيك يا حضرة الثري.

فألقى أمين الصندوق نظرة معبرة على بوزير، تحذره بأن عبارته ليست في محلها. فالواقع أنه في مثل هذا الظرف، يجب التمييز في المعاملة بين الذين يدفعون المال والذين يضعون المال في جيوبهم.

فعرف بوزير غلطته، واستدرك قائلاً: أعتقد أن لي أصدقاء بينكم.

فأجابته عدة أصوات دفعة واحدة: حتماً ... حتماً.

- إذن، عليّ أن أصارحكم بأني رجل مخدوع.

– بأي شيء؟
– بأشياء كثيرة جرت دون علمي.

فبدرت من امين الصندوق حركة جديدة، كما بدرت من الشركاء الحاضرين احتجاجات جديدة أيضاً، وتابع بوزير يقول:

– يكفي أن أعرف الحقيقة وأن يعاقب الأصدقاء المزيفون.

قال هذا ووضع يده بصورة عفوية على مكان مقبض سيفه، ولكن يده لم تلامس سوى كيس نقوده الذي كان ملآناً بالليرات الذهبية التي فضحها رنينها، فصاحت النسوة:

– أوه! أوه! إن السيد بوزير في وضع جيد هذا المساء!

وقال أمين الصندوق بمداجاة:

– هذا أكيد. وأكيد أيضاً بأنه إن كان قد خسر فهو لم يخسر كل شيء، وإن كان قد تخلّى عن أصدقائه، فهو لم يتخلَّ عنهم بصورة نهائية. لقد تحديتنا بليراتك الرنانة أيها الفارس العزيز، فهات لنرى ما سيطلع منك.

فقال بوزير بخشونة:

– شكراً! طالما أن كل واحد يحتفظ بما لديه، فأنا أيضاً سأحتفظ بما لديّ. فمال أحد اللاعبين على أذنه وسأله باستغراب: ماذا تقصد من هذا القول؟

– سوف نتصارح هذه الساعة.

- فقال أمين الصندوق : إلعب إذن .

وقالت له إحدى النسوة وهي تلامس كتفه بغنج ودلال وتقترب ما استطاعت من كيس نقوده : إلعب بليرة ذهبية واحدة .

فقال بوزير بوقاحة :

- إني لا ألعب إلا بالملايين ! وفي الحقيقة لم أكن أتصور بأنهم سيلعبون هنا بليرات صغيرة . ملايين !.. هلموا يا سادة شارع « بو دي فير » ، إن الأمر يتعلق بالملايين يا أصحاب الملايين ! فليسقط الرهان على ليرة ذهبية واحدة . إلا أن حماس بوزير في تلك الساعة ، وقد كان حماساً غير معقول وأشد خطراً من حماس الخمرة ، قد قطعته ركلة قوية من الوراء استهدفت ساقيه ، فاستدار ليرى وجهاً كبيراً متصلباً زيتونيَّ اللون مع عينين سوداوين كالفحم تقدحان شرراً . وقد ردّ صاحب هذا الوجه على سورة الغضب التي ارتسمت على محيا بوزير بتحية حارة مصحوبة بنظرة طويلة كأنها سيف دقيق حادّ .

فصاح بوزير مذهولاً من هذه التحية التي قدَّم لها ذلك الغريب بتلك الركلة :

- البرتغالي !..

ورددت النسوة اللواتي تركن بوزير وحصرن اهتمامهن بالرجل الغريب :

- البرتغالي !..

وكان هذا البرتغالي بالواقع ، الولد المدلل لهؤلاء النسوة . إذ كان يحمل إليهن على الدوام قطع الحلوى ، ولا يبخل عليهن بالبخشيش . وكان بالنسبة للمقمرة ، المحرك الأساسي للاعبين ، إذ أنه كان يخسر باستمرار وبسخاء ولا يأبه ولا يتذمر .

لذلك تقبَّل بوزير ركلة رجله بالصمت ، وإن على مضض، واتخذ صاحبنا مكاناً له على طاولة القمار ووضع أمامه عشرين ليرة ذهبية . وما أن دار اللعب عشرين دورة ، حتى كانت الليرات الذهبية العشرون قد تبخرت .

وعندها دقت الساعة معلنة الثالثة بعد منتصف الليل .

وعلى الأثر ، دخل إثنان من الخدم يحملان المعاطف والسيوف التي تخص اللاعبين . وبعد أن لبس كل منهم معطفه وتقلد سيفه ، تأبط الرابحون منهم أذرع النسوة واستقلوا عرباتهم ، بينما انسلّ الخاسرون بخفي حنين ... وخيَّم على القاعة صمت الليل الرهيب .

أما صاحبنا بوزير الذي بدا في « الدومينو » الذي كان يلفه وكأنه مهيأ لسفرة طويلة ، فقد أفرغ في جوفه ما تبقى من

كأس الجعة أمامه، وتوجّه الى القاعة المخصصة لاجتماع الشركاء في تلك الاكاديمية حيث وافاه اليها شركاؤه الاثنا عشر، وقد بادرهم بقوله:

- أخيراً، علينا أن نتصارح ونتفاهم.

فقال له البرتغالي ببرودة وبفرنسية سليمة:

- قبل المصارحة والتفاهم عليك أن تتكلم بصوت منخفض.

ثم أخذ البرتغالي يتفحص درف النوافذ والستائر والأبواب وكأن هناك سراً رهيباً سيفضي به ويخشى أن يتسرب الى الخارج، وقال:

- جئت أبلغكم أمراً، ويسرني أني قد وصلت في الوقت المناسب، لأن السيد بوزير يتحرق للكلام بتطرف هذا المساء...

فهمّ بوزير لئن يجيب، لكن البرتغالي أسكته بقوله:

- عليك أن تحافظ على السلام فيما بيننا، وذلك بأن تكفّ عن الكلام المبطن والمؤذي. فقد تلفظت بكلمات أقل ما يقال فيها أنها غير لائقة، وأعتقد ان حب الذات يجب أن لا يتغلب على المصلحة المشتركة.

فقال بوزير: لم أفهم قصدك.

وقال بقية الشركاء : ونحن أيضاً لم نفهم .

فأجاب البرتغالي : الواقع أن السيد بوزير قد فقد حسن النية في المشروع ...

فصاح الشركاء دفعة واحدة : أي مشروع ؟

وصاح بوزير بملء فمه : مشروع المليوني ليرة !

فهتف الشركاء : مليونا ليرة !.. بربك حدثنا عن هذا المشروع بسرعة.

فقال البرتغالي : لا تكونوا لجوجين أيها الرفاق ، فإن هكذا مشروعاً يتطلب التروي والسرية ، وها إني سأحدثكم عنه .

فران الصمت على الشركاء وفغروا أفواههم ... أما البرتغالي ، فقد كرع كأساً كبيرة ملأى بمشروب « الأورجا » واستمر محافظاً على برودته ، ثم قال :

– ليتأكد السيد بوزير ، أن العقد لا يساوي اكثر من مليون ونصف المليون من الليرات .

فقال بوزير : آه ! إن الأمر يتعلق بعقد !

– نعم يا سيدي ، أليس هذا هو مشروعك ؟

– قد يكون .

فهزّ البرتغالي كتفه وقال : إن السيد بوزير يلعب دور الكتوم بعد ان لعب دور المفشي للسر .

فأجابه بوزير بقساوة : أراك بكل أسف تتكلم بلهجة لا تروق لي . فإذا شئت أن نضع النقاط على الحروف ، أنا على استعداد لكشف النوايا .

- إن الوقت ضيق يا سيد بوزير ولا يسمح للجدال غير المجدي . فعليك أن تعلم بأن السفير سيصل في خلال ثمانية أيام على الأكثر .

فتناظر بقية الشركاء وأخذوا يتهامسون بهذه الكلمات : « العقد ، مليون ونصف المليون من الليرات ، سفير ... ماذا يعني كل هذا ؟ »

فردّ البرتغالي على تساؤلهم بقوله :

- سوف أختصر لكم الموضوع بكلمتين : إن السيدين بوهمير وبوسانج قد قدما للملكة عقداً من الماس يساوي مليوناً ونصف المليون من الليرات ، لكن الملكة رفضته ، فوقع هذان الصائغان في حيرة من أمرهما، لا يدريان ماذا سيفعلان بالعقد ولا أين يخبئانه ، لأن هكذا عقداً لا يمكن شراؤه إلا بثروة ملكية . أما أنا ، فقد وجدت الشخص الملكي الذي سوف يشتري هذا العقد ويخرجه من خزنة السيدين بوهمير وبوسانج .

فصاح الشركاء : وجدته ... من هو ؟

- إنها عاهلتي الجليلة ، ملكة البرتغال .

أما بوزير، فقد قال في نفسه: «أنا لم أفهم شيئاً حتى الآن». ثم قال موجهاً كلامه الى البرتغالي:

فسّر لنا بوضوح أيها السيد العزيز مانويل، لأن التباين في الرأي بيننا يجب أن يخضع للمصلحة العامة. فأنت أبو الفكرة، إني أعترف لك بذلك وأتنازل عن كل حق في التبني، ولكن بحق السماء، كن صريحاً وواضحاً.

فكرع مانويل جرعة جديدة من مشروب «الأورجا» دون أن يجيب! وقال امين الصندوق: لقد فهمنا بأن هناك عقداً بقيمة مليون ونصف المليون من الليرات، فهذه نقطة هامة...

فقاطعه بوزير بقوله:

– وهذا العقد موجود في خزنة السيدين بوهمير وبوسانج، وهذه نقطة ثانية، لكن الدون مانويل صرح بأن جلالة ملكة البرتغال سوف تشتري العقد، وهذا ما يحيرنا.

عندئذ قال البرتغالي:

– القضية في منتهى الوضوح، فما عليكم إلا أن تصغوا لكلامي: إن السفارة البرتغالية فارغة، وهناك وكيل بالنيابة. أما السفير الجديد السيد بوزا، فلن يصل قبل ثمانية أيام. ومن يمنع هذا السفير المتشوق لرؤية باريس، من أن لا يصل ولا يستقرّ خلال هذه الأيام؟

فتطلَّع الحضور ببعضهم البعض فاغرين أفواههم، وقال بوزير:

– عليكم أن تفهموا إذن، بأن الدون مانويل يريد أن يقول لكم بأنه قد يصل سفير حقيقي، وقد يصل سفير مزيَّف.

وأضاف البرتغالي قائلاً:

– بالضبط. فاذا كان السفير الذي سيحضر ميالاً لشراء هذا العقد لصاحبة الجلالة، ألا يملك الصلاحيات التي تخوله ذلك؟

فقال الحضور: طبعاً، طبعاً!

– عندئذ سيفاوض السيدين بوهمير وبوسانج. وهذا كل ما في الأمر.

فقال أمين الصندوق في لعبة الفرعونية:

– ولكن عندما يفاوض عليه أن يدفع، فالسيدان بوهمير وبوسانج لن يسلما العقد الى السفير، حتى لو كان هذا السفير السيد سوزا بالذات، إلا لقاء ضمانات محترمة وصالحة لهكذا صفقة. فمن سيدفع والسفارة خاوية خالية؟

فقال البرتغالي:

– هذا صحيح، فلا يوجد في السفارة سوى موثق عقود، وهو فرنسي نشيط يعرف من اللغة البرتغالية أقل مما يعرفه رجل

المجتمع، لذا يُسرُّ عندما يكلمه البرتغاليون باللغة الفرنسية، وينزعج عندما يكلمه الفرنسيون باللغة البرتغالية.

فقال بوزير: ما العمل إذن؟

– العمل أيها السادة هو أن نقدم أنفسنا لهذا الرجل على أننا الممثلون الحقيقيون للسفارة الجديدة.

– إن الظواهر لا تعوزنا لمثل هذه الخدعة، ولكن الذي يعوزنا هي الأوراق الثبوتية.

– سوف نحصل على هذه الأوراق، وعندما يقتنع موثق العقود بالظواهر والأوراق الثبوتية، نستقرّ في السفارة.

فقال بوزير: وإذا اكتشف موثق العقود الحقيقة؟

– ساعتذاك نصرفه ونستبدله بشخص آخر، وهذا حق من حقوق السفير.

فصاح الجميع: حتماً! حتماً!

فاستوى البرتغالي في جلسته وتابع يقول: إذن عندما نصبح أسياد السفارة، اول عمل مطلوب منا، هو أن نقوم بزيارة السيدين بوهمير وبوسانج.

فأجاب بوزير بعنجهية:

– لا، لا أبداً، تبدو لي أنك تجهل ناحية مهمة أنا ملمّ بها لكوني عشت في بلاطات الملوك. وهي أن عملية كهذه لا يمكن القيام بها بواسطة السفير من دون محاذير. لأنه من

المفروض أن يستقبل السفير بصورة رسمية، وهنا يكمن الخطر في نظري، لأن السيدين بوهمير وبوسانج، سيلاحظان ساعتذاك ركاكة لغتنا البرتغالية ولهجتنا الفرنسية، وقد يودي بنا هذا الاكتشاف الى سجن الباستيل.

فقال البرتغالي:

- إنك تذهب بعيداً في تصوراتك أيها الرفيق، فنحن لن نعرّض أنفسنا لهكذا أخطار، لأننا سنبقى في مركزنا.

- وهل يصدق السيد بوهمير أننا برتغاليون، وأن من يفاوضه هو سفير البرتغال فعلاً؟

- سنوهم السيد بوهمير أننا جئنا الى فرنسا في مهمة محددة، هي شراء العقد، وأن السفير قد استُبدِل ونحن في الطريق. وسنطلعه على الأمر الوحيد الذي تلقيناه لننوب مكانه، وهو الأمر الذي سنبرزه لموثق العقود في السفارة. ولكن علينا أن لا نطلع وزراء الملك على هذا الأمر، لأن الوزراء فضوليون وحذرون، ولن يتوانوا عن جرّنا الى تفاصيل تثير ارتباكنا.

فصاح الجميع: أوه! نعم، لا نريد أي احتكاك بالوزراء.

وقال بوزير متسائلاً: وإذا طلب السيدان بوهمير وبوسانج عربوناً؟

فارتسمت الحيرة على وجه البرتغالي وأجاب :

- ساعتذاك يتعرقل المشروع .

وتابع بوزير يقول : لأن العادة المتبعة هي أن يحمل السفير أوراق اعتماده ، أو أن يحمل الدراهم اللازمة .

فقال الشركاء بصوت واحد : هذا صحيح .

وأردف بوزير : إن المشروع يتعثّر ...

فردّ عليه البرتغالي ببرودته المعهودة : أنت دائماً تفتش عن الأسباب التي تعرقل المشروع ، أما الوسائل التي تؤدي الى نجاحه فلا تجهد نفسك في البحث عنها .

- بالعكس ، إني أفتش عن الوسائل التي تذلل الصعوبات ، وأستطيع القول بأني قد وجدتها ...

فأقتربت الرؤوس منه بشكل حلقة ، وأكمل هو يقول : في كل قنصلية يوجد صندوق ، فما رأيكم في صندوق « سفارتنا ؟ »

فأخذوا ينظرون الى بعضهم البعض من دون جواب ... وأخيراً سأل أحدهم : وإذا كان صندوق السفارة فارغاً ؟

وانتظر الرفاق جواب بوزير . أما بوزير فقد حكَّ جبهته وأمعن فكره ، ثم قال :

- لقد وجدت طريقة أفضل . فنحن بصفتنا هيئة السفارة البرتغالية ، يمكننا أن نسأل السيدين بوهمير وبوسانج عن

وكيلهما في ليشبونة ، ونوقع لهما تحويلاً على هذا الوكيل بالمبلغ المطلوب ، ممهوراً بختم السفارة ومختوماً بالشمع الأحمر .

فانتفض الدون مانويل عند ذاك وقال : هذا كلام منطقي ومعقول . أما ما عداه ، فمضيعة للوقت .

وقال بوزير :

– طالما أن حلَّ العقدة الأساسية قد اتفقنا عليه ، فلنتفق الآن على توزيع الأدوار . فأنا أقترح أن يكون السفير الدون مانويل .

فوافق الحضور بالاجماع ، وقال الدون مانويل :

– وأنا اقترح أن يكون السيد بوزير أمين سري وترجماني .

فاعترض بوزير متسائلاً بشيء من القلق : كيف ذلك ؟

فقال الدون مانويل :

– إن السيد سوزا الذي سأنتحل شخصيته ، أعرفه جيداً . فهو متعصب للغة البرتغالية ولا يتكلم سواها ، لذا عليّ أن لا أتلفظ بأية كلمة فرنسية . أما أنت يا سيد بوزير ، فبالعكس ، لأنك سافرت كثيراً واعتدت على المعاملات التجارية الباريسية ، ولأنك تتكلم البرتغالية ...

– إني أتكلمها بصعوبة .

– إن إلمامك بها يكفي لإخفاء شخصيتك الباريسية .

- هذا صحيح ... ولكن ...

- كن مطمئناً ... فكل واحد سيناله من الربح قدر ما يستحق .

فوافق الشركاء بقولهم : حتماً ، حتماً . ووافق بوزير على أن يكون أمين السر والترجمان ، ثم قال أمين الصندوق :

- لنتكلم الآن على اقتسام المبلغ .

فقال الدون مانويل :

- الأمر في منتهى البساطة . فنحن إثنا عشر شخصاً ، والحصص يجب أن تكون إثنتي عشرة حصة توزع بالتساوي ، باستثناء البعض الذين يستحقون حصة ونصف . فأنا مثلاً ، بصفتي أب الفكرة والسفير ، أستحق حصة ونصف . وبوزير بصفته أمين السر والترجمان ، يستحق حصة ونصف . كذلك الشخص الذي سيتولى بيع الماس يستحق حصة ونصف .

فوافق بوزير بإشارة من رأسه على هذا التوزيع ، واقترح أن تترك التفاصيل الى الغد ، لأن الوقت أصبح متأخراً ، فاحتج الشركاء قائلين :

- لا ، لا ، لننهِ كل شيء الآن ، فما هي هذه التفاصيل ؟

- إن التفاصيل تتعلق بالتمركز في السفارة وبدور كل واحد منا ، وأخيراً ببعض المصاريف ... فالمال عصب كل شيء .

فباشروا في درس هذه التفاصيل وتوزعوا الأدوار فيما بينهم. وعندما وصلوا الى النفقات، سأل الشركاء أمين الصندوق :

- ما هو المبلغ الموجود في الصندوق ؟

فقال لهم أمين الصندوق : هاتوا مفاتيحكم لنرى .

فقد كان المخبأ السري للصندوق يلزمه ليفتح إثنا عشر مفتاحاً موزعين على الشركاء كافة، كي لا يتمكن أحد بمفرده من فتح الصندوق . فسحب كل من الرفاق مفتاحه وقدّمه الى أمين الصندوق وتمت عمليه الكشف على رصيد المقمرة، فتبين أنه تسعون ليرة ذهبية، فقال الدون مانويل موجهاً كلامه الى أمين الصندوق :

- أعطِ نصف المبلغ الى السيد بوزير والنصف الباقي لي، فذلك ليس بالكثير علينا، أليس كذلك أيها الرفاق ؟

فاقترح بوزير حلاً يرضي الجميع ويظهره بمظهر الرجل الشهم، وهذا الاقتراح يقضي بأن يأخذ هو ثلث المبلغ، والدون مانويل الثلث الثاني، والثلث الباقي يوزع على بقية الرفاق . وهكذا كان من دون أن يعترض أحد.

ثم افترقوا بعد أن تواعدوا على اللقاء في اليوم التالي، وأسرع بوزير الى شارع دوفين وهو يأمل أن يلتقي مجدداً

الآنسة أوليفا وهي باقية على ما كانت عليه بالنسبة له ، وأن يحصل منها على ليرات ذهبية جديدة .

السفير

★

في اليوم التالي ، حوالى المساء ، توقفت عربة أمام بوابة بناء يقع في شارع جوسيان ولا يخلو مظهره من الجمال ، وكان الغبار يعلوها لدرجة غدت شعائرها غير مميزة .

وأمام بوابة هذا البناء وقف رجلان ينتظران . أحدهما يلبس ثياب الحفلات والآخر يلبس بذلة بدا فيها وكأنه سويسري في ثياب الأبهة.

وبعد أن ولجت العربة باحة البناء وأُغلقت خلفها البوابة في وجوه الفضوليين ، تقدم الرجل الذي يلبس ثياب الحفلات باحترام كلي من باب العربة وتلفَّظ ببعض العبارات بالبرتغالية وبصوت لا يخلو من الارتعاش .

فأجابه ببرتغالية ممتازة صوت من داخل العربة ، قال :

– من تكون يا هذا ؟

– المستشار غير الجدير بالسفارة ، يا صاحب السعادة .

– حسناً ، ولكنك لا تتقن البرتغالية جيداً يا عزيزي ! هيّا . من أين ننزل ؟

– من هنا يا مولاي ، من هنا .

فقال « السفير » الدون مانويل وهو يتكئ على خادم غرفته وأمين سره وقد بدا عريض المنكبين :

– يا له من استقبال حزين !

فقال المستشار بلغته السيئة :

– أرجو المعذرة يا صاحب السعادة ، فقد كنت خارج السفارة في شغل يتعلق بالسفارة ، ومنذ ساعتين فقط وقفت على رسالة سعادتكم ولم يسمح لي الوقت أكثر من فتح الأجنحة وإضاءتها .

– حسناً ، حسناً .

– لقد غمر الفرح فؤادي يا صاحب السعادة ، عندما علمت بأن سفيرنا الجديد هو ذاك الرجل الجليل الطائر الصيت...

– صه ! لا تبح بشيء قبل أن نتلقى أوامر جديدة من ليشبونة . فقط تفضَّل وسِرْ بي الى غرفة النوم الخاصة بالسفير ، فإن التعب قد أنهكني . أما أنت ، فابق على اتصال دائم مع أمين سري الذي سيبلغك أوامري .

فانحنى المستشار باحترام أمام بوزير الذي ردَّ على تحيته هذه بتحية عطوف، ثم قال له بلطف مغلف بالسخرية:

– إنك تتكلم الفرنسية يا عزيزي، وهذا الأمر يريحك ويريحني في الوقت نفسه.

فتمتم المستشار قائلاً:

– نعم، نعم، سوف أكون في وضع مريح، لأني سوف أعترف لك يا سيدي بأن لفظي...

فقاطعه بوزير قائلاً: لقد لاحظت ذلك.

فأسرع المستشار الى القول من دون تحفظ:

– سوف أستفيد من هذه المناسبة يا سيدي أمين السر، لأني أجد فيك رجلاً محباً ولطيفاً، سوف أستفيد من هذه المناسبة كما قلت، كي أسألك عما إذا كنت تعتقد بأن سعادة السفير «سوزا» لا يريدني أن أشوّه اللغة البرتغالية هكذا؟

– أبداً، أبداً، إذا كنت تتكلم الفرنسية جيداً.

فرقص قلب المستشار فرحاً وأجاب:

– أنا! إني باريسي من شارع سان أونوريه!

– أوه! هذا شيء يثلج القلب! يبقى أن أعرف اسمك؟ أعتقد أنه ديكورنو؟

- نعم يا سيدي ، ديكورنو . وهو اسم جميل ، لأن المقطع الأخير فيه هو أسباني ، إذا شئت . إن سيدي أمين السر يعرف اسمي ، وهذا شي مفرح بالنسبة لي .

- نعم ، إني أعرف إسمك لأن سمعتك عطرة ، وهذا ما جعلنا نصرف النظر عن استجلاب مستشار من ليشبونة .

- أوه ! كم أنا مدين لك يا سيدي امين السر ، وكم كان حظي سعيداً عندما وقع الاختيار على السيد « سوزا » كي يخلف الوزير السابق .

وهنا رنَّ الجرس في إحدى غرف السفارة ، فقال بوزير : إنه السفير يقرع الجرس .

وأسرع الاثنان يلبيان نداء السفير الذي كان بفضل خادم غرفته قد نزع ثيابه وارتدى مبذلاً بديعاً وأخذ الحلاق الذي استدعي على الفور يسوي من شأنه ، ووضعت على الطاولات والأفاريز حقائب السفر التي يدل مظهرها الكاذب على أنها حقائب ذات قيمة كبيرة ...

وعندما طرق المستشار وامين السر المزعوم باب غرفته احتراماً قبل الولوج ، كان السفير غارقاً في أحد المقاعد يصطلي النار الملتهبة في المدخنة ، فقال : ادخلوا ، ادخلوا .

وهنا مال المستشار على أمين السر وسأله همساً عمّا اذا كان السفير لا يغتاظ إن هو أجابه بالفرنسية ، فقال له بوزير :

- أبداً، أبداً، ادخل ولا يهمك.

فدخل السيد ديكورنو وقدم عبارات المجاملة للسفير باللغة الفرنسية، فقال له السفير بإعجاب:

- أوه! هذا شيء جميل وملائم تماماً. إنك تتكلم الفرنسية بشكل رائع يا سيد ديكورنو!

فقال ديكورنو في نفسه وهو نشوان من الفرح: «إنه يرحب بي كما لو أنني برتغالي».

وأكمل مانويل، أو السفير:

- هل يمكننا أن نتعشى يا ديكورنو؟

- بالطبع يا صاحب السعادة. فالقصر الملكي (١) هو على بعد خطوتين من هنا، وإني أعرف طاهياً ماهراً هناك سيقدم لسعادتك أشهى المأكولات. وأنا بدوري سأستأذن سعادتك، إذا سمحت، بأن أقدم لها بعض زجاجات الخمر الفرنسية

---

١ - عدة أبنية وحدائق أنشأها لومرسيان في العام ١٦٣٣ من أجل ريشيليو، ثم وزعت فيما بعد على أمراء أورليان، وكانت غابة القصر الملكي ملتقى أهل الحب والغرام. ويشغل القسم الاكبر من هذه الابنية حالياً، العديد من دوائر الدولة الفرنسية.

التي لن تتمكن سعادتك من أن تجد مثيلها حتى في « بورتو » ذاتها .

فقال بوزير بسرور :

– آه ! إن المستشار لديه قبو للخمور الجيدة إذن !

فأجاب المستشار بتواضع :

– إن هذا القبو هو مظهر البذخ الوحيد في حياتي .

وقال له السفير :

– إعمل ما يحلو لك يا سيد ديكورنو . هات لنا من خمرتك الطيبة هذه ، وتعال نتعشى سوية .

– إن شرفاً كهذا ...

فقاطعه السفير بقوله :

– من دون رسميات . فأنا اليوم ما زلت مسافراً ، ولن أصبح سفيراً إلا غداً . ثم إننا سنتكلم على أشغال السفارة .

فقال ديكورنو بخجل :

– ولكن ... هل تسمح لي بأن ألقي نظرة على زينتي .

فقال بوزير : إنك رائع فيما أنت عليه .

فقال ديكورنو : زينة استقبال ، لا زينة حفلة .

– إبق كما أنت عليه يا سيد ديكورنو ، فالوقت الذي ستضيعه في استبدال ملابسك بملابس الحفلات ، من الأفضل ان تمضيه في تناول المقبلات .

فترك ديكورنو السفير وأسرع فرحاً الى قبو خموره ليربح عشر دقائق من الوقت يضيفها الى الفترة التي سيتناول في خلالها سعادة السفير مقبلاته.

في هذا الوقت، أخذ الخبثاء الثلاثة، أي السفير وأمين سره وخادمه، أخذوا وقد خلت لهم الغرفة، يستعرضون أثاثها والأعمال المطلوبة منهم بعد أن تمت سيطرتهم على السفارة بسهولة، فقال الدون مانويل:

- هل ينام في السفارة هذا المستشار؟

فأجاب بوزير:

- كلا، فهذا الرجل المضحك يملك قبو خمور جيد، ومما لا شك فيه أن لديه خليلة جميلة، فهو أعزب عتيق.

- والسويسري؟

- سأتدبر أمره، إذ يجب أن نتخلص منه.

- وبقية خدم السفارة؟

- إنهم خدم مستكرون، وسوف نستبدلهم بشركائنا غداً.

- وما هي حال المطبخ والمكتب؟

- عدم! عدم! فإن السفير السابق لم يكن يظهر في السفارة. فقد كان لديه منزل في المدينة.

- وما هي حال الصندوق؟

فقال بوزير :

- بشأن الصندوق ، من اللائق أن تسأل المستشار . واذا شئت ، فإني أتكفل بذلك ، لأننا قد أصبحنا أفضل صديقين في العالم .

- أصمت !.. فها هو آتٍ .

وبالفعل كان ديكورنو قد عاد وهو يحمل ست زجاجات من الخمر ومظاهر الفرح على وجهه . وما أن وطأت قدماه عتبة الباب حتى بادر السفير بقوله :

- ألا تريد سعادتك أن تنزل الى قاعة الطعام ؟

فأجابه السفير : لا ، أبداً ، لا ، أبداً ، لنأكل هنا في الغرفة قرب النار ، كعائلة واحدة .

- لقد ملأت قلبي فرحاً يا مولاي ... هاك الخمرة .

فتناول بوزير إحدى الزجاجات ورفعها بمحاذاة ضوء إحدى الشموع وصاح قائلاً : آه ! إنه الزبرجد !

وقال السفير موجهاً كلامه الى المستشار :

- إجلس يا حضرة المستشار ! إجلس إلى أن يرتب خادم غرفتي المائدة .

فجلس ديكورنو ، ثم سأله السفير :

- أي يوم وصلت فيه آخر البرقيات ؟

– عشية سفر خلفك يا صاحب السعادة .

– حسناً . هل السفارة في حالة جيدة ؟

– أوه ! بالتأكيد يا مولاي .

– أليس هناك مشاكل مالية ؟

– لا ، لا أعتقد .

– أليس هناك ديون ؟.. أوه ! قل إذا كان هناك ديون كي نبدأ بدفعها . فإن خلفي كان شخصاً يتقن فنون المغازلة ، وعلي أن أتحمل نتيجة مغامراته ككفيل متضامن .

– شكراً لله يا مولاي ، فلن تكون بحاجة الى ذلك . إذ إن الديون قد دفعت منذ ثلاثة أسابيع ، وغداة سفر السفير السابق بالذات ، تلقت السفارة مبلغ مئة الف ليرة .

فصاح بوزير والدون مانويل بصوت واحد وقد رقص قلباهما فرحاً :

– مئة ألف ليرة ؟

فقال ديكورنو : وذهبية أيضاً !

فردد عبارة « وذهبية أيضاً » كل من السفير وأمين السر ، وحتى خادم الغرفة .

ثم سأل بوزير المستشار وهو يبلع ريقه ويحاول إخفاء مشاعره :

– هذا يعني أن الصندوق يحتوي على ...

– على مئة ألف وثلاثماية وثمانٍ وعشرين ليرة ذهبية يا حضرة أمين السر.

فقال الدون مانويل ببرودة:

– إنه مبلغ قليل ... لكن صاحبة الجلالة قد وضعت بكل سرور مبالغ من المال تحت تصرفنا.

ثم تابع يقول موجهاً كلامه الى بوزير:

– لقد كنت صارحتك يا عزيزي بأن المال سيعوزنا في باريس.

فأجاب بوزير باحترام:

– سوى أن سعادتك قد اتخذت احتياطاتها بشأن هذا الموضوع.

وبعد هذا التصريح الهام الذي فاه به المستشار، غدا جو السفارة مسرحاً للمرح والضحك. وكان ديكورنو أكثر الحضور غبطة وانشراحاً، فأكل وشرب كعشرة أشخاص، وشكر السماء التي أرسلت إليه سفيراً يفضل اللغة الفرنسية على اللغة البرتغالية والخمور البرتغالية على الخمور الفرنسية.

وبينما كان يسبح في هذه الغبطة التي تتصاعد الى الرأس من المعدة الملأى بالمأكولات الشهية والخمور المعتقة، طلب اليه «السفير سوزا» أن يذهب الى فراشه، بعد أن استجوبه ما فيه الكفاية. فنهض ديكورنو وانحنى أمام السفير حتى كاد

يلامس الأرض ، تعبيراً عن احترامه ، وخرج من الباب متجهاً نحو الشارع ومتحسراً على تلك الجلسة الحميمة التي لم تدم حتى انبلاج الفجر كما كان يشتهي ويتمنى .

أما بوزير والدون مانويل فلم يكونا قد احتفيا كفاية بخمرة السفارة كي يستسلما الى الرقاد في الحال . عدا أن « خادم الغرفة » يجب أن يتعشى هو الآخر بعد أن تعشى « أسياده » .

وقبل أن يسدل الستار عن الفصل الأول من التمثيلية التي أخرجها السفير وأمين سره ، رسم الشركاء الثلاثة مخطط الغد ، ثم قاموا بجولة استطلاعية على سائر أقسام السفارة ، بعد أن تأكدوا من أن الحارس السويسري قد استغرق في نومه .

السيدان بوهمير وبوسانج

★

في اليوم التالي ، وبفضل همة ديكورنو ونشاطه ، خرجت السفارة البرتغالية من جمودها . فالمكاتب المشرعة الابواب ، والموظفون المزيفون وادوات الكتابة ، وجوّ الابهة ، ووقع حوافر الجياد في الباحة ، كل ذلك قد بدّل جوّ الجمود الذي كانت

عليه السفارة في اليوم السابق، بجو حركة لفتت الأنظار وانتشر الخبر في المنطقة بأن شخصية كبيرة قد وصلت من البرتغال أثناء الليل.

وهذه الضجة التي كان من المفروض أن تخدم المحتالين الثلاثة، أعطت نتيجة معكوسة، وسببت لهم الهلع والخوف.

فالواقع أن آذان رجال الشرطة التابعين للسيدين دي غروسن ودي بريتاني كانت رهيفة السمع، وعيونهم كانت حادَّة البصر، خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بدبلوماسيين برتغاليين.

لكن الدون مانويل، حمل بوزير على الاعتقاد بأنه مع قليل من الجرأة سيفشِّلون رجال المباحث ولن يكوننَّ موضع شك قبل ثمانية أيام، كما أن هذا الشك لن يصبح يقيناً قبل خمسة عشر يوماً. إذن لن يزعج سير أعمال الشركة شيء قبل عشرة أيام كحدٍ وسط، وعلى الشركة إن أحسنت التصرف أن تنهي أعمالها خلال ستة أيام.

وكان بقية أعضاء الشركة التسعة قد وصلوا الى السفارة عند بزوغ الفجر بواسطة عربتين إثنتين، وبهم اكتمل ملاك الموظفين... وعلى الفور قام بوزير بتوزيعهم، فجعل واحداً أميناً للصندوق، وواحداً مسؤولاً عن الأرشيف، وأحلَّ ثالثاً مكان السويسري الذي منحه ديكورنو ذاته مأذونية بحجة أنه

لا يتقن البرتغالية . وهكذا وزع بقية الرفاق حتى غدت أقسام السفارة كلها مشغولة بالموظفين المزيفين الذين بات عليهم أن يدافعوا عن السفارة ضدَّ كل منتهك لحرمتها ...

وحوالى ظهر ذلك اليوم ، ارتدى الدون مانويل - أو السفير سوزا - ثيابه الرسمية الفخمة واستقل عربة في غاية النظافة كان بوزير قد استأجرها بمبلغ قدره خمسماية ليرة في الشهر ، وانطلق بها باتجاه السيدين بوهمير وبوسانج ، وقد اصطحب معه أمين سره وخادم غرفته .

أما المستشار ديكورنو ، فقد تلقى الأمر ، كما هي العادة في غياب السفير ، بأن يصرِّف الأعمال المتعلقة بجوازات السفر ، ودفع النفقات الطارئة والإعانات ، شرط أن لا يعطى أي مبلغ مهما كان زهيداً ، أو أن يدفع أي حساب ، إلا بعد موافقة أمين السر .

وعندما وصلت عربة « السفير » الى امام مكتب الصائغين بوهمير وبوسانج ، ترجل منها خادم غرفته وطرق بتواضع الباب الحديدي الذي كان مقفلاً بالأقفال الضخمة الشبيهة بأقفال السجون ، ففتحت إذذاك كرة صغيرة انطلق منها صوت يسأل خادم الغرفة عما يريده ، فقال :

- إن سعادة سفير البرتغال يريد التكلم مع السيدين بوهمير وبوسانج .

وللحال ظهر وجه في الطابق الاول ، ثم سمعت خطوات مسرعة تهبط الدرج ، وفتح الباب . وكان هذا الوجه وجه السيد بوهمير الذي أسرع لاستقبال سعادة السفير بذراعين مفتوحتين .

وبينما كان الدون مانويل يصعَد الدرج الى الطابق الأول والسيد بوهمير يرحب به معتذراً ، لاحظ بوزير أن خادمة مسنَّة قد أغلقت الباب وراءهم وأقفلته بالأقفال الضخمة كما كان ، فوقف مستغرباً ، مما جعل السيد بوهمير يقول له :

– عذراً يا سيدي . فنحن معرَّضين جداً في مهنتنا الشاقة ، لذا اعتدنا أن نتخذ جميع الاحتياطات التي تقينا شرَّ اللصوص .

ولاحظ بوهمير أن الدون مانويل بقي هادئ الأعصاب غير مكترث لما قاله ، فردد على مسامعه الكلام نفسه ، مما جعل بوزير يبتسم ابتسامة رضى ، أما السفير فقد استمرَّ في برودته ولم ينبس ببنت شفة ، فعاد بوهمير وقال له :

– أرجو المعذرة يا سعادة السفير ...

فقاطعه بوزير بقوله :

– إن سعادة السفير لا يتكلم الفرنسية ، ولكنني سأنقل اليه اعتذارك . ثم أنت ، ألا تتكلم البرتغالية ؟

– لا يا سيدي ، لا .

- لا بأس، سوف أكون ترجمانك اليه.

وبعد أن رَطَن بوزير بعض الكلمات البرتغالية مع الدون مانويل، وردَّ عليه هذا الأخير باللغة نفسها، استدار نحو السيد بوهمير وقال له:

- إن سعادة الكونت دي سوزا، سفير صاحبة الجلالة الوفية جداً، قد تنازل وقبل اعتذارك يا سيدي، وكلفني بأن أسألك عما إذا كان صحيحاً بأن لديك عقداً جميلاً من الماس.

فرفع بوهمير رأسه وأخذ يقيس بوزير، الذي وقف وقفة الرجل الدييلوماسي، من قمة رأسه الى أخمص قدميه، ثم أجابه بلهجة هادئة:

- عقداً من الماس؟ أيريد صاحب السعادة عقداً في غاية الروعة والبهاء؟

- يريد العقد الذي سبق لك أن عرضته على ملكة فرنسا. فصاحبة الجلالة الوفية جداً، قد سمعت بهذا العقد.

فقال بوهمير: هل يكون سيدي ضابطاً مرافقاً لسعادة السفير؟

- إنني أمين سره الخاص يا سيدي.

فلم يحر بوهمير جواباً، بل شرد ساهماً في بحر تفكيره، بينما كان الدون مانويل يجلس بعظمة الأسياد مسرحاً الطرف

عبر النافذة في نهر السين الذي كانت الشمس تغمره في ذلك الوقت ، وقد أخذ الثلج يذوب ويتساقط عن شجرات الحور الكبيرة على ضفتيه .

فقطع بوزير على الصائغ حبل تفكيره ، وقال له :

– يبدو لي أنك لم تسمع كلمة مما قلته لك ؟

فأجاب بوهمير : كيف يا سيدي ؟ ولكني ...

– ولكنك ماذا ؟ إن سعادة السفير قد عيل صبره كما يتراءى لي يا حضرة الصائغ .

فصبغت الحمرة وجه بوهمير ، وقال :

– عفوك يا سيدي ، فليس لي الحق بأن أعرض العقد قبل حضور شريكي ، السيد بوسانج .

– حسناً ، إنده شريكك .

عند ذاك ، نهض الدون مانويل وتقدم وأجرى ، ببرودة تتَّسم بالعظمة ، حديثاً قصيراً باللغة البرتغالية مع بوزير ، أحنى خلاله هذا الأخير عدة مرات رأسه باحترام كلي ، ثم استدار السفير وعاد الى تأملاته عبر النافذة ، بينما اتجه بوزير الى الصائغ بوهمير ، وقال له :

– لقد قال لي سعادة السفير بأنه ما زال على استعداد لأن ينتظر عشر دقائق فقط ، مع العلم بأن مثل هذا الانتظار لم يتعود عليه حتى في مقابلته للملوك ...

فانحنى بوهمير احتراماً، ثم أمسك بحبل جرس صغير وشدّه. وما هي دقيقة واحدة حتى دخل الغرفة شخص آخر، وكان هذا الشخص شريكه، السيد بوسانج.

وبعد أن أطلعه بوهمير بكلمتين على المقصود، ألقى بوسانج نظرة على كلا الرجلين البرتغاليين، ثم طلب من بوهمير مفتاحه كي يفتح الخزنة. فقال بوزير في نفسه: «يبدو لي أن هذين الرجلين يحذران بعضهما البعض كما لو أنهما لصان».

وبعد عشر دقائق، عاد بوسانج حاملاً علبة جواهر في يده اليسرى، ويده اليمنى مدسوسة تحت سترته. فلاحظ بوزير بروز مسدسين، وقال الدون مانويل بوقاره، ودائماً بالبرتغالية:

– إن وجودنا يفرض الاحترام والثقة الكلية. ومع ذلك، فإن هذين التاجرين يتصرفان معنا كما لو أنهما يتصرفان مع لصوص لا مع سفراء!!

قال هذا ونظر ملياً في وجهي الصائغين ليتأكد إن كانا يفهمان البرتغالية. ولكن بوهمير وبوسانج لم يظهر على وجهيهما أي تأثر.

ولكن الشيء الوحيد الذي ظهر، هو عقد من الماس يبهر الأبصار في روعته وتألقه، قدّمه بوسانج في علبته الجميلة الى

السفير الذي ما أن ألقى نظرة عليه ، حتى التفت الى أمين سره وقال له بغضب :

– قل لهذين الرجلين بأن مزاجهما سمج وفي غير محله !.. قل لهما بأني سأشتكيهما الى رئيس وزراء فرنسا ، وأني باسم صاحبة الجلالة مليكتي سألقي في الباستيل بهذين الوقحين اللذين حاولا خداع سفير البرتغال .

قال هذه الكلمات وقذف بظاهر يده ، وبحركة عصبية ، علبة الجواهر على الطاولة أمامه !

ولم يحتج بوزير الى ترجمة كل ما قاله السفير ، لأن حركاته وانفعالاته قد كفّت ووفّت .

ولما حاول الصائغان الاعتذار بحجة أن العادة جرت في فرنسا بأن يعرض الصائغ نموذجاً عن العقود الماسية تداركاً للسرقة ، وحتى اذا ما تمت الصفقة جاء بالعقد الحقيقي وسلمه الى الشاري . لما حاول ذلك ، بدرت من السفير حركة انفعالية واتجه نحو الباب تلاحقه عيون التاجرين القلقة ، وتابع بوزير يقول :

– إن سعادة السفير قد كلفني بأن أعبّر لكما عن سخطه الشديد لوجود أناس يحملون لقب « صاغة التاج الفرنسي » ، وبالوقت نفسه لا يميزون بين سفير ونذل ، وأن سعادته قد انسحب الى مقرّ السفارة .

فعاد بوهمير وبوسانج الى الاعتذار وقد بدا القلق على وجهيهما، إلا أن «السفير سوزا» أكمل طريقه وخرج من الباب، بينما كان الصائغان منحنين حتى الأرض...

ثم لحق بوزير بمعلمه فخوراً أنوفاً. وبعد أن فتحت لهما الخادمة المسنّة الباب وأصبحا خارجاً، صاح بوزير بخادم الغرفة:

- الى مقر السفارة في شارع جيسيان.

وبدوره صاح خادم الغرفة بالحوذي:

- الى مقرّ السفارة في شارع جيسيان.

ولما انطلقت بهم العربة، قال خادم الغرفة: لقد فشل المشروع.

فأجابه بوزير: بل لقد نجح. فبعد ساعة سيكون هذان الصائغان عندنا في السفارة.

في السفارة

★

عندما عاد «الفرسان الثلاثة» الى السفارة، كان ديكورنو يتناول عشاءه في مكتبه وهو ناعم البال قرير العين. فدخل عليه بوزير ورجاه بأن يصعد لمقابلة السفير. ثم أردف قائلاً:

– أنت تعلم أيها المستشار العزيز، بأن رجلاً كالسيد سوزا، ليس سفيراً عادياً.

فقال المستشار: لقد لاحظت ذلك يا سيدي.

وتابع بوزير يقول:

– إن سعادته يريد أن يحتل مكانة مرموقة في باريس بين الأثرياء وأهل الذوق. أريد أن أقول لك بأن هذا البناء الحقير، في شارع جيسيان، ليس لائقاً به. لذا يجب أن نجد مقراً آخر خاصاً بالسيد سوزا.

فقال المستشار:

– ولكن ذلك يعقد المعاملات الديبلوماسية، إذ سيتوجب علينا عند ذاك أن نعدو كثيراً وراء تواقيعه.

فأجاب بوزير قائلاً:

– أوه! إن سعادة السفير سيضع تحت تصرفك عربة أيها العزيز ديكورنو.

فصاح ديكورنو وقد كاد يغمى عليه من شدة الفرح:

– عربة لي!!

– إن السفير مستاء لأنك لم تخصص بعربة حتى الآن. فمستشار في سفارة ليس بجدارتك، يستحق عربة، كم بالحري أنت ... ولكن هذه التفاصيل سنتكلم عليها في

الوقت والمكان المناسبين . أما الآن ، فلنقدم تقريراً الى سعادة السفير عن السياسة الخارجية . وبالمناسبة ، أين هو الصندوق ؟

- فوق يا سيدي ، في جناح السفير ذاته .

- ولكنه بعيد عنك !

- التدابير الأمنية تقضي بذلك يا سيدي ، فصعود اللصوص الى الطابق الأول ، أصعب عليهم من دخولهم الطابق الأرضي .

فقال بوزير باحتقار :

- لصوص ! من أجل مبلغ زهيد !

- إرحمني يا رب ! مئة ألف ليرة مبلغ زهيد ! يبدو أن السيد سوزا غني جداً . فكل صناديق السفارات لا تحتوي على مئة ألف ليرة .

- أتسمح بأن نتثبَّت من المبلغ؟ إني مستعجل ، فلدي أشغال كثيرة .

- في هذه اللحظة يا سيدي ، في هذه اللحظة .

قال ديكورنو ذلك وأسرع الى الطابق الأول يلحق بوزير ، حيث تم التثبت وظهرت الليرات متألقة . نصفها ذهباً ونصفها الآخر فضة .

ثم قدم ديكورنو مفتاح الخزنة الى بوزير . فتناوله هذا وأخذ يتأمل خطوطه المتشابكة بإعجاب ... وبطريقة ماهرة وفي

غفلة عن عيني ديكورنو، نقش طابعه على قطعة من الشمع الأحمر، ثم أعاده الى المستشار وقال له :

- احتفظ به يا سيد ديكورنو، فهو في يديك أفضل من أن يكون في يديَّ. هيَّا، لنذهب الى السفير.

وذهبا فوجدا الدون مانويل مكباً على دراسة أوراق مملوءة بالأرقام، فما أن رأى المستشار حتى بادره سائلاً :

- هل تعرف شيفرة المراسلات القديمة.

- كلا يا صاحب السعادة.

- يا للعجب! أريدك من الآن فصاعداً أن تكون ملماً بها، وبذلك تريحني من هذا الأسلوب ومن التفاصيل المزعجة.

ثم التفت نحو بوزير وسأله : بالمناسبة ... الصندوق؟

فأجابه بوزير : إنه بحالة ممتازة، ككل الأمور التي هي باستلام السيد ديكورنو.

- والمئة ألف ليرة؟

- موجودة نقداً يا سيدي.

- حسناً، إجلس يا سيد ديكورنو، فسوف أطلب منك بعض المعلومات.

فقال المستشار وقد أشرق وجهه :

- أنا رهن أوامرك يا صاحب السعادة.

قال هذا وقدم مقعده من السفير الذي قال له :

- إنه عمل مهم يا سيد ديكورنو ، وأنا بحاجة الى معلوماتك . هل تعرف صاغة شرفاء في باريس ؟

- أعرف السيدين بوهمير وبوسانج ، صائغي التاج الملكي .

- لا لا ، لا أريد التعامل مع هذين الصائغين ، فلقد تركتهما ولا أريد رؤيتهما من جديد .

- وهل أساءا إلى سعادتك ؟

- كثيراً يا سيد ديكورنو ، كثيراً .

- آه ! لو أستطيع أن أكون أقل تحفظاً ، لو كنت أجرؤ ..

- تجرأ وقل ما عندك .

- لو تجرأت لسألت سيدي : بماذا هذان السيدان الشهيران في مهنتهما ...

- إنهما يهوديان حقيقيان يا سيد ديكورنو ، وأساليبهما الدنيئة قد جعلتهما يخسران مليوناً أو مليونين !!

فصاح ديكورنو صيحة عجب ، وتابع الدون مانويل يقول :

- لقد كلفتني صاحب الجلالة الوفية جداً ، بأن أفاوض في شراء عقد من الماس لها .

- نعم ، نعم ، إنه العقد الشهير الذي أوصى عليه الملك الراحل للسيدة دي باري ، إني أعلم ، إني أعلم .

- إنك رجل ذو قيمة ومطلع على كل شيء. حسناً، كان بودي أن أشتري هذا العقد، ولكني عدلت عن شرائه بعد قلة الذوق التي بدرت من الصائغين المذكورين.

- أيتوجب علي أن أقوم بمسعى؟

- سيد ديكورنو!

- مسعى ديبلوماسي يا سيدي، ديبلوماسي صرف.

- حبذا لو كنت تعرف هذين الصائغين.

- إن بوسانج هو ابن عمي الصغير وفقاً للتقاليد البريتانية [1].

فأخذ مانويل وبوزير يتناظران ويفكران وقد خيَّم الصمت على الجميع... وفجأة فتح أحد الخدم الباب وأعلن:

- السيدان بوهمير وبوسانج!

فانتفض الدون مانويل واقفاً وصاح غاضباً:

- أطرد هذين الشخصين.

فانبرى الخادم كي ينفذ الأمر. لكن الدون مانويل أوقفه وقال لأمين سره:

- إذهب أنت واطردهما بنفسك.

---

١ - بريتانيا، مقاطعة في فرنسا.

وهنا صاح ديكورنو متوسلاً: بحق السماء يا سيدي، دعني أنفّذ أمرك بنفسي. فسوف ألطّفه لأنني لا أستطيع التملص منه.

فقال الدون مانويل بلا مبالاة.

- إفعل إذا شئت.

فخرج ديكورنو بأقصى السرعة. وفي نفس البرهة تقدم بوزير من الدون مانويل الذي بادره بقوله:

- آه! كيف تصرفنا هذا التصرف! إن مشروعنا قد فشل.

فأجابه بوزير:

- لا، إنه لم يفشل. فديكورنو سيرتب الأمر.

- بالعكس، سيزيده تعقيداً ذلك الشقي! فأنا تكلمت البرتغالية وحدها عند الصائغين، وأنت قلت لهما بأني لا أعرف أية كلمة فرنسية، لذا سيفضحنا ديكورنو.

- إذن سألحق به.

- إياك أن تفعل، وإلا فضحت نفسك.

- كلا، لن أفضح نفسي، اترك لي حرية التصرف وسترى.

- أنت وشأنك.

وخرج بوزير مسرعاً.

أما ديكورنو فقد وجد في الخارج بوهمير وبوسانج ومظاهر الحيرة والارتباك بادية على وجهيهما . فما أن وقع نظرهما على ديكورنو حتى صاح بوسانج صيحة فرح وقال :

- أأنت هنا ؟!

وتقدم ليقبله ، فقال له ديكورنو :

- آه ! آه ! إنك لطيف جداً . لقد تعرفت علي يا ابن العم الثري . فهل لأنني في سفارة ؟

فقال بوسانج : الحقيقة أننا قد افترقنا عن بعضنا قليلاً ، فاغفر لي يا ابن العم ، وتكرم علي بخدمة .

- ها إني قد جئت من أجل ذلك .

- أوه ! شكراً ، شكراً . هل أنت ملحق بالسفارة ؟

- طبعاً .

- إذن نريد منك معلومات .

- عن أي شيء وبخصوص أي شيء ؟

- عن السفارة ذاتها .

- أنا المستشار فيها .

- أوه ! عظيم ! نريد التحدث مع السفير .

- أنا آتٍ من قبله .

- من قبله !! كي تقول لنا ؟...

- كي أقول لكما بأنه يرجوكما الخروج حالاً من السفارة، وبسرعة يا سيديَّ.

فأخذ الصائغان يتناظران بحيرة وخجل، وأكمل ديكورنو يقول:

- لأنكما كنتما غير لائقين معه وغير شريفين، كما يبدو.

- استمع الينا إذن.

فأجابهما بوزير الذي كان قد ظهر على عتبة الغرفة، ببرودة وعجرفة:

- من غير المفيد الاستماع إليكما!

ثم التفت نحو ديكورنو وتابع يقول:

- لقد قال لك سعادته يا سيد ديكورنو، بأن تطرد هذين السيدين، فاطردهما، هيَّا!

قال بوزير ذلك وقفل راجعاً. فأمسك المستشار بيمناه كتف قريبه اليمنى، وبيسرها كتف شريكه اليسرى، ودفعهما الى الخارج بلطف وهو يقول:

- إن تصرفكما قد جعل الصفقة تفلت من أيديكما.

فهمهم بوهمير، وقد كان المانياً: يا إلهي! يبدو أن هؤلاء الأغراب نزقون وسريعو التأثر.

فأجابه المستشار:

– إن من يكون حاملاً اسم « سوزا » ، وإيراده السنوي تسعماية ألف ليرة يا ابن العم العزيز ، له الحق أن يكون كما يشاء .

فتنهد بوسانج وقال :

– آه ! لقد قلت لك يا بوهمير ، بأن تصرفاتك غير لائقة .

فردّ عليه الالماني العنيد قائلاً :

– لا تأسف ، فإن لم تكن لنا دراهمه ، لن يكون له عقدنا .

وكان الصائغان قد أصبحا على مقربة من البوابة الخارجية ، عندما أخذ ديكورنو يضحك ، ثم قال لهما باحتقار :

– أتعلمان من هو هذا البرتغالي ؟ أتعلمان من هو هذا السفير البورجوازي ؟ طبعاً لا . حسناً ! سوف أقول لكما من هو : إنه سفير محظيّ من قبل جلالة ملكة البرتغال ، إنه السيد سوزا المستعد ان يشتري كل مناجم البرازيل [1] كي يستخرج منها للملكة ماسة تساوي بحجمها ما لديكما من أحجار ماسية . إن هذا العمل سيكلفه عشرين مليوناً ، أي ما يعادل

---

١ – لقد كانت البرازيل في ذلك الوقت بلد الاستيراد للبرتغال، ثم أصبحت فيما بعد مرتبطة بالمملكة البرتغالية.

ريعه لمدة عشرين سنة. ولكن ذلك لا يهمه، طالما أنه ليس لديه أولاده.

قال ديكورنو هذا وهمَّ ليغلق الباب، فحاول بوسانج إغراءه بقوله:

- أرجوك ان تدبر لنا الأمر، وستكون لك...

فقاطعه ديكورنو بقوله: هنا لا يمكن إصلاح ما بدر منكما.

وصفق الباب.

وفي مساء ذلك اليوم، تلقى السفير الرسالة التالية:

«سيدي،

«إن على باب مقركم رجلاً ينتظر أوامركم ويرغب في المثول بين يديكم ليقدم لكم اعتذارات واحترامات خادميكم، وهو بانتظار إشارة من سعادتكم ليضع بين أيدي من تختارونه العقد الذي حظي بشرف إعجابكم.

«تفضل واقبل يا سيدي فائق احترامنا...

«بوهمير وبوسانج.»

عندما قرأ الدون مانويل هذه الرسالة، ابتسم وقال:

- لقد أصبح العقد في حوزتنا.

أما بوزير، فقد أبدى رأيه بقوله:

- لن يصبح العقد في حوزتنا، إلا إذا اشتريناه، فلنشتره!

– كيف ؟

– إن سعادتك لا تتقن الفرنسية ، وهذا شيء موافق. فعلينا بادئ ذي بدء أن نتخلص من المستشار.

– بأية طريقة ؟

– بطريقة في غاية السهولة. يجب إرساله في مهمة ديبلوماسية هامة ، وأنا أتكفل بذلك.

فقال الدون مانويل : إنك على خطأ ، فهو الآن ضمانة لنا.

– ولكنه سيصرح بأنك تتكلم الفرنسية مثلي ومثل السيد بوسانج.

– لن يصرح بذلك ، وأنا أتكفله.

– كما تشاء. إذن استدعِ رجل الماس.

فأدخل الرجل الذي كان السيد بوهمير بذاته. وبعد ان انحنى احتراماً حتى كاد يلامس الأرض ، وأخذ يقدم اعتذاراته بأسلوب فيه كل الخضوع والطاعة ، قال له بوزير :

– يكفي ما قدمت من براهين على حسن نيتك ، إنك والحق يقال تاجر معتبر. فاجلس كي نتحدث ، طالما أن سعادة السفير قد غفر لك.

فتنهد بوهمير وقال : أفٍ كم يستوجب بيع الماس من مشقة !

أما بوزير ، فقد قال في نفسه : «أفٍ كم تستوجب سرقة العقد من مشقة ! »

الصفقة

★

عندئذ قبل السفير بأن يتفحص العقد ملياً . فأخذ السيد بوهمير يشرح له روعة بهائه حبة حبة . ولما انتهى من شرحه قال له بوزير نيابة عن الدون مانويل الذي كان يتكلم البرتغالية :

– لا مأخذ لسعادة السفير على مجمل العقد كعقد . أما حبات الماس فيه فشيء آخر ، إذ أن سعادته قد لاحظ بأنها غير متساوية .

فصاح بوهمير مستفظعاً ! أوه !...

فقال له بوزير :

– إن سعادته ملمٌّ بالماس أكثر منك لو تعلم : فنبلاء البرتغال يلعبون بالماس ، في البرازيل ، كما يلعب الأولاد هنا بالزجاج !

وفي الواقع كان الدون مانويل قد لمس بأصابعه عدة حبات في العقد ولاحظ بكثير من الدقة والحساسية بعض الشائبات التي لا تدرك ، والتي لا يستطيع اكتشافها إلا من أُوتي خبرة في الماس لا تضاهى ، مما اضطر السيد بوهمير إلى أن يقول له مندهشاً من اكتشافه الذي دل فيه على أنه سيد من أسياد خبراء الماس :

- مع ذلك ، فإن هذا العقد يا سعادة السفير ، يضمّ أروع مجموعة من الماسات الموجودة في أوروبا .

فأجابه الدون مانويل : هذا صحيح .

وأضاف بوزير بإشارة منه :

- حسناً يا سيد بوهمير . الواقع أن صاحبة الجلالة ، ملكة البرتغال ، قد طرق مسامعها الحديث عن هذا العقد ، وكلفت سعادة السفير أن يفاوض بأمر شرائه بعد أن يطّلع عليه ، ولقد وافق سعادته على شرائه . فبكم تودون بيع هذا العقد ؟

فقال بوهمير : إن ثمنه هو مليون وستماية ألف ليرة !

فردد بوزير المبلغ على مسامع السفير بالبرتغالية ، فقال الدون مانويل :

- إن الثمن باهظ جداً !

فقال الصائغ :

- لا يمكننا يا سيدي أن نقدر قيمة الارباح بالضبط بالنسبة الى هذه التحفة. فهذا العقد، قد استوجب لجمع ماساته الكثير من التفتيش والسفر، وكلها مجهودات لا يستطيع تقديرها إلا من قام بها.

فعاد السفير وقال مرة ثانية: ولكنه غالٍ مع ذلك.

وأردف بوزير قائلاً:

- كي يقول سعادة السفير بأن الثمن باهظ، يجب أن يكون اقتناعه راسخاً. لأن سعادته لا يحب المساومة أبداً.

فتململ بوهمير قليلاً، لأن لا شيء يزعزع ثقة الباعة المشككين سوى الشاري الذي يحب المساومة. ثم قال بعد برهة من التردد:

- لا يمكنني الموافقة على إنقاص الثمن الذي قد يقلل من المكاسب بيني وبين شريكي، أو قد يسبب لنا خسارة.

فلما استمع الدون مانويل الى ترجمة بوزير عمّا قاله الصائغ، نهض واقفاً من دون اكتراث. وبدوره بوزير أطبق العلبة التي تحتوي العقد وناولها الى بوهمير.

فاضطر بوهمير امام عدم الاكتراث هذا الى أن يقول:

- على كل الأحوال سأعرض الأمر على شريكي السيد بوسانج. فهل يقبل سعادة السفير؟

فسأل السفير بوزير: ماذا يودّ أن يقول؟

فقال بوهمير :

– أودّ القول بأن سعادة السفير يبدو وكأنه قد دفع بالعقد مليوناً ونصف المليون .

فقال بوزير : نعم .

فسأله : هل سعادته ثابت على هذا الثمن ؟

– إن سعادته لا يتراجع إطلاقاً في كلامه ، ولكن سعادته تزعجه المساومة كثيراً .

فقال الصائغ :

– أليس من حقي وواجبي يا حضرة امين السر ، أن أتفاوض مع شريكي وأنال موافقته ؟

– أوه ! بالطبع ، بالطبع يا سيد بوهمير .

وقال الدون مانويل بالبرتغالية بعد ان استمع الى الترجمة :

– بالطبع له الحق . ولكني قدمت حلاً سريعاً ومعقولاً .

فقال الصائغ :

– حسناً يا سيدي . إذا قبل شريكي التخفيض ، فأنا أقبل به مسبقاً .

– حسناً .

– اذن ، الثمن في الوقت الحاضر هو مليون ليرة ونصف المليون .

- ليكن .

فقال بوهمير : لم يبق إذن إلا أن أحصل على موافقة السيد بوسانج .

- موافق !

- تبقى فقط طريقة الدفع .

وهنا قال بوزير :

بخصوص الدفع ، ليس هناك أية صعوبات . كيف تريد أن تقبض الثمن ؟

فأشرق وجه بوهمير وأجاب : إذا كان ممكناً ، ليكن الدفع نقداً .

فقال بوزير ببرودة : ماذا تعني بالدفع نقداً ؟

- أوه ! إني أعلم بأنه ما من أحد يحتفظ في خزنته بمبلغ مليون ونصف المليون من القطع النقدية .

- إذن طلبك يحيّر يا سيد بوهمير ! مع ذلك ، سأسأل حضرة السفير كم باستطاعته أن يدفع نقداً .

ثم التفت الى الدون مانويل وسأله .

- كم باستطاعة سعادتك أن تدفع نقداً للسيد بوهمير ؟

فقال البرتغالي : مئة ألف ليرة !

فترجم بوزير كلامه الى الصائغ ، فقال هذا الأخير :

- والباقي ؟

- الباقي يلزمه الوقت الذي يتطلبه وصول تحويل سعادة السفير من باريس الى ليشبونة . هذا إذا كنت لا تفضل رجوع الموافقة بالدفع من ليشبونة الى باريس .

فقال بوهمير :

- أوه ! نحن لدينا عميل في ليشبونة ، فإذا ما كتبنا إليه ...

فقال بوزير وهو يضحك بتهكم :

- عظيم ! أكتب له واسأله إذا كان السيد سوزا موسراً أم لا ، وإذا كان تحويل مبلغ مليون وأربعماية ألف ليرة على جلالة الملكة مقبولاً أم لا .

فصاح بوهمير مرتبكاً : سيدي ...

- إذن هل تقبل ، أم أنك تفضل طريقة أخرى ؟

- إن الطريقة التي اقترحها حضرة أمين السر في الأول ، تبدو لي مقبولة . ولكن هل هناك استحقاقات محددة للدفع ؟

- هناك ثلاثة استحقاقات ، قيمة كلٍ من الاستحقاقين الأول والثاني خمسماية ألف ليرة ، وقيمة الاستحقاق الثالث أربعماية ألف ليرة . والسفر من أجل هذه الاستحقاقات سيكون سعيداً ولا شك .

- سفر الى ليشبونة ؟!

- ولماذا لا ؟.. إن قبض مليون ونصف في خلال ثلاثة أشهر، لن يسبب لك إزعاجاً كما أعتقد.

- أوه! بدون شك، ولكن...

- اطمئن. إن سفرك سيكون على حساب السفارة، وسأرافقك أنا أو المستشار.

- وهل يترتب علي أن آتي بالماس؟

- بدون أي شك. إلا إذا كنت تفضل إرسال الكمبيالات من هنا، وترك الماس يذهب وحده الى البرتغال.

- لا أعرف ... إني ... أعتقد ... بأن ... السفر، سيكون نافعاً، وأن...

فقال بوزير مطمئناً:

- وهذا هو رأيي. نوقع هنا. تقبض المئة ألف ليرة نقداً. ثم توقع عقد البيع، وتحمل ماساتك الى صاحبة الجلالة.

- ما هو اسم عميلكم؟

- إنه نيناز بالبوا وإخوانه.

عندئذ رفع الدون مانويل رأسه وقال مبتسماً:

- إنهم صيارفتي.

وابتسم بوزير بدوره وأردف يقول:

- إنهم صيارفة سعادة السفير.

فأشرقت البسمة على وجه بوهمير، وتبدد كل تحفظ لديه، ثم انحنى شاكراً واستأذن.

ولكن فجأة، بدا وكأن فكرة استوقفته. فقال له بوزير بقلق:

- ماذا؟ هل هناك شيء آخر؟

فقال بوهمير: هل أُعطي الكلام؟

- نعم، أُعطي.

- ولكن بشرط...

- بشرط موافقة السيد بوسانج، لقد قلنا ذلك.

فأضاف بوهمير: إلا في حالة واحدة.

- آه! آه!

- إن ذلك من باب اللياقة يا سيدي، ومن الواجب أيضاً. فهذا العقد سبق أن عرض على جلالة ملكة فرنسا.

- ورفضته.

- نعم، رفضته. ولكن لا يمكننا أن نُخرج العقد بصورة نهائية من فرنسا، إلا باستئذان الملكة. فالاحترام، وواجب الطاعة والأمانة، يفرضان علينا إعطاء الأفضلية لجلالتها.

فقال الدون مانويل بوقار:

- هذا حق، وإني أتمنى على التاجر البرتغالي أن يتحلى بنفس المنطق الذي يتحلى به السيد بوهمير.

فقال بوهمير :

– أنا جدّ سعيد يا سيدي ، وفخور بالثناء الذي تفضلت به علي سعادتك . إذن هناك شرطان فقط : موافقة شريكي بوسانج ، ورفض جلالة ملكة فرنسا شراء العقد بصورة نهائية . ومن أجل هذين الشرطين ، أطلب مهلة ثلاثة أيام .

فقال بوزير :

– من جهتنا نحن . مئة ألف ليرة نقداً . ثلاث كمبيالات بقيمة مليون واربعماية ألف ليرة تسلم اليك . علبة الماس تسلم الى مستشار السفارة أو إلي لينقلها أحدنا برفقتك الى ليشبونة . دفع كامل المبلغ المتبقي في خلال ثلاثة أشهر ، وبواسطة السادة نيناز بالبوا وإخوانه . مصاريف السفر لا شيء .

فقال بوهمير وهو يقدم فائق احتراماته :

– نعم يا سيدي ، نعم يا سيدي .

ثم استدار ليذهب ، فاستوقفه الدون مانويل وقال له :

– يبقى عليك واجب !

فسأله بوهمير بقلق : ماذا يا سيدي ؟ ماذا ؟

– تقديم خاتم بقيمة ألف بيستول [1] لأمين سري ، أو لمستشاري . أي لمن سيرافقك منهما .

---

١ – عملة ذهبيةاسبانية أو اوروبية.

– على رأسي يا سيدي، على رأسي. فهذا الأمر قد حسبت حسابه.

عندئذ ربَّت الدون مانويل بعظمة الأسياد على كتف الصائغ، وانصرف هذا الأخير وهو ينحني انحناءات متتالية.

ولما أصبح الدون مانويل وبوزير وحدهما، قال الأول للثاني بشيء من الحدة:

– تفضل واشرح لي الفكرة الشيطانية التي حالت دون طلبك تسليم العقد هنا؟ سفر الى البرتغال!! هل أنت مجنون؟ ألم يكن بإمكاننا دفع المال المتوفر الى هذين الصائغين، وبالمقابل استلام العقد منهما؟

فقال بوزير:

– إنك تلعب دور السفير بجدية زائدة، مع أنك لست السيد سوزا تماماً في نظر السيد بوهمير.

– إقلع عن هذا الكلام! فلو كان لديه أي شك، لما تفاوض معي.

– هذا صحيح. ولكن كل رجل يملك مليوناً ونصف المليون من الليرات، يتصور نفسه فوق الملوك وكل السفراء. وكل شخص يضطر الى المقايضة على مثل هذا العقد بوريقات تحمل تواقيع، يريد التأكد عما إذا كانت هذه الوريقات، تساوي فعلاً القيمة المسجلة عليها.

– إذن ستذهب الى البرتغال ، أنت الذي لا يعرف البرتغالية ؟! إنك فعلاً مجنون .

– أبداً ، أبداً ، سوف تذهب أنت بنفسك .

فصاح الدون مانويل :

– أنا أعود الى البرتغال !! لا ، لا ، هذا شيء بعيد عن الصواب .

– وإني اطمئنك ، بأن السيد بوهمير لن يسلم العقد مقابل أوراق .

– أوراق تحمل تواقيع سوزا !

فصاح بوزير وهو يضرب كفاً بكف :

– لقد قلت لك بأنك لست السيد سوزا تماماً في اعتقاده .

– على كلٍ ، إني أفضل فشل المشروع على السفر الى البرتغال .

فقال بوزير : أبداً ، اطلاقاً .

ثم التفت فرأى شريكهما ، خادم الغرفة ، على عتبة الباب ، فصاح به :

– تعال يا حضرة «الكومندور» ، لقد علمت موضوع الحديث ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– هل استمعت الى ما قلته ؟

– بالتأكيد .

– حسناً . هل برأيك قد عملت حماقة ؟

– إنك برأيي ، مئة ألف مرة على حق وصواب .

– قل لماذا ؟

– لأن السيد بوهمير ، لم ينقطع عن مراقبة مقر السفارة والسفير .

فقال الدون مانويل : إذن ما العمل ؟

فقال بوزير :

– العمل هو أن تجعل السيد بوهمير يطمئن الى ماله ، إلى أنه في يده ، عندئذ يذهب إلى البرتغال مطمئناً ولا تعود تساوره أية شكوك .

وأردف خادم الغرفة يقول :

– لن نذهب معه الى البرتغال فعلاً يا حضرة السفير ، أليس كذلك أيها الفارس بوزير ؟

فصاح عشيق أوليفا فرحاً :

– هذا شخص واسع الأفق يفهمني .

عندئذ قال له الدون مانويل ببرودة :

– قل ، قل ما أنت مزمع عليه .

فقال بوزير :

– على بعد خمسين فرسخاً من باريس ، هذا الشخص

الواسع الأفق، مع قناع على وجهه، يأتي ويعترض المركبة التي نقلها ويشهر علينا مسدساً أو مسدسين، ثم يسلبنا الكمبيالات والعقد، ويطعن السيد بوهمير عدة طعنات، ونعود بدونه...

فقال خادم الغرفة :

- لم أفهم هذا القول. فأنا أرى أن يبحر بوزير وبوهمير الى البرتغال من بايون.

- عظيم!

- فالسيد بوهمير، ككل الألمان، يعشق البحر. لذا سيخرج إلى سطح المركب ليمتع الطرف بمشهد الأزرق الرجراج. وفي يوم يكون البحر فيه هائجاً، يتمايل ويسقط... ومعه تسقط علبة الجواهر... وكما حفظ البحر سفن الهند الكبيرة، سوف يحفظ عقداً من الماس يساوي مليوناً ونصف المليون من الليرات.

فقال الدون مانويل: آه! لقد فهمت.

ودمدم بوزير: هذا شيء مفرح.

وأردف الدون مانويل يقول :

- ولكن، كي نختلس العقد، سنستحق دخول الباستيل. وكي ندفن السيد بوهمير في أعماق البحر، سنستحق الشنق.

فقال « الكومندور » :

– كي نختلس العقد ، قد وضعنا الخطة . كي نغرق صاحبه ، لن نكون لحظة موضع شك .

وأخيراً قال بوزير :

– سندرس وسيلة التنفيذ عندما يحين الوقت . أما الآن ، فلنتوزع الأدوار. علينا قبل كل شيء ، أن نتصرف في السفارة تصرف برتغاليين مثاليين ، كي يقولوا عنا : « لو لم يكونوا فعلاً هيئة السفارة ، لكانت تصرفاتهم قد كشفتهم » . وذلك بانتظار الأيام الثلاثة .

منزل الصحافي

★

في شارع مونتورغاي ، وفي مكان بعيد عن الضجة ، ارتفع بيت مستطيل في عمق باحة مصوَّنة لا يتصل به سوى شبه دكان مفتوح نصف فتحة ، كان المعبر الوحيد لهذا البيت الذي كان يقطنه صحافي ذو شهرة ، وعنه تصدر صحيفته التي نالت بعض الشهرة في ذلك الوقت .

خُصّص الطابق الأول من هذا البيت المؤلف من أربعة طوابق للتحرير، والطابق الأرضي لطبع الصحيفة. أما الطابقان الباقيان فقد كان يقطنهما جماعة من الناس الناعمي البال، والذين كانوا يدفعون ثمناً بخساً للمزعجات التي كانت تسببها لهم عدة مرات في السنة مداهمات رجال الشرطة للصحيفة المذكورة.

فماذا جرى في ذلك المكان المنغلق على نفسه تقريباً، في اليوم التالي لاتفاق «البرتغاليين» مع بوهمير على مشروع العقد الماسي، وبعد مرور ثلاثة أيام على حفلة الأوبرا؟

كان هناك رجل ملاحق، وباب سري يفتح ويغلق، والصمت مخيّم. أما الرجل الملاحق فقد توارى كما اعتاد من مخرج في غرفته يوصل الى شارع الاوغسطينيين. أما مطاردوه فقد وجدوا أنفسهم وحدهم أمام أربعة جنود من الحرس الفرنسي مسلحين ببنادق، كانت خادمة مسنّة قد أسرعت فاستدعتهم من مركز الهال.

ولقد تردد هنا وهناك بأن المطاردين، عندما لم يعثروا على أي شخص يصبون عليه جام غضبهم، جمعوا بعض الأوراق المبللة والتي لا فائدة منها في الطابق الأرضي، ومزقوها، ثم أحرقوها وكأنها أوراق مجرمة!

فما هي هذه الصحيفة التي استحقت ذلك الانتقام ؟ وما هي الجريمة التي اقترفها صاحبها ؟ ومن يكون ؟

إنه السيد ريتو ، وقد كان يخرج صباح كل يوم ، ويقوم بجولة على الأرصفة ، والساحات والشوارع ، فيلتقي الهازئين ، والناقمين ، وأصحاب العاهات ، ومختلف طبقات الشعب ، فيستنطقهم ، ويخربش رسومهم ، ويسجل أفكارهم وكل شيء عنهم ، وبذلك تتجمع لديه مواد العدد المقبل من صحيفته المتواضعة .

ولقد كانت الصحيفة المذكورة اسبوعية ، بمعنى أنه في خلال أربعة أيام ، كان السيد ريتو يكتب مقاله الأسبوعي ويحضّر رسومه ، وفي الأيام الثلاثة الباقية يطبع الصحيفة ، وفي اليوم التالي يقوم بتوزيعها.

واتفق ان كان موعد صدور هذه الصحيفة في نفس اليوم الذي نتحدث عنه ، أي بعد اثنتين وسبعين ساعة من حفلة الأوبرا ، حيث حظيت الآنسة أوليفا بمقدار من السعادة وهي تتأبط ذراع « الدومينو » الأزرق .

نهض السيد ريتو في ذلك اليوم من رقاده في الساعة الثامنة ، فقدمت له خادمته المسنّة العدد الأخير من الصحيفة ، فانبرى يقرأه بعناية الأب الحنون الذي يستعرض حسنات وسيئات ابنه العزيز على قلبه .

وعندما انتهى من القراءة ، قال لخادمته : إنه عدد جميل يا ألديغوند ، فهل قرأته ؟

فقالت الخادمة :

- حتى الآن لا ، فلم أنتهي من إعداد الحساء .

فقال الصحافي وهو يتثاءب :

- إني مسرور من هذا العدد .

فأجابته ألديغوند :

- نعم ، ولكن أتعلم ماذا يقولون في المطبعة ؟

- ماذا يقولون ؟

- يقولون بأنك هذه المرة لن تنجو من الباستيل .

فجلس ريتو على قعدته ، وقال بصوت هادئ :

- ألديغوند ، ألديغوند ، حضري لي حساءً طيباً ولا تتدخلي في الأدب .

فأجابته المرأة المسنَّة :

- أوه ! أنت دائماً هكذا ، مغامر مهووس مثل عصفور الدوري .

فقال الصحافي :

- سوف أشتري لك أقراطاً بثمن هذا العدد ، فالإقبال على شرائه سيكون كبيراً .

– إن أقراطي لن تكون براقة . هل تتذكر العدد الممتاز الذي هاجمت به السيد دي بروغلي ؟ لقد بعنا منه مئة نسخة في خلال عشر دقائق . وأعتقد بأن هذا العدد لا يساوي عدد السيد دي بروغلي .

فقال ريتو :

– ليكن ، فهو لم يكلفني الجهد الذي كلفني إياه ذلك العدد . وفوق ذلك ، سأتناول حسائي قرير البال ، أتعلمين لماذا يا ألديغوند ؟

– لا يا سيدي ، لماذا ؟

– لأني هذه المرة ، عوضاً عن أن أهاجم رجلاً ، هاجمت جسداً . وعوضاً عن أن أهاجم عسكرياً ، هاجمت ملكة .

فصاحت ألديغوند :

– الملكة !.. ليتمجد اسم الرب . إذن لا تخف أبداً ، فإذا هاجمت الملكة ، سوف يرفعك الشعب على الراحات إجلالاً وتكرمة ، وسوف نبيع الأعداد كلها ، وسوف تشتري لي أقراطاً .

وهنا سمع ريتو قرع الجرس ، فالتحف وقال لخادمته :

– إنهم يقرعون الجرس .

فأسرعت الخادمة بالهبوط الى الدكان الذي ذكرنا كي

تستقبل الزوار. وبعد برهة عادت وهي ترقص فرحاً، وصاحت بمعلمها:

- ألف نسخة دفعة واحدة!.. هذا طلب.

فقال ريتو باهتمام: باسم من؟

- لا أعلم.

- يجب أن تعلمي. عجلي واسألي.

- أوه! لدينا متسع من الوقت. فليس بهذه السرعة عدُّ ألف نسخة وربطها وحملها.

- قلت لك عجلي واسألي الخادم. هل هو خادم؟

- إنه متعهد صحف، متعهد مع كلاليبه.

- حسناً. اسأليه الى من سيحمل هذه الأعداد.

فأسرعت ألديغوند وهبطت السلم الخشبية التي كانت تهتز تحت ثقل ساقيها، وصوتها المتسائل لا يتوقف عن الدوي، الى أن أجابها متعهد الصحف: «إنها للكونت كاغليوسترو».

فما ان سمع الصحافي اسم الكونت المذكور حتى قفز واقفاً، وهبط السلم بدوره وقام بنفسه بتسليم المطلوب من صحيفته.

وبعد أن حمل متعهد الصحف النسخ الألف، انتعش الأمل عند السيد ريتو بأن يكون العدد المقبل ناجحاً كذلك،

وصمَّم على تخصيص بعض الأسطر فيه للثناء على ذلك السيد السخيّ، الذي شاء شراء ألف نسخة من ورقة لا تحمل سوى مقال هجائيّ واحد، وقد اعتبرها صحيفة سياسية تستحق الاهتمام!

وبينما كان السيد ريتو يهنئ نفسه على هذا النجاح غير المنتظر، إذا بالجرس يقرع من جديد... وبصوت الخادمة ألديغوند يصيح بعد لحظات:

– أيضاً ألف نسخة!! آه يا سيدي كم أنا سعيدة بهذا النجاح. ولكن لا عجب، فيكفي أن يكون متعلقاً بالنمساوية [1] حتى يستهوي كل الناس.

– اصمتي! اصمتي يا ألديغوند ولا تتكلمي بصوت مرتفع! إن كلمة نمساوية شتيمة تكلفني دخول الباستيل الذي تتكهنين لي به.

فقالت المرأة المسنَّة بحدة:

– يا للعجب! أليست نمساوية؟

– إنها كلمة نتداولها نحن الصحافيين، ولكن يجب أن لا تتناقلها الألسن.

---

١ – المقصود بالنمساوية الملكة ماري انطوانيت لأنها نمساوية الأصل.

بعد هذا الكلام قرع الجرس مرة جديدة ، فقال الصحافي :

- إذهبي وانظري يا ألديغوند ، ولكني لا أعتقد أن القادم هذه المرة يرغب في شراء أعداد من الجريدة .

فقالت الخادمة وهي تهبط السلم :

- لا أعلم ، يتراءى لي أني أرى رجلاً كالح الوجه أمام الشعرية .

وأكملت الخادمة هبوطها وفتحت ، وإذا بها أمام رجل يرتدي ثيابا بسيطة ، بادرها بقوله :

- هل محرر الصحيفة هنا ؟

فسألته ألديغوند بشيء من الحذر ، وتهيأت لإغلاق الشعرية في وجهه عند أول إشارة خطر :

- ماذا تريد منه ؟

فخشخش الرجل بالريالات التي تملأ جيبه ، وأجاب :

- جئت أدفع له ثمن النسخ الألف من صحيفة اليوم ، التي طلبها الكونت كاغليوسترو .

- آه ! إذا كان الأمر كذلك ، تفضل .

فاجتاز الرجل الشعرية من دون ان يغلقها ، إذ كان وراءه شاب ضخم الجثة ، جميل الشكل ، أمسك بالشعرية وقال له : « عفواً يا سيدي » . ثم انزلق وراء الرجل الذي جاء يدفع من قبل الكونت كاغليوسترو .

أما ألديغوند التي رقص قلبها مع رنين الريالات التي سيقبضها معلمها، فقد أسرعت تقول له:

– يا لفرحتي، يا لفرحتي، فكل شيء يسير على ما يرام. ها هي الخمسماية ليرة ثمن الألف نسخة قد جاء من يدفعها.

فقال ريتو مقلداً الممثل «لاريف» في آخر تمثيلية له: «لنستقبله على عادة الاشراف». ثم لبس مبذلاً جميلاً وأخذ يخرج عدداً من الهدايا المختلفة الأنواع والأشكال.

وما هي لحظة حتى حضر مندوب الكونت كاغليوسترو وبسط كيساً صغيراً من الريالات وأخذ يعدّ ما فيه وريتو يراقب العدّ بدقة خشية النقص. ولما اكتمل المبلغ المطلوب، شكره ريتو وأعطاه إيصالاً بالمبلغ، ثم زوّده بتحياته واحتراماته الى الكونت كاغليوسترو، فشكره الرجل بصورة طبيعية وهمَّ بالانسحاب، فقال له ريتو:

– قل لحضرة الكونت بأني رهن إشارته، وليكن مطمئناً فإني أعرف كيف أحافظ على السر.

فأجابه ناقل الريالات:

– إن الكونت كاغليوسترو رجل حيادي ولكنه يريد أن يهزأ الناس من أعدائه، وهو لا يعتقد بالتنويم المغنطيسي، لذا يريد أن يسخر الناس من السيد ميسمار، صاحب هذه النظرية.

عند ذاك سُمع صوت يقول: «حسناً، ونحن أيضاً سنحاول الهزء على حساب الكونت كاغليوسترو».

فالتفت السيد ريتو، فرأى رجلاً قد دخل غرفته ولا تبشّر هيئته بالخير... إذ كانت يده اليسرى على مقبض سيفه، ويده اليمنى على مقبض عصاه. وقد كان هذا الرجل شاباً ضخم الجثة، تبدو عليه مظاهر القوة، فسأله ريتو بصوت متلجلج:

- هل تأمر خدمة يا سيدي؟

- نعم، أريد السيد ريتو.

- أنا هو.

- من يتكلم باسم الصحيفة؟

- أنا.

فسحب الشاب من جيبه عدداً من الصحيفة وقال له ببرودة:

- أنت كاتب هذا المقال؟

فأجاب الصحافي:

- في الحقيقة، أنا الناشر وليس الكاتب.

- الناشر والكاتب كلاهما واحد في المسؤولية. فإن كانت الجرأة تنقصك لكتابة هكذا مقال، فإن الجبانة لم

تنقصك لنشره . وإذا كان كاتب المقال سافلاً ، فإن ناشره حقير ...

فقال ريتو وقد صبغ الاصفرار وجهه :

- سيدي !

- لا تقل سيدي ! فكل شيء في دوره . منذ قليل قبضت الريالات ، وها أنت الآن ستقبض ضربات العصا ...

فصاح الصحافي : آه ! سنرى .

فسأل الشاب خصمه باقتضاب وبلهجة عسكرية بينما كان يتقدم نحوه :

- ماذا سترى ؟

لكن ريتو الذي لم يكن هذا الحادث الذي تعرض له هو الأول من نوعه ، كان يعرف خفايا ومنعطفات بيته ، وكان في كل مرة يداهمه الخطر ، ينسل من أحد الأبواب ويهبط درجاً سرياً يوصله إلى بوابة تفضي به الى شارع الأوغسطينيين، وهناك يطلق العنان لرجليه الى أن يصبح في مأمن من الخطر . وكان دائماً يحتفظ في جيبه بمفتاح هذه البوابة .

لكن ذلك اليوم ، كان يوم شؤم بالنسبة له ، وعملية الهرب لم تكن ناجحة . فما أن وصل الى البوابة المذكورة ، وهي مشبك من القضبان الحديدية ، حتى وجد عملاقاً آخر

بانتظاره في الجهة المقابلة ، فتوقف حائراً ... ولما همّ بالرجوع من حيث أتى ، وقعت عيناه على الرجل الذي وعده بضربات العصا ، بعد أن تمكن من خلع الباب الذي انصفق وراء ريتو ، واللحاق به .

ولما وجد ريتو نفسه بين نارين ، أو بين عملاقين ، صاح متوسلاً الرجل الواقف وراء القضبان الحديدية :

- بربك يا سيدي ، دعني أمرّ .

عندئذ قال الرجل الذي يلاحقه بعصاه الى الخفير الآخر :

- إقبض على هذا الحقير يا سيدي ، إقبض عليه .

فأجابه ذلك الرجل :

- كن مطمئناً يا سيد دي شارني ، فلن يمرّ .

فصاح دي شارني مندهشاً :

- السيد دي تافرني ، أنت !

والواقع أن الرجلين ما أن قرآ صحيفة السيد ريتو عند الصباح ، حتى راودتهما فكرة واحدة ، لأن شعورهما كان واحداً . ومن دون أن يعلم أحد ما في نية الآخر ، قاما بوضع الفكرة موضع التنفيذ . وهذه الفكرة كانت تقضي بالذهاب الى منزل الصحافي وطلب التعويض منه ، فإن لم يدفع ، يعالجانه بالعصا .

لكن كلاً منهما، عندما لمح الآخر، شعر بتبدل في طباعه، إذ اكتشف في الآخر خصماً له ومنافساً.

من أجل ذلك تلفظ دي شارني بهذه الكلمات وهو عابس الوجه: «السيد دي تافرني، أنت!»

وقد أجابه دي تافرني بنفس اللهجة: «أنا هو بذاته، ولكن يبدو أني قد وصلت متأخراً، ولن يكون دوري سوى حضور الحفلة، إذا لم تتكرم علي بفتح البوابة».

فدمدم الصحافي مرتعباً: الحفلة! الحفلة! ماذا تقصدون بذلك؟ هل ستذبحانني يا سيديَّ؟

فقال دي شارني:

- لا، لن نذبحك، ولكننا سنستجوبك أولاً، ثم نرى فيما بعد...

ثم التفت نحو فيليب دي تافرني وقال له:

- هل تسمح بأن أتصرف وفق رغبتي مع هذا الرجل يا سيد دي تافرني؟

فأجابه فيليب: بكل تأكيد يا سيدي، فلك الحق الأول طالما أنك قد وصلت اولاً.

فقال دي شارني للصحافي وهو يشكر دي تافرني بإشارة من يده:

– التصق بالحيط ولا تتحرك. ثم، هل تعترف بأنك كتبت ونشرت مقالاً ضدّ الملكة في صحيفتك التي صدرت هذا الصباح؟

– ليس ضدّ الملكة يا سيدي.

– لم يكن ناقصاً سوى أن تنكر!

وقال فيليب دي تافرني موجهاً كلامه الى دي شارني وهو في حالة هياج في الجهة الثانية:

– إنك كثير الصبر يا سيدي!

فأجابه دي شارني:

– كن مطمئناً، فلن يطير هذا الرجل إن هو انتظر قليلاً.

– ولكنني أنا أيضاً أنتظر.

فلم يردّ شارني على تافرني، بل التفت نحو الشقي ريتو وقال:

– «أتانيوتنا» هي انطوانيت ... لا تنكر، وإلا تعرضت لما هو أشدّ من الضرب والقتل... إلى سلخ جلدك وأنت حي!.. إذن جاوب على هذا السؤال بوضوح وصراحة:

– هل أنت وحدك وراء هذا القدح والذم؟

فاعتدل ريتو وأجاب:

– أنا لست نمّاماً وواشياً يا سيدي.

حسناً! هذا يعني بأن هناك شريكاً محرضاً... وهذا الشريك هو الرجل الذي اشترى الألف نسخة من عدد اليوم الذي يحمل مقال القدح والذم بالملكة. إنه ولا شك، الكونت كاغليوسترو الذي بعثت إليه بتحياتك واحتراماتك منذ قليل، والذي سينال نصيبه كما ستنال أنت نصيبك. وبما أنك قد وقعت في قبضة يدي أولاً، فستنال نصيبك أولاً.

قال شارني هذا ورفع العصا... فصرخ ريتو عاوياً: لا، لا يا سيدي فليس من عادة الاشراف مهاجمة نبيل أعزل.

فأخفض شارني يده وقال لفيليب دي تافرني:

- أرجوك يا سيد فيليب، أن تقرض سيفك هذا النذل.

فصاح فيليب: أعوذ بالله! أنا أقرض سيف نبلٍ الى هذا الرجل!

- إذن اقرضني سيفك لي، وأنا أقرضه سيفي كي نصبح متساويين.

ثم رمى شارني بسيفه الى الصحافي، فلم يعد باستطاعة فيليب تافرني أن يرفض طلبه، فسحب سيفه من غمده ومرّره اليه من خلال القضبان الحديدية للبوابة، فتناوله شارني وحيّاه به، ثم استدار نحو ريتو وقال له:

- إنك نبيل، ها! نبيل وتكتب عن ملكة فرنسا هذه القبائح!.. حسناً! التقط هذا السيف وأثبت بأنك نبيل.

ولكن ريتو بقي جامداً ... فقد أرعبه السيف الذي سقط بين رجليه ، أكثر مما أرعبته العصا التي كانت فوق رأسه . فصاح فيليب ساخطاً :

- لقد عيل صبري ... إفتح لي هذه البوابة .

فقال دي شارني :

- عفوك يا سيدي ، فلقد وافقت على أن أكون البادئ بتأديب هذا الرجل .

- إذن أسرع كي يأتي دوري ، فأنا على عجلة من أمري .

- أريد أن استنفد كل الوسائل ، قبل أن أصل الى الوسيلة الفضلى . ولكن طالما أن السيد يفضّل ضربات العصا على ضربات السيف ، فليكن له ما يريد .

وما كاد دي شارني يتلفظ بهذه الكلمات ، حتى تعالى صراخ ريتو ... فقد قرن دي شارني الكلام بالأفعال ، وانهالت ضربات العصا القوية على خصمه الذي استمرّ بالصراخ حتى تناهى صراخه الى مسمع خادمته ألديغوند .

في هذا الوقت ، كان فيليب دي تافرني ، يقف كآدم ، في الجهة الثانية من الجنة ، يقضم أظافر يديه ، ويشهد ترويض الدب من خلال القضبان الحديدية .

وأخيراً توقف دي شارني عن الضرب ، بعد أن أعياه هذا الضرب ، وانبطح ريتو على الأرض منهوكاً من الضرب الشديد المتواتر .

ثم قال فيليب موجهاً كلامه الى شارني :

– هل انتهيت يا سيدي ؟

فأجابه دي شارني : نعم .

– حسناً ! ردَّ لي الآن سيفي الذي لم يكن مفيداً لك ، وافتح لي أرجوك .

فصاح ريتو متوسلاً ، بعد أن وجد في الرجل الذي أنهى حسابه معه ، مدافعاً :

– سيدي ! سيدي !

فقال له شارني :

– أنت تعلم بأني لا أستطيع ترك السيد وراء البوابة . يجب أن أفتح له .

فصرخ ريتو عاوياً :

– آه ! إنه سيقتلني ! بربك ، اقتلني حالاً بضربة سيف ، وخلصني من هذا العذاب .

فأجابه شارني :

– لا ، لا ، كن مطمئناً ، فهو لن يمسّك كما أعتقد .

وقال فيليب تافرني باختصار كلي وهو يلج البوابة :

- لن أقتلك ، فلقد نلت ما تستحقه من الضرب . ولكن هناك أعداد من الصحيفة ما زالت موجودة ، وهذه الأعداد يجب أن تتلف .

فقال شارني موجهاً كلامه الى فيليب :

- آه ! أرأيت أن وجودنا نحن الاثنين ، أفضل من وجود واحد منّا فقط . فأنا قد سها عن بالي هذا الأمر . ولكن كيف كان حضورك المفاجئ على هذه البوابة يا سيد دي تافرني ؟

فقال دي تافرني :

- لقد استعلمت في الحي عن أخلاق هذا النذل ، فعلمت أنه قد اعتاد الهرب كلما شددوا عليه الحصار . لذا تحريت وسائله في الهرب ، فثبت لي ان حضوري على هذه البوابة يمكنني من إلقاء القبض على الثعلب في وكره . ويبدو أن نفس فكرة الانتقام قد راودتك ، ولكن المعلومات التي وصلتك عن أساليب هربه كانت ناقصة ، لذلك دخلت من الباب الذي يدخله الجميع ، فتمكن من الهرب ، ولو لم تجدني هنا لأفلت من بين أيدينا ونجا بجلده .

- لقد أفرحتني بما قمت به . تعال يا سيد دي تافرني ، فهذا السخيف سوف يدلنا على المطبعة .

فقال ريتو :

- ولكن مطبعتي ليست هنا .

فصاح دي شارني مهدداً : كذاب !

فقال له فيليب دي تافرني :

– لا ، لا ، ليس كذاباً . فالأحرف قد تفرقت ، ولم يبق سوى أعداد الصحيفة ، وهذه الأعداد يجب أن تكون كاملة ، باستثناء الألف نسخة التي ابتاعها السيد دي كاغليوسترو .

– إذن سوف يمزق هذه الأعداد أمامنا .

– بل سوف يحرقها ، فهذا أضمن .

وكانت هذه الوسيلة من العقاب كافية لإرضاء فيليب دي تافرني ، فدفع ريتو باتجاه الدكان المعهودة .

كيف أصبح الصديقان عدوين

★

ما أن سمعت ألديغوند صراخ معلمها ورأت البوابة مقفلة في وجهه ، حتى أسرعت تستدعي رجال الحرس .

ولكن قبل أن تتمكن من العودة ، كان السيدان دي تافرني ودي شارني قد أحرقا الأعداد المتبقية من صحيفة معلمها ، ومزّقا كل ما عثرا عليه من أوراق . وعندما وصل رجال الحرس كانت النار تلتهم ما تبقى من هذه الأعداد والأوراق .

ولما كان فيليب وشارني قد باتا يعرفان جيداً الطريق التي كان يسلكها ريتو للهرب، فما أن سمعا وقع أقدام رجال الحرس حتى ولّيا الإدبار من هذه الطريق الى أن وصلا الى شارع الأوغسطينيين، ثم أقفلا البوابة وراءهما بالقفل ورميا بالمفتاح في أول مجرور للمياه.

ولما وجد ريتو نفسه قد أصبح حراً، أخذ يصرخ بأعلى صوته طالباً النجدة، كذلك فعلت خادمته ألديغوند عندما رأت ألسنة النار ترتفع ملتهمة كل شيء.

أما رجال الحرس، فلما لم يجدوا أمامهما سوى نار تكاد تنطفئ، لم يكلفوا أنفسهم عناء التفتيش عن الشابين المهاجمين، بل قفلوا عائدين الى مركز حراستهم تاركين ريتو وخادمته وحدهما، وقد انبرت هذه الأخيرة تضع على ظهر معلمها الذي تعرّض لضربات العصا الأليمة، الرفائد المبللة بشراب ماء الحياة المشبع بالكافور.

ولنعد الآن الى تافرني وشارني. فما أن أصبحا في شارع الأوغسطينيين، حتى قال دي شاري لرفيقه:

– أما الآن يا سيدي، وقد انتهينا من تنفيذ مهمتنا، فيسرني أن يكون بمقدوري تأدية خدمة لك.

– شكراً لك يا سيدي، فقد كنت على وشك أن أطرح عليك نفس السؤال.

– وأنا أشكرك بدوري . فقد جئت باريس من أجل أشغال خاصة قد تستوجب بقائي فيها قسماً كبيراً من النهار .

– وأنا أيضاً يا سيدي .

– إذن ، إسمح لي بالذهاب ، مهنئاً نفسي على السعادة والشرف اللذين نلتهما من جراء لقائي بك .

– هذا لسان حالي يا سيدي . وإني أتمنى أن تأتي نهاية العمل الذي جئت من أجله ، وفق رغباتك .

ثم حيّا الرجلان بعضهما البعض وافترقا ، بعد أن تنافسا في تأدية عبارات المجاملة التي كانت تتلفظ بها شفاههما ولا تعبّر عما في قلبيهما !

وقد سار فيليب دي تافرني في طريق البوليفارات ، بينما اتخذ دي شارني الطريق المحاذية لنهر السين . وبعد أن دار كل منهما عدة دورات الى أن ضاع عن عيني رفيقه ، اجتاز دي شارني عدة شوارع حتى وصل أخيراً الى شارع القديس لويس ، ومنه تقدم نحو شارع « نيف – سان – جيل » .

وبينما هو يسير في هذا الشارع ، وقع بصره على شاب كان بدوره يمشي صعوداً في شارع القديس لويس ، وقد تراءى له بأنه يعرفه ، ولكنه بقي بين الشك واليقين . وبعد أن توقف عدة مرات يسائل نفسه ، توارى الشك نهائياً وثبت له بأن هذا الشاب هو فيليب دي تافرني بذاته .

وأخيراً وجد الشابان نفسيهما وجهاً لوجه في مدخل شارع «سان جيل»، فتوقفا وأخذا ينظران الى بعضهما البعض بعيون قد فضحت هذه المرة ما في نفسيهما.

ولكن فكرة واحدة راودتهما هذه المرة أيضاً، إذ نسب كل منهما سبب وجوده في ذلك الشارع، الى رغبته في طلب التعويض من الكونت كاغليوسترو، وهكذا تبدَّد لديهما الشك من تلاقيهما مجدداً، فقال فيليب دي تافرني:

- لقد تركت لك يا سيد دي شارني البائع تؤدبه بالعصا، فاترك لي الشاري أؤدبه بالسيف.

فأجابه دي شارني:

- إن سبب بادرتك اللطيفة كما أعتقد، هو كوني وصلت الأول، وليس شيئاً آخر.

- هذا صحيح. ولكن هنا، وصلت في الوقت نفسه الذي وصلت فيه أنت، ولقد طلبت طلبي قبلك، ولن أتنازل لك عنه أبداً.

- ومن قال لك بأني سأطلب تنازلك يا سيدي؟ إن حقي سأدافع عنه ولن أستجديه.

- وما هو حقك، حسب رأيك، يا سيد دي شارني؟

- هو أن أحرق الألف نسخة التي اشتراها ذلك الحقير كاغليوسترو.

- ولكنك تذكر جيداً، بأني أنا صاحب فكرة حرق النسخ في شارع مونتورغاي.

- حسناً! لقد قمت أنت بحرق النسخ في شارع مونتورغاي، وأنا سأقوم بتمزيقها في شارع «سان جيل».

- لقد قنطت وأنا أقول لك بجدية يا سيدي، بأني أرغب في القيام بنفسي، بما يجب أن أقوم به لدى الكونت كاغليوسترو.

- إن كل ما يمكنني أن أفعله لك يا سيدي، كمخرج مشرّف، هو أني سأرمي ليرة ذهبية في الهواء، فمن يستولي عليها منّا نحن الاثنين، تكون له الأفضلية.

فوافق فيليب على هذا الحل، ولكن ما أن خطا خطوة الى الأمام، حتى أوقفه دي شارني وقال له:

- كلمة يا سيدي، وأعتقد بأننا سوف نتفاهم.

فاستدار فيليب بسرعة، إذ كان في صوت شارني لهجة تهديد طابت له، وقال له:

- تفضَّل، قلها.

فقال دي شارني:

- كي نذهب لنطلب حقنا من الكونت دي كاغليوسترو، علينا أن نمرَّ في غابة بولونيا، وإني أعلم جيداً بأن هذه الطريق طويلة جداً، لكنها ستضع حداً لخلافاتنا

كما أعتقد، إذ إن واحداً منّا نحن الاثنين، ربما بقي في الطريق، وعاد الآخر ليؤدي الحساب...

- في الحقيقة، هذا ما كنت أفكر به، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تصلح فيما بيننا. فأين تريد أن نتلاقى؟

- إذا كان باستطاعتك احتمال رفقتي يا سيدي، فأنا قد أعطيت الأمر لحوذيٍّ عربتي كي يأتي وينتظرني في الساحة الملكية القريبة من هذا المكان كما تعلم.

- هل تريد القول بأنك ستهبني مكاناً فيها؟

- بكل سرور.

وهكذا يكون الشابان اللذان شعرا عند أول نظرة بأنهما مزاحمان، قد أصبحا عدوين عند أول مناسبة، وأخذا يحثان الخطى باتجاه الساحة الملكية. وما أن وصلاها حتى أشار دي شارني الى خادمه، فتقدمت العربة وانطلقت بالاثنين باتجاه غابة بولونيا.

وقبل أن يصعد دي شارني الى العربة، كتب عدة كلمات على قصاصة ورق ودفعها الى خادمه الراجل كي يحملها الى قصره في باريس.

وفي أقل من نصف ساعة، وبفضل جياد السيد دي شارني الأصيلة، كان الإثنان في غابة بولونيا، وقد أوقف الحوذي عربته في المكان الذي وجده دي شارني مناسباً.

وكان الوقت جميلاً جداً، والهواء يهب نسيمات خفيفة لطيفة، والشمس تنشر أشعتها على الزهور المتنوعة فينتشر منها الطيب معطراً الأنفاس.

امام هذا المشهد البديع، قال دي شارني:

- إن الوقت جميل للنزهة، أليس كذلك يا سيد دي تافرني؟

فأجاب دي تافرني:

- حقاً، إنه طقس جميل يا سيدي!

ثم هبط الإثنان من العربة، وقال دي شارني للحوذي:

- إذهب يا دوفين.

فقال له تافرني:

- أعتقد أنك عجّلت في صرف العربة يا سيدي، فقد يضطر أحدنا الى الرجوع بها.

فقال شارني:

- إن السر في هكذا عمل، لو اطّلع عليه الخدم لأصبح غداً حديث الناس في باريس كلها.

- ولكن هذا ما تريده أنت يا سيدي. ثم إن الحوذي لا تفوته الغاية من مجيئنا الى هنا. فهؤلاء الخدم يعرفون جيداً كيف يتعامل النبلاء، لذا عندما ينقلون بعضهم الى غابة

بولونيا ، أو فنسانّ ، أو ساتوري ، لن يفكروا إطلاقاً بأن هؤلاء النبلاء قد قصدوا هذه الغابات من أجل النزهة والتمتع بمشاهد الطبيعة . لذلك ، أكرر عليك القول بأنك استعجلت كثيراً في صرف حوذيك . فقد يُجرح أحدنا أو يقتل ، ولا يجد من ينقله .

فقال دي شارني : معك كل الحق .

ثم استدار نحو الحوذي الذي سار بعربته الهوينا لأنه كان يترقب مناداته ، وصاح بأعلى صوته :

– دوفين ، دوفين ، توقف وانتظر هنا .

فتوقف دوفين وهو لا يعلم ماذا سيحدث . ثم اتكأ على مقعده بشكل يتيح له ، من خلال الأشجار التي كانت ما تزال عارية من الأوراق ، رؤية المشهد الذي بدا له أن معلمه سيكون أحد الممثلين فيه .

غير أن فيليب وشارني قد سارا في الغابة مسافة خمس دقائق ، حتى كادا أن يختفيا عن أنظاره . وكان فيليب يسير اولاً ، فوصل الى مكان ناشف شعر بصلابته تحت وطأة أقدامه ، وكانت مساحته صالحة للغاية التي جاء من أجلها الشابان ، فقال للسيد دي شارني :

– إني أرى هذا المكان صالحاً إذا لم يكن لديك اعتراض عليه .

فأجابه دي شارني وهو ينزع ثيابه :

– بالعكس ، إنه مكان ممتاز !

وبدوره ، نزع فيليب ثيابه ورمى بقبعته على الأرض ، باستخفاف وازدراء . فقال له دي شارني ، وكان سيفه ما يزال في غمده :

– بالرغم من كل شيء ، سأقول لك أيها السيد ، بل أيها الشيفالييه ، إن كلمة اعتذار منك ، أو على الأقل كلمة لطيفة ، نغدو بعدها صديقين .

فأجابه فيليب تافرني :

– وأنا ، بالرغم من كل شيء سأقول لك أيها السيد ، بل أيها الكونت ، استعد ليكون السيف حكماً شريفاً بيننا .

قال فيليب هذا القول واستلَّ سيفه ، فحذا الكونت دي شارني حذوه ، واشتبك السيفان وكل منهما يصيح بالآخر : « خذ حذرك أيها السيد ! »

وبعد مرور عدة ثوانٍ ، لاحظ فيليب تفوقه على خصمه ، ولكن هذا التفوق عوضاً عن أن يزيده حماساً ، خفف من حماسته الى درجة البرودة ، وبات يتصور نفسه وكأنه في قاعة السلاح التي يتبارز فيها الهواة ، وأن السيف الذي في يده ليس سوى سيف للتدريب .

لكن أكثر من دقيقة مضت على بدء البراز، دون أن يسدد أية طعنة لخصمه، مما حمل دي شارني على أن يقول له:

- إنك توفرني يا سيدي، فهل باستطاعتي أن أسألك عن الغاية من ذلك؟

ثم هجم عليه بسرعة الفهد وطعنه طعنة هائلة... إلا أن فيليب قد ردّ طعنة سيفه بطعنة أشد وأسرع، ففوّت عليه فرصة الانتصار وأرجعه الى الوراء خائباً.

وبالرغم من أن مهارة تافرني في البراز قد جعلت سيف شارني يتضعضع، فإنه لم يردَّ على طعنته بطعنة مماثلة. بل بالعكس، قد أفسح له في المجال كي يعاود الكرة. إلا أن فيليب قد ردَّ هذه المرة طعنة دي شارني بضربة كشح بسيطة أوقعت الكونت أرضاً، وقد أجهد نفسه حتى استطاع النهوض بسرعة.

لقد كان شارني أفتى من خصمه، وبنوع خاص أكثر حمية. فعندما غلى الدم في عروقه، شعر بالخجل أمام سكينة خصمه، وأراد أن يرغمه على التخلي عن هذه السكينة، فقال له:

- حتى الآن يا سيدي، لم يلمس أحدنا الآخر حسب المفهوم الحقيقي للبراز.

فلم يجاوب فيليب، ولكنه قال في نفسه: «سوف أعطيك درساً قاسياً في المفهوم الحقيقي للبراز، طالما أنت قد دعوتني اليه، ودعوتني بدافع الغيرة».

وأمام صمت فيليب وبرودة أعصابه، قال الكونت دي شارني:

- أي نوع من البراز تمارس يا سيد دي تافرني؟! إن في نيتك إنهاك قواي، ولكن هذا الأسلوب لا يليق بك. فبربك اقتلني إذا استطعت، ولكن اقتلني ببراز شريف ودفاع قويّ.

فهزَّ فيليب رأسه وقال:

- نعم يا سيدي، إن التأنيب الذي وجهته إليَّ أستحقه، فأنا قد نازلتك، وندمت بعد فوات الأوان.

- ليس الوقت وقت ندامة، فإن سيفك الآن في يديك وعليك أن تحسن استخدامه لغير التزين به. فإذا كنت لا تستطيع مهاجمتي، دافع عن نفسك على الأقل.

فأجابه فيليب:

- لي الشرف أن أقول لك مرة ثانية يا سيدي، بأني ندمت على منازلتك.

إلا أن شارني الذي كان دمه يغلي في عروقه، لم يقدر لخصمه هذه الشهامة، بل قابلها بهجوم مباغت وقال:

- آه ! لقد عرفت الآن الغاية من شهامتك . فأنت تريد القول هذا المساء أو غداً الى بعض السيدات الجميلات ، بأنك قد طلبتني الى حلبة البراز ، وهناك عفوت عني .

- في الحقيقة ، إني أخشى يا سيدي الكونت أن تكون قد جننت !

- إنك تريد قتل السيد دي كاغليوسترو كي ترضي الملكة ، أليس كذلك ؟ وكي تنال رضاها بشكل أكيد ، تريد أن تقتلني أنا أيضاً . ولكن بهذه الطريقة المضحكة والمثيرة للسخرية ؟

فقطب فيليب دي تافرني حاجبيه ، وصاح :

- لقد زدتها الآن بما قلت ، وقولك هذا يثبت بأنك لست نبيل القلب كما كنت أعتقدك .

فقال دي شارني :

- حسناً ، اثقب هذا القلب إن استطعت !

عند ذاك ثارت ثائرة فيليب ووثب عليه بسرعة النمر وطعنه طعنة نجلاء ، فانزلق السيف على طول خاصرته وفتح أخدوداً دامياً تحت قميصه المصنوع من الحرير الناعم ، فقال دي شارني فرحاً :

- وأخيراً ، ها أنا جريح الآن ! فإذا قتلتك ، أكون قد قمت بدوري خير قيام .

فقال له فيليب :

– هيّا ! إفعل ! إنك حقاً لمجنون يا سيدي . ثق بأنك لن تقتلني ، وسيكون دورك سافلاً ، لأنك ستُجرح بدون سبب ولا فائدة ، وبدون أن يعلم أحد لماذا نحن نتبارز .

فسدَّد إليه شارني طعنة مستقيمة بالكاد استطاع فيليب أن يردها . ولكن ما أن ردَّها ، حتى شدَّد قبضته على سيفه ، وردَّ عليه بطعنة جبارة أطارت السيف من يد خصمه وسقط قطعتين على بعد عشر خطوات منه ...

وبعد أن تأمل فيليب دي تافرني خصمه قليلاً ، قال له :

– إني آسف يا سيدي لأنك لم تستطع أن تثبت بطولتك . لماذا أنت تكرهني الى هذه الدرجة التي حملتك على طلب مبارزتي ؟

فبقي دي شارني صامتاً أصفر الوجه ... وعاد فيليب يتأمله وهو يأمل أن يحمله على الإقرار ، ثم قال له :

– هيّا يا سيدي الكونت ، فالمقدر قد وقع وأصبحنا عدوين .

فأخذ دي شارني يترنح ... وأسرع فيليب الى إسعافه ، إلا أن الكونت دفعه عنه بيده وقال له :

– شكراً ، باستطاعتي أن أذهب وحدي الى عربتي .

– خذ على الأقل هذا المنديل كي تلملم به دمك .

فأخذه دي شارني بطيبة خاطر، وتابع فيليب يقول :

– وذراعي يا سيدي . فعند أقل حاجز تصطدم به ، وأنت تترنح هكذا ، سوف تقع أرضاً وتسبب لنفسك آلاماً أنت بغنى عنها .

فقال دي شارني :

– إن السيف لم يخترق سوى اللحم ، وأنا لا أشعر بشيء في صدري .

– خيراً يا سيدي ، خيراً .

– وإني أرجو أن أشفى قريباً .

– وأيضاً خيراً يا سيدي . ولكن إن كنت تأمل سرعة الشفاء لتستأنف هذا البراز ، فإني احذرك منذ الآن بأنه من الصعب أن تجد فيَّ خصماً لك .

فحاول دي شارني أن يجاوب ، لكن الكلمات تلاشت على شفتيه وأخذ يترنح ، فأسرع فيليب وأحاطه بذراعه ورفعه وكأنه يرفع ولداً ، ثم حمله الى عربته وهو بين الوعي واللاوعي .

ومما لا شك فيه ، أن دوفين قد شاهد كل شيء من خلال أغصان الشجر ، فاختصر الطريق على معلمه المهزوم بملاقاته . وبعد أن وضعه فيليب بالعربة ، وشكره دي شارني بإشارة من رأسه ، قال للحوذي :

- سر على مهلك أيها الحوذي ولا تدع الخيل تسرع.

فدمدم الجريح قائلاً:

- وأنت يا سيدي؟

- أوه! لا تقلق علي.

وحيَّاه بدوره وأغلق باب العربة، ووقف ينظر اليها وهي تبتعد ببطء، الى أن توارت في منعطف ممرّ. ثم اتخذ هو أقرب طريق توصل الى باريس.

ولما التفت فيليب لآخر مرة، لمح العربة وقد استدارت باتجاه قصر فرساي، عوضاً عن أن تتخذ طريق باريس كما فعل هو، فتلفظ بهذه الكلمات الثلاث التي انتزعت من أعماق قلبه:

«سوف تشفق عليه!»

منزل شارع سان جيل

★

عندما وصل فيليب دي تافرني في سيره الى بوابة الحرس، وجد عربة برسم الكراء، فقفز اليها وقال لسائقها:

- شارع «سان جيل»، بسرعة.

وقد أثار هذا الرجل الخارج لتوه من المبارزة محتفظاً بهيئة المنتصر، والتي تدل قامته على نبل محتده، ولباسه على أنه بورجوازي، وهيئته على أنه رجل عسكري، أثار حماس الحوذي فألهب صوته في أقفية جياده، واختصر المسافة الى أمام قصر الكونت كاغليوسترو في شارع «سان جيل» الى النصف.

وكان مظهر هذا القصر الخارجي في غاية البساطة، إلا أن نسق بنائه كان يدل على العظمة كمعظم القصور التي شيّدت في عصر الملك لويس الرابع عشر.

ولما دخلت العربة باحة القصر الواسعة، أقبل خادمان ووقفا في مدخل قاعة الشرف بانتظار الضيف الجديد، فقفز ساعتذاك فيليب الى الأرض وتوجه نحو الخادمين وقال لهما:

- هل الكونت دي كاغليوسترو هنا؟

فأجاب أحد الخادمين:

- إن سعادة الكونت يتهيأ للخروج.

فقال فيليب:

- إني بحاجة كي أكلمه قبل أن يخرج. قل له بأن الشيفالييه فيليب دي تافرني يود التحدث اليه.

فردد عبارة «الشفالية فيليب دي تافرني» صوت فيه من الرجولة بقدر ما فيه من النعومة، ثم قال:

- دعه يدخل .

فدخل فيليب وقد أثّر فيه هذا الصوت الهادئ بعض الشيء ، وحيًّا ثم قال :

- أرجو المعذرة يا سيدي .

وكان الرجل الذي حيّاه ضخم الجثة ، ذا بأس ونضارة عزَّ نظيرهما ، ولم يكن سوى الشخص الذي ظهر بالتتابع على مائدة الماريشال ريشيلو ، وفي عيادة الدكتور ميسمار ، وفي غرفة الآنسة أوليفا ، وفي حفلة الأوبرا الراقصة . وقد أجاب هذا الرجل على اعتذار فيليب بقوله :

- أتعتذر يا سيدي! وعن أي شيء؟

- لأني أعقت خروجك وقد كنت مزمعاً عليه .

- كان عليك أن تعتذر لو وصلت متأخراً أيها الشيفالييه .

- لماذا ؟

- لأني كنت أنتظرك .

فقطب فيليب حاجبيه وقال :

- كيف كنت تنتظرني ؟

- نعم ، لقد أُحطت علماً بزيارتك .

- بزيارتي أنا ... أُحطت علماً !

- نعم ، ومنذ ساعتين . ألم تكن مزمعاً على أن تكون هنا

منذ ساعة أو ساعتين، لو لم يعترضك حادث خارج عن إرادتك ، اضطرك الى تأخير تنفيذ مشروعك ؟

فأخذ فيليب يضغط بأصابعه على مجمع كفيه ، وشعر بأن هذا الرجل غدا ذا نفوذ قوي عليه .

لكن الكونت كاغليوسترو ، ومن دون أن يظهر عليه أنه لاحظ أقل حركة من حركات فيليب الانفعالية ، قال له :

- تفضَّل واجلس يا سيد دي تافرني ، أرجوك .

ثم قدم له أريكة كانت موضوعة أمام المدفأة ، وأضاف قائلاً :

- إن هذه الأريكة قد وضعت هنا من أجلك .

فأجاب فيليب بصوت حاول أن يكون هادئاً كصوت مضيفه ، ولكنه لم يستطع إخفاء رعشته الخفيفة :

- كفَّ عن المزاح يا سيدي الكونت .

- إني لا أمزح إطلاقاً ، فقد كنت انتظرك كما قلت لك .

- إذن كفَّ عن الشعوذة ... فلو كنت كاشفاً للغيب ، لما جئت أجرب علمك التنبئي . ثم لو كنت هذا الكاشف للغيب ، لكان ذلك خيراً لك ، لأنك كنت عرفت ماذا جئت لأقول ، وكنت مقدماً اتخذت لك ملجأ .

فأجاب الكونت بابتسامته الفريدة :

- ملجأ !.. ولماذا الملجأ إذا أردت ؟

- إحزر، طالما أنك تكشف الغيب .

- حاضر. كي أدخل السرور الى قلبك، سوف أوفر عليك وأكشف السبب الذي دعاك لزيارتي : لقد جئت تطلب مبارزتي .

- أتعرف هذا ؟

- بدون شك .

فصاح فيليب : إذن، هل تعرف السبب ؟

- السبب هو الملكة . والآن جاء دورك لتكمل يا سيدي، أما أنا فسأستمع .

ولم يلفظ الكونت كاغليوسترو هذه الكلمات : « أما أنا فسأستمع » ، بلهجة المضيف، بل لفظها بلهجة الخصم، فقال فيليب :

- معك حق يا سيدي، وإني أفضّل ذلك .

- إذن لقد كان لكلمة « مبارزتي » الوقع الحسن في نفسك ؟

- إن الأمر يا سيدي يتعلق بمقال قدح وذم .

- هناك مقالات كثيرة من هذا النوع أيها السيد .

- وقد نشره صحافي ...

- إن الصحافيين كُثُر .

– استمع إليّ : إن هذه المقالة ... ولكن لا ، سوف نهتم بالصحافي فيما بعد .

فقاطعه كاغليوسترو قائلاً :

– لقد سبق لك أن اهتممت به .

– حسناً ، لقد كنت أقول بأن هناك مقال قدح وذم بحق الملكة .

فسأله كاغليوسترو بعد أن عمل إشارة برأسه .

– وهل تعرف هذا المقال ؟

– نعم أعرفه ، وإنك قد اشتريت من الصحيفة التي نشرته ألف نسخة .

– أنا لا أنكر ذلك .

– وهذه الألف نسخة ، من حسن الحظ ، لم تصل بعد الى بين يديك .

– ما الذي جعلك تعتقد ذلك ؟

– كوني التقيت مندوبك الذي كان ينقل الحزمة ، فدفعت له مبلغاً من المال ، وحولت وجهة سيره الى منزلي ، حيث استقبله خادمي الذي كان قد أحيط علماً بقدومه .

– ولماذا لم تقم بهذا العمل بنفسك حتى النهاية ؟

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أريد أن أقول بأنك لو فعلت ، لجاءت النتيجة أفضل .

– لم أقم بهذا العمل الى النهاية بنفسي لأنه في الوقت الذي كان فيه خادمي مهتماً بالاستيلاء على النسخ الألف المنقولة اليك ، كنت أنا مهتماً بتلف الباقي من النسخ في المطبعة .

– إذن أنت واثق بأن الألف نسخة التي اشتريتها هي في منزلك ؟

– بكل تأكيد .

– إنك مخدوع يا سيدي .

فقال تافرني وقد شعر بانقباض في صدره :

– كيف ذلك ؟ ولماذا أنا مخدوع ؟

فقال الكونت بسكينة وهو يسند ظهره الى المدفأة :

– لأن الألف نسخة هي عندي هنا !

فضرب فيليب الأريكة بقبضته مهدداً . وقال الكونت ببرودة ورباطة جأش :

– آه ! أتعتقد ، وأنا كاشف الغيب كما سبق لك وقلت ، بأنه قد فاتني ما سيحدث لمندوبي ؟ لا ، إن ذلك لم يفتني . فإن لدي قيّماً ، وقد تنبأ هذا القيّم بما سيحدث وكافأته على نبوءته ، ومن الطبيعي أن يكون قيّم النبي نبياً ... لقد تنبأ هذا القيم إذن ، بأنك سوف تأتي الى منزل الصحافي ، وأنك ستلتقي مندوبي وتغريه بالمال ، فتبعه وهدده بالاستيلاء على

الذهب الذي أعطيته إياه، فخاف. وعوضاً عن أن يكمل طريقه باتجاه منزلك، لحق قيّمي الى هنا. فهل لديك شك بروايتي؟

– نعم، إني أشك بها.

– لقد قال السيد المسيح للقديس توما يا سيد تافرني: «أنظر رجليَّ، أنظر يديَّ»، وأنا سأقول لك: «أنظر الخزانة، وتلمَّس الكراريس».

قال ذلك وفتح خزانة مصنوعة من خشب السندان ذي التعاريق الجميلة، وأطلع الشيفالييه المصفرّ الوجه على الألف نسخة في درجها الرئيسي، وكانت لم تزل مشبعة براحة الورق الرطب كأنها خارجة من المطبعة لتوها!

فتقدم فيليب من الكونت الذي لم يتحرك قيد أنملة رغم مظاهر التهديد التي بدت على وجه الشيفالييه، وقال له:

– تبدو لي يا سيدي أنك رجل شجاع. وها إني أخطرك بأنه بات من واجبي امتشاق السيف في يدي.

فسأله: لماذا من واجبك؟

– لأن الملكة أُهينت، وأنت شريك في هذه الإهانة، حتى ولو كنت محتفظاً بعدد واحد من هذه الصحيفة.

فقال كاغليوسترو من دون أن يتزحزح:

– في الحقيقة ، إنك على ضلال يا سيدي ، وهذا الضلال قد أحزنني . فأنا أهوى كل ما ينشر حديثاً ، واحتفظ بمجموعات أعود اليها فيما بعد لأتذكر ألف قضية أكون قد نسيتها . ولقد اشتريت هذه الصحيفة لنفس الغرض ، فلماذا أكون بشرائها قد أهنت أحد الأشخاص ؟

– وقد أهنتني أنا نفسي !

– أنت ؟

– نعم ، أنا يا سيدي ، هل فهمت ؟

– لا ، أقسم بشرفي أني لم أفهم .

– ولكن كيف تفسر إلحاحك على شراء هذه الصحيفة القذرة ؟

– لقد قلت لك : هوايتي بالمجموعات .

– إن الرجل النبيل يا سيدي ، لا يهوى الأشياء الشائنة .

– أعذرني يا سيدي إن لم أكن من رأيك فيما يتعلق بهذه الصحيفة ، فالمقال الذي نشرته ، هو مقال انتقادي وليس عملاً شائناً .

– ألا تعتقد ، على الأقل ، بأن ما جاء في هذا المقال ، هو زور وبهتان ؟

– أنت ما زلت مخدوعاً يا سيدي ، لأن الملكة قد حضرت فعلاً جلسة السيد ميسمار المغناطيسية .

- هذا ليس صحيحاً يا سيدي .

- أتريد القول بأني أكذب ؟

- لا أريد القول ، بل قلت .

- حسناً ، طالما أن الأمر هكذا ، أراني مضطراً الى مصارحتك بأني قد شاهدتها بنفسي .

- أنت شاهدتها ؟

- نعم ، وكما أراك يا سيدي .

فأخذ فيليب يحملق في وجه الكونت متمنياً لو تستطيع نظراته المتسمة بالصراحة ، والنبل ، والصفاء ، أن تتصارع مع نظرات كاغليوسترو المشعة . لكن هذا الشوق قد انتهى به الى الاستسلام ، فحوَّل نظره وقال :

- حسناً ، لا أريد الاستمرار في القول بأنك تكذب .

فرفع كاغليوسترو كتفيه احتقاراً وكأنه أمام مجنون ، فقال فيليب :

- ألم تسمعني يا سيدي ؟

- بالعكس ، لم تفتني كلمة مما قلت .

- إذن ، ألا تقدر قيمة التكذيب ؟

- بلى يا سيدي . فهناك مثل فرنسي يقول : إن التكذيب يساوي صفعة .

- طالما أنك تعرف هذا المثل، وطالما أنك نبيل، فلماذا حتى الآن لم ترفع يدك على وجهي؟

- لأني قبل أن أعرف هذا المثل، وقبل أن أصبح نبيلاً، عمل الله مني إنساناً وقال لي: أحبب مثيلك.

- إذن أنت ترفض مرضاة نفسي بدعوتك الى المبارزة؟

- أنا لا أدفع إلا ما يتوجب عليّ.

- إذن هل تودّ مرضاتي بطريقة أخرى؟

- كيف؟

- أنا لن أعاملك بأسوأ مما يعامل النبيل نبيلاً آخر. لذا سأقتصر في طلبي على دعوتك لحرق كل النسخ الموجودة في الخزانة أمام ناظريَّ.

- وأنا سوف أرفض طلبك.

- فكّر بالأمر.

- لقد فكرت.

- سوف تضطرني إلى أن أتصرف معك كما تصرفت مع الصحافي.

- آه! ضربات العصا.

- لا أكثر ولا أقل يا سيدي. إيه! ألن تدعو رجالك؟!

- ولماذا أدعوهم؟ إن الأمر لا يعنيهم، بل يعنيني أنا وحدي، وأنا أقوى منك. هل تشك؟ إني أقسم لك. إذن

فكّر بدورك . هل تودّ أن تتقدم نحوي بعصاك ؟ سوف أتناولك برقبتك وأرميك على بعد عشر خطوات مني إن فعلت .

– هولا ! إنك مصارع على طريقة لوردات الانكليز . حسناً ، لقد قبلت منازلتك يا سيد هرقل .

وانقضّ فيليب بغضب جنوني على كاغليوسترو الذي أمسك بالشيفالييه في حنجرته ومنطقته بقبضتيه الفولاذيتين ورماه بنزق على عرمة من الوسائد السميكة كانت تغطي أريكة في زاوية الصالون . ثم وقف بعد هذا العمل البطولي أمام المدفأة وكأن شيئاً لم يحدث !

وعندما نهض فيليب ، كان أصفر اللون مزبداً . لكنه عاد الى الصواب وتحكيم العقل بسرعة ، فسوَّى من شأنه وقال بصوت كئيب :

– أنت في الواقع قويّ كأربعة رجال أيها الكونت . لكن المنطق عندك أقل تأثراً من زندك . فعندما عاملتني كما عاملتني ، سها عن بالك أن المهزوم أو المهان سيضمر لك العداوة الدائمة . لذا بات من حقي أن أدعوك لامتشاق السيف أيها الكونت ، وإلا قتلتك .

فلم يتحرك كاغليوسترو إطلاقاً . فعاد فيليب وكرر عليه القول : « امتشق حسامك ! » ، فقال الكونت :

– أنت لست قريباً مني كفاية يا سيدي، كي أعاملك كما عاملتك في المرة الأولى، ولن أعرّض نفسي للجرح من قبلك، بل للقتل، كما حصل لذلك المسكين جيلبار.

فصاح فيليب قائلاً:

– جيلبار! بأي اسم تلفظت؟

– من حسن الحظ أنك لا تحمل بندقية هذه المرة، بل سيفاً.

فصاح فيليب مرة ثانية:

– سيدي! لقد تلفظت بإسم ...

– نعم، بإسم أيقظ في نفسك ذكريات مرعبة.

– سيدي!

– بإسم كنت تعتقد بأنك لن تسمعه إطلاقاً، لأنك كنت وحدك مع ذلك المسكين في إحدى مغائر جزر آسوراس.

فأجاب فيليب متجاهلاً الموضوع:

– أوه! دافع عن نفسك، دافع عن نفسك.

فقال كاغليوسترو وهو ينظر اليه شزراً:

– لوكنت تعلم كم هو صعب أن يسقط السيف من يدك ...

– يسقط بسيفك؟

– نعم، بسيفي، إذا أردت.

- إذن هيا!.. هيا ولا تتردد!

- أوه! لن أعرّض بنفسي، فلدي وسيلة أفضل.

فقفز فيليب بإتجاه الكونت وصاح به:

- للمرة الأخيرة أقول لك: امتشق حسامك وإلا أنت مائت!

لكن الكونت المهدد هذه المرة بحد السيف الذي بات على بعد ثلاث أصابع من صدره، تناول من جيبه قمقماً صغيراً، وبأسرع من لمح البصر نزع سدادته ورشق بمحتوياته وجه فيليب...

وما كاد السائل يلامس وجه الشيفالييه دي تافرني، حتى أخذ يترنح... ثم سقط السيف من يده، ودار على نفسه وسقط على ركبتيه... وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى تعطلت كل حواسّه.

فأسرع كاغليوسترو وأمسك به متحاشياً سقوطه على الأرض. ثم أعاد سيفه الى غمده، وأقعده على أريكة، وانتظر حتى عاد اليه كامل صوابه، فقال له:

- لا يليق بك، وأنت في هذه السن أيها الشيفالييه، أن ترتكب الحماقات وتتصرف كما الأولاد. فاقلع عن هذه التصرفات المجنونة، واستمع إلي!

فتململ فيليب وتحرك ، وطرد الرعب الذي اجتاح دماغه ، ودمدم قائلاً :

- أوه سيدي ! أهذا هو السلاح الذي تسمونه سلاح النبلاء ؟!

فهزّ كاغليوسترو كتفيه وأجاب :

- إنك تردد دائماً نفس العبارة ، بينما نحن معشر النبلاء ، قد فتحنا فمنا واسعاً كي تخرج منه كلمة « نبيل » من دون زيادة ولا نقصان . فما هو برأيك سلاح النبلاء ، هات لنرى ؟ هل هو سيفك الذي أسأت استعماله ضدي ؟ هل هي بندقيتك التي أحسنت استعمالها ضدَّ جيلبار ! من الذي يصنع الرجال المتفوقين أيها الشيفالييه ؟ أتعتقد أن هذه الكلمة الرنانة « نبيل » ، هي التي تصنعهم ؟ لا . إن ما يصنعهم هو العقل أولاً ، ثم القوة ، وأخيراً العلم . وأنا قد استعملت الثلاثة معك . فبعقلي جابهت شتائمك ، يحدوني الأمل بحملك على الإصغاء إليَّ . وبقوتي جابهت قوتك . وبعلمي أخمدت قوتك الجسدية والمعنوية في آنٍ واحد . بقي علي الآن أن أُثبت لك بأنك ارتكبت غلطتين ، بمجيئك الى هنا والتهديد على فمك . فهل تريد أن تشرفني بإصغائك ؟

فقال فيليب :

- لقد حطمتني ولم يعد باستطاعتي أن أتحرك . فقد

سيطرت على عضلاتي وتفكيري ، ومع ذلك ، أنت تسألني الإصغاء اليك ؟! وهل باستطاعتي أن أفعل غير ذلك ؟

عندئذ تناول كاغليوسترو قمقماً صغيراً مذهباً كان موضوعاً على المدفأة ضمن علبة من البرونز ، وقال له برقة متناهية :

- تنشق هذا القمقم أيها الشيفالييه .

فأطاع فيليب ، وللحال تبددت الأبخرة السوداوية التي كانت تظلم دماغه ، وتراءى له بأن الشمس الهابطة من جوانب جمجمته ، قد أضاءت كل أفكاره ، فقال :

- آه ! إني أولد من جديد !

- هل تشعر بأنك في حالة جيدة ، أي هل تشعر بنشاط وإرادة حرة ؟

- نعم .

- وهل عادت إليك ذاكرتك ؟

- أوه ! نعم .

فقال الكونت كاغليوسترو :

- أما وقد عادت ذاكرتك اليك ، فأرجو أن تكون قد ندمت على تصرفك .

- لا ، أبداً ، لأني كنت أتصرف بمقتضى مبدأ مقدس .

- مبدأ مقدس ؟! ما هو هذا المبدأ ؟

- الدفاع عن المملكة .

- أنت ، تدافع عن المملكة ؟

- نعم ، أنا .

- أنت ، الرجل الذي ذهب الى أميركا ليدافع عن الجمهورية ! آه ! يا إلهي ! كن إذن صريحاً ، فإما التي دافعت عنها هناك ليست الجمهورية ، وإما التي تدافع عنها هنا ليست المملكة .

فأخفض فيليب عينيه وزفر زفرة انسحق معها قلبه ، وأكمل كاغليوسترو يقول :

- أَحببهم ، أَحببهم أولئك الذين يحتقرونك . أَحببهم أولئك الذين سلوك . أَحببهم أولئك الذين خدعوك . فهكذا النفوس الكبيرة المفعمة بالمحبة ، تُطعن ويُغدر بها دائماً ، وهكذا تأمر شريعة المسيح ، بأن يبادل الانسان الشر بالخير . هل أنت مسيحي يا سيد تافرني ؟

فصاح فيليب وقد أرعبه أن يرى كاغليوسترو يقرأ حاضره وماضيه :

- سيدي ، ليس لدي كلمة أزيدها . لأني إن لم أدافع عن المملكة ، فقد كنت أدافع عن الملكة ، أي عن امرأة محترمة بريئة ، والشريعة الإلهية توصي بالدفاع عن الضعفاء .

- الضعفاء!.. ملكة وضعيفة؟! تلك التي يحني الركاب والرؤوس أمامها ثلاثون مليوناً من الكوائن الحية، تعتبرها ضعيفة؟ يا للرأي العجب!

- إنها ضحية نميمة وافتراء يا سيدي.

- كيف عرفت أنها ضحية؟

- أريد أن أصدق ذلك.

- وهل تعتقد أن ذلك من حقك؟

- بدون شك.

- حسناً! ومن حقي أنا، أن أصدق العكس.

- ولكنك تكون القدوة السيئة.

فصاح كاغليوسترو وقد قدحت عيناه بالشرر فجأة، وتبلل فيليب بالعرق:

- من قال لك بأني سأكون هذه القدوة؟ من أين جئت بهذه الفتوى كي تعتقد بأنك أنت على حق، وأني أنا على ضلال؟ من أين جئت بهذه الجسارة كي تفضّل مبدأك على مبدئي؟ أنت تريد الدفاع عن الملكة؟ حسناً! أنا أريد الدفاع عن الانسانية. أنت تقول: ردوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وأنا أقول: ردُّوا ما لله لله. فيا أيها الجمهوري في أميركا، ويا حامل وسام الفروسية الملكي، إني أدعوك إلى حب البشر، إلى حب المساواة. فأنت تمشي على الشعب لتقبّل أيدي

الملكات ، وأنا أطأ بقدميّ الملكات كي أرفع مستوى الشعب . فلا تعكر عليّ عملي ، لأني لن أعكر عليك عباداتك . سوف أترك لك شمس السموات وشمس البلاطات ، فأترك لي الظل والعزلة . إنك تفهم قوة منطقي ، كما فهمت منذ بعض الوقت قوة شكيمتي ، أليس كذلك ؟ لقد كنت تقول لي : مت ، أنت الذي أهان معبودتي . أما أنا ، فأقول لك : عش ، أنت الذي حاربت هياماتي . وإذا كنت أقول لك هذا القول ، فلأني أشعر أني قويّ كمبدئي . قويّ الى درجة لا تستطيع معها ، لا أنت ، ولا مبادؤك ، ولا كل القوى التي تساندك ، أن تعيق مسيرتي لحظة واحدة .

فقال فيليب :

– لقد أرعبتني يا سيدي ! فقد أكون الأول في هذا البلد ، الذي شاهد بفضلك قعر الهاوية حيث تنزلق المملكة .

– إذن كن فطناً ، طالما أنك قد رأيت الهاوية .

فأجاب فيليب وقد ارتعش من اللهجة الرحيمة التي كلّمه بها كاغليوسترو .

– أنت الذي تقول لي هذا القول ، أنت الذي كشف لي أسراراً رهيبة ، ما زالت تنقصك الأريحية . لأنك تعلم جيداً ، بأني سوف أرمي بنفسي في اللجة قبل أن ترى عيناي أولئك الذين أدافع عنهم يسقطون ...

- حسناً إذن ! لقد حذَّرتك ، وسوف أغسل يديّ كما فعل بيلاطس يا سيد تافرني .

فقال فيليب :

- وأنا ، أنا الذي لست سوى رجل ضعيف وأدنى مرتبة منك ، سوف أستعمل تجاهك سلاح الضعفاء ، فأتصدى لك بعين دامعة ، وصوت مضطرب ، ويدين مضمومتين ، متوسلاً اليك كي تهبني ، على الأقل هذه المرة فقط ، العفو عن أولئك الذين تلاحقهم . سوف أطلب لنفسي ، هل تسمع ، لنفسي أنا الذي اعتاد أن ينظر إليك نظرة عداء ولا أعرف لماذا ، سوف أطلب تحننك ، سوف أقنعك ، سوف أحصل منك على وعد بأنك لن تدعني فريسة تبكيت الضمير على فقدان هذه الملكة المسكينة ، وعلى رؤيتها محاطة بالمؤامرات . أعدني يا سيدي ، أعدني بأنك سوف تمزق النسخ التي تحمل ذلك المقال المشؤوم الذي ، ولا شك ، سوف يبكي المرأة التي يستهدفها . أعدني ، وإلا ... فبهذا السيف القاصر ، والخجول بأن يشهر في وجهك ، سوف أطعن قلبي على قدميك !!

فتطلّع كاغليوسترو الى فيليب بعينين تعبران عن ألم موجع ، ودمدم قائلاً :

- آه ! آه ! لو كان الكل مثلك ، لكنت أنا لهم ، ولما تعرضوا للهلاك !

– سيدي ، سيدي ، أرجوك أن تستجيب طلبي ، إني أتوسل إليك .

فقال كاغليوسترو بعد صمت قصير :

– إذهب الى الخزانة ، وعدَّ النسخ إن كانت ألفاً بالتمام ، ثم احرقها بنفسك حتى آخر نسخة .

فشعر فيليب كأن قلبه أخذ يرقص بين أضلاعه ... وأسرع الى الخزانة فأخرج منها النسخ الألف ، وحرقها ... ثم عاد فشدَّ يد الكونت كاغليوسترو بحرارة ، وقال له :

– إلى اللقاء . إلى اللقاء يا سيدي ، وألف شكر على صنيعك معي .

فقال كاغليوسترو وهو ينظر إليه يبتعد:

– حقاً ، إن هذا الشخص يستحق الشفقة !

ثم نادى بأعلى صوته :

– إليّ بجيادي .

رأس عائلة دي تافرني

★

كانت فرساي في ذلك الوقت غنية بالقصور القديمة والحدائق ذات الطراز الفرنسي الفريد. وكانت هذه الحدائق تضمّ فيما تضمّ، أحواض المياه ومساكب الزهور ومجموعات فريدة من الطيور المختلفة الأشكال والألوان، وكان قصر السيد دي تافرني، الأب، وحديقته، من أجمل هذه القصور وأبدعها.

فبينما كانت هذه الأمور تجري في شارع «سان جيل»، كان السيد دي تافرني، الأب، يتنزه في حديقة قصره متبوعاً بخادمين يلحقانه بتكأة أينما سار. وأخيراً وصل الى صف مستطيل من الزيزفون المغطى بالشباك الحمراء وقد بدا كأنه قضيب من الحديد المحمّى، فأخذ يمشي ببطء في محاذاة صف الزيزفون هذا ويداه داخل فروة لليدين بشكل اسطواني، والخادمان يقدمان اليه، كل خمس دقائق، التكأة ليستريح عليها بعد ممارسة رياضته تلك...

وبينما كان دي تافرني ، الأب ، يتهنأ بهذه الاستراحة ويطرف بعينيه طرفاً متواتراً بسبب حرارة شمس ذلك اليوم ، رأى بواب قصره مقبلاً نحوه بأقصى السرعة وهو يصيح :

- سيدي الشيفالييه ! سيدي الشيفالييه !

فقال البارون الشيخ بلهجة فيها من الغطرسة بقدر ما فيها من الفرح : ولدي !

ثم استدار فلمح ولده فيليب يتبع البواب ، فأكمل يقول : عزيزي الشيفالييه !

ثم صرف الخادم بإشارة منه ، وقال لولده :

- تعال يا فيليب ، تعال ، لقد وصلت في الوقت المناسب ، فرأسي مملوء بالأفكار السارة . آه ! إني أراك عابس الوجه ... يظهر أنك مستاء .

- أنا !.. لا يا سيدي .

- يظهر أنك قد عرفت حصيلة المغامرة .

- أية مغامرة تعني ؟

فاستدار الشيخ ليتأكد من أن أحداً لا يسمعه ، فقال له الشيفالييه :

- باستطاعتك أن تتكلم يا سيدي ، فما من أحد يصيخ السمع .

– إني أكلمك على المغامرة التي قمت بها في حفلة الرقص .

– لم أفهم كفاية .

– الرقص في الأوبرا .

فاحمرَّ فيليب ، ولاحظ الشيخ الخبيث احمراره ، فقال له :

– عديم الفطنة . فقد عملت كالبحارة السيئين الذين ينشرون كل الأشرعة عندما يرون الهواء مؤاتياً . هيَّا ، إجلس هنا على هذا البنك ، واصغِ إلي أيها الولد المتهور !

– سيدي ، أخيراً ...

– أخيراً أنت تتصرف بطيش ، وأنت الذي كنت فيما مضى كثير الخجل ، كثير التحفظ ، قد غدوت اليوم مجازفاً غير مكترث لسمعتك !

– عن ماذا تتكلم يا سيدي ؟

– عنها ، بالطبع ! عنها .

– من تكون ؟

– آه ! أتعتقد بأني أجهل إهمالك للواجب ، بل إهمالكما أنتما الإثنين في حفلة الأبرا ؟

– سيدي ، إني أحتج ...

– اصمت ! فإن ما قلته لخيرك ولا لزوم لأن تغضب . وإني أحذرك بأنك إن بقيت هكذا غير محترز ، فإن أمرك

سينكشف. فكما شاهدوك معها هذه المرة في حفلة الأوبرا الراقصة، سوف يشاهدونك مرة ثانية في مكان آخر.

- تقول شاهدوني؟

- نعم، شاهدوك. ألم تكن ترتدي «دومينو» أزرق؟ قل، نعم أم لا؟

فأوشك تافرني أن يصرخ بوالده بأنه ليس لديه «دومينو» أزرق، وأنه لم يحضر حفلة رقص، وأن والده مخدوع، لكنه كان يأبى الدفاع عن نفسه في الظروف الحرجة، ففكر في نفسه قائلاً: «لا بأس من مجاراة والدي، فإني أريد معرفة كل شيء».

ثم أحنى رأسه أمامه كالمجرم الذي يعترف بذنبه، فقال الشيخ منتصراً:

- أرأيت كيف أنهم عرفوك؟ لقد كنت واثقاً من ذلك كل الثقة. فالواقع أن السيد ريشيليو الذي يحبك كثيراً، والذي حضر حفلة الرقص رغم سنواته الأربع والثمانين، قد سعى لمعرفة صاحب «الدومينو» الأزرق الذي أعطته الملكة ذراعها، فما وجد سواك كي يشك به، لأن الآخرين قد شاهدهم كلهم. وأنت تعلم عندما يتيقن الماريشال من أمر.

فقال فيليب ببرودة:

- أن يكون الماريشال قد ظنَّ بي ، فهذا أمر معقول . أما أن يكون قد عرف الملكة ، فهنا العجب العجاب !

- ولِمَ العجب ، طالما أنها كانت غير مقنعة ؟ إنها جرأة تتعدى كل تصوّر ! ويجب أن تكون هذه المرأة مجنونة بحبك كي تقدم على ما أقدمت عليه !

وصبغ الاحمرار وجه فيليب ، وتابع والده يقول :

- خذ حذرك أيها الشيفالييه . فهناك غيارى ، وغيارى مخيفون ... فهذا المركز ، محظيّ الملكة ، سيكون موضع حسد الكثيرين ، عندما تصبح الملكة هي الملك الحقيقي .

وبعد أن تنشق تافرني الأب نشقة سعوط طويلة ، أكمل يقول :

- سوف تصفح عن تأنيبي لك ، أليس كذلك ؟ إصفح يا عزيزي وسأكون لك شاكراً . فما أردته ، هو أن أجنّبك الرياح المفاجئة ، التي قد تهدم الصقالة التي رفعتها بمهارة .

فنهض فيليب وقد بلَّله العرق وتشنجت قبضتا يديه ، وتهيأ للخروج كي يقطع على والده حديثه . لكن إحساساً أوقفه ، إحساساً فضولياً تثيره الرغبة الملحاحة لمعرفة الشر ، ذلك المحرك العديم الرحمة الذي يصدم القلوب المفعمة بالحب .

واستأنف الشيخ حديثه ، فقال :

- كنت أقول لك إذن بأنهم يحسدوننا، هكذا بكل بساطة. ومع ذلك فنحن لم نصل بعد الى الذروة. إن الفضل يعود إليك بالشهرة التي نالها اسم تافرني المتواصل الأصل، ولكننا لم نصل الى مبتغانا بعد. فكن فطناً يا بني، وإلا فإن مشاريعك ستحبط في الطريق.

فاستدار فيليب كي يخفي تذمره الشديد، والاحتقار الذي بدا على تقاسيم وجهه في تلك اللحظة، وقد أدهش هذا التعبير الشيخ، وربما أرعبه، فقال:

- بعد قليل، سوف تطلب منصباً كبيراً، وسوف تمنحني وظيفة وكيل الملك في ناحية ما، لا تكون بعيدة عن باريس، على أن تكون ترقيتي ضمن الدفعة الأولى من الترقيات. أما أنت، فباستطاعتك أن تكون دوقاً، أو ضابطاً لتاج فرنسا، أو أمير لواء. الخلاصة أنني أريد أن أحيا أيامي الأخيرة كما أشتهي وأتمنى، وعليك أن تمنحني...

فقاطعه فيليب مزمجراً:

- كفى! كفى!

- أوه! إذا كنت مستكفياً وراضياً، فأنا لست كذلك. أنت ما زالت لك كل الحياة، أما أنا، فبالكاد بقي لي عدة أشهر، فيجب أن تعوض عليَّ هذه الأشهر الباقية، كل ما فاتني وما لحقني من حزن. فكن ذلك البطل، ذلك التافرني

العظيم الذي يوحي بالاحترام، وأنت فعلاً توحي لي بهذا الاحترام رغم تصرفك الغريب في البلاط.

فسأله فيليب وقد أقلقته مرضاة ذلك الصل عليه أخيراً:

- وماذا بعد ذلك؟

- إن تصرفك عظيم! فأنت لا تظهر غيرة، وتترك المجال حراً، ظاهرياً، لكل إنسان، بينما في الواقع تحتكره لنفسك. هذا جميل، ولكن ما زلت بحاجة الى بعض الملاحظات.

فقال فيليب وقد شعر بأن الصل قد زاده لسعاً:

- هات.

- المطلوب: لا تواضع، أفهمت؟ هكذا تصرف بوتمكين[1] الذي أدهش العالم بثروته. فبوتمكين هذا، قد لاحظ أن كاترين تحب التباهي في غرامياتها، وأنها إذا ما تركت حرة، سوف تتنقل من زهرة الى زهرة، مختارة من بينها الأكثر جمالاً وسحراً. كما لاحظ بأن ملاحقته لها، ستجعلها تنفر منه وتفرّ كالغزال الشارد. لذلك أذعن للأمر الواقع. فهو الذي جعل محظيي كاترين الثانية الجدد الذين فضلتهم على غيرهم، الأحب الى قلب الامبراطورة. وهو

---

١ - الفيلد ماريشال بوتمكين، وقد كان محظيّ الامبراطورة الروسية كاترين الثانية.

الذي أنهك العاهلة بالنزوات الفانية، عوضاً عن أن يفجرها بملذاته الخاصة. وفيما كان يمهد الطريق للحكم الزائل أمام هؤلاء المحظيين الذين أُطلق عليهم تهكماً لقب «الاثنا عشر قيصراً»، كان في الواقع، يعمل ليسيطر هو على الحكم سيطرة دائمة وأبدية.

فدمدم فيليب قائلاً، وهو يتطلع الى والده بدهشة وذهول:

- ولكنها فضائح لا يمكن إدراكها.

فأكمل الشيخ برباطة جأش:

- وفق طريقة بوتمكين، تكون قد ارتكبت خطأً بسيطاً. فبوتمكين لم يكن يتخلى كثيراً عن الرقابة، بينما أنت تراخيت. ومع أن السياسة الفرنسية هي غير السياسة الروسية، فهذا التراخي في غير محله.

تلفظ تافرني الأب بهذه الكلمات بأسلوب فيه من التكلف والنعومة ما يحيّر أكبر العقول الدبلوماسية، فلم يجاوب عليها فيليب الذي يعرف هذيان والده بسوى هزّ الكتفين المقرون بقليل من الاحترام، وقد ردَّ عليه الشيخ بقوله:

- نعم، نعم، أتعتقد بأني لم أسبر أفكارك؟ سوف ترى.

- هيَّا يا سيدي!

فقال والده وقد شبك يديه:

- سوف تقول لي بأنك لن تنفذ السيف بخلفك، أليس كذلك؟

فقال فيليب وقد اصفرَّ وجهه:

- خلفي!

- سوف تقول لي بأنك لا تعرف مقدار الثبات في الأفكار الوالهة للملكة، وأنك لا تريد أن تُستبعد ويضحى بك نهائياً، إذا ما خطر للملكة أن تنقّل فؤادها كما يحدث لها دائماً، لأنها لا تريد أن تحب الحاضر وتتألم من الماضي.

- إنك تتكلم العبرية يا سيدي البارون!

فأخذ الشيخ يقهقه قهقهات كأنها نداء العفاريت، وأجاب:

- تريد أن توهمني بأن نهجك لا يراعي جانب السيد دي شارني.

فصاح فيليب قائلاً: دي شارني؟!

- نعم، دي شارني الذي سيكون خلفك في المستقبل. دي شارني الرجل الذي باستطاعته اذا ما حكم أن ينفيك، كما باستطاعتك أنت اليوم أن تنفي دي كواتيي، ودي فودرايل وغيرهما.

فصعد الدم الى رأس فيليب وصاح بوالده:

- كفاك! كفاك يا سيدي! في الحقيقة، بتُّ أخجل من

نفسي لأني استمعت اليك طويلاً ! فالذي يقول عن ملكة فرنسا بأنها ميسالين[١] ، إنما هو مجرم ونمَّام .

فقال الشيخ :

– أحسنت ! أحسنت ! فأنت على حق ، لأن هذا هو دورك . ولكني أؤكد لك بأنه ليس باستطاعة أي إنسان أن يسمعنا .

– أوه !..

– أما من جهة شارني ، فأنت ترى بأني قد وقفت على أسرار قلبك . فمهما كنت بارعاً في وضع الخطط ، باستطاعتي اكتشافها ، كما رأيت . على كل ، أكمل يا فيليب ، أكمل . تملَّق ، وتساهل ، وساعد شارني ما استطعت كي ينتقل بهدوء مما هو عليه الى حالٍ أفضل ، ولا تزعزع ثقتك بنبله وبأنه في المستقبل سيجازيك بالمثل .

وبعد هذه الكلماتِ التي قالها تافرني الأب وهو فخور بمقدرته العقلية ، وثب على كتفه وثبة صغيرة ، أيقظت تافرني الشاب وأثارت غضبه ، فأمسك بمقبض يد والده ودفعه وقال له :

---

١ – الامبراطورة الفاتنة التي دمرت عظماء روما، والتي أباحت جسدها للعشرات من عشاقها.

– هكذا إذن ! ما هذا يا سيدي ؟! إن منطقك لعجيب !

فقال الشيخ بلهجة أبوية :

– أغفر لي صراحتي يا بني . فأنا ، رغم ملاحظاتي ، أحب شارني ، ويسرني أن تكون قد تصرفت معه على هذا الشكل .

فقال له فيليب :

– إن شارني الذي تحبه ، هو الآن عصفوري المشكوك على السفود ... فالواقع ، أنني منذ قليل قد فتحت بهذا النصل أخدوداً في خاصرته ...

قال فيليب هذا وعرض سيفه لوالده ، فصاح هذا وقد أرعبه المنظر :

– ما هذا ؟! أتريد القول بأنك قد تبارزت مع السيد دي شارني ؟

– نعم ، وقد أنفذت السيف به !

– يا إلهي !

– وهذه هي طريقتي في المجاملة والتملق لخلفائي ... أما وقد عرفتها الآن ، فقارن بينها وبين نظريتك .

وقام فيليب بحركة قنوط استعداداً للتملص من أبيه ، فتشبث الشيخ بذراعه وقال متوسلاً :

– فيليب ! فيليب ! قل لي بأنك كنت تمزح .

– سمِّ ذلك مزحاً إذا شئت ، ولكن ما حدث قد حدث .

فرفع الشيخ عينيه نحو السماء وتمتم ببضع كلمات، ثم ترك ولده وأسرع باتجاه غرفة الانتظار وهو يصيح :

- بسرعة ! بسرعة ! إلي بفارس يذهب ويستعلم عن السيد دي شارني الذي جرح . ليأتني بأخباره ولا ينسى أن يقول له بأنه آتٍ من قبَلي !

ثم أكمل وهو يدخل الغرفة :

- هذا الخائن فيليب، أليس شقيق أخته !؟ آه ! كنت اعتقدت بأنه تخلص من عيوبه . ولكن لا ، لا يوجد إلا رأس واحد في عائلتي ... وهذا الرأس، هو رأسي !

رباعية الكونت دي بروفانس

★

بينما كانت هذه الأحداث تجري في باريس وفرساي، كان الملك مطمئناً كعادته، يستعرض في غرفته مجموعة من الخرائط والكتب ويحلم بمخر عباب البحر مجدداً بواسطة سفن مصنوعة في مدينة « باروز » الإيطالية.

وإذ هو كذلك، طرق الباب طرقاً خفيفاً أيقظه من حلمه الجميل هذا، ثم سمع صوتاً يقول:

- هل أستطيع الدخول يا أخي؟

فدمدم الملك وهو يدفع عن أمامه كتاباً في علم الفلك كان يتصفحه باهتمام كلي: «إنه الكونت دي بروفانس».

ثم قال بصوت مرتفع:

- أدخل!

وعلى الفور دخل غرفة الملك بكثير من الاحترام، شخص ضخم الجثة، قصير القامة، أحمر الوجه، بادر الملك بقوله:

- لم تكن تنتظر قدومي يا أخي، أليس كذلك؟

- في الواقع، لا.

- قد أكون أزعجتك؟

- لا، ولكن هل لديك شيء مفيد تقوله لي؟

- شائعة مضحكة حقاً، مثيرة للسخرية...

- آه! آه! اغتياب؟

- هذا هو الواقع يا أخي.

- هل هناك عار لحق بي؟

- نعم يا أخي، والله شاهد عليّ إن كنت أكذب في نقل الخبر، مع أني أشك في صحته.

- إذن، الأمر يتعلق بالملكة؟

- تصور يا مولاي أنهم قد قالوا لي بجدية، وأنا أقولها لك بحذر كلي...

- أسرع وقل، ما الذي حدث؟

فقال الكونت دي بروفانس ببرودة لا تتفق مع الانفعال الذي ظهر على وجه الملك:

- يقولون يا أخي، بأن الملكة قد باتت ليلة خارج القصر الملكي...

قال الكونت دي بروفانس ذلك، وأجهد نفسه ليضحك... متظاهراً بالهزء والسخرية من هكذا تهمة.

فقال الملك بوقار:

- هذا شيء مؤسف جداً، إن كان صحيحاً.

- ولكني أعتقد بأن الشائعة ليست صحيحة، أليس كذلك يا أخي؟

- أبداً.

- وليس صحيحاً أيضاً بأنهم شاهدوا الملكة وهي تنتظر على بوابة الخزانات؟

- أبداً.

- أنت تذكر يوم أعطيت الأوامر لتقفل هذه البوابة عند الساعة الحادية عشرة؟

- لا أدري.

– حسناً ! تصوَّر يا أخي بأن الإشاعة تزعم...

– إيه ! إشاعة ! وما هي ؟ وأين هي ؟

– هناك قول عويص يا أخي ، عويص جداً ، هو الإشاعة في الواقع . إذن هذا الكائن الذي لا يُرى ولا يُدرك والذي يسمونه الإشاعة ، يزعم بأنهم قد شاهدوا الملكة مع الكونت دارتوا ، في الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر...

فصاح الملك : أين ؟

– إذا قصد المرء المنزل الذي يملكه الكونت دارتوا ، هناك وراء الاصطبلات... ألم تسمع جلالتك بهذه الفاحشة ؟

– بلى ، لقد سمعت بها ، ولكنها كانت ضرورية بالنسبة للكونت .

– كيف يا مولاي ؟

– نعم ، ألم تعمل أنت شيئاً كي يصل الى مسمعي حديث الناس عنه ؟

– أنا؟!

– نعم ، أنت .

– ماذا يا سيدي ؟ ماذا فعلت ؟

– رباعية مثلاً ، وقد نُشرت في مجلة « عطارد » .

فقال الكونت دي بروفانس وقد ازداد احمراراً :

- رباعية !

- وقد أنهيتها بهذا البيت من الشعر: «هيلانة، لا تقولي شيئاً للملك الطيب مانالاس[1]».

- أنا يا مولاي !..

- لا تنكر. هاك مخطوط الرباعية بخط يدك... إن معرفتي بالشعر قليلة، أما بالخطوط، فإني خبير بها...

- مولاي، إن الحماقة تسبب حماقة أخرى.

- إني أؤكد لك يا حضرة الكونت دي بروفانس، بأنه ليس هناك حماقة سوى حماقتك. وإني لأعجب كيف يرتكب فيلسوف مثل هذه الحماقة التي لا تليق نعتاً إلا لرباعيتك.

- مولاي، إن جلالتك قد قست علي.

- إني أعاملك بالمثل يا أخي. فعوضاً عن أن تنشر رباعيتك هذه، كان عليك أن تتحقق مما عملته الملكة. وعوضاً عن هذه الرباعية ضدها، وبالتالي ضدي أنا، كان عليك أن تكتب بعض الأبيات العاطفية في امرأة أخيك. قد تقول بأنها ليست مصدر وحي لك. لا بأس، إني أفضّل

---

١ - ملك إغريقي كانت زوجته الجميلة هيلانة تخونه وهو لا يصدق، وهي إحدى بطلات الالياذة.

رسالة شعرية سيئة، على هجاء جميل. فهوراس، شاعرك المفضل، كان يقول هذا القول.

- مولاي، إنك تفحمني.

فقال الملك بحزم:

- إذن إن كنت مثلي أكيداً من براءة الملكة، فما عليك إلا أن تعيد قراءة شاعرك هوراس الذي استشهدت بقوله المأثور.

وبعد هذا الدرس الذي لقّنه الملك، كأب وليس كأخ، للكونت دي بروفانس، تراءى له بأن أخاه يفكر في تبرير نفسه. وفعلاً بقي الكونت صامتاً وغارقاً في مهامه التفكير بعض الوقت، كأنه محتار في أمره، أو كأنه خطيب يفتش في ذاكرته عن أكثر التعابير لباقة، ثم قال:

- مولاي، مهما كانت جلالتك قاسية في حكمها عليّ، تبقى لدي وسيلة للاعتذار وأمل في العفو.

- تكلم يا أخي.

- أرجو أن تقبل عذري على أني مخدوع، وليس على أني سيء النية.

- موافق.

- الواقع أن جلالتك، كما تعرف بأن ما من إنسان لا يخدع، تعرف أيضاً بأن أخاك لا يخدع بسهولة.

- إني لا أشك إطلاقاً بعقلك الكبير وفكرك النيّر يا أخي.

– إذن كيف تريد أن لا أنخدع ، وأنا أسمع كل ما يشاع ويقال؟ فأنا لم أقل بأني صدقت ، بل قلت بأني سمعت .

– الحمد لله طالما أن الأمر هكذا . ولكن ...

– ولكن الرباعية ، أليس كذلك؟ أوه! إن الشعراء يا مولاي هم كوائن غريبة . ثمَّ ، ألم يكن من الأفضل أن تردَّ عليَّ بنقد ناعم يكون بمثابة إنذار لي ، عوضاً عن أن تقطب حاجبيك؟ ثم ما أهمية بعض أبيات من الشعر بالنسبة الى هذه المقالة التي جئت أطلعك عليها بنفسي ...

– مقال قدح وذم !!

– نعم يا مولاي ، وأنا بحاجة ماسة إلى أمر يخولني زجَّ ذلك الحقير الذي كتبها في الباستيل .

فنهض الملك بانفعال وقال بحدة : هيَّا بنا !

– لا أدري إذا كان يتوجب عليَّ يا مولاي ...

– بالطبع يتوجب عليك . فلا مجال للمراعاة في مثل هذه الظروف . هل لديك هذه المقالة الهجائية؟

– نعم يا مولاي .

– هاتها .

فسحب الكونت دي بروفانس من جيبه نسخة من تلك الصحيفة المتوجة بمقال عنوانه «تاريخ أتانيوتا» ، كبرهان

ساطع على ان عصا شارني، وسيف فيليب، وريالات الكونت دي كاغليوسترو، لم تحل دون تداول هذه الصحيفة.

فألقى الملك عليها نظرة سريعة كمثل الرجل الذي اعتاد قراءة المقاطع الهامة في الكتاب أو الصحيفة، ثُمَّ قال:

- فضيحة! فصيحة!

فأجاب الكونت دي بروفانس.

- أرأيت يا مولاي، كيف أنهم يتهمون شقيقتي الملكة بأنها كانت بين الذين حضروا بهلوانات ميسمار؟

فقال الملك: ولِمَ العجب؟ نعم كانت.

فصاح الكونت دي بروفانس مندهشاً: كانت!

- نعم كانت. وكانت بإذن مني...

- أوه! مولاي.

وليس حضورها عند ميسمار هو الذي أثار حفيظتي، لأني أنا الذي سمحت لها بالذهاب الى ساحة فاندوم.

- ولكن جلالتك لم تسمح بأن تقترب الملكة من «دلو ميسمار»، كي تختبر بنفسها...

فخبط الملك الأرض برجله... إذ اتفق الكلام الذي تلفَّظ به الكونت، مع قراءة الملك لويس السادس عشر للمقطع الأكثر إهانة بحق ماري انطوانيت، أي المقطع الذي يصف

حالة بُحرانها المزعوم في تلك الجلسة المغناطيسية ، وتشنجات عضلاتها ، وشهوانيتها المهتاجة ، وحركاتها المضطربة ، وكل ما أُعطي من وصف للحالة التي بدت بها الآنسة أوليفا حول « الدلو السحري » للدكتور ميسمار . خبط الملك الأرض برجله وقال :

– هذا مستحيل ! هذا مستحيل ! أوه ! إن الشرطة يجب أن تكون لديها المعلومات الحقيقية .

ثم قرع الجرس وقال للضابط الذي أقبل :

– السيد دي كروسن ، ليبحثوا لي عن السيد دي كروسن .

فأجاب الضابط :

– مولاي ، إن اليوم هو اليوم المعين لتقديم التقرير الأسبوعي ، والسيد دي كروسن ينتظر الأوامر للدخول على جلالتك .

فقال الملك : ليدخل !

وهنا قال الكونت دي بروفانس بلهجة المحتال : « إسمح لي يا أخي ... » وتهيأ ليخرج ، فقال له لويس السادس عشر :

– إبق هنا . فإذا كانت الملكة مذنبة ، لا بأس إن اطلعت على ذنبها ، فأنت من أهل البيت . وإن كانت بريئة ، فيتوجب عليك أن تعرف أيضاً ، أنت الذي ظننت بها .

ولما دخل السيد دي كروسن ورأى الكونت دي بروفانس مع الملك، بدأ بتقديم الاحترامات لأعظم عظيمين في المملكة، ثم توجه الى الملك قائلاً:

- إن التقرير حاضر يا مولاي.

- قبل التقرير، فسّر لي كيف نُشر في باريس مقال يتهجم على الملكة؟

فسأل السيد دي كروسن الملك: أتانيوتا؟

فأجاب الملك: نعم.

- إنه يا مولاي صحافي يُدعى ريتو.

- نعم، أنت تعرف اسمه، ومع ذلك لم تمنعه من نشر مقاله، أو تُلقي القبض عليه بعد النشر!

- إن إلقاء القبض عليه يا مولاي، لم يكن أمراً عسيراً. بل بالعكس، كان من أسهل الأمور.

- إذن، لماذا لم تلق القبض عليه؟!

فالتفت السيد دي كروسن ناحية الكونت دي بروفانس، وكأن هناك سراً في الموضوع لا يجوز أن يطّلع عليه سوى الملك. فقال لحظتذاك الكونت دي بروفانس: «إني استأذن جلالتك».

فردّ عليه الملك بقوله:

- أبداً، أبداً، لقد قلت لك إبق هنا، وعليك أن تبقى.

فانحنى الكونت تعبيراً عن طاعته، وأكمل الملك قائلاً:

- تكلم يا سيد دي كروسن. تكلم بصراحة ومن دون أي تحفظ.

فقال ضابط البوليس:

- الواقع يا مولاي، أني لم ألقِ القبض عليه، لأني رأيت من الضرورة قبل الإقدام على هكذا عمل، أن أتشاور مع جلالتكم.

- هات لنرى.

- قد يكون من الأفضل يا مولاي، لو تعطي هذا الصحافي كيساً من النقود، وترسله الى مكان قصيّ، كي يكيل لنفسه فيما بعد عبارات القدح والذم.

- لماذا؟

- لأن هذا الشقي يا مولاي، هو من طينة الصحافيين الذين إذا ما طرحوا أكذوبة، يفرح الشعب ويهلل عندما يراهم يجلدون، وتُصلم آذانهم، وحتى يُشنقون. ولكن إذا ما الشعب لمس الحقيقة...

فصاح الملك:

- الحقيقة؟! نعم، إني أعرف بأن الملكة قد حضرت جلسة ميسمار المغناطيسية، وقد يكون وجودها في ذلك المكان أمراً مؤسفاً، ولكني أنا الذي سمحت لها.

فدمدم السيد دي كروسن مندهشاً :

- أوه ! مولاي ...

فانفعل الملك من هذه الدهشة الصادرة عن أحد رعاياه المخلصين، وليس عن قريب له تتآكله الغيرة والحسد، وقال :

- ولكنَّ الملكة ليست طائشة كما أقدر.

- لا يا مولاي، ولكنها متهمة.

فقال الملك بعد لحظة من التفكير :

- ماذا يقول رجالك يا سيد دي كروسن؟ هات لنرى.

- مولاي، مع الاحترام المتوجب عليَّ لجلالتكم، ومع الاحترام العميق الذي أكنّه لجلالة الملكة، هناك أمور كثيرة في التقرير مطابقة لما جاء في مقالة السيد ريتو !

- تقول مطابقة ؟!

- نعم يا مولاي. فقد جاء في التقرير : «إن ملكة فرنسا، ذهبت في ثياب النساء العاديات والمأخوذات بغرائب ميسمار المغناطيسية، وإنها كانت وحدها ...».

فصاح الملك : وحدها !

- نعم يا مولاي، وحدها.

- إنك مخدوع يا سيد دي كروسن.

- لا أعتقد يا مولاي.

- إن التقارير المقدمة اليك خاطئة.

- إنها من الدقة يا مولاي، بحيث أني أستطيع إعطاءك التفاصيل عن زينة جلالتها، عن خطواتها، عن حركاتها، عن صرخاتها...

فصاح الملك وقد اصفرّ وارتعشت زخارف التقصيب في بزته.

- صرخاتها !..

فأضاف دي كروسن بخجل:

- وحتى تأوهاتها، قد سجلها رجالي.

- تأوهاتها !.. لقد نسيت الملكة نفسها إلى هذه الدرجة !.. الملكة تصرفت بشكل حطٍّ من شرفي كملك، ومن شرفها هي كامرأة !..

فتدخل الكونت دي بروفانس وقال:

- هذا مستحيل! وإلا كان الأمر أكثر من فضيحة، وحاشا لجلالتها أن تكون مثار فضائح.

وكانت هذه العبارة التي فاه بها الكونت دي بروفانس، إحياءً لشكواه أكثر مما هي اعتذار. وقد شعر الملك بقصده، فثار كل ما فيه وقال لضابط البوليس:

- هل تتمسك بكل ما قلته يا سيد دي كروسن؟

- بكل كلمة يا مولاي.

فاستدار لويس السادس عشر نحو أخيه، وقال له وهو يمسح بمنديله جبهته المبللة بالعرق:

- يتوجب عليَّ يا أخي أن أقدم اليك الدليل على صحة ما سبق وقلته. فإن شرف الملكة هو شرف عائلتي كلها، وإني لن أجازف بهذا الشرف إطلاقاً. فأنا قد سمحت للملكة بالذهاب الى منزل ميسمار، لكني فرضت عليها أن تصطحب معها شخصية توحي بالثقة، شخصية لا عيب فيها، شخصية في مرتبة القداسة.

فقال دي كروسن:

- آه! لو جرى الأمر هكذا...

فقال الكونت دي بروفانس:

- نعم، لو كانت امرأة كالسيدة دي لامبال مثلاً...

فقال الملك:

- هي بالضبط يا أخي. فالأميرة دي لامبال هي التي عينتها لمرافقة الملكة.

فقال ضابط الشرطة.

- بكل أسف يا مولاي، الأميرة دي لامبال لم تكن برفقتها.

فارتعش الملك وأجاب :

– إن كان الأمر كذلك ، وإن كانت أوامري لم تُنفَّد ، فيتوجب عليَّ أن أعاقب بقسوة ، وسوف أعاقب ...

ثم تنهد تنهدةً صامتة ولكنها مؤلمة ، وتابع يقول بصوت منخفض :

– إلا أنه ما زال لدي بقية شك . وهذا الشك من الطبيعي أن لا تشاركاني به ، لأنكما لستما الملك ، ولا الزوج ، ولا الصديق لتلك المتهمة . أما أنا ، فإني الملك والزوج والصديق ، لذلك أريد أن أجلو هذا الشك .

ثم قرع الجرس فحضر ضابط الخدمة ، فقال له الملك :

– إبحثوا لي عن الأميرة دي لامبال ، إن كانت عند الملكة أو في جناحها الخاص .

فأجاب الضابط :

– إن الأميرة دي لامبال يا مولاي ، تتنزه في الحديقة الصغيرة مع الملكة وسيدة أخرى .

– قل للأميرة لتتفضَّل وتصعد الى هنا على جناح السرعة .

فانحنى الضابط وخرج .

وعلى غير عادته ، قطب لويس السادس عشر حاجبيه ، وألقى على الشاهدين على ألمه العميق نظرة فيها الكثير من

التهديد ... أما الشاهدان ، فقد لزما الصمت ، وكان صمت دي كروسن حزيناً فعلاً . أما صمت الكونت دي بروفانس ، فقد كان حزيناً في الظاهر ، أما في الواقع ، فإن قلب الكونت كان يرقص فرحاً ...

وبعد هذا الصمت ، سمع الملك حفيف الحرير وراء الأبواب ، فعلم بأن الأميرة دي لامبال مقبلة إليه .

الأميرة دي لامبال

★

دخلت الأميرة دي لامبال على الملك بجمالها الرائع ، وسكينتها المميزة ، وجبهتها المكشوفة ، وشعرها المرفوع والمتدلي بأنفة وكبرياء ، وعينيها الزرقاوين كزرقة السماء الصافية ، وأنفها المستقيم المتمرد ، وشفتيها المعبرتين عن العفة والشهوة في آنٍ معاً ، وقد شُكب كل هذا الجمال بقالب ممشوق رائع التقاسيم كأنه نُحت على يد أمهر النحاتين !

دخلت وقد فاح العطر الناعم المنعش منها ، كأنها كلها باقة من الخزام والبنفسج ...

وعندما رآها الملك تدخل باسمة متواضعة ، شعر بالألم وفكر قائلاً في نفسه : « إن ما سيفوه به هذا الفم ، سيكون حكماً مبرماً .» ثم قال للأميرة بعد أن حيَّاها بحرارة :

– تفضلي واجلسي أيتها الأميرة .

ثم تقدم الكونت دي بروفانس ليقبّل يدها ، فاستجمع الملك أفكاره ، وقالت الأميرة بصوتها الملائكي :

– ماذا تريد مني يا صاحب الجلالة ؟

– بعض المعلومات يا سيدتي . معلومات مختصرة يا ابنة العم .

– إني صاغية يا مولاي .

– أي يوم ذهبت فيه برفقة الملكة الى باريس ؟ تذكري جيداً .

فأخذ السيد دي كروسن والكونت دي بروفانس يتناظران مندهشين ، وأجابت الأميرة :

– يوم الأربعاء يا مولاي .

فقال الملك :

– اعذريني يا ابنة العم ، أريد معرفة الحقيقة .

فأجابته الأميرة ببساطة :

– يمكنك معرفة كل شيء يا مولاي بواسطة الأسئلة ، فأنا مستعدة للإجابة .

- ماذا ذهبت تعملين في باريس يا ابنة العم؟

- ذهبت الى منزل الدكتور ميسمار في ساحة فاندوم يا مولاي.

فارتعش الشاهدان، واحمرَّ وجه الملك من التأثر، وسألها:

- وحدك؟

- لا يا مولاي، مع جلالة الملكة.

فصاح لويس السادس عشر وهو يمسك يدها بلهفة:

- مع الملكة؟ تقولين مع الملكة!

- نعم يا مولاي.

فاقترب السيدان دي كروسن ودي بروفانس مشدوهين، وأكملت الأميرة دي لامبال تقول:

- لقد كانت جلالتك قد سمحت للملكة ... هذا ما قالته لي الملكة على كل حال.

- وجلالتها على حق يا ابنة العم ... أما الآن ... فيبدو لي بأني أتنفس بارتياح، لأن السيدة دي لامبال لا تكذب إطلاقاً.

فقالت الأميرة بصوت خافت:

- إطلاقاً يا مولاي.

فصاح السيد دي كروسن بلهجة فيها من اليقين بقدر ما فيها من الشك:

– أوه ! إطلاقاً ! إذن أرجوك يا مولاي أن تسمح لي ...

– أوه ! نعم ، إني أسمح لك يا سيد دي كروسن ، فاطرح السؤال الذي تريده . إني أضع أميرتي العزيزة على كرسي الاتهام ، إني أضعها تحت تصرفك .

فابتسمت السيدة دي لامبال وقالت :

– إني مستعدة . ولكن الارتباك قد زال يا مولاي .

فقال الملك وهو يبتسم :

– نعم ، لقد أزلت الارتباك بالنسبة للآخرين ، أما بالنسبة إليّ ، فلم يزل :

فتدخل ضابط البوليس وسأل الأميرة :

– هل تتكرم سيدتي وتقول للملك ماذا عملت مع صاحبة الجلالة عند السيد ميسمار ، وماذا كانت ترتدي جلالتها من ثياب .

فأجابت أميرة دي لامبال قائلة :

– لقد كانت جلالتها ترتدي فستاناً من « التافتا » رمادياً لؤلؤياً ، وعباءة من « الموسلين » المطرز ، وفروة من جلد الفاقُم ، وقبعة من المخمل الوردي ذات أشرطة سوداء .

وكانت هذه الأوصاف مناقضة تماماً لأوصاف الآنسة أوليفا .

فاعترى السيد دي كروسن انذهال واضطراب شديدين، وأخذ الكونت دي بروفانس يعضّض شفتيه... أما الملك فقد فرك يديه وسأل الأميرة:

- وماذا عملت الملكة وهي تدخل المكان؟

- معك حق أن تسألني هذا السؤال يا مولاي، لأننا بالكاد استطعنا الدخول...

- هل دخلتما سوية؟

- نعم يا مولاي، سوية. وبشق النفس وصلنا الى الصالون الأول، من دون أن يتمكن أحد من معرفتنا، لأن الانظار كلها كانت متجهة نحو تلك الأسرار المغناطيسية. وهناك تقدمت من جلالتها امرأة وقدمت لها قناعاً، ورجتها أن لا تحاول التقدم أيضاً.

فقال الكونت دي بروفانس بحدة:

- وهل توقفتما؟

- نعم يا سيدي.

وسأل السيد دي كروسن:

- وما اجتزتما عتبة الصالون الأول؟

- لا يا سيدي.

وقال الملك مع بقية من القلق:

- ولم تتركي ذراع الملكة إطلاقاً؟

- حتى ولا ثانية واحدة. فذراع جلالتها كان طوال الوقت متكئاً على ذراعي.

عندئذ صاح الملك قائلاً:

- حسناً! ما رأيك يا سيد دي كروسن؟ وأنت ماذا تقول يا أخي العزيز؟

فقال الكونت دي بروفانس وهو يتظاهر بالسرور، مع أن الغيظ كان يتآكله:

- ذلك أمر عجيب! أمر فوق الطبيعي!

فأسرع السيد دي كروسن إلى الردّ عليه، وقد أنَّبه ضميره عندما رأى علامات الفرح مرتسمة على وجه الملك، فقال:

- ليس هناك ما هو عجيب وغير طبيعي يا حضرة الكونت، فإن سيدتي الأميرة لم تقل إلا الحقيقة.

فسأله الكونت:

- ما الذي حصل إذن؟

- الذي حصل يا سيدي هو أن رجالي قد انخدعوا.

فسأله الكونت هذه المرة وقد توترت أعصابه وبدت يداه مرتعشتين:

- هل أنت تتكلم بجدية؟

- بكل جدية يا سيدي. فإن رجالي قد انخدعوا، وصاحبة الجلالة تصرفت تماماً كما قالت السيدة دي لامبال،

ولا شيء سوى ذلك . أما الصحافي ، فلو كنت مطلعاً على الحقيقة كما روتها سعادة الأميرة ، لكنت تصرفت معه تصرفاً آخر . لذا سأصدر الأمر لإلقاء القبض عليه في الحال وإيداعه السجن .

فهزت الأميرة دي لامبال رأسها ببراءة متذمرة ، وقال الملك :

- لحظة ، لحظة ، فلدينا متسع من الوقت لشنق الصحافي . تكلمت أيتها الأميرة عن امرأة أوقفت الملكة في مدخل الصالون ، فأخبريني عن هذه المرأة ، من تكون ؟

- يبدو أن جلالتها تعرفها يا مولاي . فهذا ما ثبت لي ، أقوله لأني لا أعرف الكذب إطلاقاً .

فقال الملك :

- من الضرورة بمكان يا ابنة العم ، أن أتكلم مع هذه المرأة . فلديها كل الحقيقة ، وهي وحدها مفتاح السر .

فقال دي كروسن ، وكان الملك قد استدار نحوه :

- وهذا هو رأيي يا مولاي .

وسأل الكونت دي بروفانس الأميرة بصوت-مرتفع :

- هل اعترفت لك الملكة يا ابنة العم ، بأنها تعرف هذه المرأة ؟

- إن جلالتها لم تعترف لي يا سيدي ، بل قالت لي .

- نعم، نعم، قالت لك، عفواً.

فقاطعه الملك وقال للأميرة:

- إن أخي يريد أن يقول لك: طالما أن الملكة تعرف هذه المرأة، فلا بدَّ أن تكوني أنت تعرفين اسمها.

- إنها السيدة دي لاموت فالوا.

فصاح الملك بغيظ:

- هذه المتآمرة!..

وقال الكونت:

- هذه المتسولة! يا للشياطين! من الصعب طرح الأسئلة عليها، فهي داهية محتالة!

فقال السيد دي كروسن:

- وسنكون نحن دهاة مثلها. إلا أنه لم يعد هناك مجال للدهاء، فقد باتت الكلمة للملك...

فقال الملك وقد وهنت عزيمته:

- لا، لا، إني تعب من رؤية هذه الجماعة السيئة تحيق بالملكة. إن الملكة من الطيبة، بحيث أن ذريعة الشقاء تستدرج اليها كل من يمت بصلة غامضة وتافهة إلى نبالة المملكة.

فقالت الأميرة دي لامبال :

– ولكن السيدة دي لاموت هي فعلاً من عائلة فالوا .

– لتكن كما تشاء يا ابنة العم ، فإني لا أريد أن تطأ قدماها هذا القصر . إني أفضّل حرمان نفسي من ذلك الفرح العظيم الذي يوفره لي الغفران الكامل للملكة ، على أن أرى هذه المخلوقة أمام وجهي .

فصاح صوت من الباب يقول : «ومع ذلك فسوف تراها ! ..»

وكان هذا الصوت صوت الملكة ، وقد دخلت الغرفة صفراء الوجه من شدة الغضب ، فبدت رائعة النبل في عيني الكونت دي بروفانس ، الذي حيّاها بارتباك .

وأكملت الملكة تقول :

– نعم يا مولاي ، لا يجوز القول : أحب رؤية أو أخاف رؤية هذه المخلوقة . فهذه المخلوقة هي الشاهد الوحيد على براءتي أمام متهميَّ وقضاتي. إنني بصفتي المتهمة ، أطلب الاستماع الى هذه المرأة ، وسوف تستمعون اليها ...

فأسرع الملك الى القول :

– سيدتي ، لقد سمعت جيداً بأننا لن نستدعي السيدة دي لاموت كي يكون لها شرف الشهادة لصالحك أو ضدك . فأنا لا أقبل بأن أضع شرفك في الميزان مقابل حقيقة هذه المرأة .

فقالت الملكة :

– لن تضطر الى استدعاء السيدة دي لاموت يا مولاي ، لأنها موجودة هنا !

فصاح الملك وقد انفتل كأنه دعس على حية :

– هنا !.. هنا !..

– مولاي . كنت قد قمت ، كما تعلم ، بزيارة الى امرأة بائسة تحمل إسماً جليلاً . وخلال الزيارة ، كما لا يخفاك ، قد تحدثنا عن أمور كثيرة ...

قالت الملكة هذا وتطلعت الى الكونت دي بروفانس الذي كان يتمنى في تلك اللحظة لو تبتلعه الأرض ، فقال الملك :

– حسناً !

وتابعت الملكة تقول :

– في ذلك اليوم يا مولاي ، نسيت عند السيدة دي لاموت علبة تمثل صورة عزيزة على قلبي ، فجاءتني بها اليوم ، ولذلك هي هنا .

فقال الملك :

– لا ، لا ... فأنا قد اقتنعت ببراءتك ، ولا حاجة الى شهادتها .

– إن كنت أنت قد اقتنعت يا مولاي ، فأنا ما زلت غير راضية ، لذلك أريد إدخالها . ثمّ لماذا هذا النفور ؟! وماذا

عملت ؟! إن كانت ذنوبها تستحق كل هذا الكره ، فأطلعني عليها لأني أجهلها . هيَّا يا سيدي كروسن ، أنت تعرف كل شيء ...

فأجاب قائد الشرطة :

- في الواقع ، إنها امرأة فقيرة ، وقد تكون على شيء من الطموح ، هذا كل شيء .

فقالت الملكة :

- إن الطموح هو نداء الدم . فإذا لم يكن لديك غير هذا المأخذ عليها ، أعتقد بأن الملك سوف يقبل شهادتها .

فأجاب الملك :

- لا أعلم ، لا أعلم ، فلديَّ إحساس داخلي بأن هذه المرأة ستكون شؤماً علي ... وعلى حياتي !

فقالت الملكة :

- أوه ! ما هذا التطير يا مولاي ! ثم قالت للأميرة دي لامبال : إذهبي وعجلي بجلبها .

وبعد خمس دقائق ، دخلت جانّ دي لاموت الى غرفة الملك خجولة محتشمة ، إلا أنها كانت تتميز بهيئتها ولباسها وزينتها . فأدار لويس السادس عشر ظهره الى الباب ، وأسند رأسه فوق مكتبه بكلتا يديه ، فبدا وكأنه غريب بين الحضور !

ورشق الكونت دي بروفانس جانّ بنظراته الفاحصة المزعجة ، فتبين له بأن هذه المرأة إن كانت صادقة في خجلها ، فسيتعطل النطق لديها ولن تخرج من فمها أية كلمة .

ولكن يجب أن يكون هناك شيء آخر قد عطّل صفو جانّ دي لاموت في تلك الساعة . فلا أي ملك ولا أي امبراطور بصولجانيهما ، ولا أي بابا بتاجه ، ولا أية قوى سماوية أو أرضية ، باستطاعتهم أن يؤثروا بالخوف أو بالإجلال ، على هذه المرأة القوية الشخصية .

وبعد أن قادتها الملكة الى وراء الملك ، قالت لها :

– أرجوك يا سيدتي ، أن تتفضلي وتقولي كل ما فعلته يوم زيارتي للسيد ميسمار . تفضلي وقوليه حرفاً حرفاً .

فصمتت جانّ ، وأكملت الملكة تقول :

– لا كتمان ولا تحفظ ولا مراعاة . لا شيء سوى الحقيقة الماثلة في مخيلتك من دون زيادة ولا نقصان .

ثم جلست الملكة جانباً كي لا يكون لنظراتها أي تأثير على الشاهدة .

فأي دور على جانّ أن تلعبه ، وقد أنبأها حدسها بأن العاهلة بحاجة إليها ، وأن ماري انطوانيت قد ظُن بها خطأً وأن بالإمكان تبرأتها من دون التخلي عن الحقيقة ؟

بعد هذا التساؤل الذي ارتسم سريعاً في مخيلة جانّ ،

طاب لها أن تبرئ ساحة الملكة بالمبالغة في البراهين . وكانت جانّ ذات ذهن ثاقب وحجة قوية ، فقدحت زناد فكرها وقالت :

– كنت قد ذهبت يا مولاي الى منزل السيد ميسمار بدافع الفضول ، كما ذهب مثلي بهذا الدافع معظم سكان باريس . ولقد بدا لي المشهد فظاً قليلاً ، فانسحبت . وما أن وصلت الى عتبة الباب الخارجي ، حتى تفاجأت بجلالتها ، وكنت قد تشرفت برؤيتها قبل عشية ذلك اليوم من دون أن أعرفها ، إذ سبق لجلالتها أن أظهرت لي بسخائها عن سموّ مقامها . فعندما وقع نظري على ملامحها الجليلة ، تراءى لي بأن حضور جلالة الملكة قد يكون انتقل الى هذا المكان ، حيث المتألمون والمبتلون قد انتشروا بكثرة وبشكل تمثيلي . إني بخضوع أطلب عفو جلالتها ، لأني تجاسرت وأقدمت على الظن بتصرفها . لكن ذلك كان وميضاً مرَّ كالسهم ، كان غريزة امرأة . وإني أطلب العفو جاثية ، إذا كنت قد تجاوزت حدّ الاحترام المتوجب عليّ تجاه أقل حركة من حركات جلالتها .

وهنا توقفت جانّ وقد ظهر التأثر جلياً على وجهها . ثم أحنت رأسها ومثّلت بمهارة فائقة لحظة الاختناق التي تسبق انسكاب الدموع ...

فاتّخذ السيد دي كروسن بهذا المشهد المؤثر. وشعرت الأميرة دي لامبال بانجذاب نحو هذه المرأة التي بدت في آن واحد: ناعمة، خجولة، مرهفة العقل، وطيبة!

أما الكونت دي بروفانس، فقد طاش رأسه!

أما الملكة، فقد شكرت جانّ بنظرة منها، وقالت:

– حسناً، هل استمعت يا مولاي؟

فقال الملك من دون أن يبدي حراكاً:

– لست بحاجة الى شهادة السيدة.

فقالت جانّ بخجل وصوت منخفض:

– لقد طُلب مني أن أتكلم، فتوجبت عليّ الإطاعة.

فقال لويس السادس عشر بانفعال.

– كفى! فعندما تقول الملكة شيئاً، ليست بحاجة الى شهود لإثبات قولها. وعندما تكون الملكة مشمولة برضاي واستحساني، فليست بحاجة الى رضى واستحسان أي شخص آخر.

وبعد أن تلفظ الملك بهذه الكلمات التي سحقت الكونت دي بروفانس، نهض وأدار ظهره الى أخيه، وتقدم من ماري انطوانيت التي كانت تبتسم ابتسام احتقار وقبّل يدها، كما قبّل يد الأميرة دي لامبال واعتذر منها لأنه «أزعجها من أجل لا شيء!»

أما بالنسبة للسيدة دي لاموت ، فلم يوجه الملك إليها أية كلمة ، وحتى لم يلق عليها أية نظرة ! ولكن بما أنه كان مضطراً للمرور من أمامها كي يعود الى مقعده ، وقد خشي من إهانة الملكة إن هو لم يتصرف في حضورها بأدب تجاه امرأة قد استقبلتها ، لذا اضطر أن يحييها تحية عابرة ردت عليها بانحناءة فيها كل الخضوع والاحترام .

ثم خرجت أولاً من غرفة الملك الأميرة دي لامبال ، تبعتها السيدة دي لاموت التي دفعتها الملكة أمامها . وأخيراً خرجت الملكة بعد ان تبادلت مع الملك آخر نظرة ولهى .

وسُمعت في الرواق أصوات النساء الثلاث يتهامسن مبتعدات ...

وعندئذ قال لويس السادس عشر الى الكونت دي بروفانس :

– لن أستبقيك كثيراً يا أخي ، فعليَّ أن أنهي أشغال الأسبوع مع قائد الشرطة . إني أشكرك على ما أظهرته من غيرة وإنصاف نحو شقيقتك ، ومما لا شك فيه أن براءتها مما علق في بعض الأذهان قد ملأت قلبك سروراً كما ملأت قلبي ...

ثم التفت إلى السيد دي كروسن ، وقال له :

– لقد جاء دورنا نحن الإثنين ، فتفضل واجلس ، أرجوك .

فحيّا الكونت دي بروفانس، والبسمة دائماً على شفتيه، وخرج من غرفة الملك يجرُّ أذيال الخيبة وراءه...

في غرفة الملكة

★

خرجت الملكة من غرفة لويس السادس عشر وقد عرفت أهمية الخطر الذي تعرَّضت له، وقدرت لجانّ لباقتها وحسن تصرفها وما تميزت به من ذوق خلال إدائها شهادتها المرتجلة.

أما جانّ دي لاموت فقد غمرتها سعادة غير منتظرة لاطّلاعها لأول وهلة على مثل هذه الأسرار الحميمة التي لا يتوفر الاطلاع عليها لرجال البلاط الماهرين بعد عشر سنوات من تقربهم من العاهلين، فخرجت من غرفة الملك وهي متأكدة من أنها كانت شيئاً مهماً في ذلك النهار بالنسبة للملكة.

والملكة بدورها قدرت أهمية الدور الذي لعبته جانّ، لذلك عندما حاولت هذه الأخيرة أن تقدم احتراماتها مستأذنة بالانصراف، رفضت الملكة استئذانها واستبقتها لديها مبتسمة وقالت لها بلطف:

- لقد أحسنت أيتها الكونتس بمنعي من الدخول على السيد ميسمار برفقة الأميرة دي لامبال. فتأملي بأنهم قد شاهدوني إما على الباب أو في قاعة الانتظار، فاتخذوا من هذه «الجريمة» ذريعة للقول بأني كنت في ما يسمونه صالة البحران. أليس كذلك؟

- نعم يا سيدتي، في صالة البحران.

فقالت الأميرة دي لامبال.

- ولكن كيف نفسّر معرفة الحضور بوجود الملكة وخداع عملاء السيد دي كروسن؟ هنا السر الغامض برأيي. فرجال الشرطة يؤكدون بأن الملكة كانت فعلاً في حالة البحران.

فقالت الملكة مفكرة:

- هذا صحيح. والعجيب أنه ليس للسيد دي كروسن أية فائدة في ذلك، فهو رجل شريف ويحبني. ولكن ربما كان عملاؤه قد ارتشوا أيتها العزيزة دي لامبال. فأنا كما لا يخفاك، لي أعداء، ومما لا شك فيه أن هذه الضجة التي أثيرت تستهدف النيل مني. وبما أن تلك النشرة السافلة أظهرتني ثملة، مخلوبة اللب، مجردة بواسطة التنويم المغناطيسي من كل كرامة وشرف المرأة، فأرجو الكونتس ان تطلعنا على الحقيقة. هل حدث شيء من ذلك؟ وهل، في الواقع، كان هنالك امرأة في ذلك اليوم؟...

فاحمرّت جانّ وأجابت :

- في الواقع ، كان هناك امرأة يا سيدتي ، امرأة مضطربة جداً ، أساءت كثيراً الى سمعتها بتشنجاتها العضلية ، والتواءاتها ، وتقلص وجهها وهذيانها . ولكن يبدو لي ...

فقالت الملكة بحدة :

- يبدو لك بأن هذه المرأة كانت إحدى الممثلات ، أو ما يسمونه بالفتاة اللعوب ، وليس ملكة فرنسا ، أليس كذلك ؟

- هوذا بالتأكيد يا سيدتي .

- حسناً أيتها الكونتس . فقد أحسنت التصرف بأجوبتك إلى الملك . والآن قد جاء دوري للتحدث بشأنك . فأين أنت من مشاكلك ؟ وفي أي وقت اعتمدت المطالبة بحقوقك ؟ ولكن ، أليس هناك أحد أيتها الكونتس ...

وهنا دخلت الوصيفة السيدة دي ميزيراي ، وقالت للملكة :

- هل تودّ جلالتك أن تستقبل الآنسة دي تافرني ؟

- بكل تأكيد . يا لها من امرأة متمسكة بالرسميات وقواعد السلوك . ادخلي يا أندريه ! ادخلي !

فدخلت الآنسة دي تافرني وحيَّت ثم قالت : إن جلالتك تشملني بعطفها الدائم .

ثم لمحت جانّ، التي عرفت هي الأخرى في أندريه دي تافرني، المحسنة الألمانية الثانية، مما اضطرها الى مضاعفة التكلف بالخجل والاحمرار.

وقد اغتنمت الأميرة دي لامبال الفرصة لتنسحب بخفة الى حيث الدوق دي بانتيافر.

وبعد أن اتخذت أندريه مكاناً لها الى جانب ماري انطوانيت، واستمرت شاخصة بعينيها الهادئتين المستقصيتين بالسيدة دي لاموت، قالت الملكة:

- إنها يا أندريه، السيدة التي ذهبنا لرؤيتها في آخر يوم من أيام الصقيع.

فأجابت اندريه مع انحناءة خفيفة:

- لقد عرفتها يا سيدتي.

وأسرعت جانّ المتعجرفة تبحث في قسمات أندريه عن دلائل الغيرة، فلم تجد سوى لامبالاة تامة. فأندريه التي كانت المرأة المتفوقة على كل النساء في طيبتها، وروحها، ومروءتها، كانت تشعر بالسعادة في الصمت والكتمان العصيّ على الفهم، بمعنى أن البلاط كله كان يرى في تأدبها وحشمتها الأنوف ديانا فيرجينال.

وبهذه النظرة إليها، سألتها الملكة:

- هل تعلمين ما الذي قالوه عني للملك؟

فأجابت أندريه :

– حتماً ، يجب أن يكونوا قد قالوا كل ما هو سيء ، لأنهم لم يتعودوا أن يقولوا العكس الذي هو فيك .

فقالت جانّ ببساطة :

– يا لها من عبارة جميلة سمعتها ! أقول جميلة ، لأنها عبرت تعبيراً صادقاً عما في قلبي ولم أحسن التعبير عنه .

وقالت الملكة :

– سوف أقصُّ عليك ما قالوه يا أندريه .

فأجابت أندريه :

– أوه ! إني أعرف ذلك . فحضرة الكونت دي بروفانس قد رواه منذ ساعة ، وما رواه سمعته صديقة لي .

فقالت الملكة بغضب :

– إنها وسيلة مبتكرة أن ينشر الإنسان الأكذوبة بعد أن يكون قد حيَّا الفضيلة !! ولكن دعينا من ذلك يا أندريه ، ولنستعرض مع الكونتس وضعها . من يذود عنك أيتها الكونتس ؟

فقالت جانّ بجرأة :

– أنت يا سيدتي . أنت التي تسمحين لي بالمجيء لتقبيل يدك .

فقالت ماري انطوانيت الى أندريه : إنها تروق لي ، فهي طيبة القلب مندفعة .

فلم تجاوب أندريه ، وأكملت جانّ تقول :

- قليلون هم الأشخاص يا سيدتي ، الذين تجرأوا وذادوا عنى عندما كنت في شدة وضيق . أما الآن ، وبعد أن شاهدوني أدخل قصر فرساي لأول مرة ، وبعد أن أصبحت مشمولة بعطف الملكة ، وبعد أن تنازلت جلالتك وشرفتني بلفتتها الكريمة ، فالكل سيتنافسون على إنصافي .

فقالت الملكة وهي تجلس :

- غريب ! ألم يتحلَّ أحد بالشجاعة الكافية ليفكر بإنصافك ؟

- أبداً يا سيدتي ، أبداً ، فمنذ زواجي لم أصادف هذا الشخص . ولكن كي أكون منصفة ، هناك رجل ظريف ، أمير شهم ...

- أمير أيتها الكونتس ! من يكون ؟

- حضرة الكردينال دي روهان .

فبدرت من الملكة حركة نزقة باتجاه جانّ ، وقالت :

- عدوي !...

فصاحت جانّ :

- عدوّ جلالتك ، هو ! الكردينال ! أوه سيدتي !

– إنك لم تعيشي في البلاط أيتها الكونتس، وإلا لما اندهشت بأن يكون للملكة عدو.

– ولكن الكردينال يعبدك يا سيدتي، هذا إذا لم أكن مخدوعة. فاحترامه لزوجة الملك الجليلة المقام، لا يضاهيه إلا وفاؤه لصاحب الجلالة.

فأجابت ماري انطوانيت وقد استسلمت لبشاشتها المعتادة:

– أوه! إني أصدقك أيتها الكونتس... فعلاً، إن الكردينال يعبدني!...

ثم استدارت نحو أندريه دي تافرني، وأطلقت ضحكة رنانة. وبعد أن رأت الدهشة قد عقلت لسان جانّ دي لاموت، تابعت تقول:

– هات أيتها الكونتس، طالما أنك محمية من قبل رئيس الأساقفة، الأمير لويس دي روهان، هات حدثينا كيف اتفق لك ذلك.

– الأمر في غاية البساطة يا سيدتي. فسعادته، بالأساليب المتسمة بالشهامة والنبل والذوق الرهيف واللياقة والسخاء، قد أعانني وأنجدني.

فقالت الملكة:

– أن يكون الأمير لويس رجلاً سخياً، فهو واقع لا

نستطيع نكرانه، ولكن هل تعتقدين يا أندريه، أن حضرة الكردينال قد استطاع أن يشعر ببعض العبادة تجاه الكونتس؟ ثم ما هو رأيك أنت أيتها الكونتس؟

طرحت ماري انطوانيت هذا السؤال وأخذت تضحك وكأنها في أسعد ساعاتها، بينما بقيت الآنسة دي تافرني محتفظة برزانتها. أما جانّ، فقد فكرت في نفسها قائلة: «من المستحيل أن تكون كل هذه البهجة الصاخبة طبيعية وغير مصطنعة.» ثم قالت للملكة بمظهر وقور ولهجة واثقة:

- لي الشرف يا سيدتي، بأن أثبت لجلالتك بأن الأمير دي روهان...

فقاطعتها الملكة قائلة:

- حسناً، حسناً، أيتها الكونتس. طالما أنك متحمسة له الى هذا الحد... وطالما أنك صديقته...

فصاحت جانّ بكثير من الحشمة والاحترام:

- أوه! سيدتي، أوه! سيدتي.

فأجابتها الملكة وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة ناعمة:

- لا بأس، لا بأس يا عزيزتي، ولكن اسألي حضرة الكردينال ماذا صنع بشعري الذي سرقه بواسطة أحد المزينين، وقد كلفته هذه الدعابة غالياً، لأني طردته.

فقالت جانّ :

- أنت تفاجئينني يا صاحبة الجلالة ... ماذا ! الأمير دي روهان عمل ذلك ؟

- نعم ... وهي العبادة ، دائماً العبادة . فبعد أن استعمل في فيينّا كل الوسائل وحاول بكل الطرق أن يفسخ الزواج الذي كان مقرراً بين الملك وبيني ، جاء يوم وجد نفسه فيه أمام امرأة قد أصبحت ملكته . ورغم أنه دبلوماسي كبير ، فقد ارتكب خطأ لا يُمّحي في خصامه معي . إذ خشي هذا الأمير العزيز عل مستقبله ، فتصرف كما يتصرف كل رجال السياسة ، وذلك بالتودد الى الذين يخشونهم أكثر من غيرهم . وبما أني كنت صغيرة السن ، اعتقد بأني حمقاء ومغترتة ، فمثّل معي دور العاشق العذري ... فبعد التنهدات والتأوهات ، وبعد مظاهر الكآبة الحالمة ، ارتمى على قدميّ عابداً ، كما قلت . إنه يعبدني ، أليس كذلك يا أندريه ؟

فانحنت أندريه وقالت : سيدتي !

وأكملت الملكة تقول :

- نعم ... أندريه أيضاً لا تريد أن تعرّض نفسها . أما أنا ، فأريد أن أجازف . أريد على الأقل أن يكون في المملكة شيء صالح . أنا أعرف أيتها الكونتس كما تعرفين أنت ، بأن

الكردينال يعبدني ؟ هذا أمر متفق عليه . ولكن قولي له بأني لا أريد عبادته .

فأصابت هذه الكلمات المعبرة عن سخرية مريرة ، أعماق قلب جانّ دي لاموت الفاسد .

ولو كانت هذه المرأة نبيلة حقاً ، ومن دم ملكي نقي ، لما رأت سوى هذا الاحتقار المجرد من امرأة سامية المقام ، ذات روح عالية وخُلُق قويم . امرأة تترفع عن الصغائر وتأبى حتى الدفاع عن سمعتها التي كثيراً ما تناولتها بالتجريح ألسن أصحاب النوايا السيئة .

إلا أن جانّ ، ذات السليقة السوقية الفاسدة ، فسّرت غيظ الملكة على تصرف الكردينال دي روهان تفسيراً آخر ، إذ تذكرت الإشاعات المشينة التي انطلقت من قاعة الانتظار في القصر الملكي ، وربطت بينها وبين غضب الملكة .

فالكردينال دي روهان الذي يحب النساء من أجل جنسهن ، كان قد قال للملك لويس الخامس عشر الذي كان زميلاً له في هذا المضمار ، إن زوجة وليّ العهد امرأة غير كاملة ... والكل يعرفون العبارات الشاذة التي فاه بها لويس الخامس عشر أثناء حفلة زواج حفيده ، والأسئلة التي طرحها على بعض السفراء السذّج .

وجانّ دي لاموت، تلك المرأة الكاملة الأنوثة، والمتميزة بأمور كثيرة تثير اشتهاءات الرجال، جانّ التي كل همها أن تسحر الرجال وتنال إعجابهم، لا تستطيع الاعتقاد بأن هناك امرأة لا تفكر تفكيرها في هذه الأمور. لذا قالت في نفسها: «بما أن الملكة مغتاظة، فيجب أن يكون وراء هذا الغيظ شيء آخر ...».

واعتقاداً منها بأن الاحتكاك يولّد النور، أخذت تدافع عن الكردينال بكل ما أُوتيت من قوة، يدفعها الفضول الأنثوي لمعرفة هذا الشيء الآخر وراء غيظ الملكة. ولما رأت الملكة صاغية الى دفاعها، اطمأنت الى هذا الإصغاء واستبشرت خيراً...

إلا أن الكونتس المخدوعة بفضل طبيعتها السيئة، لم تلاحظ قط بأن إصغاء الملكة إليها لم يكن إلا تلطفاً وتأدباً منها، فاسترسلت في الدفاع وفي التحدث بإسهاب عن صفات الكردينال وشيمه. وبينما هي كذلك والملكة صاغية بهذه الروح الطيبة، دوّى في الغرفة المجاورة صوت فتيّ صاخب ودَعِب، فقالت الملكة:

– إنه الكونت دارتوا!

فنهضت أندريه على الفور، واستعدت جانّ للخروج. لكن الأمير دخل غرفة الملكة بأسرع مما هو منتظر، فبات

الخروج متعذراً تقريباً . ومع ذلك، فقد قامت الكونتس بحركة مسرحية ... إلا أن الأمير وقف مشدوهاً بهذه المرأة الجميلة وحيّاها ، فقدمت الملكة عند ذاك الكونتس الى الأمير بقولها :

- الكونتس دي لاموت !

فقال الكونت دارتوا :

- آه ! آه ! أرجو أن لا يكون حضوري سبباً لخروجك أيتها الكونتس .

وأشارت الملكة إشارة الى أندريه ، فأمسكت هذه بجانّ واستبقتها . وكان قصد الملكة من هذه الإشارة أن تقول : أريد أن أهب السيدة دي لاموت هبة ، وقد داهمني الوقت ، فلنؤجل ذلك إلى ما بعد .

ثم أعطت الملكة يدها الى شقيق زوجها على الطريقة الإنكليزية ، وقالت له :

- إذن ، لقد عدت من صيد الذئاب يا أخي .

فأجاب الكونت دارتوا :

- نعم يا شقيقتي ، وقد كان صيداً موفقاً ، إذ إني قتلت ستة ذئاب .

- أنت بنفسك قتلتها ؟

فقال وهو يضحك :

- ليس أكيداً ، ولكن هذا ما قالوه لي ... ثم هل علمت يا شقيقتي بأني ربحت ستماية ليرة ؟

- عجباً ! كيف ذلك ؟

- ذلك أن المبلغ المعين ثمناً لكل رأس من هذه الحيوانات المرعبة هو مئة ليرة . إنه مبلغ كبير ، ولكني مستعد بكل طيبة خاطر أن أدفع مئتي ليرة ثمناً لرأس صحافي ... ألا توافقينني يا شقيقتي ؟

فقالت الملكة :

- آه ! هل عرفت القصة ؟

- لقد رواها لي دي بروفانس .

فقالت ماري انطوانيت :

- يا له من راوية لبق ! هات إذن حدثنا ، كيف رواها لك ؟

- بشكل أظهرك أكثر بياضاً من فرو الفاقُم ، بل من فينوس، إلهة الحب والجمال . وهناك اسم آخر ينتهي بـ« ـلانة » ، باستطاعة العلماء معرفته ، أو أخي دي بروفانس مثلاً ...

- وماذا عن الصحافي ؟

- صحيح يا شقيقتي ، الصحافي ! ولكن جلالتك خرجت من هذه المغامرة محتفظة بشرفها ، ويمكننا القول

أيضاً، بأن البراءة شملت الجلسة المغناطيسية التي جرت في منزل ميسمار.

- آه! يا له من تلاعب مريع في الكلمات!

- لا تعاملي بالقسوة يا شقيقتي، مغامراً وضع سيفه وذراعه تحت تصرفك. من حسن الحظ أنك لست بحاجة الى أي شخص. آه! إنك فعلاً لسعيدة في ذلك أيتها الشقيقة العزيزة.

فقالت الملكة مندهشة:

- أنت تسمي ذلك سعادة! أسمعت يا أندريه؟

فأخذت جانّ تضحك والكونت ينظر اليها مشجعاً، ثم كرَّر قوله:

- نعم، هي سعادة. وبالنتيجة ستشتد هذه السعادة وتقوى، لأنه أولاً: السيدة دي لامبال لم تكن معك...

- لم تكن معي! إذن كنت وحدي؟

- ثانياً: إن السيدة دي لاموت، لم يصادف وجودها هناك لتمنعك من الدخول.

- آه! أنت تعرف بأن السيدة دي لاموت كانت هناك؟

- أوه! إن الكونت دي بروفانس عندما يروي قصة يا شقيقتي، فهو يرويها كاملة غير منقوصة. ومن المحتمل أيضاً بأن السيدة دي لاموت لم يصادف وجودها في فرساي

بالضبط كي تؤدي شهادة . مما لا شك فيه ، أنك ستقولين لي بأن الفضيلة والبراءة هما كالبنفسج الذي ليس بحاجة لأن يشاهد كي تعرف حقيقته . ولكن البنفسج يا شقيقتي ، يجمعونه ضمات عندما يرونه ، ويرمونه بعد أن يتنشقوه . هذا مبدئي !..

– أنه مبدأ جميل !

– إني أحكم على الأمور كما أراها ، وقد ثبت لي بأنك حظيت بسعادة .

– إن إثباتك خاطئ .

– أتريدين إثباتاً أفضل ؟

– هات ، ربما كان مجدياً .

فقال الكونت وهو يستدير كي يلقي بنفسه على « صوفا » بالقرب من الملكة :

– حسناً ! لن تكوني عادلة إن أنت اشتكيت من الثروة . لأنك قد تخلصت أخيراً من العمل الطائش الشهير في « الكبريوليه [١] ...»

فقالت الملكة وهي تعدّ على أصابعها : هذه واحدة .

– وتخلصت من جلسة ميسمار .

---

١ – عربة ذات عجلتين.

– لتكن، سأعدها: إثنان. وماذا بعد؟

فقدَّم الكونت فمه من أذنها وهمس يقول:

– وتخلصت من مشكلة الحفلة الراقصة.

فصاحت الملكة: أية حفلة راقصة؟

– حفلة الأوبرا يا شقيقتي.

وأخذ الكونت دارتوا يضحك، ثم تابع يقول:

– إنها لحماقة مني أن أكلمك على سرّ.

– سرّ! في الحقيقة إنك تحيرني يا أخي. حفلة راقصة في الأوبرا، وتعتبرها سراً!

فطرقت هذه الكلمات: «حفلة راقصة في الأبرا»، أذن جانّ، فضاعفت إصغاءها. وقال الأمير:

– أليس الصمت أجدى أيتها الشقيقة؟

– أبداً، أبداً، أريد معرفة كل شيء. فأنت قد تكلمت على حفلة رقص في الأوبرا، فما هي قصة هذه الحفلة؟

– أرجوك أن تعفيني يا شقيقتي.

– إني ألحُّ على معرفة ذلك أيها الكونت.

– وأنا ألحُّ على الصمت.

– هل تريد أن تحزنني؟

– أبداً، لكني أعتقد أن ما قلته كفاية لأن تفهمي المقصود.

- لم تقل شيئاً حتى الآن .

- أوه ! إنك أنت التي تحيرينني أيتها الشقيقة . فهل أنت جادَّة فيما تطلبين ؟

- إني لا أمزح ، وهذا كلام شرف .

- إذن ، تريدينني أن أتكلم ؟

- وبسرعة .

فقال بعد أن نظر الى جانّ وأندريه :

- دعي ذلك الى مكان آخر .

- هنا ! هنا ! حتى ولو كان العالم كله حاضراً .

- إني أحذرك يا شقيقتي .

- وأنا أريد المجازفة .

- حسناً ، ألم تكوني في حفلة الرقص الأخيرة في الأوبرا ؟

فصاحت الملكة :

- أنا !.. أنا في حفلة الأوبرا ؟!

- أرجوك أن تخفضي صوتك .

- أوه ! لقد تكلمت عالياً يا أخي ، لأن ذلك ... أتقول أنا ، كنت في حفلة الأوبرا الراقصة ؟

- نعم وبالتأكيد كنت .

فقالت الملكة بتهكم مرير :
- وقد تكون رأيتني أنت ؟
- نعم رأيتك .
- أنا ! أنا !
- أنت ! أنت !
- هذا كثير .
- وهذا ما قلته لنفسي .
- لماذا لا تقول بأنك كلمتني أيضاً ، فذلك أكثر طرافة ؟..
- في الواقع ، كنت على استعداد لأن أكلمك ، ولكنَّ موجة من المقنعين قد حالت بيني وبينك .
- أنت مجنون !
- كنت واثقاً بأنك ستقولين لي هذا القول . لذا كان عليَّ أن لا أعرّض نفسي ، إنها غلطتي .

فنهضت الملكة فجأة ، وخطت عدة خطوات في الغرفة وهي مهتاجة ...

وكان الكونت دارتوا ينظر إليها منذهلاً ، وأندريه ترتعش من الخوف والقلق . أما جانّ ، فقد غرست أظفارها في لحم يديها كي تحتفظ برباطة جأشها .

ثم توقفت الملكة وقالت للأمير الشاب :
- قل لي بجدية يا صديقي ، لأن طبعي لا يحتمل المزاح

كما رأيت . اعترف لي فوراً بأنك أردت أن تتلهّى على حسابي ، وسأكون جدّ سعيدة .

– إني أعترف لك بذلك ... إذا كنت تريدين يا شقيقتي .

– كن رزيناً يا شارل ، وقل لي : ألم تختلق هذه القصة ؟

فنظر الكونت دارتوا الى السيدتين ، وغمز بإحدى عينيه ، وقال :

– نعم ، لقد اختلقتها . فتكرمي وسامحيني .

فقالت الملكة بحدة :

– لم تفهمني يا أخي . فما أريده منك ، هو أن تقول نعم أو لا أمام هاتين السيدتين . هل ستتراجع عمّا قلت ؟ لا تكذب ، ولا تجاملني .

فاحتجبت أندريه وجانّ وراء ستارة « الغوبيلان » ، وقال الأمير بصوت منخفض :

– حسناً يا شقيقتي ، أتريدين الحقيقة التي لا غبار عليها ؟

– هذا ما أريده تماماً . فهل شاهدتني أنت في حفلة الأوبرا الراقصة ؟

– كما أراك الآن وترينني أنت !

فأطلقت الملكة صيحة جعلت أندريه وجانّ تسرعان إليها من الجهة الثانية للستارة ، وتحاولان تلطيف الجو المتكهرب

بينها وبين شقيق زوجها . فقالت لهما الملكة بلهجة المتهمة البريئة :

- أرأيتما ! إن الكونت دارتوا يؤكد بأنه شاهدني في الأوبرا ! أثبت !.. أثبت أيها الكونت .

فدمدمت أندريه : أوه !

وقال الأمير :

- إليك الإثبات : لقد كنتُ برفقة الماريشال دي ريشيليو ، والسيد دي كالون ، وآخرين غيرهما ، عندما سقط القناع عن وجهك ...

- القناع عن وجهي !!

- نعم ، ولقد خفت من هول المجازفة ، فتواريت مجرورة بالراقص الذي كان يتأبط ذراعك .

- الراقص !.. يا إلهي ! ستجعلني أجن .

فقال الأمير :

- ولقد كان مرتدياً « دومينو » أزرق ...

ففركت الملكة جبهتها بأصابع يدها ، وسألت :

- أي يوم كان ذلك اليوم ؟

- يوم سبت ، عشية ذهابي الى الصيد . ولقد كنت ما زلت نائمة في صباح ذلك اليوم الذي بدأت فيه رحلة الصيد ، فلم أتمكن أن أقول لك ما قلته الآن .

– يا إلهي ! يا إلهي ! في أية ساعة شاهدتني ؟

– بين الثانية والثالثة بعد منتصف الليل .

– حتماً ، يجب أن يكون أحدنا مجنوناً ... إما أنا ، وإما أنت .

– حاشاك ، قد أكون أنا المجنون ... وقد أكون انخدعت ... فضلاً عن ذلك ...

– ماذا ؟

– كنت أودّ الاعتقاد بأنك كنت برفقة الملك . لكن رفيقك كان يتكلم الألمانية ، والملك لا يحسن اللغة الألمانية !

فصاحت الملكة :

– ألماني !.. ألماني !.. أوه ! لديَّ برهان يدحض هذه التهمة يا أخي ، فيوم السبت ، أويت إلى فراشي في الساعة الحادية عشرة .

فقال الكونت وهو يبتسم :

– رويدك يا شقيقتي ، ولا تدعي الغضب يسيطر عليك . فأنا أودّ تصديقك ، ولكن هناك آخرون قد شاهدوك .

– آخرون ؟! آخرون ؟!

– نعم ، وقد شاهدوك كما شاهدتك أنا .

– إن كنت صادقاً فيما تقول ، فسمِّ لي هؤلاء الآخرين .

– حالاً وسريعاً ... فيليب دي تافرني ، كان هناك .

فصاحت اندريه : أخي !

فأجابها الأمير :

– نعم أيتها الآنسة . هل تودين أن نسأله يا شقيقتي ؟

– أريد ؟.. إني ألحّ .

ثمّ دمدمت أندريه : يا إلهي !

فالتفتت اليها الملكة وقالت : ماذا ؟

– أخي يستدعى للشهادة !..

– نعم ، نعم . أريد أن أستمع إليه .

وأصدرت الملكة أوامرها ، فأسرع الخدم يفتشون عن فيليب دي تافرني ، حتى عند والده . ولكن فيليب كان قد ترك والده بعد تلك المشاحنة التي جئنا على ذكرها ، فالتقوه في الطريق وبلّغوه رغبة الملكة .

فسار فيليب الذي انتصر في المبارزة على شارني ، والمستدعى لتأدية خدمة للملكة ، سار باتجاه قصر فرساي ، فرحاً فخوراً .

فما أن وقع بصر الملكة عليه ، حتى هبّت لملاقاته ، ووقفت أمامه قائلة :

– هل أنت جدير بقول الحقيقة يا سيد تافرني ؟

فأجاب فيليب :

– نعم يا مولاتي ، وإني غير جدير بأن أكذب .

- إذن ، تكلم ... تكلم بجرأة عمّا إذا ... عمّا إذا كنت قد شاهدتني في مكان عام منذ ثمانية أيام .

فأجاب فيليب بسلامة طوية :

- نعم يا سيدتي !..

فأخذت قلوب الحاضرين تخفق خفقاناً شديداً ... وقالت الملكة بصوت مضطرب :

- أين شاهدتني ؟

فصمت فيليب ولم يحر جواباً ... وتابعت الملكة تقول :

- أوه ! لا تجامل أبداً يا سيدي . فأخي الذي تراه هنا ، قال بأنه شاهدني في حفلة رقصٍ في الأوبرا . وأنت ، أين شاهدتني ؟

- حيث شاهدك مولاي الكونت دارتوا ، في حفلة الأوبرا يا سيدتي . فسقطت الملكة مصعوقة على « الصوفا ...» ، ثم نهضت بسرعة الفهد الجريح ، وقالت :

- هذا مستحيل ! لأني لم أكن في الأوبرا . خذ حذرك يا سيد دي تافرني ، فأنت تهين شرف ملكة فرنسا !

فقالت أندريه وقد اصفرت من شدة الغيظ :

- إنك تظلمين أخي يا صاحبة الجلالة . فهو إن قال بأنه شاهدك ، فهذا يعني أنه شاهدك .

فصاحت ماري أنطوانيت :

- أنت أيضاً ! أنت أيضاً ! لم يعد ينقص إلا شيء واحد ، هو أن تقولي أنت أيضاً بأنك قد شاهدتني . يا لحظي التعس ! إن كان لي أصدقاء يدافعون عني ، فإن لي أعداء يودون قتلي : شاهد واحد لم يؤدِّ شهادة حق أيها السادة !

فقال الكونت دارتوا :

- أنت تذكّرينني باللحظة التي رأيتك فيها وقد تأكد لي بأن « الدوّمينو » الأزرق لم يكن الملك . فقد اعتقدته ابن شقيقة السيد دي سيفران . بأيّ اسم كنت تنادينه ذلك الضابط الشجاع الذي قام بذلك العمل المجيد عندما رفع راية فرنسا فوق « السافار » ؟ لقد استقبلته خير استقبال في ذلك اليوم الذي اعتقدت فيه أنه فارس الشرف الذي خصصته بنفسك .

فاحمرت الملكة ... وعلا وجه أندريه اصفرار شبيه باصفرار الموت ، وأخذت الاثنتان تتناظران وترتعشان من منظريهما .

أما فيليب فقد غدا أدكن اللون ، وهمهم قائلاً :

- إنه السيد دي شارني .

فأكمل الكونت دارتوا قائلاً :

- دي شارني ! إنه هو . ألا توافقني يا سيد فيليب بأن

شكل ذلك « الدومينو » الأزرق يشبه بعض الشبه شكل السيد دي شارني ؟

فقال فيليب وقد كاد يختنق :

- لم ألاحظ يا مولاي .

فتابع الكونت دارتوا يقول :

- ولكن تبيَّن لي فوراً بأنه ليس السيد دي شارني ، لأن دي شارني مَثَل فجأة امام ناظريَّ ، إذ كان هناك بالقرب من السيد دي ريشيليو . تجاهك تماماً يا شقيقتي عندما سقط القناع عن وجهك ...

فصاحت الملكة وقد تخلَّت عن كل احتراس وتعقّل .

- وشاهدني ؟

فقال الأمير :

- على الأقل ، لم يكن ضريراً ...

فبدرت من الملكة حركة يأس ، ثم عادت تقرع الجرس من جديد ، فقال لها الأمير :

- ماذا تفعلين ؟

فأجابته :

- أريد أن استجوب السيد دي شارني أيضاً ، أريد أن أشرب الكأس حتى الثمالة .

فدمدم فيليب قائلاً :

– لا أعتقد أن السيد دي شارني موجود في فرساي .

فقالت الملكة : لماذا ؟

– أعتقد ، وهذا ما قالوه لي ، بأنه كان ... منحرف الصحة .

– آه ! إن الأمر يستوجب حضوره يا سيدي ، فأنا أيضاً منحرفة الصحة ، ومع ذلك ، فأنا مستعدة للذهاب الى أقاصي الدنيا حافية القدمين ، كي أثبت ...

فتقدم فيليب الممزق القلب من شقيقته أندريه التي كانت تنظر من النافذة المفضية الى الحدائق . وبدورها الملكة اقتربت منها وسألتها :

– ماذا يوجد ؟

– أبداً ، أبداً ... يقولون بأن السيد دي شارني مريض ، وها إني أراه .

فصاح فيليب وقد أسرع ينظر هو الآخر :

– قلت ، ترينه ؟

– نعم ، إنه بنفسه .

فنسيت الملكة كل شيء ، وفتحت النافذة على مصراعيها بنشاط غير اعتيادي ، ونادت بأعلى صوتها :

– مسيو دي شارني ! مسيو دي شارني !

فالتفت دي شارني ... ثم اتجه نحو القصر وقد امتلأ قلبه رعباً !

الملكة أمام التهم المتلاحقة

★

دخل دي شارني على الملكة تعلوه مسحة من الإصفرار، إلا أنه كان مستقيم المشية وخلوّاً من مظاهر المعاناة.

وعندما وقع نظره على هذه الجماعة الجليلة، اتخذ لنفسه مظهر الوقار المفروض أن يتجلى به رجل عسكري ومجتمعي مثله.

فقال الكونت دارتوا للملكة بصوت منخفض:

- يبدو لي أنك ستستجوبين الكثيرين من الناس.

فردت عليه الملكة قائلة:

- سوف أستجوب العالم كله، حتى أتوصل الى واحد يقول لي بأنك مخدوع.

في هذه الأثناء، كان شارني قد أبصر فيليب وحيّاه بلطف، فقال هذا الأخير الى خصمه بصوت يشبه الهمس:

- أنت فظٌّ فيما يتعلق بصحتك. فقد خرجت مجروحاً! ولكن في الواقع، أنت تريد أن تموت.

فأجابه شارني، وقد سرّه أن يردّ لعدوه وخزة إخلاقية أشدُّ ألماً من جرح السيف:

- إن أحداً لم يمت لأنه انخدش بعليقة في غابة بولونيا.

ثم تدخلت الملكة فوضعت حداً لهذا الغمز واللمز بقولها:

- هؤلاء السادة يا سيد دي شارني، يقولون بأنك كنت في حفلة الأوبرا الراقصة، فهل هذا صحيح؟

فانحنى شارني احتراماً وأجاب:

- نعم يا صاحبة الجلالة.

- قل لنا ماذا رأيت في هذه الحفلة.

- هل تقصد جلالتك، ماذا رأيت، أو من رأيت؟

- حتماً... من رأيت. ولست أريد كتماناً يا سيد دي شارني، ولا تحفظاً، ولا مجاملة.

- هل عليَّ أن أقول كل شيء يا سيدتي؟

فتبدل للمرة العاشرة منذ الصباح، احمرار خدي الملكة الشبيه باحمرار المحموم، باصفرار شبيه باصفرار المحتضر، وقالت:

- نعم... كل شيء... هل شاهدتني؟

– نعم يا صاحبة الجلالة ، وذلك في اللحظة التي سقط فيها قناعك ، لسوء الحظ .

فأخذت ماري انطوانيت تفرك بيديها ، وبعصبية ظاهرة ، دانتيلا الشال الملقى على كتفيها ، وقالت بصوت لم يفت الملاحظ النبيه أن الدموع كادت تطفر معه من عينيها :

– أنظر إليّ جيداً يا سيدي ، هل أنت متأكد ؟

– إن تقاسيم وجهك يا سيدتي ، محفورة في قلوب رعاياك كافة . فيكفي الواحد أن يشاهد جلالتك مرة ، حتى تبقى صورتك مطبوعة في مخيلته حتى الموت .

وهنا تطلّع فيليب بشقيقته أندريه ، فالتقت نظراته بنظراتها ، ووحدت هذه النظرات ألم الغيرة الموجع لدى الشقيقين .

ورددت الملكة وهي تقترب من شارني :

– أؤكد لك يا سيدي ، بأنني لم أكن في حفلة الأوبرا الراقصة .

فصاح الشاب وقد أحنى جبهته حتى كادت تلامس الأرض :

– أوه مولاتي ! ألا يحق لجلالتك أن تذهب الى حيث تراءى لها أنه مكان صالح ؟ ولنفترض أن هذا المكان هو

جهنم ، فإن جهنم ما أن تطأها قدماك حتى تصبح النعيم بذاته !

فقالت الملكة :

– أنا لم أطلب منك تبرير مسلكي ، بل رجوتك أن تصدق بأني لم أسلك هذا المسلك .

فأجاب شارني ، وقد تأثر حتى أعماق قلبه من إلحاح الملكة هذا ، ومن هذا التواضع تبديه امرأة مزهوة كثيرة الاعتداد بنفسها :

– إني على استعداد لأن أصدق كل ما تأمرني جلالتك أن أصدقه .

فهمهم الكونت دارتوا في أذن ماري انطوانيت ، قائلاً :

– شقيقتي ! شقيقتي ! هذا كثير ...

لأن هذا المشهد قد جمَّد كل الحضور : بعضهم بدافع الألم والحب أو الكبرياء المهانة، وبعضهم بدافع التأثر الذي يحثُّ عليه بصورة دائمة منظر المرأة المتهمة التي تدافع عن نفسها بشجاعة ضدَّ البراهين المفحمة .

فتهادت الملكة على مقعدها منهارة من شدة الغضب ، ومسحت بطرف إصبعها ، خفية ، أثر الدمعة التي أحرقها الكبرياء في طرف جفنها . ثم نهضت بسرعة وصاحت :

– سوف يصدقونه ! سوف يصدقونه !

فقال الكونت دارتوا بحنوّ:

- سامحيني يا شقيقتي! سامحيني! فأنت محاطة بأصدقاء مخلصين. وهذا السر الذي يرعبك فوق الحد، نحن وحدنا مطلعون عليه، ولن يستطيع أحد أن يستلّه من أعماق قلوبنا إلا إذا استلّ أرواحنا معه.

فصاحت الملكة مجدداً:

- السر!.. السر!.. آه! إني لا أقبل به.

فقال الكونت دارتوا: شقيقتي!

وقالت أندريه: هناك من يأتي يا مولاتي.

وقال فيليب بصوت بطيء: الملك يا مولاتي.

ثم صاح الحاجب في قاعة الانتظار.

- الملك.

فقالت الملكة:

- الملك! أهلاً بقدومه. إن الملك هو صديقي الوحيد. الملك لن يحكم عليّ كمذنبة، حتى ولو ثبت لديه بأني ارتكبت هفوة. أهلاً بالملك.

عند ذاك، دخل الملك ولاحظ فوراً البلبلة والاضطراب على الوجوه المحيطة بالملكة التي صاحت قائلة:

- لقد جئت في الوقت المناسب يا مولاي. فما زالت هناك فرية، بل إهانة تستوجب تدخلك.

فقال لويس السادس عشر وهو يتقدم :

- ما القصة ؟

- شائعة يا سيدي ، شائعة دنيئة تتناقلها الألسن . فساعدني ، ساعدني يا مولاي ، لأنهم ليسوا أعدائي الذين يتهمونني هذه المرة ، بل أصدقائي !

- أصدقاؤك ؟!

- نعم ، هؤلاء السادة . أخي، عفواً ! إن الكونت دارتوا ، والسيد دي تافرني ، والسيد دي شارني ، يؤكدون ، يؤكدون لي ، بأنهم شاهدوني في حفلة الأوبرا الراقصة .

فصاح الملك وقد قطّب ما بين حاجبيه :

- في حفلة الأوبرا الراقصة !

- نعم يا مولاي .

وخيّم الصمت المرعب على الجميع . فثبت للسيدة دي لاموت بعد أن رأت القلق مرتسماً على وجه الملك ، والصفرة الشبيهة بصفرة الموت تعلو جبين الملكة ، بأن كلمة واحدة منها ، باستطاعتها أن تقلب الموقف رأساً على عقب ، وأن تدحض كل الاتهامات ، وأن تنقذ مستقبل الملكة .

لكن قلبها المرتهن لمصلحتها ، لم يوافق على أن تقول هذه الكلمة ، لأن الوقت في نظرها لم يحن بعد ، لذلك بقيت صامتة .

وعندئذ ردَّد الملك سؤاله، وقد ظهر عليه الغمّ الشديد:

- في حفلة الأوبرا الراقصة؟ من قال هذا القول؟ هل الكونت دي بروفانس على علم بذلك؟

فصاحت الملكة بلهجة البريئة اليائسة:

- ولكن هذا ليس صحيحاً، هذا ليس صحيحاً. فالكونت دارتوا مخدوع، والسيد دي تافرني مخدوع، والسيد دي شارني مخدوع، أنتم كلكم مخدوعون أيها السادة.

فأحنى الجميع رؤوسهم، وعادت الملكة تقول بذات النبرة:

- هيّا! ليأت كل الناس، ليأت العالم كله، وليستجوب العالم كله. لقد كانت تلك الحفلة نهار سبت، أليس كذلك؟

فقال الكونت دارتوا:

- نعم يا شقيقتي.

- حسناً! ما الذي كنت أعمله يوم السبت؟ ليقولوا لي، في الحقيقة إني أكاد أجنّ، وإذا استمرَّ هذا الافتراء بهذا الشكل، أنا نفسي سوف أصدق بأني ذهبت الى هذه الحفلة الملعونة. ولكنني لو كنت ذهبت، لصارحتكم بذلك أيها السادة.

وفجأة تقدم الملك بصدر منشرح وابتسامة مشرقة، وقال معقباً على جواب أخيه الكونت دارتوا :

– لقد قلت السبت، أليس كذلك أيها السادة؟

فأجاب الكونت دارتوا :

– نعم يا أخي.

فتابع الملك يقول وقد ازداد سكينة :

– حسناً! ليس باستطاعة أحد سوى وصيفتك ماري أن تكشف الحقيقة كما هي، فهي ستتذكر ولا شك، في أية ساعة دخلت عليك في ذلك اليوم. أما أنا، فأعتقد بأني دخلت حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً.

فصاحت الملكة وقد رقص قلبها فرحاً :

– آه! نعم يا مولاي.

وارتمت بين ذراعيه ... ثم انتبهت لنفسها فجأة، فاحمرت حتى أذنيها وخبأت وجهها في صدر الملك، الذي أخذ يقبّل بحنوّ شعرها الجميل.

ثم قال الكونت دارتوا وقد ضعضعته المفاجأة وملأ الفرح قلبه :

– إن هذا المشهد أيها السادة يساوي مليوناً من الليرات.

في تلك الأثناء، كان فيليب مسنداً ظهره الى زخارف الغرفة وقد غدا باصفراره كأنه قائم من بين الأموات. بينما كان شارني يمسح بهدوء العرق المتصبب من جبهته...

فقال الملك وقد سرّه وشدّد من عزيمته حصوله على هذه النتيجة:

– أرأيتم لماذا أيها السادة من المستحيل أن تكون الملكة قد حضرت في تلك الليلة حفلة الرقص في الأوبرا؟ يسرني أن تكونوا قد اقتنعتم، كما يسرني أن تكون الملكة قد اقتنعت هي الأخرى بما قلته.

وأضاف الكونت دارتوا:

– نعم لقد اقتنعنا يا مولاي، وعلى الكونت دي بروفانس أن يفكر ما يشاء. ولكني أتحدى زوجته بأن تثبت براءتها بذلك الشكل، يوم اتهموها بأنها قضت الليل خارج مخدعها الزوجي.

فصاح الملك:

– أخي!..

– مولاي، إني أقبّل يديك!

فقال الملك بعد أن قبّل الملكة القبلة الأخيرة:

– سوف نخرج سوية يا شارل.

وقالت الملكة بقسوة :

– وأنت يا سيد تافرني، ألا تريد أن ترافق الكونت دارتوا ؟

فانتفض فيليب واقفاً وقد غلى الدم في عروقه وصبغ الاحمرار وجهه وشعر بأن الأرض تدور حوله. وبالكاد استطاع أن يحيي، وينظر الى أندريه، ويرشق شارني بنظرة مرعبة، ويكظم ألمه الموجع وحزنه الشديد... ثم خرج.

واحتفظت الملكة بالقرب منها بأندريه والسيد دي شارني.

في هذه الحالة، وجدت أندريه نفسها بين أخيها والملكة، وبين تعاطفها وغيرتها. ولا يمكننا أن نلخص موقفها، دون أن نخفف من سير المشهد المأسوي الذي توصل الملك فرحاً الى حلّ عقدته.

مع ذلك، ليس هناك ما يستحق أن يُلفت نظرنا سوى عذاب هذه الشابة التي كانت تشعر بأن فيليب قد بذل حياته كي يمنع الملكة من أن تبقى وجهاً لوجه مع شارني. وقد شعرت اندريه بانسحاق قلبها لأنها لم تلحق بفيليب وتؤاسيه كما كان يتوجب عليها أن تفعل. ولكنها لو تبعته وتركت شارني مع السيدة دي لاموت والملكة، لشعر شارني بحرية تفوق حريته فيما لو بقي وحده مع الملكة. والسبب في اعتقادها هو الجو العائلي المتواضع الذي خلقه وجود جانّ.

فكيف يمكننا أن نفسّر شعور أندريه دي تافرني هذا؟

هل هو بدافع الحب؟ ولكن الحب في رأيها لا يتكون ويكبر بهذه السرعة في جو البلاط البارد عاطفياً. الحب، تلك الغرسة النادرة، يطيب لها أن تُزهر في القلوب النبيلة الطاهرة. أما القلب المدنس بالذكريات، فلا يمكن للحب أن تنبت له أصول فيه. لا، ليس الحب هو ما كانت تشعر به الآنسة دي تافرني تجاه السيد دي شارني. فهي ترفض بقوة مثل هذه الفكرة، لأنها كانت قد أقسمت بأنها لن تحب أحداً على الاطلاق في هذا العالم.

إذن لماذا تألمت بهذا المقدار عندما وجّه دي شارني الى الملكة بعض عبارات الاحترام والإخلاص؟ بالتأكيد، كان ذلك بدافع الغيرة.

نعم، إن أندريه أقرت بينها وبين نفسها بأنها كانت غيورة، ولكن ليس من الحب الذي باستطاعة إنسان أن يشعر به تجاه امرأة سواها، بل غيورة من المرأة التي باستطاعتها أن توحي بهذا الحب وتجيزه وتقطف ثماره.

كانت أندريه تنظر بكآبة الى العشاق الوسماء في البلاط. هؤلاء العشاق الأقوياء المملوئين نشاطاً وحيوية والذين لم يفهموها، فكانوا يبتعدون عنها، بعضهم لأن برودتها لا تتفق مع فلسفة الحياة، وبعضهم لأن هذه البرودة كانت غريبة

تتناقض مع الخفة المتأصلة للبيئة التي أبصرت فيها النور اندريه دي تافرني .

ثم إن الرجال ، سواء الذين يسعون منهم وراء اللذة أو الذين يحلمون بالحب ، ينفرون من برودة امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها ، جميلة وغنية ومحظية ملكة ، ومع ذلك فهي تسير وحدها جامدة ، صامتة صفراء ، في طريق يضج بالفرح والسعادة .

فاندريه رغم جمالها ، كانت ترى عيون الباحثين عن الغرام تتحول رويداً رويداً عن هذا الجمال ، حتى غدا هذا الزهد بها ، عادة لدى القدماء منهم ، وميلاً فطرياً لدى الجدد . ومن كان يحييها منهم ، كان يكتفي بالتحية ليستدير مبتسماً لغيرها إتماماً لواجبه ...

كل هذه الأمور لم تكن تخفى على بصر الشابة الجميلة المهملة . فالآنسة دي تافرني التي كابد قلبها كل صنوف العذاب ولم يعرف واحدة من الملذات ، والتي كانت تشعر بأن العمر يتقدم بها نحو الهموم والذكريات السوداء ، كانت تستعرض اللذات المقدمة بسخاء الى عشاق فرساي السعداء ، ثم تقول متنهدة بمرارة قائلة :

– وأنا !.. وأنا يا إلهي !

فعندما التقت شارني ذلك المساء البارد جداً ، وعندما رأت عينيه تتوقفان بفضول عليها وتلفانها شيئاً فشيئاً بهالة من الجاذبية العذبة ، نسيت كل ما لحق بجمالها من إهانات وإهمال ، وغدت أمام هذا الرجل امرأة بكل معنى الكلمة . فلقد أيقظ شباب شارني شبابها ، وجعل من وجهها المرمري الشبيه بوجه ديانا إلهة الصيد ، يحاكي الورد في احمراره ...

لهذا السبب ، لم تلحق أندريه بفيليب الى خارج غرفة الملكة ، مع أن الإهانة التي وجهت اليه قد آلمتها جداً ، ومع أن هذا الأخ ، كان بالنسبة إليها كمعبود ، كان حبها الوحيد تقريباً . لم تلحق به لأنها خشيت على حلمها الذي بالكاد خرج من الباب الذهبي ، أن تنتزعه منها امرأة أخرى .

والآنسة دي تافرني التي لم تشأ أن تبقى الملكة وجهاً لوجه مع شارني ، لم تفكر بأن تكون لها حصتها في المحادثة بعد صرف أخيها . لذا جلست على زاوية المدفأة وأدارت ظهرها تقريباً الى المجموعة التي كانت مؤلفة من الملكة الجالسة ، وشارني الواقف والمنحني نصف انحناءة ، والسيدة دي لاموت التي كان خجلها الكاذب يفتش عن ملاذّ ، بينما كان فضولها الحقيقي يفتش عن التصرف الذي يرضيه في هكذا موقف ، ويجعلها تعير انتباهها لكل شاردة وواردة .

وبقيت الملكة صامتة عدة دقائق لم تعرف خلالها كيف

تستأنف الحديث . وبدا شارني متألماً ، فلم يرق الملكة مظهره الحزين .

وأخيراً قطعت ماري انطوانيت حبل الصمت فجأة ، وقالت معبرة عما يجول في رأسها ورؤوس الآخرين :

– هذا يثبت بأنه لا ينقصنا الأعداء. فهل كان أحد يتصور بأنه ستجري هكذا أمور حقيرة في بلاط فرنسا يا سيد دي شارني ؟

فبقي دي شارني صامتاً ولم يجاوب ، وأكملت الملكة تقول :

– كم هي سعيدة الحياة على سفينتك في عرض البحر وتحت قبة السماء! إن ساكني المدن يحدثوننا عن غضب الأمواج العاتية . ولكن أنظر الى نفسك يا سيدي! ألم تعترضك الأمواج الثائرة في الاوقيانوس؟ ألم يحدث أن انقضّت هذه الأمواج على سفينتك حتى كادت تبتلعها؟ لقد حدث لك ذلك كثيراً ولا شك ، ومع هذا ، فأنت ما تزال سالماً ، وفتياً ، ومكرماً .

فقال دي شارني : سيدتي !

وتابعت الملكة تقول وقد أخذت تستعيد نشاطها تدريجياً :

– وهل الانكليز لم يصبوا عليك جام غضبهم بوابل من قنابلهم الملتهبة القاتلة ؟ بلى ، لقد فعلوا ، ومع ذلك فها أنت

قويّ معافى. وبسبب غضب الأعداء هذا الذي انتصرت عليه، هنأك الملك ولاطفك، وغدا اسمك بين الشعب محبوباً ومبجلاً.

فهمهم شارني وقد خشي من هذا الانفعال الذي وتّر أعصاب ماري انطوانيت:

- سيدتي! سيدتي!

فقالت الملكة:

- مهما يكن من أمر، فليتبارك أعدائي الذين رموني بسهامهم، والذين قذفوني بأمواجهم المزبدة. ليتبارك هؤلاء الأعداء الذين لا يخشون غير الموت.

فقال شارني:

- يا إلهي! ليس لجلالتك أعداء يا سيدتي. فهؤلاء ليسوا سوى حيات بالنسبة للنسر. إن كل ما يزحف وهو ملتصق بالأرض، لا يزعج أولئك الذين يحلقون فوق الغيوم.

فأسرعت الملكة للردّ عليه بقولها:

- سيدي، أنت كما أعهدك، قد عدت سالماً سليماً من المعركة، كما أنك خرجت من الزوبعة سالماً معافى. لقد خرجت منتصراً محبوباً، بينما أولئك الذين عدوهم منهم وفيهم، كما هي حالنا، وهذا العدو نمّام قذر السمعة وجارح الكلام، فهؤلاء، صحيح أنهم لا يتوقون الى المجازفة بالحياة،

لكنهم يبدون أكبر سناً بعد كل زوبعة، ويعتادون على تعفير الجباه، خوفاً من أن يواجهوا، كما حدث لي اليوم، الإهانة المزدوجة من الأصدقاء والأعداء على حدٍ سواء، تلك الإهانة المركزة على هجوم واحد. ثمّ لو تعلم يا سيدي، كم هو صعب أن يكون المرء مكروهاً!

فانتظرت أندريه بقلق جواب الشاب، وقدرت بأنه سيكون معبّراً عن التعزية المحبة التي يبدو أن الملكة قد توسلتها.

لكن شارني لم يجاوب إطلاقاً، بل مسح بمنديله العرق المتصبب من جبهته، وارتمى على أريكة مرتبكاً أصفر اللون...

فنظرت اليه الملكة وقالت:

- أليس الحر شديداً هنا؟

ففتحت السيدة دي لاموت النافذة بيدها الصغيرة، وقالت بعد أن تنشق دي شارني الهواء بملء رئتيه:

- إن السيد معتاد على هواء البحر، لذا يشعر بالاختناق في قاعات فرساي الصغيرة بالنسبة إليه.

فأجابها شارني قائلاً:

- ليس هذا هو السبب يا سيدتيّ، ولكن لديَّ خدمة بعد ساعتين، إلا إذا أمرت الملكة ببقائي...

فقالت الملكة :

– أبداً يا سيدي ، فنحن نقدر أهمية حجز الحرية ، أليس كذلك يا أندريه ؟

ثم استدارت نحو شارني ، وبلهجة لاذعة بعض الشيء ، قالت :

– أنت حرّ يا سيدي .

وأشارت له إشارة تؤذن بالانصراف . فحيًّا شارني تحية الرجل المسرع ، واختفى وراء الستارة الفخمة .

وبعد ثوانٍ معدودات ، طرق مسامع الحضور ما يشبه الأنين في غرفة الانتظار ، تلته جلبة أشخاص مسرعين . وكانت الملكة ما زالت قرب الباب ، إما اتفاقاً ، وإما لأنها شاءت أن تلاحق بعينيها شارني الذي لم يكن انسحابه بهذه السرعة منتظراً . فرفعت الستارة ، وأطلقت صرخة خافتة ... وبدت كأنها مستعدة للوثوب .

لكن أندريه التي لم تفارقها بنظرها ، كانت ، بوقفتها ، حائلاً بينها وبين الباب ... وقالت :

– أوه ! سيدتي !

وتطاولت السيدة دي لاموت برأسها . وكان بين الملكة وأندريه فرجة صغيرة ، استطاعت الملكة من خلالها أن ترى دي شارني فاقداً وعيه ، وقد أسرع الخدم والحراس الى نجدته .

وبعد أن رأت الملكة الحركة التي قامت بها السيدة دي لاموت، أغلقت الباب بسرعة.

ولكن إغلاق الباب جاء متأخراً، فقد رأت السيدة دي لاموت كل شيء.

مشت ماري انطوانيت ساهمة متجهمة الوجه، وجلست في مقعدها فريسة الهم الذي ينتج عن التأثر الشديد.

وأندريه من جهتها، مع أنها بقيت واقفة ومستندة الى الحائط، لم تقلَّ عن الملكة سهوماً وشرود فكر.

فكانت برهة من الصمت... قالت بعدها الملكة فجأة وبصوت مرتفع:

- إنه لأمر غريب! فإن السيد دي شارني ما زال يشك كما يبدو لي...

فارتعشت رفيقتا الملكة من هذا الكلام غير المنتظر، وسألت أندريه:

- بأي شيء يشك يا سيدتي؟

- يشك ببقائي في القصر ليلة تلك الحفلة الراقصة.

- أوه! سيدتي!

فقالت الملكة:

- أليس كذلك أيتها الكونتس، ألست على صواب في قولي بأن السيد دي شارني ما زال يشك؟

فقالت أندريه .

– بعد كلام الملك يا سيدتي ؟! أوه ! ذلك مستحيل !

– ربما اعتقد بأن الملك قد هبَّ لنجدتي بدافع حبه لي .

أوه ! لا ، إنه لم يصدق ! إنه لم يصدق ! وهذا ظاهر عليه .

فأخذت أندريه تعضّض شفتيها ... ثم قالت :

– إن أخي ليس أبداً مشككاً كالسيد دي شارني ، وقد تبيَّن جلياً بأنه اقتنع كل الاقتناع .

فلم تسمع الملكة إطلاقاً جواب أندريه ، وتابعت تقول :

– أوه ! إن ذلك مؤسف . وفي هذه الحالة ، لا يكون ذلك الشاب أبداً طاهر القلب عادلاً ، كما كنت أعتقده .

قالت هذا وضربت بيديها الاثنتين على جانبي مقعدها وصاحت تقول :

– بعد اعتبار الأمر من كل جهاته ، ثبت لي أن هناك شيئاً خفياً وراء كل ذلك ، طالما أن كلام الملك لم يقنعهم بأنهم مخدوعون ، بل تظاهروا بأنهم اقتنعوا . وبات علي أن أكتشف هذا السر الغامض ، أليس كذلك يا أندريه ؟

فقالت أندريه :

– إن جلالتك على حق يا سيدتي ، وأنا متأكدة بأن السيدة دي لاموت من رأيي . فهي تفكر تفكيرك ، ومثلك ستسعى لاكتشاف الحقيقة. أليس كذلك يا سيدتي ؟

فارتعشت السيدة دي لاموت أمام هذا السؤال المفاجئ، ولم تجاوب. وأكملت الملكة تقول:

- لأنه فيما بعد، سوف يقولون بأني كنت عند ميسمار.

فأسرعت السيدة دي لاموت الى القول:

- ولكن جلالتك كانت هناك.

فأجابت الملكة:

- نعم، كنت. ولكني لم أفعل شيئاً مما ذكره المقال الهجائي. ثم هم يقولون بأنهم شاهدوني في الأوبرا، وأنا ما كنت إطلاقاً في الأوبرا.

وبعد أن أطرقت ماري انطوانيت مفكرة، صاحت فجأة تقول:

- لقد اهتديت الى الحقيقة.

فقالت الكونتس بصوت متهدج:

- الحقيقة؟

وقالت أندريه:

- أوه! عظيم!

وقالت الملكة بسرور موجهة كلامها الى السيدة دي ميزيراي التي دخلت في تلك اللحظة:

- ليأتوني بالسيد دي كروسن.

السيد دي كروسن

★

كان السيد دي كروسن رجلاً في غاية التهذيب ، لذا وجد نفسه في حيرة ما بعدها حيرة بعد التفسيرات التي شرحها الملك والملكة .

وليس من السهل معرفة أسرار امرأة معرفة تامة ، خاصة إذا كانت هذه المرأة ملكة تستوجب سمعتها المراعاة ، حفاظاً على مصالح المملكة .

ورغم الحمل الثقيل الذي شعر دي كروسن بأنه ملقى على كتفيه ، ورغم غضب الملكة وسخطها ، بقيت له الشجاعة الكافية لأن يردَّ الطعنات عن صدره بكياسته المعروفة والتي كانت أفضل درع واقية له .

فدخل على الملكة والبسمة على شفتيه . فقالت له الملكة دون أن تبتسم :

– تفضل يا سيد دي كروسن ، لقد جاء دورنا في إبداء الرأي .

- أنا رهن أوامر جلالتك .

- عليك أن تعلم السبب في كل ما حدث لي يا حضرة قائد الشرطة .

فالتفت دي كروسن الى ما حواليه بشيء من الرعب ، وتابعت الملكة تقول :

- لا تقلق إطلاقاً ، فأنت تعرف تماماً هاتين السيدتين ، أنت تعرف كل الناس .

- تقريباً ، أنا أعرف الأشخاص وأعرف تصرفاتهم ، لكنني لم أعرف المقصود من كلام جلالتك .

فأجابت الملكة وقد أغاظها هدوء ضابط الشرطة .

- سوف أفهمك هذا المقصود . من المفروغ به أن باستطاعتي إطلاعك على سري بصوت منخفض أو على انفراد ، كما يفعل الغير . لكنني خلقت كي أتصرف في وضح النهار وكي أقول كلمتي بالصوت القوي الرنان . أنا أعتقد يا سيد دي كروسن ، أن التصرفات المنسوبة إليّ قد قامت بها امرأة تشبهني، وشبه هذه المرأة قد خدعك وخدع عملاءك فظننتموها الملكة .

فصاح دي كروسن :

- امرأة تشبه جلالتك !

- هل تجد أن هذا الافتراض مستحيل ، يا حضرة قائد

الشرطة؟ هل يروق لك أن تعتقد بأني مخدوعة، أو بأني أخدعك؟

- أنا لم أقل ذلك يا سيدتي، ولكن مهما كان الشبه كبيراً بين أية امرأة وبين جلالتك، لا بدَّ أن يبقى هناك فارق ما، تستطيع العين البصيرة أن تميِّزه.

- إن التشابه كثيراً ما يخدع يا سيدي، وقد انخدع الكثيرون فعلاً.

فقالت أندريه:

- وباستطاعتي يا صاحبة الجلالة أن أقيم الدليل على صحة اعتقادك. فعندما كنا نقطن في «تافرني - مازون - روج»، مع والدي، كانت لدينا خادمة، ومن غريب الصدف أن هذه الخادمة...

- كانت تشبهني!

- أوه! غاية الشبه يا صاحبة الجلالة.

- وماذا حلَّ بها؟

- عندما جئنا الى تريانون، خشي والدي أن يزعج هذا الشبه الملكة، فكان يخبئ هذه الخادمة عن أعين أهل البلاط...

- آه! آه! أسمعت يا سيد دي كروسن؟ إن ذلك يفيدك.

- كثيراً يا سيدتي .

فقالت الملكة موجهة كلامها الى أندريه :

- أكملي يا عزيزتي أندريه ، ماذا جرى لتلك الخادمة فيما بعد ؟

- لقد كانت هذه الخادمة يا سيدتي ، فتاة طموحاً متمردة ، فأبت أن تبقى هكذا محجوزة الحرية . لذا ، وهذا أمر لا يحتمل الشك ، أقامت علاقة مشبوهة مع أحد الشبان . فعندما أويت الى سريري مساء أحد الأيام ، تفاجأت بعدم وجودها ، فأخذنا نفتش عنها ، ولكن عبثاً ، فقد اختفت تلك الخادمة نهائياً .

- وهل سرقت لك شيئاً قبل اختفائها ؟

- لا يا سيدتي ، لم أكن أملك شيئاً يستحق السرقة .

بعد هذا الحوار الذي أصغت اليه جانّ دي لاموت بانتباه ملحوظ ، سألت الملكة دي كروسن :

- ألست على علم بكل ذلك يا سيدي ؟

- لا يا سيدتي .

- هكذا ، امرأة تشبهني هذا الشبه المدهش ، وأنت لا تعلم ؟ هكذا ، حادث بهذه الأهمية يجري في المملكة وينتج عنه بلبلة وتشويش ، وأنت آخر من يعلم ؟ هيّا ، ألا تعترف يا سيدي ، بأن سلك الشرطة سلك فاسد ؟

- أؤكد لك أن لا يا سيدتي . ولكن جلالتك التي مقامها فوق مقامي في هذا الكوكب الأرضي ، تعلم جيداً بأن ولاة الملك ليسوا سوى بشر ، وأن هناك أحداثاً غريبة ، بالكاد يستطيع الذكاء البشري أن يفهمها .

فقالت الملكة :

- عندما تتوفر للرجل كل الامكانيات التي تتيح له حتى معرفة أفكار الآخرين ، وعندما يكون لديه العملاء والجواسيس والمال ، وعندما يستطيع بواسطة جواسيسه حتى أن يسجل علي حركاتي أمام المرآة ، فهذا الرجل إن لم يكن سيد الأحداث ...

- سيدتي ، عندما أمضت جلالتك الليل خارج جناحها ، علمت ، وكانت شرطتي غير فاسدة . في ذلك اليوم ، ذهبت جلالتك الى منزل السيدة التي أمامي ، في شارع سان كلود ، وقد علمت ، وكانت الشرطة غير فاسدة . وعندما ظهرت في جلسة ميسمار المغناطيسية مع السيدة دي لامبال ، علمت ، وكانت شرطتي غير فاسدة . وعندما ذهبت الى الأوبرا ...

فانتفضت الملكة تودّ الاعتراض ، فقال لها قائد الشرطة .

- أرجوك سيدتي أن تتركيني أكمل . ان رجال الشرطة اعتقدوا بأنهم رأوك ، والشرطة كانت بحالة جيدة في ذلك اليوم . وإذا قالت سيدتي بأن رجالي لم يلاحقوا قضية

الصحافي ريتو كما يجب ، فإني أقول لها بأن ريتو المذكور قد نال نصيبه من السيد دي شارني .

فصاحت الملكة وأندريه معاً :

- نال نصيبه من دي شارني ؟!

- إن الحادث لم يمض عليه وقت طويل يا سيدتي ، وضربات العصا ما زالت ساخنة على كتفي الصحافي .

- السيد دي شارني عرَّض نفسه مع هذا الشقي ؟

- أنا لم أعلم ذلك إلا من شرطتي ، المفترى عليها يا سيدتي ، وأنت توافقينني بأن هذه الشرطة يلزمها بعض الذكاء كي تكتشف المبارزة التي تلت ذلك العمل .

فصاحت الملكة :

- مبارزة مع السيد دي شارني ! السيد دي شارني تقاتل !

وسألت أندريه بحمية :

- مع الصحافي ؟

- أوه ! لا يا سيدتي . فالصحافي الذي أُشبع ضرباً ، لم يكن جديراً بأن يسدد للسيد دي شارني طعنة السيف التي كان يتألم منها في غرفة الانتظار .

فصاحت الملكة مجدداً :

- جريح ! هو جريح ! ولكن متى حدث ذلك ؟ وكيف ؟ إنك مخدوع يا سيد دي كروسن .

– أرجو جلالتك أن تعفيني من كلمة « مخدوع » هذه المرة .

– ولكنه كان هنا منذ قليل .

– أعرف جيداً .

فقالت أندريه :

– إن السيد دي كروسن على حق يا سيدتي ، فأنا قد لاحظت جيداً بأنه كان يتألم .

تلفظت أندريه بهذه الكلمات بشكل اكتشفت فيه الملكة عملاً عدوانياً ، فاستدارت بسرعة نحوها وسألتها :

– ماذا تقولين ؟ لقد لاحظت بأن السيد دي شارني يتألم ، ولم تقولي !

فلم تجاوب أندريه . إلا أن جانّ التي شاءت أن تجعل من محظية الملكة صديقة لها ، هبت لنجدتها بقولها :

– وأنا أيضاً يا سيدتي ، لاحظت بأن السيد دي شارني كان يقف بصعوبة طوال الوقت الذي شرَّفته جلالتك بالسماح له بالكلام .

فقالت أندريه المزهوة بنفسها ، والتي لم تشكر الكونتس ولو بنظرة :

– نعم ، بصعوبة !..

أما السيد دي كروسن، فقد كان يستمع الى النساء الثلاث مستمتعاً، الى أن قالت له الملكة أخيراً:

- مع من، ولماذا، السيد دي شارني تبارز؟

- مع نبيل كان ... ولكن، يا إلهي! من غير المفيد يا سيدتي في الوقت الحاضر... إن الخصمين من قوة الذكاء، بحيث أنهما كانا قبل قليل يتحدثان سوية أمام جلالتك!

- أمامي ... هنا؟!

- نعم، هنا ... وقد خرج المنتصر أولاً، ربما منذ خمس عشرة دقيقة. فصاحت الملكة وقد التمعت عيناها ببريق الغضب الشديد:

- السيد دي تافرني!

ودمدمت أندريه متظاهرة بما يخفي حقيقة نفسها:

- أخي!

فقال السيد دي كروسن:

- أعتقد بأنه كان فعلاً السيد فيليب دي تافرني، الشخص الذي تبارز معه السيد دي شارني.

فضربت الملكة بعنف كفاً بكف دليل غضبها الذي بلغ أقصى حدّه، وقالت:

- إن ذلك لعمل وقح ... وقح! ماذا!... هل الأخلاق الأميركية نُقلت الى فرساي؟ أوه! لا، لن أسمح بذلك أبداً.

فأخفضت أندريه رأسها، وكذلك فعل السيد دي كروسن، وتابعت الملكة تقول:

- بمجرد أن البعض قد ذهب الى اميركا واشترك مع لافاييت في حرب التحرير الاميركية، يريد أن يُرجع بلادي الى القرن السادس عشر! لا، ومرة ثانية لا، لن أقبل، وعليك يا أندريه أن تعلمي بأن شقيقك قد سلك سبيل التقاتل.

فأجابتها أندريه:

- إني أعلم ذلك يا سيدتي.

- لماذا تقاتل إذن؟

- علينا أن نطرح هذا السؤال على السيد دي شارني، فهو الذي تقاتل معه.

فقالت الملكة بكبرياء:

- أنا لم أسأل ما الذي عمله السيد دي شارني، بل ما الذي عمله فيليب دي تافرني.

فأجابت أندريه وقد أخذت لهجتها تخف رويداً:

- إذا كان أخي قد تقاتل، فربما تقاتل من أجل مصلحة جلالتك.

- وهل تعتقدين بأن السيد دي شارني، لم يتقاتل هو الآخر من أجل مصلحتي يا آنسة؟

فردت أندريه بذات اللهجة :

– لي الشرف بأن ألفت انتباه جلالتك ، الى أني تحدثت عن الملكة فيما يتعلق بأخي ، وليس بشخص آخر .

فأجهدت ماري انطوانيت نفسها الى أن عادت الى كامل هدوئها ، وقد كانت ذات مقدرة فائقة في ضبط الأعصاب ، ثم نهضت ودارت عدة دورات في الغرفة ، توقفت في خلالها قليلاً أمام المرآة تنظر الى نفسها ، ثم تناولت كتاباً من درج مُبرنق ، قرأت فيه سبعة أو ثمانية أسطر ، ورمته وقالت الى قائد الشرطة :

– شكراً يا سيد دي كروسن ، لقد أفحمتني . فرأسي كان مشوشاً قليلاً بسبب هذه التقارير وهذه الافتراضات . نعم ، إن شرطتك هي على ما يرام يا سيدي ، ولكن أرجوك أن تفكر بهذا الشبه الذي كلمتك عليه ، أليس كذلك يا سيدي ؟ إلى اللقاء .

قالت الملكة ذلك ومدت يدها الى ضابط الشرطة مبرهنة عن عفوها السامي ، فخرج دي كروسن وقد غمر السرور فؤاده .

وشعرت أندريه بالتعبير الخاص الذي أعطته الملكة لعبارة « الى اللقاء » ، فانحنت معبرة عن احترامها العميق على

الطريقة الاحتفالية ، فقالت لها الملكة «إلى اللقاء» بلا مبالاة ، ولكن بدون أية ضغينة ظاهرة .

أما جانّ دي لاموت ، فقد انحنت بخشوع كأنها أمام هيكل مقدس ، وتهيأت للإستئذان بالخروج . إلا أن السيدة ميزيراي دخلت في تلك اللحظة وقالت للملكة :

– ألم تمنح جلالتك السيدين بوهمير وبوسانج مقابلة ؟

– آه ! صحيح أيتها الطيبة ميزيراي ، ليدخلا . إبقي أيضاً أيتها السيدة دي لاموت ، فإني أريد أن يصالحك الملك مصالحة تامة .

قالت الملكة هذه الكلمات وهي تراقب ببرودة ما ارتسم على وجه أندريه من تعبير ، بينما كانت هذه الأخيرة تسير ببطء نحو باب الغرفة الواسعة .

فربما كانت تريد إثارة غيرتها بتفضيلها المحظية الجديدة عليها .

إلا أن أندريه ، اختفت وراء الستارة الأنيقة وكأن الأمر لا يعنيها ، مما جعل الملكة تتنهد وتقول :

– فولاذ ! فولاذ ! نعم فولاذ هذان التافرنيان ، بل ذهب أيضاً !

ثم انتبهت فجأة الى السيدين بوهمير وبوسانج ، فأردفت تقول :

آه ! صباح الخير يا سيديَّ الصائغين . ماذا تحملان إلي من جديد ؟ ولكنكما تعلمان جيداً بإنه ليس لدي دراهم .

إنها امرأة !

★

عادت السيدة دي لاموت إلى معقدها البعيد عن الملكة وجلست فيه كامرأة لها الحق بأن تصغي وتسمع بعد أن سمحت لها الملكة بالبقاء .

وكان السيدان بوهمير وبوسانج قد جاءا لمقابلة الملكة بالملابس الرسمية ، فأخذا يتقدمان نحو مقعدها بانحناءات متواصلة بعد أن كانا قد وقفا عند الباب بانتظار السماح لهما بالتقدم .

وبعد أن جلسا بكل خشوع واحترام ، بادرتهما الملكة بقولها :

– إن الصاغة لا يأتون إلي إلا للتحدث عن الجواهر ، ولكن خاب فألكما أيها السيدان .

فأجاب بوهمير ، وقد كان الشريك الأكثر فصاحة :

– نحن يا مولاتي ، ما جئنا أبداً كي نعرض بضاعة على جلالتك ، خشية أن نتَّهم بالتطفل .

فأجابت الملكة وقد ندمت على تسرعها :

- على كلٍ، إن رؤية المجوهرات لا تعني شراءَها .

- بدون شك يا مولاتي ، ولكن نحن جئنا لإتمام واجب ، وهذا ما شجعنا على إزعاجك .

فقالت الملكة بدهشة :

- واجب !..

- نعم ، واجب يتعلق بذلك العقد الماسي الرائع ، الذي لم تتنازل جلالتك وتوافق على اقتنائه .

فصاحت ماري انطوانيت وهي تضحك :

- آه ! حسناً ... العقد ... ها نحن قد عدنا إليه !

فبقي بوهمير محتفظاً بجديته ، وأكملت الملكة تقول :

- الواقع أنه عقد جميل يا سيد بوهمير .

فأجاب بوسانج ببرودة :

- في غاية الروعة يا مولاتي ، وجلالتك وحدها هي الجديرة بلبسه .

فقالت الملكة بعد تنهدة خفيفة لم تفت السيدة دي لاموت :

- إلا أن ثمنه ... مليون ونصف ، أليس كذلك يا سيد بوهمير ؟

- نعم يا صاحبة الجلالة .

فتابعت الملكة تقول:

- وفي هذا الوقت الذي نعيش فيه، وحالة الشعب على ما هي عليه، ليس باستطاعة أي ملك أن يشتري عقداً بهذا المبلغ.

فقال بوهمير:

- إن تأدية الواجب تجاه جلالتك، هو الذي فرض علينا هذه الزيارة يا مولاتي. أما بيع العقد لجلالتك، فلم يعد وارداً، لأن العقد قد بيع.

فصاحت الملكة وهي تستدير:

- قد بيع!

- نعم يا صاحبة الجلالة.

- من اشتراه؟

- ذلك سرّ دوليّ يا مولاتي.

فضحكت ماري انطوانيت وقالت:

- سرّ دولي! شيء مضحك حقاً! ولكن ما لا يقوله الانسان، يكون في الغالب لا يستطيع أن يقوله، أليس كذلك يا سيد بوهمير؟

- مولاتي!

- أوه! سرّ دولي... على الملكة! خذ حذرك يا سيد

بوهمير ، فإن لم تطلعني على سرك ، سوف ينتزعه منك رجال السيد دي كروسن .

قالت الملكة هذا وأخذت تضحك وكأنها في جو مزاح ، معبرة بذلك عن رأيها الصريح بهذا السر المزعوم الذي منع السيدين بوهمير وبوسانج من كشف هوية الشخص الذي اشترى العقد .

فقال بوهمير برصانة :

– إن تصرفنا مع مولاتي ، يختلف عن تصرفنا مع زبائننا الآخرين . فنحن قد جئنا لنقول لجلالتك بأن العقد قد بيع ، وهو قد بيع فعلاً . وإذا كنا اضطررنا لكتمان إسم المشتري ، فلأن الصفقة قد تمت بسرية تامة ، وعلى أثر رحلة سفير موفد بصورة سرية .

فعندما سمعت الملكة كلمة سفير ، غيرت أسلوب مزاحها ، فاستدارت نحو السيدة دي لاموت وقالت لها :

– إن العجيب في السيد بوهمير ، هو مقدرته على تصديق ما جاء يقوله لي .

ثم عادت بوضعها الى ما كانت عليه ، وتابعت تقول :

– حسناً يا سيد بوهمير ، قل لي فقط اسم البلد ، من أين جاء هذا السفير ؟..

ثم ضحكت وأكملت مستدركة :

- لا ، هذا كثير ... يكفيني الحرف الأول من اسمه ، فما هو ؟

وأخذت ماري انطوانيت تضحك ضحكاً متواصلاً . فقال بوهمير بصوت يشبه الهمس ، وكأنه شاء أن يبعد سرّه ، على الأقل ، عن أذني السيدة دي لاموت :

- إنه سفير البرتغال .

بعد هذا الجواب الايجابي والصريح ، توقفت الملكة عن الضحك فجأة ، وقالت :

- سفير البرتغال ! ولكن ليس للبرتغال سفير هنا يا سيد بوهمير .

- لقد جاء على وجه السرعة يا مولاتي .

- إلى مكتبكما ... خفية ؟

- نعم يا مولاتي .

- من هو إذن ؟

- إنه السيد سوزا .

فصمتت الملكة لحظة ، ثم أذعنت للأمر الواقع وقالت :

- حسناً ! إن جلالة ملكة البرتغال تستحق هذا العقد الجميل ، فلا لزوم للكلام عليه بعد الآن .

فقال بوهمير :

- بالعكس يا مولاتي ، إن جلالتك سوف تتكرم بالسماح لي بالكلام عليه ...

ثم التفت نحو شريكه وأكمل : بالسماح لنا .

فانحنى بوسانج احتراماً ، وألقت الملكة نظرة على الكونتس وسألتها :

- هل شاهدت هذا العقد أيتها الكونتس ؟

- كلا يا مولاتي .

- إنه في غاية الروعة !.. ومن الخسارة أن يكون هذان السيدان لم يحملاه معهما .

فقال بوسانج بسرعة :

- ها هو يا سيدتي .

وسحب من قعر قبعته التي كان يتأبطها ، العلبة الصغيرة المسطحة التي تحتوي تلك الحلية ، فقالت الملكة :

- أنظري ، أنظري أيتها الكونتس ، فأنت امرأة يستهويها ذلك .

ثم ابتعدت قليلاً عن الإسكملة المصنوعة من الخزف الفاخر ليبسط عليها بوهمير العقد الماسي بشكل فني يتيح لأشعة الشمس المتسربة من النافذة أن تغمر حباته لتشعَّ بمختلف الألوان البراقة المدهشة .

وبعد أن أتمَّ بوهمير وضع العقد بالشكل الذي يرضيه، أطلقت جانّ صيحة إعجاب شديدة، لأنه في الواقع، لم يكن هناك أجمل ولا أروع من ذلك العقد الذي بدا كأنه لسان من نار بألوان تأخذ بمجامع القلوب.

واستمرت عينا جانّ دي لاموت شاخصتين في تموجات الألوان الساحرة وهي تصيح: «يا للروعة! يا للروعة!»، إلى أن قالت لها الملكة معتمدة الأسلوب الفلسفي:

- ولكن لا يخف عن بالك أن هذا العقد الذي باستطاعة يد واحدة أن تضمه في باطنها، ثمنه مليون ونصف المليون من الليرات.

إلا أن جانّ رأت في ازدراء الملكة شيئاً آخر لا يمتّ الى الازدراء بصلة... لذا قالت بعد إمعان الفكر ومن دون أن تفقد الأمل بإقناع الملكة:

- إن الصائغ على حقٍ فيما قال. فليس في العالم إلا ملكة جديرة بلبس هذا العقد، وهذه الملكة هي جلالتك.

فأجابت ماري انطوانيت:

- ومع ذلك، فجلالتي لن تلبسه!

فقال الصائغ:

- إن الواجب قضى علينا بأن لا نسمح بخروج هذا العقد من فرنسا، قبل أن نطرحه على قدمي جلالتك للتدليل على

بالغ أسفنا . فهذه الطُرفة التي تعرفها كل أوروبا وتتنافس عليها كل الملكات ، لن يسمح كبرياؤنا الوطني ببيعها لإحداهن ، إلا إذا رفضتها جلالتك مرة أخرى ، رفضاً قاطعاً وجازماً ونهائياً .

فأجابت الملكة :

- ولكن رفضي أعلنته وعرف به الشعب كافة ، وقد امتدحني كثيراً على حسن تصرفي .

فقال بوهمير :

- أوه سيدتي ! إذا كان الشعب قد راق له بأن تفضل جلالتك يختاً على عقد ، فإن الطبقة النبيلة ، وهي فرنسية أيضاً ، لن تجد في الأمر ما يدعو الى الدهشة ، إن اشترت ملكة فرنسا عقداً بعد أن اشترت يختاً .

فقالت ماري انطوانيت وهي تلقي نظرة أخيرة على علبة المجوهرات :

- دعنا من الكلام في هذا الموضوع .

فتنهَّدت جانّ ، كي تساعد تنهدة الملكة التي قالت :

- آه ! أنت تتنهدين أيتها الكونتس . ولكنك لو كنت مكاني ، لما فعلت غير ما فعلته أنا .

فدمدمت جانّ قائلة : لا أعلم ...

واستمرت تنظر الى العقد، فقالت لها الملكة:

- ألم تشبعي من النظر إليه؟

- لا يا سيدتي، لا، فحبذا لو يبقى دائماً أمام عينيَّ.

- إذن، إتركا هذه الفضولية تستمتع كفاية من منظر هذا العقد أيها السيدان، طالما أن النظر الى ماساته لا يقلل من قيمتها، وأن ثمنه سيبقى دائماً مليوناً ونصف المليون من الليرات، بكل أسف.

فلفتت عبارة «بكل أسف» نظر الكونتس، وثبت لديها بأن الملكة تتحرق على هذا العقد وترغب فيه، فقالت لها:

- ولكنَّ هذا العقد على عنقك يا مولاتي، ولو بمليون ونصف المليون، سيميت كل النساء حسداً منك، حتى ولو كانت هذه النساء في جمال وسحر كليوباتره وفينوس.

قالت الكونتس هذا القول وأخذت العقد من علبة المجوهرات وبسطته بمهارة فائقة على عنق الملكة الشبيه بالمرمر، فوجدت ماري انطوانيت نفسها، بلمحة عين، مغمورة بالفسفور والألوان البراقة، وقالت جانّ:

- أوه! كم أنت مهيبة وجليلة هكذا يا صاحبة الجلالة!

فتقدمت ماري انطوانيت بسرعة من إحدى المرايا، وأخذت تنظر إلى نفسها منذهلة!

لقد كان عنقها الرشيق الأملس شبيهاً بقضيب الزنبق المرتفع بفخر واعتزاز، وبريق الماسات في العقد البديع كأنه أشعة شموس طالعة من بين نهديها...

وأمام دهشة الملكة التي ما بعدها دهشة، تجرأت جانّ وكشفت عن كتفيها بشكل جعل الصف الأخير من العقد يهبط إلى صدرها اللؤلؤي، فبدت ماري انطوانيت في أروع بهائها وتألقها، بدت امرأة لو شاهدها العشاق والرعايا على حدٍّ سواء لخرّوا أمامها ساجدين.

فنسيت الملكة نفسها أمام صيحات الإعجاب... ثم شعرت بالرهبة، فقالت وهي تحاول نزع العقد من عنقها:

- كفاية! كفاية!

فصاح بوهمير:

- لقد لامس العقد جيدك يا صاحبة الجلالة، فلم يعد جائزاً أن تلبسه امرأة أخرى...

فقالت الملكة بحزم:

- مستحيل! مستحيل! لن أرتكب هذه الغلطة.

فقال بوهمير للملكة همساً:

- خذي الوقت الكافي يا صاحبة الجلالة كي تتأكدي من صواب الفكرة، ونحن سنرجع غداً.

فصاحت الملكة :

- لا ، لا ، خذ ! خذ ! ضع العقد في العلبة بسرعة ! بسرعة !

- ربما سها عن بال جلالتك ، بأن هذا العقد ثروة دائمة . فبعد مئة سنة ، تبقى قيمته كما هي اليوم .

فقالت الملكة للكونتس ، مكرهة نفسها على التبسم :

- أعطني مليوناً ونصف المليون أيتها الكونتس ، وسنرى فيما بعد .

فصاحت الكونتس :

- أوه ! لو كنت أملك هذا المبلغ ...

اكتفت الكونتس بهذا الجواب المقتضب ، وخنقت في حنجرتها العبارات الطويلة التي جالت في خاطرها .

أما بوهمير وبوسانج فقد ارتأيا أن يتركا حبات الماس تتألق ربع ساعة أخرى أمام عيني الملكة قبل أن يقفلا العلبة عليها .

وبقيت الملكة صامتة ... ترنو إلى العقد ويكاد لعابها يسيل !

ووفق ما اعتادت عليه في فترات الغم والغيظ ، تناولت كتاباً وأخذت تتصفحه دون أن تقرأ ...

فاغتنم الصائغان الفرصة ليقولا لها :

- هل رفضت جلالتك ؟

فتنهدت الملكة من أعماق قلبها وأجابت :

– نعم ... ونعم !

فحمل إذ ذاك الصائغان علبة المجوهرات وخرجا.

وبعد خروجهما، جلست ماري انطوانيت ساهمة صامتة، وقد لاحظت جان بأن رجلها كانت تهتز فوق وسادة المخمل، فثبت لديها بأن الملكة تتألم ...

وفجأة، نهضت ماري انطوانيت ودارت في غرفتها دورة، ثم توقفت أمام جانّ وقالت لها:

– يبدو أن الملك لن يأتي أيتها الكونتس، فلنؤجل التماسنا الصغير إلى مقابلة أخرى.

فحيَّت جانّ بكل احترام وتراجعت حتى الباب.

ثم أضافت الملكة برفق:

– ولكن سوف أفكر بك.

فطبعت جانّ شفتيها على يدها وكأنها تودعها قلبها، وخرجت تاركة ماري انطوانيت فريسة الحزن والتيه.

ولما توارت، قالت في نفسها:

«إن حزن الملكة دليل عجزها، وتيهها دليل تحرقها، ولكنها الملكة !.. أوه ! لا، إنها امرأة !»

انتهى الجزء الأول من رواية «عقد الملكة»

ويليه الجزء الثاني والأخير وفيه المفاجآت المدهشة

عِقْدُ المَلِكَة

تُعدُّ رواية «عقد الملكة» من أشهر الروايات التاريخية والغرامية. فأحداث هذه الرواية الشيِّقة جداً، تدور حول عصر وحياة الملكة الفاتنة ماري انطوانيت التي قطعت الثورة الفرنسية رأسها الجميل بواسطة المقصلة. أما قصة العقد فيها، فهي قصة غرام جنوني بالملكة ماري انطوانيت من قبل أمير كردينال... وكانت وراء هذا العقد والغرام كونتس مخادعة من العائلة المالكة. أما الملكة التي وقعت في خديعة الكونتس المذكورة، فقد أُغرمت هي الأخرى بأحد فرسان الملك الذي بادلها الغرام بأشد منه، لكن الملكة بقيت محافظة على مكانتها كملكة فرنسا، والفارس بقي متهيباً الموقف كأحد رعايا زوجها لويس السادس عشر.

لذلك كانت العلاقة الغرامية بين الملكة والفارس علاقة مأساوية مثيرة، نترك للقارئ ان يكتشف تفاصيلها، كما نترك له ان يكتشف سرَّ «عقد الملكة» وما رافقه من محاكمات أقامت فرنسا وأقعدتها في ذلك العصر...